

الجمهورية العربية المتحدة
وزارة الثقافة والإرشاد القومي
دار الكتب

المنايع الحكماء القرائين

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء الثالث عشر



القاهرة
مطبعة دار الكتب
١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م

الجمهورية العربية المتحدة

وزارة الثقافة والإرشاد القومي

دار الكتب

المنايع الحكماء من القرن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القسبي

الجزء الثالث عشر



القاهرة

مطبعة دار الكتب

١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م

بيان

تم تحقيق هذا الجزء من تفسير القرطبي وهو الثالث عشر
على الأصول الاتية :

- | | | |
|-------|-------------|--|
| (١) | نسخة رقم ٩٥ | تفسير المرموز إليها بحرف ا |
| (٢) | » » ٢٦٨ | » » » » ب |
| (٣) | » » ٢٨٣ | » » » » ج |
| (٤) | » » ١ | » » » » ح |
| (٥) | » » ٢٥٨ | بالمكتبة الأزهرية المرموز إليها بحرف ز |
| (٦) | » » ٥١٣ | تفسير المرموز إليها بحرف ش |
| (٧) | » » ٣١٨ | » » » » ط |
| (٨) | » » ٩٣ | » » » » ك |

وقد وصفت هذه النسخ جميعها في مقدمة الجزء الثالث (الطبعة الثانية)

حققه

أبو إسحاق إبراهيم أطفيش

فهرس الجزء الثالث عشر

تفسير سورة الفرقان

صفحة

- ١ تفسير قوله تعالى : « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ... » الآيات
تفسير قوله تعالى : « وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ... »
الآية . هذه الآية أصل فى تناول الأسباب . أكل الطعام ضرورة الخلق .
١٢ الكلام على الأسواق . بعض الناس فتنة لبعض
تفسير قوله تعالى : « وعادا وثمود وأصحاب الرس ... » الآية . معنى الرس فى كلام
العرب . الأقوال فى أصحاب الرس
٣٢ تفسير قوله تعالى : « وأنزلنا من السماء ماء طهورا » . مطلب فى المياه وأحكامها ...
٣٩ تفسير قوله تعالى : « وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا ... » الآية .
بيان المراد من الماء . معنى النسب والصهر
٥٩ تفسير قوله تعالى : « والذين لا يشهدون الزور ... » الآية . الكلام على شهادة الزور
٧٩

تفسير سورة الشعراء

- ٨٧ تفسير قوله تعالى : « طسم . تلك آيات الكتاب المبين ... » الآيات
١٠٢ تفسير قوله تعالى : « فأخرجناهم من جنات وعيون » . الكلام على النيل وخلق جنة
تفسير قوله تعالى : « وأنذر عشيرتك الأقربين » . بيان الحكمة فى اختصاص العشيرة
بالإنذار . فى الآية دليل على أن القرب فى الأنساب ، لا ينفع مع البعد
فى الأسباب
١٤٣ تفسير قوله تعالى : « والشعراء يتبعهم الغاؤون » بيان . ما يجوز إنشاده من الشعر
وما لا يجوز
١٤٥

تفسير سورة النمل

- ١٥٤ تفسير قوله تعالى : « طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين ... » الآيات
تفسير قوله تعالى : « وورث سليمان داود ... » الآية . بيان المراد من الوراثة .
١٦٤ قصص عن منطق الطير

صفحة

- تفسير قوله تعالى : « وحشر لسليمان جنوده ... » الآية . بيان معنى الحشر . مقدار
 ١٦٧ جند سليمان عليه السلام . في الآية دليل على اتخاذ الإمام والحكام ...
 تفسير قوله تعالى : « حتى إذا أتوا على وادى النمل ... » الآيات . قصة سيدنا سليمان
 ١٦٩ عليه السلام والنملة . حكم قتل النمل . التبسم ضحك الأنبياء ...
 تفسير قوله تعالى : « وتفقد الطير فقال مالى لأرى الهدهد ... » الآيات . سبب
 تفقد الطير . الآية دليل على تفقد الإمام أحوال رعيته . العقوبة على قدر الذنب ،
 الأنبياء لا تعلم الغيب . المرأة لا تكون خليفة . على الإمام أن يقبل عذر رعيته
 إرسال الكتب إلى المشركين جائز ...
 ١٧٦ تفسير قوله تعالى : « قالت يا أيها الملا إني ألقى إلى كتاب كريم ... » الآيات .
 وصفت الكتاب بالكريم غاية الوصف . رد الكتاب كرد السلام . بدء الكتب
 والرسائل بالبسملة ...
 ١٩١ تفسير قوله تعالى : « قالت يا أيها الملا أفوتنى فى أمرى ... » الآيات . فى الآية
 دليل على صحة المشاورة ...
 ١٩٤ تفسير قوله تعالى : « وإنى مرسله إليهم بهدية ... » الآية . هدية بلقيس إلى
 سيدنا سليمان عليه السلام . قبول الهدية والإثابة عليها . الهدية مندوب إليها ...
 ١٩٦ تفسير قوله تعالى : « أمن يحيب المضطر إذا دعاه ... » الآية . الأقوال فى المضطر
 وإجابة الله لدعائه ...
 ٢٢٣ تفسير قوله تعالى : « وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم ... »
 الآية . اختلاف العلماء فى معنى وقع القول ، وفى الدابة ...
 ٢٣٤ تفسير قوله تعالى : « ويوم ينفخ فى الصور ... » الآيات . الكلام على الصور .
 عدد النفخ ...
 ٢٣٩

تفسير سورة القصص

- تفسير قوله تعالى : « طسم . تلك آيات الكتاب المبين ... » الآيات ...
 ٢٤٧ تفسير قوله تعالى : « ولما ورد ماء مدين ... » الآيات . قصة سيدنا موسى عليه
 السلام فى مدين . مطلب فى النكاح والتزويج ...
 ٢٦٧

تفسير سورة العنكبوت

- ٣٢٣ تفسير قوله تعالى : « أَلَمْ . أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا ... » الآيات
- تفسير قوله تعالى : « أَتَلَّ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ... » الآية .
- بيان معنى « أقم الصلاة » . الأقوال في نهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر .
- ٣٤٧ بيان المراد من ذكر الله في الآية
- تفسير قوله تعالى : « وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ... » الآيات .
- ٣٥٠ الكلام على أن الآية محكمة أو منسوخة
- تفسير قوله تعالى : « وَمَا كُنْتَ لَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ ... » الآية . الكلام على أتمية
- ٣٥١ النبي صلى الله عليه وسلم
- تفسير قوله تعالى : « وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ... » الآية . الأقوال في معنى
- ٣٦٤ الجهاد في الآية

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الفرقان

مكية كلها في قول الجمهور . وقال ابن عباس وقتادة : إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة ، وهي : « وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ » إلى قوله : « وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا » . وقال الضحاك : هي مدنية ، وفيها آيات مكية ، قوله : « وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ » الآيات .

ومقصود هذه السورة ذكر موضع عظم القرآن ، وذكر مطاعن الكفار في النبوة والرد على مقالاتهم [وجها لاتهم^(١)] ، فن جملتها قولهم : إن القرآن آفراه مجد ، وإنه ليس من عند الله .

قوله تعالى : تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ يَتَّخِذُ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ ﴾ « تَبَارَكَ » اختلف في معناه ، فقال الفراء : هو في العربية و « تقدس » واحد ، وهما للعظمة . وقال الزجاج : « تَبَارَكَ » تفاعل من البركة . قال : ومعنى البركة الكثرة من كل ذي خير . وقيل : « تَبَارَكَ » تعالى . وقيل : تعالى عطاؤه ، أي زاد وكثر . وقيل : المعنى دام وثبت إنعامه . قال النحاس : وهذا أولها في اللغة والأشتقاق ، من برك الشيء إذا ثبت ، ومنه برك الجمل والطير على الماء ، أي دام

(١) من ك .

وثبت . فأما القول الأول فمخلط ؛ لأن التقديس إنما هو من الطهارة وليس من ذا في شيء .
قال الثعلبي : ويقال تبارك الله ، ولا يقال متبارك ولا مبارك ؛ لأنه ينتهي في أسمائه وصفاته
إلى حيث ورد التوقيف . وقال الطرمّاح :

تَبَارَكَتْ لَا مُعْطٍ لشيءٍ مِنْعَتِهِ * وليس لما أُعْطِيَ ياربُّ مانع

وقال آخر :

* تَبَارَكَتْ مَا تَقْدِرُ يَقَعُ وَلَكَ الشُّكْرُ *

قلت : قد ذكر بعض العلماء في أسمائه الحسنی « المبارك » وذكرناه أيضا في كتابنا .
فإن كان وقع اتفاق على أنه لا يقال فيسلم للإجماع ، وإن كان وقع فيه اختلاف فكثير من
الأسماء اختلف في عده ؛ كالدهر وغيره . وقد نهينا على ذلك هنالك ، والحمد لله .

و « الفرقان » القرآن . وقيل : إنه اسم لكل مُنْزَل ؛ كما قال : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَرُونَ
الْفُرْقَانَ » . وفي تسميته فرقانا وجهان : أحدهما — لأنه فترق بين الحق والباطل ، والمؤمن
والكافر . الثاني — لأن فيه بيان ما شرع من حلال وحرام ؛ حكاه النقاش . ﴿ عَلَى عَبْدِهِ ﴾
يريد محمدا صلى الله عليه وسلم . ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ اسم « يَكُونُ » [فيها] مضمر يعود على « عَبْدِهِ »
وهو أولى لأنه أقرب إليه . ويجوز أن يكون يعود على « الفرقان » . وقرأ عبد الله بن الزبير :
« عَلَى عِبَادِهِ » . ويقال : أنذر إذا خُوف ؛ وقد تقدم في أول « البقرة » . والنذير : المحذّر من
الهلاك . الجوهرى : والنذير المنذر ، والنذير الإنذار . والمراد بـ « الْعَالَمِينَ » هنا الإنس
والجن ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد كان رسولا إليهما ، ونذيرا لهما ، وأنه خاتم الأنبياء ،
ولم يكن غيره عام الرسالة إلا نوح فإنه عمّ برسالته جميع الإنس بعد الطوفان ، لأنه بدأ به الخلق .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ عظم تعالى نفسه . ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾
نزه سبحانه وتعالى نفسه عما قاله المشركون من أن الملائكة أولاد الله ؛ يعنى بنات الله سبحانه
وتعالى . وعما قالت اليهود : عزيز ابن الله ؛ جلّ الله تعالى . وعما قالت النصارى : المسيح
ابن الله ؛ تعالى الله عن ذلك . ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴾ كما قال عبدة الأوثان .

(وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ) لا كما قال المجوس والنَّوِيَّة : إن الشيطان أو الظلمة يخلق بعض الأشياء . ولا كما يقول من قال : للخلق قدرة الإيجاد . فالآية ردُّ على هؤلاء . (فَقَدْرُهُ تَقْدِيرًا) أى قدَّر كل شيء مما خلق بحكمته على ما أراد ، لاعتباره سهوة وغفلة ، بل جرت المقادير على ما خلق الله إلى يوم القيامة وبعد القيامة ، فهو الخالق المقتدر^(١) ، وإياه فاعبدوه .

قوله تعالى : (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً) ذكر ما صنع المشركون على جهة التعجيب في اتَّخَذَهُمُ الْآلِهَةَ ، مع ما أظهر من الدلالة على وحدانيته وقدرته . (لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا) يعنى الآلهة . (وَهُمْ يُخْلَقُونَ) لما اعتقد المشركون فيها أنها تضر وتنفع ، عبر عنها كما يعبر عما يعقل . (وَلَا يَمْلِكُونَ لِنَفْسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا) أى لا دفع ضرر وجلب نفع ، فحذف المضاعف . وقيل : لا يقدرُونَ أن يضرُوا أنفسهم أو ينفعوها بشيء ، ولا أن يعبدَهُمْ ، لأنها جمادات . (وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا) أى لا يُميتُونَ أحداً ، ولا يحيونه ، والنشور : الإحياء بعد الموت ، أنشرا الله الموتى فنشروا . وقد تقدَّم . وقال الأعشى :

حتى يقول الناسُ مما رأوا * يا عجباً لليتِ الناسِـرِ

قوله تعالى : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخِرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْهًا وَزُورًا ﴿١﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْنَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٣﴾

قوله تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا) يعنى مشرك قريش . وقال ابن عباس : القائل منهم ذلك النضر بن الحرث ، وكذا كل . ١ . فى القرآن فيه ذكر الأساطير . قال محمد بن إسحق : وكان مؤذيا للنبي صلى الله عليه وسلم . (إِنْ هَذَا) يعنى القرآن . (إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ) أى كذب آخذه . (وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخِرُونَ) يعنى اليهود ، قاله مجاهد . وقال ابن عباس :

(١) فى ك : المقتدر .

(٢) راجع ج ٧ ص ٢٢٩ .

المراد بقوله « قَوْمٌ آخَرُونَ » أبو فكيهة مولى بنى الحضرمي وعداس وجبر، وكان هؤلاء الثلاثة من أهل الكتاب . وقد مضى في « النحل » ^(١) ذكرهم . ﴿ فَقَدْ جَاءُوا ظُلُمًا ﴾ أى بظلم ، وقيل : المعنى فقد أتوا ظلمًا . ﴿ وَزُورًا . وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ قال الزجاج : واحد الأساطير أسطورة ، مثل أحذوتة وأحاديث . وقال غيره : أساطير جمع أسطار ، مثل أقوال وأقويل . ﴿ أَكْتَنَبَهَا ﴾ يعنى عجا . ﴿ فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ ﴾ أى تلقى عليه وتقرأ . ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ حتى تحفظ . و « تملئ » أصله تملأ ، فأبدلت اللام الأخيرة ياء من التضعيف : كقولهم : تقضى البازي ، وشبهه .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى قل يا محمد أنزل هذا القرآن الذى يعلم السر ، فهو عالم الغيب ، فلا يحتاج إلى معلم . وذكر « السر » دون الجهر ، لأنه من علم السر فهو فى الجهر أعلم . ولو كان القرآن مأخوذاً من أهل الكتاب وغيرهم لما زاد عليها ، وقد جاء بفنون تخرج عنها ، فليس مأخوذاً منها . وأيضاً ولو كان مأخوذاً من هؤلاء لتمكن المشركون منه أيضاً كما تمكّن محمد صلى الله عليه وسلم ، فهلا عارضوه فبطل اعتراضهم من كل وجه . ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ يريد غفوراً لأوليائه رحيماً بهم .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ۖ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ رَجِسَةٌ يُأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ۝٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ .
فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : « وَقَالُوا » ذكر شيئاً آخر من مطاعنهم . والضمير فى « قَالُوا » لقريش ، وذلك أنهم كان لهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلس مشهور ، وقد تقدم

في « سبحان »^(١) . ذكره ابن إسحق في السيرة وغيره . مضمنه — أن سادتهم عتبة بن ربيعة وغيره اجتمعوا معه فقالوا : يا محمد ! إن كنت تحب الرياسة وليناك علينا ، وإن كنت تحب المال جمعنا لك من أموالنا ؛ فلما أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك رجعوا في باب الاحتجاج معه فقالوا : ما بالك وأنت رسول الله تأكل الطعام ، وتقف بالأسواق ! فعبروه بأكل الطعام ؛ لأنهم أرادوا أن يكون الرسول ملكاً ، وعبروه بالمشي في الأسواق حين رأوا الأكلاسة والقيصرة والملوك الجبابرة يرفعون عن الأسواق ، وكان عليه السلام يخالطهم في أسواقهم ، ويأمرهم وينهاهم ؛ فقالوا : هذا يطلب أن يملك علينا ، فإله يخالف سيرة الملوك ؛ فاجابه الله بقوله ، وأنزل على نبيه : « وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَبَاغِلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ » فلا تغتم ولا تحزن ، فإنها شكاة ظاهر عنك عارها .

الثانية — دخول الأسواق مباح للتجارة وطلب المعاش . وكان عليه السلام يدخلها لحاجة ، ولتذكرة الخلق بأمر الله ودعوته ، ويعرض نفسه فيها على القبائل ، لعل الله أن يرجع بهم إلى الحق . وفي البخاري في صفته عليه السلام : « ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق » وقد تقدم في « الأعراف »^(٢) . وذكر السوق مذكور في غير ما حديث ، ذكره أهل الصحيح . وتجارة الصحابة فيها معروفة ، وخاصة المهاجرين ؛ كما قال أبو هريرة : وإن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصَّفْقُ بالأسواق ؛ خرج به البخاري . وسيأتي لهذه المسئلة زيادة بيان في هذه السورة إن شاء الله .

قوله تعالى : ﴿ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ أي هــلا . ﴿ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾ جواب الاستفهام . ﴿ أَوْ يُنْزِلَ ﴾ في موضع رفع ، والمعنى : أو هـلا يلقى ﴿ إِلَيْهِ كَثْرًا ﴾ ﴿ أَوْ ﴾ هـلا ﴿ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ ﴿ يَأْكُلُ ﴾ بالياء قرأ المدنيون وأبو عمرو وعاصم . وقرأ سائر الكوفيين بالنون ، والقراءتان حسنتان تؤيدان عن معنى ، وإن كانت القراءة بالياء أبين ؛ لأنه

(٢) راجع ج ٧ ص ٢٩٩ .

(١) راجع ج ١٠ ص ٣٢٨ .

(٣) الصفح : الثبايع .

قد تقدم ذكر النبي صلى الله عليه وسلم وحده فإن يعود الضمير عليه أبين ؛ ذكره النحاس .
 ﴿ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾ تقدم في « سبحان » والقاتل عبيد الله
 ابن الزبيري فيما ذكره المساردي .

قوله تعالى : أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ
 سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ
 تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ ﴾ أى ضربوا لك هذه الأمثال ليتوصلوا
 إلى تكذيبك . ﴿ فَضَلُّوا ﴾ عن سبيل الحق وعن بلوغ ما أرادوا . ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾
 إلى تصحيح ما قالوه فيك .

قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ ﴾ شرط ومجازاة،
 ولم يدغم « جَعَلَ لَكَ » لأن الكلمتين منفصلتان ، ويجوز الإدغام لأجتماع المثلين . ﴿ وَيَجْعَلُ
 لَكَ ﴾ في موضع جزم عطفًا على موضع « جعل » . ويجوز أن يكون في موضع رفع مقطوعا
 من الأول . وكذلك قرأ أهل الشام . ويروى عن عاصم أيضا : « وَيَجْعَلُ لَكَ » بالرفع ؛
 أى وسيجعل لك في الآخرة قصورا . قال مجاهد : كانت قريش ترى البيت من حجارة قصرا
 كأنها ما كان . والقصر في اللغة الحبس ، وسمى القصر قصرا لأن من فيه مقصور عن أن يوصل
 إليه . وقيل : العرب تسمى بيوت الطين القصر . وما يتخذ من الصوف والشعر البيت .
 حكاه القشيري . وروى سفيان عن حبيب بن أبي ثابت عن خيثمة قال : قيل للنبي صلى الله
 عليه وسلم : إن شئت أن نعطيك خزائن الدنيا ومفاتيحها ولم يعط ذلك من قبلك ولا يعطاه
 أحد بعدك ، وأيس ذلك بناقصك في الآخرة شيئا ؛ وإن شئت جمعنا لك ذلك في الآخرة ؛
 فقال : « يجمع ذلك لي في الآخرة » فأنزل الله عز وجل : « تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا

مِنْ ذَلِكَ جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ فُصُورًا ۝ و يروى أن هذه الآية أنزلها
 رضوان خازن الجنان إلى النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وفي الخبر : إن رضوان لما نزل سلم على النبي
 صلى الله عليه وسلم ؛ ثم قال : يا محمد ! رب العزة يقرئك السلام ، وهذا سَفَطٌ ^(١) — فإذا سَفَطَ
 من نور يتلألأ — يقول لك ربك : هذه مفاتيح خزائن الدنيا ، مع أنه لا ينقص مالك في الآخرة ^(٢)
 مثل جناح بعوضة ؛ فنظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى جبريل كالمستشير له ؛ فضرب جبريل
 بيده الأرض يشير أن تواضع ؛ فقال : ” يارضوان لا حاجة لي فيها الفقير أحب إلى وأن
 أكون عبدا صابرا شكورا “ . فقال رضوان : أصابت ! الله لك . وذكر الحديث . ^(٣)

قوله تعالى : بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ^ط وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾
 إِذَا رَأَوْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا
 مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ
 ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ﴾ يريد يوم القيامة . ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ
 سَعِيرًا ﴾ يريد جهنم تنطلق عليهم . ﴿ إِذَا رَأَوْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ أى من مسيرة خمسمائة عام .
 ﴿ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا ﴾ قيل : المعنى إذا رأتهم جهنم سمعوا لها صوت التغيظ عليهم .
 وقيل : المعنى إذا رأتهم خزائنها سمعوا لهم تغيظا وزفيرا حرصا على عذابهم . والأول أصح ؛
 لما روى مرفوعا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” من كذب على متعمدا فليتبوأ
 بين عيني جهنم مقعدا “ قيل : يا رسول الله ! ولها عينان ؟ قال : ” أما سمعتم الله عز وجل
 يقول : « إِذَا رَأَوْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا » يخرج عنق من النار له عينان
 تبصران ولسان ينطق فيقول وكُلت بكل من جعل مع الله إلها آخر فلهو أبصر بهم من الطير
 بحب السمسم فيلتهقته “ في رواية ” فيخرج عنق من النار فيلتهق الكفار لقطط الطائر حب

(١) السفط : الذى يعى فيه الطيب وما أشبهه من أدوات النساء . وقيل : كالبواقي . وفى ك : سوط .
 وهو تحريف . (٢) فى ك : بمالك . (٣) فى ك : أصاب الله لك .

السَّمسم“ ذكره رَزِين في كتابه ، وصححه آبن العربى في قبسه ، وقال : أى تفصلهم عن الخلق في المعرفة كما يفصل الطائر حب السَّمسم من التربة . وخرجه الترمذى من حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . ”يُخرجُ عُنق من النار يوم القيامة له عينان تبصران وأذنان تسمعان ولسان ينطق يقول إني وُكِّلت بثلاث بكل جَبَّار عنيد وبكلّ من دعا مع الله إلها آخر وبالمصوّرين“ . وفي الباب عن أبى سعيد قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب صحيح . وقال الكلبي : سمعوا لها تغيظا كتغيظ بنى آدم وصوتها كصوت الخمار . وقيل : فيه تقديم وتأخير ، سمعوا لها زفيرا وعلّموا لها تغيظا . وقال قطرب : التغيظ لا يسمع ، ولكن يرى ، والمعنى : رأوا لها تغيظا وسمعوا لها زفيرا ، كقول الشاعر :

ورأيت زوجك في السَّوْغَى * مُتَقَلِّداً سَيْفًا ورُحْمًا^(١)

أى وحاملاً رَحْمًا . وقيل : « سَمِعُوا لَهَا » أى فيها ، أى سمعوا فيها تغيظا وزفيرا للعذّيين . كما قال تعالى : « لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ^(٢) » و « فى واللام » يتقاربان ، تقول : أفعل هذا فى الله والله .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ ﴾ قال قتادة : ذكر لنا أن عبد الله كان يقول : إن جهنم لتضيق على الكافر كتضيق الزج على الرمح ، ذكره آبن المبارك فى رقائقه . وكذا قال آبن عباس ، ذكره الثعلبى والفشّيرى عنه ، وحكاها الماوردى عن عبد الله بن عمرو . ومعنى « مُّقَرَّنِينَ » مكّثّفين ، قاله أبو صالح . وقيل : مصفدين قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم فى الأغلال . وقيل : قرنوا مع الشياطين ، أى قرن كل واحد منهم إلى شيطانه ، قاله يحيى بن سلام . وقد مضى هذا فى « إبراهيم » وقال عمرو بن كلثوم :

فَأَبُوا بِالنَّهَابِ وَبِالسَّبَايَا * وَأُتِنَا بِالْمَالُوكِ مُّقَرَّرِينَ^(٣)

﴿ دَعُوا هَٰذَا لَكَ تُبُورًا ﴾ أى هلاكاً ، قاله الضحاك . آبن عباس : ويلا . وروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : ”أول من يقوله إبليس وذلك أنه أول من يكسّى حلة من النار

(١) كذا فى الأصول وهو الصواب . وفى المطبوع : الورى . (٢) راجع ج ٩ ص ٩٤ و ٣٨٤ .

(٣) الزج (بالضم) : الحديدة التى فى أسفل الرمح . (٤) الرواية فى البيت : « مصفدين » .

فتوضع على حاجبيه ويسحبها من خلفه وذريته من خلفه وهو يقول واشبورا . وانتصب على المصدر ، أى ثبنا ثبورا ؛ قاله الزجاج . وقال غيره : هو مفعول به .

قوله تعالى : ﴿ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾ فإن هلاككم أكثر من أن تدعوا مرة واحدة . وقال : ثبورا لأنه مصدر يقع للقليل والكثير فلذلك لم يجمع ؛ وهو كقولك : ضربته ضربا كثيرا ، وقعد قعودا طويلا . ونزلت الآيات في ابن خطل وأصحابه . قوله تعالى : قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ ۖ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ . إن قيل : كيف قال « أَذَلِكَ خَيْرٌ » ولا خير في النار ؛ فالجواب أن سيئويه حكى عن العرب : الشقاء أحب إليك أم السعادة ، وقد علم أن السعادة أحب إليه . وقيل : ليس هو من باب أفعل منك ، وإنما هو كقولك : عنده خير . قال النحاس : وهذا قول حسن ؛ كما قال :
* فشر كما للخير كما الفداء *

قيل : إنما قال ذلك لأن الجنة والنار قد دخلتا في باب المنازل ؛ فقال ذلك لتفاوت ما بين المنزلتين . وقيل : هو مردود على قوله : « تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَمَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ » الآية . وقيل : هو مردود على قوله : « أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَذِبًا أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا » . وقيل : إنما قال ذلك على معنى علمكم واعتقادكم أيها الكفار ؛ وذلك أنهم لما كانوا يعملون عمل أهل النار صاروا كأنهم يقولون إن في النار خيرا .

قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ﴾ أى من النعيم . ﴿ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ﴾ قال الكلبي : وعد الله المؤمنين الجنة جزاء على أعمالهم ، فسأوه ذلك الوعد فقلوا : « رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رَسُولِكَ » . وهو معنى قول ابن عباس . وقيل : إن الملائكة تسأل لهم

(١) هو حسان بن ثابت — رضى الله عنه — يمدح النبي صلى الله عليه وسلم ويهجوا باسفيان ، وصدر البيت : * أتهجوه ولست له بكف . * (٢) راجع ج ٤ ص ٣١٧ .

الجنة ؛ دأله قوله تعالى : « رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ » الآية . وهذا قول محمد بن كعب القرظي . وقيل : معنى « وَعَدًا مَسْئُولًا » أى واجبا وإن لم يكن يسأل كالدين ؛ حكى عن العرب : لا عطيتك ألفا . وقيل : « وَعَدًا مَسْئُولًا » يعنى أنه واجب لك فتسأله . وقال زيد بن أسلم : سألو الله الجنة في الدنيا ورجعوا إليه بالدعاء ، فأجابهم في الآخرة إلى ما سألوا وأعطاهم ما طلبوا . وهذا يرجع إلى القول الأول .

قوله تعالى : وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَّاتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَعَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمِ مِّنْكُمْ نَذِقْهُ نَذَابًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾

قوله تعالى : (وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ) قرأ ابن محيصن وحيد وابن كثير وحفص ويعقوب وأبو عمرو في رواية الدورى : « يحشرهم » بالياء . واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ لقوله في أول الكلام : « كَانَ عَلَى رَبِّكَ » وفي آخره « أَأَنْتُمْ أَضَلَّاتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ » . الباقر بالنون على التعظيم . (وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) من الملائكة والإنس والجن والمسيح وعزير ؛ قاله مجاهد وابن جريج . الضحاك وعكرمة : الأصنام . (فَيَقُولُ) قراءة العامة بالياء وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم . وقرأ ابن عامر وأبو حيوة بالنون على التعظيم . (أَأَنْتُمْ أَضَلَّاتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ) وهذا استفهام توبيخ للكفار . (قَالُوا سُبْحَانَكَ) أى قال المعبودون من دون الله سبحانه ؛ أى تنزيها لك (مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ) . فإن قيل : فإن كانت الأصنام التى تعبد تحشر فكيف تنطق وهى جماد ؟ قيل له : ينطقها الله تعالى يوم القيامة كما ينطق الأيدي والأرجل . وقرأ الحسن وأبو جعفر : « أَنْ نَتَّخِذَ » بضم النون وفتح الخاء على الفعل المجهول . وقد تكلم فى هذه القراءة النحويون ؛ فقال أبو عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر :

لا يجوز « تُتَّخَذُ » . وقال أبو عمرو : لو كانت « تُتَّخَذُ » لحذفت « مِن » الثانية فقلت : أن تُتَّخَذَ من دونك أولياء . كذلك قال أبو عبيدة ، لا يجوز « تُتَّخَذُ » لأن الله تعالى ذكر « مِن » مرتين ، ولو كان كما قرأ لقال : أن تُتَّخَذَ من دونك أولياء . وقيل : إن « مِن » الثانية صلة قال النحاس : ومثل أبي عمرو على جلالته ومجمله يستحسن ما قال ؛ لأنه جاء بيينة . وشرح ما قال أنه يقال : ما آتخذت رجلا وليا ؛ فيجوز أن يقع هذا للواحد بعينه ؛ ثم يقال : ما آتخذت من رجل وليا فيكون نفيا عاما ، وقولك « وليا » تابع لما قبله فلا يجوز أن تدخل فيه « مِن » لأنه لا فائدة في ذلك . ﴿ وَلَيْكُنْ مَتَّعْتُهُمْ وَأَبَاءَهُمْ ﴾ أى في الدنيا بالصحة والغنى وطول العمر بعد موت الرسل صلوات الله عليهم . ﴿ حَتَّى نُسْأَلَ الدَّكَرَ ﴾ أى تركوا ذكرك فأشركوا بك بطرا وجهلا فعبدونا من غير أن أمرناهم بذلك . وفي الذكر قولان : أحدهما — القرآن المنزل على الرسل ؛ تركوا العمل به ؛ قاله ابن زيد . الثاني — الشكر على الإحسان إليهم والإيمان عليهم . إنهم ﴿ كَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴾ أى هلكي ؛ قاله ابن عباس . مأخوذ من البوار وهو الهلاك . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه وقد أشرف على أهل حمص : يا أهل حمص ! هلم إلى أخ لكم ناصح ، فلما اجتمعوا حوله قال : ما لكم لا تستحيون ! تبسئون ما لا تسكنون ، وتجمعون ما لا تأكلون ، وتأملون ما لا تدركون ، إن من كان قبلكم بنوا مشيدا^(١) وجمعوا عبيدا ، وأملوا بعيدا ، فأصبح جمعهم بورا ، وآمالهم غرورا ، ومساكنهم قبورا . فقوله : « بُورًا » أى هلكي . وفي خبر آخر : فأصبحت منازلهم بورا ؛ أى خالية لاشيء فيها . وقال الحسن : « بُورًا » لا خير فيهم . مأخوذ من بوار الأرض ، وهو تعطيلها من الزرع فلا يكون فيها خير . وقال شهر بن حوشب : البوار الفساد والكساد ؛ مأخوذ من قولهم : بارت السلعة إذا كسدت كساد الفاسد ؛ ومنه الحديث " نعوذ بالله من بوار الأيام " . وهو اسم مصدر كالزور يستوى فيه الواحد والاثنان والجمع والمذكر والمؤنث . قال ابن الزبيري :

يا رسول المليك إن لساني * راتيق ما فتقت إذ أنا بور

إذ أبارى الشيطان في سنن الغ * بي ومن مال ميسله مئبور

(١) فيك : شديدا . والمعنى : قويا . محققه .

وقال بعضهم : الواحد باثروالجمع بور . كما يقال : عائذ وعوذ، وهائد وهود . وقيل : « بُورًا » عمياً عن الحق .

قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ ﴾ أى يقول الله تعالى عند تبرى المعبودين : « فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ » أى فى قولكم إنهم آلهة . ﴿ فَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ يعنى الآلهة صرف العذاب عنكم ولا نصركم . وقيل : فما يستطيع هؤلاء الكفار لما كذبهم المعبودون ﴿ صَرَفًا ﴾ للعذاب ﴿ وَلَا نَصْرًا ﴾ من الله . وقال ابن زيد : المعنى فقد كذبكم أيها المؤمنون هؤلاء الكفار بما جاء به محمد ، وعلى هذا فمعنى « بِمَا تَقُولُونَ » بما تقولون من الحق . وقال أبو عبيد : المعنى ؛ فيما تقولون فما يستطيعون لكم صرفا عن الحق الذى هداكم الله إليه ، ولا نصرا لأنفسهم مما ينزل بهم من العذاب بتكذيبهم إياكم . وقراءة العامة « بِمَا تَقُولُونَ » بالناء على الخطاب . وقد بينا معناه . وحكى الفراء أنه يقرأ : « فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ » مخففا ، « بِمَا يَقُولُونَ » . وكذا قرأ مجاهد والبرقي بالياء ، ويكون معنى « يَقُولُونَ » يقولهم . وقرأ أبو حيوة : « بِمَا يَقُولُونَ » بياء « فَمَا يَسْتَطِيعُونَ » بياء على الخطاب لمتخذي الشركاء . ومن قرأ بالياء فالمعنى : فما يستطيع الشركاء . ﴿ وَبَن يَظْلِمُ مِنْكُمْ ﴾ قال ابن عباس : من يشرك منكم ثم مات عليه . ﴿ نَذِقْهُ ﴾ أى فى الآخرة . ﴿ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾ أى شديدا ، كقوله تعالى : « وَلَتَعْلَنَّ عُلُوكُمْ كَبِيرًا »^(١) أى شديدا . قوله تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٣٠﴾

فيه تسع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ نزلت جوابا للمشركين حيث قالوا : « مَا لِي هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ » . وقال ابن عباس : لما غير المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم بالغافاة وقالوا : « مَا لِي هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ »

الآية حزن النبي صلى الله عليه وسلم لذلك فنزلت تعزية له ؛ فقال جبريل عليه السلام : السلام عليك يا رسول الله ! الله ربك يقرئك السلام ويقول لك : « وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ » أى يبتغون المعاش فى الدنيا .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ﴾ إذا دخلت اللام لم يكن فى «إن» إلا الكسر ، ولو لم تكن اللام ما جاز أيضا إلا الكسر ؛ لأنها مستأنفة . هذا قول جميع النحويين . قال النحاس : إلا أن على بن سليمان حكى لنا عن محمد بن يزيد قال : يجوز فى «إن» هذه الفتح وإن كان بعدها اللام ؛ وأحسبه وهما منه . قال أبو إسحق الزجاج : وفى الكلام حذف ؛ والمعنى وما أرسلنا قبلك رسلا إلا إنهم لياكلون الطعام ، ثم حذف رسلا ، لأن فى قوله : « مِنَ الْمُرْسَلِينَ » ما يدل عليه . فالموصوف محذوف عند الزجاج . ولا يجوز عنده حذف الموصول وتبقيمة الصلة كما قال الفراء . قال الفراء : والمحذوف « مَنْ » والمعنى إلا مَنْ إنهم لياكلون الطعام . وشبهه بقوله : « وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ » ، وقوله : « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا »^(٢) أى ما منكم إلا من هو واردها . وهذا قول الكسائى أيضا . وتقول العرب : ما بعثت إليك من الناس إلا مَنْ إنه ليطيعك . فقولك : إنه ليطيعك صلة من . قال الزجاج : هذا خطأ ؛ لأن من موصولة فلا يجوز حذفها . وقال أهل المعانى : المعنى ؛ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا قيل إنهم لياكلون ؛ دليله قوله تعالى : « مَا يُتْلَىٰ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ » . وقال ابن الأنبارى : كسرت « إِنَّهُمْ » بعد « إلا » للاستئناف بإضمار واو . أى إلا وإنهم . وذهبت فرقة إلى أن قوله : « لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ » كناية عن الحدث .

قلت : وهذا بليغ فى معناه ، ومثله « مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ »^(٤) . ﴿ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ قرأ الجمهور « يَمْشُونَ » بفتح الياء وسكون الميم وتخفيف الشين . وقرأ على وآبن عوف وآبن مسعود بضم الياء وفتح الميم وشد الشين المفتوحة ، بمعنى يُدْعَوْنَ إلى المشى ويمشون عابسه . وقرأ أبو عبد الرحمن السامى بضم الياء وفتح الميم وضم الشين المشددة ، وهى بمعنى يَمْشُونَ ؛ قال الشاعر :

(١) راجع ج ١٥ ص ١٣٧ و ص ٣٦٦ . (٢) راجع ج ١١ ص ١٣٥ . (٣) فى ك : ليعطيك ، ليعطيك صلة . (٤) راجع ج ٦ ص ٢٥٠ .

وَمَشَىٰ بِأَعْطَانِ الْمُبَآءَةِ وَآبَتْنِي * فَلَأْتَصَّ مِنْهَا صَعْبَةً وَرَكُوبٌ^(١)

وقال كعب بن زهير :

منه تظل سباعُ الجحوق ضامزة^(٢) * ولا تُمشي بواديهِ الأراجيلُ

بمعنى تمشي .

الثالثة — هذه الآية أصل في تناول الأسباب وطلب المعاش بالتجارة والصناعة وغير ذلك . وقد مضى هذا المعنى في غير موضع ، لكننا ذكرهنا من ذلك ما يكفي فنقول : قال لى بعض مشايخ هذا الزمان في كلام جرى : إن الأنبياء عليهم السلام إنما بعثوا ليسنوا الأسباب للضعفاء ؛ فقلت مجيبا له : هذا قول لا يصدر إلا من الجهال والأغبياء ، والرعاى السفهاء ، أو من طاعن فى الكتاب والسنة العلىاء ؛ وقد أخبر الله تعالى فى كتابه عن أصفىائه ورسله وأنبيائه بالأسباب والاحتراف فقال وقوله الحق : «وَعَلَّمَنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ» . وقال : «وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ» قال العلماء : أى يتجرون ويحترفون . وقال عليه الصلاة والسلام : «جُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُحْمِي» وقال تعالى «فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا»^(٤) وكان الصحابة رضى الله عنهم يتجرون ويحترفون وفى أموالهم يعملون ، ومن خالفهم من الكفار يقاتلون ؛ أترأهم ضعفاء ! بل هم كانوا والله الأقوياء ، وبهم الخلف الصالح آفتدى ، وطريقهم فيه الهدى والاهتداء . قال : إنما تناولوها لأنهم أئمة الاقتداء ، فتناولوها مباشرة فى حق الضعفاء ، فأما فى حق أنفسهم فلا ؛ وبيان ذلك أصحاب الصفة .

قلت : لو كان ذلك لوجب عليهم وعلى الرسول معهم البيان ؛ كما ثبت فى القرآن «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ»^(٥) وقال : «إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى»^(٦) الآية . وهذا من البينات والهدى . وأما أصحاب الصفة فإنهم كانوا ضيف الإسلام

(١) فى روح المعانى : «ذلول» بدل «ركوب» . (٢) الجحوق : البر الواسع . وضامزة : ساكنة ، وكل ساكن فهو ضامز . والأراجيل : جمع أرجال كأنعام جمع أنعام ؛ وأرجال جمع رجل . بصف الشاعر أسدا بأن الأسود والرجال تحافه ، فالأسود ساكنة من هيئته والرجال ممنعة عن المشى بواديهِ .

(٣) راجع ج ١١ ص ٣٢٠ . (٤) راجع ج ٨ ص ١٥ . (٥) راجع ج ١٠ ص ١٠٨ .

(٦) راجع ج ٣ ص ١٨٤ .

عند ضيق الحال ، فكان عليه السلام إذا أنته صدقة خصمهم بها ، وإذا أنته هدية أكلها معهم ، وكانوا مع هذا يحتطبون ويسوقون الماء إلى أبيات رسول الله صلى الله عليه وسلم . كذا وصفهم البخاري وغيره . ثم لما أفتتح الله عليهم البلاد ومهد لهم المهاد تأمروا ، وبالأسباب أمروا . ثم إن هذا القول يدل على ضعف النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ؛ لأنهم أيدوا بالملائكة وثبتوا بهم ، فلو كانوا أقوياء ما احتاجوا إلى تأييد الملائكة وتأيدهم إذ ذلك سبب من أسباب النصر ؛ نعوذ بالله من قول وإطلاق يؤول إلى هذا ، بل القول بالأسباب والوسائط سنة الله وسنة رسوله ، وهو الحق المبين ، والطريق المستقيم الذي أنعقد عليه إجماع المسلمين ؛ وإلا كان يكون قوله الحق : « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ » - الآية - مقصورا على الضعفاء ، وجميع الخطابات كذلك .

وفي التنزيل حيث خاطب موسى الكليم « اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ » وقد كان قادرا على فلق البحر دون ضرب عصا . وكذلك مريم عليها السلام « وَهَزَّيْ إِلَيْكَ النَّخْلَ » وقد كان قادرا على سقوط الرطب دون هز ولا تعب ؛ ومع هذا كله فلا ننكر أن يكون رجل يلطف به ويeman ، أو تجاب دعوته ، أو يكرم بكرامة في خاصة نفسه أو لأجل غيره ، ولا تهت لذلك القواعد الكلية والأمور الجملية . هيئات هيئات ! لا يقال فقد قال الله تعالى : « وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ » فلنا نقول : صدق الله العظيم ، وصدق رسوله الكريم ، وأن الرزق هنا المطر بإجماع أهل التأويل ؛ بدليل ؛ قوله : « وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا » وقال : « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ » ولم يشاهد ينزل من السماء على الخلق أطباق الخبز ولا جفان اللحم ، بل الأسباب أصل في وجود ذلك ؛ وهو معنى قوله عليه السلام : « أَطْبِقُوا الرِّزْقَ فِي خَبَايَا الْأَرْضِ » أي بالحراث والحفر والغرس . وقد يسمى الشيء بما يؤول إليه ، وسمى المطر رزقا لأنه عنه يكون الرزق ، وذلك مشهور في كلام العرب . وقال عليه السلام : « لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَحْتَطِبَ عَلَى ظَهْرِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ أَحَدًا أَنْ يُعْطَاهُ أَوْ يُنْعَاهُ » وهذا فيما نرج من غير تعب من الحشيش والحطب ، ولو قدر رجل بالجبال منقطعا عن الناس لما كان له بد من الخروج إلى ما تخرجه الآكام وظهور الأعلام حتى يتناول من ذلك ما يعيش

(١) في ك : يستقون . (٢) راجع ج ٨ ص ٣٥ . (٣) راجع ص ١٠٠ من هذا الجزء فابعد .

(٤) راجع ج ١١ ص ٩٤ . (٥) راجع ج ١٥ ص ٢٩٨ . (٦) راجع ج ١٧ ص ٦ .

به ؛ وهو معنى قوله عليه السلام : ” لو أنكم كنتم توكلون على الله حق توكله لرزقتم كما تُرزق الطير تغدو نخاصاً وتروح بطاناً “ فغدوها ورواحها سبب ؛ فالعجب العجيب ممن يدعى التجريد والتوكل على التحقيق ، ويقعد على ثنيات الطريق ، ويدع الطريق المستقيم ، والمنهج الواضح القويم . ثبت في البخارى عن ابن عباس قال : كان أهل اليمن يمجون ولا يترقدون ويقولون نحن المتوكلون ، فإذا قدموا سألو الناس ؛ فأنزل الله تعالى « وَتَرَقَّدُوا » . ولم ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم أنهم خرجوا إلى أسفارهم بغير زاد ، وكانوا المتوكلين حقاً . والتوكل اعتماد القلب على الرب في أن يُلِمَّ شعثه ويجمع عليه أربّه ؛ ثم يتناول الأسباب بمجرد الأمر . وهذا هو الحق . سأل رجل الإمام أحمد بن حنبل فقال : إنى أريد الحج على قدم التوكل . فقال : أخرج وحدك ؛ فقال : لا ، إلا مع الناس . فقال له : أنت إذن متكل على أجرتهم . وقد أتينا على هذا في كتاب « قمع الحرص بالزهد والقناعة وردّ ذل السؤال بالكسب والصناعة » .

الرابعة — خرج مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” أحب البلاد إلى الله مساجدها وأبغض البلاد إلى الله أسواقها “ . وخرج البزار عن سلمان الفارسي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” لا تكونن إن أستطعت أول من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها فإنها معركة الشيطان وبها ينصب رايته “ . أخرجه أبو بكر البرقاني مسنداً عن أبي محمد عبد الغنى بن سعيد الحافظ — من رواية عاصم — عن أبي عثمان النهدي عن سلمان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” لا تكن أول من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها فبها باض الشيطان وفترخ “ . ففى هذه الأحاديث ما يدل على كراهة دخول الأسواق ، لا سيما فى هذه الأزمان التى يخالط فيها الرجال النسوان . وهكذا قال علماؤنا لما كثرت الباطل فى الأسواق وظهرت فيها المناكر : كره دخولها لأرباب الفضل والمقتدى بهم فى الدين تنزيها لهم عن البقاع التى يعصى الله فيها . حُفِّق على من ابتلاه الله بالسوق أن يخطر بباله أنه قد دخل محل الشيطان ومحل جنوده ، وأنه إن أقام هناك هلك ، ومن كانت هذه حاله آقتصر منه على قدر ضرورته ، وتحرز من سوء عاقبته وبليته .

(١) راجع ج ٢ ص ٤١١ . (١) كذا فى ك وهو الصواب وفى ا وب وى : بالكسب والشفاعة .

الخامسة — تشبيه النبي صلى الله عليه وسلم السوق بالمعركة تشبيه حسن ؛ وذلك أن المعركة موضع القتال ، سمي بذلك لتعارك الأبطال فيه ، ومصارعة بعضهم بعضا . فشبه السوق وفعل الشيطان بها ونيله منهم مما يحملهم من المكر والخديعة ، والتساهل في البيوع الفاسدة والكذب والأيمان الكاذبة ، واختلاط الأصوات وغير ذلك بمعركة الحرب ومن يصرع فيها .

السادسة — قال ابن العربي : أما أكل الطعام فضرورة الخلق لا عار ولا ^(١)درك فيه ، وأما الأسواق فسمعت مشيخة أهل العلم يقولون : لا يدخل إلا سوق الكتب والسلاح ، وعندى أنه يدخل كل سوق للحاجة إليه ولا يأكل فيها ؛ لأن ذلك إسقاط للرؤية وهدم للشحمة ؛ ومن الأحاديث الموضوعة ^(٢)”الأكل في السوق دناءة“ .

قلت : ما ذكرته مشيخة أهل العلم فنعما هو ؛ فإن ذلك خالٍ عن النظر إلى النسوان ومخالطتهن ؛ إذ ليس بذلك من حاجتهن . وأما غيرهما من الأسواق فمشحونة منهن ، وقلة الحياء قد غلبت عليهن ، حتى ترى المرأة في القيساريات وغيرهن قاعدة متبرجة بزينة ، وهذا من المنكر الفاشي في زماننا هذا . نعوذ بالله من سيئته .

السابعة — خرج أبو داود الطيالسي في مسنده حدثنا حماد بن زيد قال حدثنا عمرو ابن دينار قهرمان آل الزبير عن سالم عن أبيه عن عمر بن الخطاب قال : ”من دخل سوقا من هذه الأسواق فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير كتب الله له ألف ألف حسنة ومحاه عنه ألف ألف سيئة وبني له قصرا في الجنة“ خزجه الترمذي أيضا وزاد بعد ”ومحاه عنه ألف ألف سيئة“ : ”ورفع له ألف ألف درجة وبني له بيتا في الجنة“ . وقال : هذا حديث غريب . قال ابن العربي : وهذا إذا لم يقصد في تلك البقعة سواء ليعمرها بالطاعة إذ عُمِّرت بالمعصية ، وليحليها بالدكر إذ عطلت بالغفلة ، وليعلم الجاهل ويذكر الناسين .

(١) الدرك (يسكن ويحرك) : النبعة . (٢) الحديث رواه الطبراني عن أبي أمامة والخطيب عن أبي هريرة وضمه السيوطي . (٣) القهرمان : هو كاتنازن والوكيل الحافظ لما تحت يده والقائم بأموال الرجل ، بلغة الفرس . (٤) سواء : أى سوى الله تعالى .

الثامنة - قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾ أى إن الدنيا دار بلاء وامتحان ، فأراد سبحانه أن يجعل بعض العبيد فتنة لبعض على العموم فى جميع الناس مؤمن وكافر ، فالصحيح فتنة للريض ، والغنى فتنة للفقير ، والفقير الصابر فتنة للغنى . ومعنى هذا أن كل واحد مختبر بصاحبه ؛ فالغنى ممتحن بالفقير ، عليه أن يواسيه ولا يسخر منه . والفقير ممتحن بالغنى ، عليه ألا يحسده ولا يأخذ منه إلا ما أعطاه ، وأن يصبر كل واحد منهما على الحق ؛ كما قال الضحاك فى معنى « أَتَصْبِرُونَ » : أى على الحق . وأصحاب البلاء يقولون : لم نعلم نفاق ؟ والأعمى يقول : لم أجد كالبصير ؟ وهكذا صاحب كل آفة . والرسول المخصوص بكرامة النبوة فتنة لأشراف الناس من الكفار فى عصره . وكذلك العلماء وحكام العدل . ألا ترى إلى قولهم : « لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ^(١) » . فالفتنة أن يحسد المبتلى المعافى ، ويحقّر المعافى المبتلى . والصبر : أن يحبس كلاهما نفسه ، هذا عن البطر ، وذاك عن الضجر . « أَتَصْبِرُونَ » محذوف الجواب ، يعنى أم لا تصبرون . فيقتضى جوابا كما قاله المزنى ، وقد أخرجته الفاقة فرأى خصيا فى مراكب ومناكب ، فخطر بباله شئ فسمع من يقرأ الآية : « أَتَصْبِرُونَ » فقال : بلى ربنا ! نصبر ونحتسب . وقد تلا ابن القاسم صاحب مالك هذه الآية حين رأى أشهب بن عبد العزيز فى مملكته عابرا عليه ، ثم أجاب نفسه بقوله : سنصبر . وعن أبى الدرداء أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : ^(٢) « ويل للعالم من الجاهل وويل للجاهل من العالم وويل للمالك من المملوك وويل للمملوك من المالك وويل للشديد من الضعيف وويل للضعيف من الشديد وويل للسلطان من الرعية وويل للرعية من السلطان وبعضهم لبعض فتنة وهو قوله : « وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ » . أسنده الثعلبى تفعده الله برحمته . وقال مقاتل : نزلت فى أبى جهل ابن هشام والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل ، وعقبة بن أبى معيط وعُتْبة بن ربيعة والنضر ابن الحرث حين رأوا أبا ذر وعبد الله بن مسعود ، وعمارا وبلا لا وصُهيبا وعامر بن فهيرة ، وسالم مولى أبى حذيفة ومهجع مولى عمر بن الخطاب وجبرا مولى الحضرمي ، وذويهم ؛ فقالوا على سبيل الاستهزاء : أنسلم فنكون مثل هؤلاء ؟ فأنزل الله تعالى يخاطب هؤلاء

(٢) كذا فى كوز .

(١) راجع ج ١٦ ص ٨٢ فابعد .

المؤمنين : « أَتَصْبِرُونَ » على ما ترون من هذه الحال الشديدة والفقر؛ فالتوقيف بـ « أَتَصْبِرُونَ » خاص للمؤمنين المحققين^(١) من أمة محمد صلى الله عليه وسلم . كأنه جعل إمهال الكفار والتوسعة عليهم فتنة للمؤمنين ، أى اختباراً لهم . ولما صبر المسلمون أنزل الله فيهم : « إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا »^(٢) .

التاسعة — قوله تعالى : (وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا) أى بكل أمرئ ومن يصبر أو يجزع ، ومن يؤمن ومن لا يؤمن ، ومن أدى ما عليه من الحق ومن لا يؤدى . وقيل : « أَتَصْبِرُونَ » أى أصبروا . مثل « فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ »^(٣) أى أنتهوا ؛ فهو أمر للنبي صلى الله عليه وسلم بالصبر . قوله تعالى : وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَأِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَحْجُورًا ﴿٢٢﴾ قوله تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا) يريد لا يخافون البعث ولقاء الله ، أى لا يؤمنون بذلك . قال :

إذا سَعَتِ النُّحُلُ لَمْ يَرْجُ لِقَاءُهَا * وَخَالَفَهَا فِي بَيْتِ نُوحٍ عَوَامِلُ^(٤)

وقيل : « لَا يَرْجُونَ » لا يبالون . قال :

لعمرك ما أرجو إذا كنتُ مُسْلِمًا * على أى جنب كان فى الله مَضْرَعِي^(٥)

أبن شجرة : لا يأملون ؛ قال :

أترجو أمّة قتلت حسينا * شفاعته جدّه يوم الحساب

(لَوْلَا أُنْزِلَ) أى هلا أنزل . (عَلَيْنَا الْمَلَأِكَةُ) فيخبروا أن محمداً صادق . (أَوْ نَرَى رَبَّنَا) عياناً فيخبرنا برسائمه . نظيره قوله تعالى : « وَقَالُوا أَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تُنْجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ

(١) وفى ك : المحققين : أى أهل الكرامة . فى ب : المحققين (٢) راجع ج ١٢ ص ١٥٥ .

(٣) راجع ج ٦ ص ٢٨٥ فابعد . (٤) البيت لأبى ذؤيب وتقدم شرحه فى ج ٨ ص ٣١١ .

(٥) البيت من قصيدة لخبيب بن عدى قالها حين بلغه أن الكفار قد اجتمعوا له عليه .

يَنْبِؤُهَا» إلى قوله : « أَوْ تَأْتِي بِلَهُ وَالْمَلَائِكَةِ قِيَالًا » . قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ حيث سألوا الله الشطط ؛ لأن الملائكة لا ترى إلا عند الموت أو عند نزول العذاب ، والله تعالى لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ، فلا عين تراه . وقال مقاتل : « عَتَوْا » علوا في الأرض . والعَتَوُ : أشد الكفر وأخش الظلم . وإذا لم يكتفوا بالمعجزات وهذا القرآن فكيف يكتفون بالملائكة ؟ وهم لا يميزون بينهم وبين الشياطين ، ولا بد لهم من معجزة يقيمها من يدعى أنه ملك ، وليس للقوم طلب معجزة بعد أن شاهدوا معجزة ، وأن ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ يريد أن الملائكة لا يراها أحد إلا عند الموت : فتبشر المؤمنين بالجنة ، وتضرب المشركين والكفار بمقامع الحديد حتى تخرج أنفسهم . ﴿ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَحْجُورًا ﴾ يريد تقول الملائكة حراما محرما أن يدخل الجنة إلا من قال لا إله إلا الله ، وأقام شرائعها ؛ عن ابن عباس وغيره . وقيل : إن ذلك يوم القيامة ؛ قاله مجاهد وعطية العوفي . قال عطية : إذا كان يوم القيامة تلقى المؤمن بالبشرى : فإذا رأى ذلك الكافر تمناه فلم يره من الملائكة . وأنتصب « يَوْمَ يَرَوْنَ » بتقدير لا بشرى للمجرمين يوم يرون الملائكة . « يَوْمَئِذٍ » تأكيد . « يَوْمَ يَرَوْنَ » . قال النحاس : لا يجوز أن يكون « يَوْمَ يَرَوْنَ » منصوبا به « بُشْرَى » لأن ما في حيز النفي لا يعمل فيما قبله ، ولكن فيه تقدير أن يكون المعنى يمنعون البشارة يوم يرون الملائكة ؛ ودل على هذا الحذف ما بعده . ويجوز أن يكون التقدير : لا بشرى تكون يوم يرون الملائكة ، و « يَوْمَئِذٍ » مؤكدة . ويجوز أن يكون المعنى : أذكر يوم يرون الملائكة : ثم أبدأ فقال : « لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَحْجُورًا » أى وتقول الملائكة حراما محرما أن تكون لهم البشرى إلا للمؤمنين . قال الشاعر :

أَلَا أَصْبَحَتْ أَسْمَاءُ حَجْرًا مُحْرَمًا * وَأَصْبَحْتُ مِنْ أَدْنَى حِمْوَتِهَا حَمًا^(٢)

أراد ألا أصبحت أسماء حراما محرما .

(١) راجع ج ١٠ ص ٣٢٨ فـا بعد .

(٢) قاله رجل كانت له امرأة فطلقها وتزوجها أخوه ؛ أى أصبحت أخا زوجها بعد ما كنت زوجها .

(١) وقال آخر :

حَنَّتْ إِلَى النَّخْلَةِ الْقُصُوى فَقُلْتُ لَهَا * حَجْرٌ حَرَامٌ أَلَّا تِلْكَ الدَّهَارِيسُ
وروى عن الحسن أنه قال : « وَتَقُولُونَ حَجْرًا » وَقَفَّ مِنْ قَوْلِ الْمَجْرَمِينَ ؛ فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ :
« مَحْجُورًا » عَلَيْهِمْ أَنْ يَعَاذُوا أَوْ يَجَارُوا ؛ فَحَجَرَ اللَّهُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . وَالْأَوَّلُ قَوْلُ
أَبْنِ عَبَّاسٍ . وَبِهِ قَالَ الْفَرَّاءُ ؛ قَالَهُ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ . وَقَرَأَ الْحَسَنُ وَأَبُو رَجَاءٍ : « حُجْرًا » بضم
الحاء والناس على كسرهما . وَقِيلَ : إِنْ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِ الْكُفَّارِ قَالُوهُ لِأَنْفُسِهِمْ ؛ قَالَهُ قَتَادَةُ
فِيمَا ذَكَرَ الْمَأُورِدِيُّ . وَقِيلَ : هُوَ قَوْلُ الْكُفَّارِ لِلْمَلَائِكَةِ . وَهِيَ كَلِمَةٌ أَسْتَعَاذَ وَكَانَتْ مَعْرُوفَةً
فِي الْجَاهِلِيَّةِ ؛ فَكَانَ إِذَا لَقِيَ الرَّجُلُ مَنْ يَخَافُهُ قَالَ : حَجَرًا مَحْجُورًا ؛ أَيْ حَرَامًا عَلَيْكَ التَّعَرُّضُ لِي .
وَأَتَّصَاهُ عَلَى مَعْنَى : حَجَرْتُ عَلَيْكَ ، أَوْ حَجَرَ اللَّهُ عَلَيْكَ ؛ كَمَا تَقُولُ : سَقِيَا وَرَعِيَا . أَيْ إِنْ الْمَجْرَمِينَ
إِذَا رَأَوْا الْمَلَائِكَةَ يَلْقَوْنَهُمْ فِي النَّارِ قَالُوا : نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكُمْ ؛ ذَكَرَهُ الْقَشِيرِيُّ ، وَحَكَى مَعْنَاهُ الْمَهْدَوِيُّ
عَنْ مُجَاهِدٍ . وَقِيلَ : « حَجْرًا » مِنْ قَوْلِ الْمَجْرَمِينَ . « مَحْجُورًا » مِنْ قَوْلِ الْمَلَائِكَةِ ؛ أَيْ قَالُوا
لِلْمَلَائِكَةِ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكُمْ أَنْ تَتَعَرَّضُوا لَنَا . فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ : « مَحْجُورًا » أَنْ تَعَاذُوا مِنْ شَرِّ هَذَا
الْيَوْمِ ؛ قَالَهُ الْحَسَنُ .

قوله تعالى : وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٢٣﴾
أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ) هَذَا تَنْبِيهُ عَلَى عَظَمِ قَدْرِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ؛
أَيْ قَصَدْنَا فِي ذَلِكَ إِلَى مَا كَانَ يَعْمَلُهُ الْمَجْرُمُونَ مِنْ عَمَلٍ بَرٍّ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ . يُقَالُ : قَدِمَ فُلَانٌ
إِلَى أَمْرٍ كَذَا أَيْ قَصَدَهُ . وَقَالَ مُجَاهِدٌ : « قَدِمْنَا » أَيْ عَمَدْنَا . وَقَالَ الرَّاجِزُ :

وَقَدِمَ الْخَوَارِجُ الضَّلَالُ * إِلَى عِبَادِ رَبِّهِمْ فَقَالُوا
* إِنْ دِمَاءُكُمْ لَنَا حَلَالٌ *

(١) البيت للأنلس ؛ والنخلة القصوى : واد . والدَّهَارِيسُ : الدَّهَاقِيسُ . يَقُولُ لِنَاقَتِهِ : هَذَا الَّذِي حَنَّتْ إِلَيْهِ
مَنْعُوعٌ . وَبَعْدَهُ : أَيْ شَامِيَّةٌ إِذْ لَا عِرَاقَ لَنَا * قَوْمًا نُوَدِّهِمْ إِذْ قَوْمُنَا شَوْسٌ

وقيل : هو قدوم الملائكة ، أخبر به عن نفسه تعالى فاعله . (١) ﴿بَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ أى لا يمتنع به ؛ أى أبطلناه بالكفر . وليس « هَبَاءً » من ذوات الهمز وإنما همزت لالتقاء الساكنين . والتصغير هَبًى فى موضع الرفع ، ومن النحويين من يقول : هَبًى فى موضع الرفع ؛ حكماء النحاس . وواحدة هبأة والجمع أهباء . قال الحرث بن حِزَّاة [يصف ناقة] :

فَتَرَى خَلْفَهَا مِنَ الرَّجْعِ وَالْوَقْدِ * سَجَ مَنِئِنَّا كَأَنَّهُ أَهْبَاءُ (٢)

وروى الحرث عن علي قال : الهباء المنثور شعاع الشمس الذى يدخل من الكوة . وقال الأزهرى : الهباء ما يخرج من الكوة فى ضوء الشمس شبيه بالغبار . تأويله : إن الله تعالى أحبط أعمالهم حتى صارت بمنزلة الهباء المنثور . فأما الهباء المنبث فهو ما تثيره الخيل بسنابكها من الغبار . والمنبث المتفرق . وقال ابن عرفة : الهبوة والهباء التراب الدقيق . الجوهري : ويقال له إذا ارتفع هباً يهبو هبوا وأهبيته أنا . والهبوة الغبرة . قال رؤبة . تَبْدُونَا أَعْلَامُهُ بَعْدَ الْغَرَقِ * فِي قِطْعِ الْآلِ وَهَبَوَاتِ الدُّقُقِ (٣)

وموضعُ هبى التراب أى كأن ترابه مثل الهباء فى الرقة . وقيل : إنه ما ذرته الرياح من يابس أوراق الشجر ؛ قاله قتادة وابن عباس . وقال ابن عباس أيضا : إنه الماء المهراق . وقيل : إنه الرماد ؛ قاله عبيد بن يعلى (٤)

قوله تعالى : ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ .

تقدم القول فيه عند قوله تعالى : « قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ » . قال النحاس : والكوفيون يميزون « العسل أحلى من الخل » وهذا قول مردود ؛ لأن معنى فلان خير من فلان أنه أكثر خيرا منه ولا حلاوة فى الخل . ولا يجوز أن يقال : النصرانى خير من اليهودى ؛ لأنه لا خير فيهما فيكون أحدهما أزيد فى الخير . لكن يقال : اليهودى شر

(١) كذا فى الأصول ؛ وعبارة ابن عطية : « أسنده إليه لأنه عن أمره » . (٢) قال النحاس : والتقدير عنده هبى . (٣) قوله « خلفها » أى خلف الناقة . والرجع : رجع قوائمها . والوقع : وقع خفافها . والمنين : الغبار الدقيق الذى تثيره . (٤) الدقق : ماديق من التراب ، والواحد منه الدق كما تقول الجلى والجلى . (٥) كذا فى الأصول ؛ وفى « روح المعاني » : يعلى بن عبيد . (٦) راجع ص ٩ من هذا الجزء .

من النصراني؛ فعلى هذا كلام العرب . و « مُسْتَقَرًّا » نصب على الظرف إذا قدر على غير باب « أفعل منك » والمعنى لهم خير في مستقر . وإذا كان من باب « أفعل منك » فانتصابه على البيان؛ قاله النحاس والمهدوي . قال قتادة : « وَأَحْسَنُ مَقِيلًا » منزلا وماوى . وقيل : هو على ما تعرفه العرب من مقيل نصف النهار . ومنه الحديث المرفوع "إن الله تبارك وتعالى يفرغ من حساب الخلق في مقدار نصف يوم فيَقِيلُ أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار" ذكره المهدوي . وقال ابن مسعود ^(١) : لا ينتصف النهار يوم القيامة من نهار الدنيا حتى يقيل هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار، ثم قرأ : « ثُمَّ إِنَّ مَقِيلَهُمْ لِإِلَى الْجَحِيمِ » كذا هي في قراءة ابن مسعود . وقال ابن عباس : الحساب من ذلك اليوم في أوله ، فلا ينتصف النهار من يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار . ومنه ما روى : " قِيلُوا فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَا تَقِيلُ " . وذكر قاسم بن أصبغ من حديث أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة " فقلت : ما أطول هذا اليوم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " والذي نفسي بيده إنه ليخفف عن المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة المكتوبة يصليها في الدنيا " .

قوله تعالى : وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا ﴿٢٥﴾
الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْخَبِيرُ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ ﴾ أى وأذكر يوم تشقق السماء بالغمام . وقراه عاصم والأعمش ويحيى وحزمة والكسائي وأبو عمرو : « تشقق » بتخفيف الشين وأصله تشقق بتأين فحذفوا الأولى تخفيفا ، واختاره أبو عبيد . الباقر « تَشَقَّقُ » بتشديد الشين على الأدغام ، واختاره أبو حاتم . وكذلك في « ق » . « بِالْغَمَامِ » أى عن الغمام . والباء وعن يتعاقبان ؛ كما تقول : رميت بالقوس وعن القوس . روى أن السماء تشقق عن سحب

(١) في ك : أبو سعيد .

(٢) راجع ج ١٧ ص ٢٦ فابعد .

أبيض رقيق مثل الضبابه، ولم يكن إلا لبني إسرائيل في تبيهم فتشق السماء عنه؛ وهو الذي قال تعالى : « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ ^(١) » . (وَنَزَلَ الْمَلَائِكَةُ) من السموات ، ويأتي الرب جل وعز في الثمانية الذين يحملون العرش لفصل القضاء ، على ما يجوز أن يحمل عليه إتيانه ؛ لا على ما تحمل عليه صفات المخلوقين من الحركة والانتقال . وقال ابن عباس : تنشق سماء الدنيا فينزل أهلها وهم أكثر من في الأرض من الجن والإنس ، ثم تنشق السماء الثانية فينزل أهلها وهم أكثر من في سماء الدنيا ، ثم كذلك حتى تنشق السماء السابعة ، ثم ينزل الكروبيون وحملته العرش ؛ وهو معنى قوله : « وَنَزَلَ الْمَلَائِكَةُ نَزْيًا ^(٢) » أى من السماء إلى الأرض لحساب الثقلين . وقيل : إن السماء تنشق بالغمام الذي بينها وبين الناس ؛ فبتشق الغمام تنشق السماء ؛ فإذا آنشت السماء آنقض تركيبها وطويت ونزلت الملائكة إلى مكان سواها . وقرأ ابن كثير : « وَنُزِلَ الْمَلَائِكَةُ » بالنصب من الإنزال . الباقون . « وَنُزِلَ الْمَلَائِكَةُ » بالرفع . دليله : « نَزْيًا » ولو كان على الأول لقال إنزالا . وقد قيل : إن نَزَلَ وأنزل بمعنى ؛ فجاء « نَزْيًا » على « نَزَلَ » وقد قرأ عبد الوهاب ^(٣) عن أبي عمرو : « وَنُزِلَ الْمَلَائِكَةُ نَزْيًا » . وقرأ ابن مسعود : « وَأَنْزَلَ الْمَلَائِكَةُ » . أبى ابن كعب : « وَنَزَلَتِ الْمَلَائِكَةُ » . وعنه « وَنَزَلَتِ الْمَلَائِكَةُ » .

قوله تعالى : « أَلَمْ يَكُنْ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ » (الْمُلْكُ) مبتدأ و « الْحَقُّ » صفة له و « لِلرَّحْمَنِ » الخبر ؛ لأن الملك الذى يزول وينقطع ليس بملك ؛ فبطلت يومئذ أملاك المالكين وانقطعت دعاويهم ، وزال كل ملك ومملكه ، وبقي الملك الحق لله وحده . (وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا) أى لما ينالهم من الأهوال ويلحقهم من الحزى والهوان ، وهو على المؤمنين أخف من صلاة مكتوبة ؛ على ما تقدم فى الحديث . وهذه الآية دالة عليه ؛ لأنه إذا كان على الكافرين عسيرا فهو على المؤمنين يسيرا . يقال : عَسِرَ عَسْرًا ، وعَسِرَ عَسْرًا .

(١) راجع ج ٣ ص ٢٥ . (٢) الكروبيون (بفتح الكاف) : سادة الملائكة ، منهم جبريل

وميكائيل وإسرافيل هم المقربون والكراب القرب . (٣) فى ك : وقد قيل قرأ .

قوله تعالى : وَيَوْمَ يَعِضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلْبِثَنِي أَخَذْتُ
مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَلْبِثَنِي لَيْتَنِي لَمْ أَخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾
لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ
خَذُولًا ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : (وَيَوْمَ يَعِضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ) الماضي عَضَضْتُ . وحكى الكسائي
عَضَضْتُ بفتح الضاد الأولى . وجاء التوقيف عن أهل التفسير ، منهم ابن عباس وسعيد
ابن المسيب أن الظالم ها هنا يراد به عقبة بن أبي معيط ، وأن خليفه أمية بن خلف ، فعقبة
قتله على بن أبي طالب رضي الله عنه ، وذلك أنه كان في الأسارى يوم بدر فأمر النبي
صلى الله عليه وسلم بقتله ، فقال : أأقتل دونهم ؟ فقال . نعم ، بكفرك وعتوك . فقال :
من للصبيّة ؟ فقال : النار . فقام على رضي الله عنه فقتله . وأمّية قتله النبي صلى الله عليه وسلم ،
فكان هذا من دلائل نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ، لأنه خبر عنهما بهذا فقتلا على الكفر .
ولم يسميا في الآية لأنه أبلغ في الفائدة ، ليعلم أن هذا سبيل كل ظالم قَبِلَ من غيره في معصية
الله عز وجل . قال ابن عباس وقتادة وغيرهما : وكان عقبة قد همّ بالإسلام فمنعه منه
أبي بن خلف وكانا خدنين ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قتلها جميعا : قُتِلَ عقبة يوم بدر
صبرا ، وأبي بن خلف في المبارزة يوم أحد ، ذكره القشيري والشعبي ، والأول ذكره
النحاس . وقال السهيلي : « وَيَوْمَ يَعِضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ » هو عقبة بن أبي معيط ، وكان
صديقا لأمية بن خلف الجُحِّي ويروي لأبي بن خلف أخ أمية ، وكان قد صنع وليمة
فدعا إليها قريشا ، ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبى أن يأتيه إلا أن يسلم . وكره
عقبة أن يتأخر عن طعامه من أشراف قريش أحد فأسلم ونطق بالشهادتين ، فأتاه
رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكل من طعامه ، فعاتبه خليفه أمية بن خلف ، أو أبي
ابن خلف وكان غائبا . فقال عقبة : رأيت عظامي ألا يحضر طعامي رجل من أشراف قريش .
فقال له خليفه : لا أرضى حتى ترجع وتبصق في وجهه وتطأ عنقه وتقول كيت وكيت . ففعل

عدو الله ما أمره به خليله ؛ فأنزل الله عز وجل : « وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ » . قال الضحاك : لما بصق عقبة في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم رجع بصاقه في وجهه وشوى وجهه وشفتيه ، حتى أثر في وجهه وأحرق خديه ، فلم يزل أثر ذلك في وجهه حتى قتل . وعضه يديه فعل النادم الحزين لأجل طاعته خليله . (يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا) في الدنيا ، يعنى طريقا إلى الجنة . (يَا وَيْلَتَا) دعاء بالويل والثبور على مخالفة الكافر ومتابعته . (لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا) يعنى أمية ، وكنى عنه ولم يصرح بأسمه لئلا يكون هذا الوعد مخصوصا به ولا مقصورا ، بل يتناول جميع من فعل مثل فعلهما . وقال مجاهد وأبو رجاء : الظالم عام في كل ظالم ، وفلان : الشيطان . واحتج لصاحب هذا القول بأن بعده « وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا » . وقرأ الحسن : « يَا وَيْلَتَا » وقد مضى في « هود » بيانه . والخليل : الصاحب والصديق وقد مضى في « النساء » بيانه . (لَقَدْ أَضَلَّيْنِي عَنِ الذِّكْرِ) أى يقول هذا النادم : لقد أضلنى من اتخذه في الدنيا خليلا عن القرآن والإيمان به . وقيل : « عَنِ الذِّكْرِ » أى عن الرسول . (وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا) قيل : هذا من قول الله لا من قول الظالم . وتمام الكلام على هذا عند قوله : « بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي » . والخذل الترك من الإعانة ؛ ومنه خذلان إبليس للشركين لما ظهر لهم في صورة سراقه بن مالك ، فلما رأى الملائكة تبأ منهم . وكل من صد عن سبيل الله وأطيع في معصية الله فهو شيطان الإنسان ، خذولا عند نزول العذاب والبلاء . ولقد أحسن من قال :

تَجَنَّبَ قَرِينَ السُّوءِ وَأَصِرْتُ حَبَالَهُ * فَإِنْ لَمْ تَجِدْ عَنْهُ مَحِيصًا فَدَارِهِ
وَأَحْبَبَ حَبِيبَ الصَّدَقِ وَأَحْذَرُ مَرَاءَهُ * تَنَلُ مِنْهُ صَفْوُ الدُّودِ مَا لَمْ تَمَارِهِ
وَفِي الشَّيْبِ مَا يَنْهَى الْحَلِيمَ عَنِ الصَّبَا * إِذَا أَشْتَعَلَتْ نِيرَانُهُ فِي عِذَارِهِ

آخر :

أَحْبَبَ خِيَارَ النَّاسِ حَيْثُ لَقِيْتَهُمْ * خَيْرَ الصَّحَابَةِ مَنْ يَكُونُ عَفِيفًا
وَالنَّاسِ مِثْلَ دِرَاهِمٍ مِيزَتَهَا * فَوَجَدْتُ مِنْهَا فِضَّةَ وَزِيُوفًا

وفي الصحيح من حديث أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إنما مثل المجلس الصالح والجليس السوء كمثل المسك وناغ الكير فحامل المسك إما أن يُحذيك^(١) وإما أن يتناغ منه وإما أن تجسد ريحا طيبة وناغ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجسد ريحا خبيثة »
لفظ مسلم . وأخرجه أبو داود من حديث أنس . وذكر أبو بكر البزار عن ابن عباس قال : قيل يا رسول الله ؛ أى جلسائنا خير ؟ قال : « من ذكركم بالله رؤيته وزاد في علمكم منطقته وذكركم بالآخرة عمله » . وقال مالك بن دينار : إنك إن تنقل الأحجار مع الأبرار خير لك من أن تأكل الخبيص^(٢) مع الفجار . وأنشد :

وصاحب خيار الناس تنج مسلما * وصاحب شرار الناس يوما فتندما

قوله تعالى : وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا^(٣) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا^(٤)

قوله تعالى : (وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ) يريد محمدا صلى الله عليه وسلم ، يشكوهم الى الله تعالى . (إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا) أى قالوا فيه غير الحق من أنه سحر وشعر ، عن مجاهد والبخاري . وقيل : معنى « مَهْجُورًا » أى متروكا ، فعزاه الله تبارك وتعالى وسأله بقوله : (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ) أى كما جعلنا لك يا محمد عدوا من مشركي قومك — وهو أبو جهل في قول ابن عباس — فكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من مشركي قومه ، فأصبر ، لأمرى كما صبروا ، فإني هاديك وناصرك على كل من نأوك . وقد قيل : إن قول الرسول « يَا رَبِّ » إنما يقوله يوم القيامة ، أى هجروا القرآن وهجروني وكذبوني . وقال أنس قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من تعلم القرآن وعلق مصحفه لم يتعهده ولم ينظر فيه جاء

(١) أحذاه : أعطاه . (٢) الخبيص : حلواه تعمل من التمر والسمن .

(٣) في الأصول : « من تعلم القرآن وعلق مصحفه ... » ونصحيح هذا الأثر من روح المعاني والبيضاوي والشهاب على أنهم نكحوا في صحته إذ في سنده أبو هذبة وهو كذاب .

يوم القيامة متعلقا به يقول يارب العالمين إن عبدك هذا آتخذني مهجورا فاقض بيني وبينه .
ذكره الثعالبي . (وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا) نصب على الحال أو التمييز ، أى يهديك وينصرك
فلا تبال بمن عاداك . وقال ابن عباس : عادو النبي صلى الله عليه وسلم أبو جهل لعنه الله .

قوله تعالى : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً
وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ
بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣)

قوله تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً) اختلف في قائل
ذلك على قولين : أحدهما — أنهم كفار قريش ، قاله ابن عباس . والثاني — أنهم اليهود حين
رأوا نزول القرآن مفردا قالوا : هلا أنزل عليه جملة واحدة كما أنزل التوراة على موسى والإنجيل
على عيسى والزبور [على داود] . فقال الله تعالى : (كَذَلِكَ) أى فعلنا (لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ)
نقوى به قلبك فتعيه ونجمله ، لأن الكتب المتقدمة أنزلت على أنبياء يكتبون ويقرءون ،
والقرآن أنزل على نبي أمي ، ولأن من القرآن الناسخ والمنسوخ ، ومنه ما هو جواب لمن سأل
عن أمور ، ففرقناه ليكون أوعى للنبي صلى الله عليه وسلم ، وأيسر على العامل به ، فكان كلما
نزل وحي جديد زاده قوة قلب .

قلت : فإن قيل هلا أنزل القرآن دفعة واحدة وحفظه إذا كان ذلك في قدرته ؟ . قيل :
في قدرة الله أن يعلمه الكتاب والقرآن في لحظة واحدة ، ولكنه لم يفعل ولا معترض عليه
في حكمه ، وقد بينا وجه الحكمة في ذلك . وقد قيل : إن قوله « كَذَلِكَ » من كلام المشركين ،
أى لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك ، أى كالتوراة والإنجيل ، فيتم الوقف على « كَذَلِكَ »
ثم يتبدئ « لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ » . ويجوز أن يكون الوقف على قوله : « جُمْلَةً وَاحِدَةً » ثم يتبدئ
« كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ » على معنى أنزلناه عليك كذلك متفرقا لنثبت به فؤادك . قال

(١) زيادة بقضها المقام . (٢) في ك : ونجمله . (٣) في ب وك : عند النبي .

أبن الأنباري : والوجه الأول أجود وأحسن ، والقول الثاني قد جاء به التفسير ، حدثنا محمد أبن عثمان الشيبني قال حدثنا منجاب قال حدثنا بشر بن عماره عن أبي روق عن الضحاك عن أبن عباس في قوله تعالى : « إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ »^(١) قال : أنزل القرآن جملة واحدة من عند الله عز وجل في اللوح المحفوظ إلى السفرة الكرام الكاتين في السماء ، فنجمه السفرة الكرام على جبريل عشرين ليلة ، ونجه جبريل عليه السلام على محمد عشرين سنة . قال : فهو قوله « فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ »^(٢) يعنى نجوم القرآن « وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَعْلَمُونَ عَظِيمٌ »^(٣) . إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ » . قال : فلما لم ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم جملة واحدة ، قال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ؛ فقال الله تبارك وتعالى : « كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ » يا محمد . (وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا) يقول : ورسلناه ترسيلا ؛ يقول : شيئا بعد شيء .

(وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا) يقول : لو أنزلنا عليك القرآن جملة واحدة ثم سألوك لم يكن عندك ما تجيب به ، ولكن نمسك عليك فإذا سألوك أجبت . قال النحاس : وكان ذلك من علامات النبوة ؛ لأنهم لا يسألون عن شيء إلا أجيبوا عنه ، وهذا لا يكون إلا من نبي ، فكان ذلك تثبيتا لفؤاده وأفئدتهم ، ويدل على هذا « وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا » ولو نزل جملة بما فيه من الفرائض لثقل عليهم ، وعلم الله عز وجل أن الصلاح في إنزاله متفرقا ، لأنهم يذهبون به مرة بعد مرة ، ولو نزل جملة واحدة لزال معنى التنبيه وفيه ناسخ ومنسوخ ، فكانوا يتعبدون بالشيء إلى وقت بعينه قد علم الله عز وجل فيه الصلاح ، ثم ينزل النسخ بعد ذلك ؛ فبحال أن ينزل جملة واحدة : أفعلا وكذا ولا تفعلوا . قال النحاس : والأولى أن يكون التمام « جُمْلَةً وَاحِدَةً »^(٤) لأنه إذا وقف على « كَذَلِكَ » صار المعنى كالتوراة والإنجيل والزبور ولم يتقدم لها ذكر . قال الضحاك : « وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا » أى تفصيلا . والمعنى : أحسن من مثلهم تفصيلا ؛ فحذف لعلم السامع . وقيل : كان المشركون يستمدون من أهل الكتاب وكان قد غلب على أهل الكتاب التحريف

والتبديل ، فكان ما يأتي به النبي صلى الله عليه وسلم أحسن تفسيراً مما عندهم ؛ لأنهم كانوا يخلطون الحق بالباطل ، والحق المحض أحسن من حق مختلط بباطل ، ولهذا قال تعالى : « وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ » .^(١) وقيل : « لَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ » كقولهم في صفة عيسى إنه خلق من غير أب إلا جئناك بالحق أى بما فيه نقض حجتهم كآدم إذ خلق من غير أب وأم .

قوله تعالى : الَّذِينَ يُخَشِّرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُخَشِّرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ﴾ تقدم في « سبحانه » .^(٢) ﴿ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا ﴾ لأنهم في جهنم . وقال مقاتل : قال الكفار لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم هو شر الخلق ؛ فزلت الآية . ﴿ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ أى دينا وطريقا . ونظم الآية : ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق ، وأنت منصور عليهم بالجحج الواضحة ، وهم محشورون على وجوههم . قوله تعالى : وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا ﴿٢٥﴾ فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَتِنَا فَدَمْرنَهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ ﴾ يريد التوراة . ﴿ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا ﴾ تقدم في « طه » ﴿ فَقُلْنَا أَذْهَبَا ﴾ الخطاب لهما . وقيل : إنما أمر موسى صلى الله عليه وسلم بالذهاب وحده في المعنى . وهذا بمنزلة قوله : « نَسِيَا حُوتَهُمَا »^(٣) . وقوله : « يُخْرِجُ مِنْهُمَا^(٤) اللُّؤْلُؤَ وَالْمَرْجَانُ » وإنما يخرج من أحدهما . قال النحاس : وهذا لما لا ينبغي أن يجترأ به على كتاب الله تعالى ، وقد قال جل وعز : « فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّبَنَّا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى » . قَالَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى . قَالَ لَا تَحَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى . فَأَنبَاهُ فَقُولَا

(١) راجع ج ١ ص ٣٦٤ فابعد .

(٢) راجع ج ١٠ ص ٣٣٣ .

(٣) راجع ج ١١ ص ١٩١ و ص ١٢ .

(٤) راجع ج ١٧ ص ١٦١ .

إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ^(١) . ونظير هذا: «وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ^(٢)» . وقد قال جل ثناؤه: «ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا» قال القشيري: وقوله في موضع آخر: «أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى» لا ينافي هذا؛ لأنهما إذا كانا مأمورين فكل واحد مأمور. ويجوز أن يقال: أمر موسى أولاً، ثم لما قال: «وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي» قال: «أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ» . ((إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا)) يريد فرعون وهامان والقبط. ((فَدَمَّرْنَا هُمْ)) في الكلام إضمار؛ أي فكذبوهما ((فَدَمَّرْنَا هُمْ تَدْمِيرًا)) أي أهلكناهم إهلاكاً .

قوله تعالى: وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾

قوله تعالى: ((وَقَوْمَ نُوحٍ)) في نصب «قوم» أربعة أقوال: العطف على الماء والميم في «دَمَّرْنَا هُمْ» . الثاني - بمعنى أذكر . الثالث - بإضمار فعل يفسره ما بعده؛ والتقدير: وأغرقنا قوم نوح أغرقناهم . الرابع - أنه منصوب بـ «أَغْرَقْنَاهُمْ» قاله الفراء . ورده النحاس قال: لأن «أغرقنا» ليس مما يتعدى إلى مفعولين فيعمل في المضمر وفي «قَوْمَ نُوحٍ» . ((لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ)) ذكر الجنس والمراد نوح وحده؛ لأنه لم يكن في ذلك الوقت رسول إليهم إلا نوح وحده؛ فنوح إنما بعث بلا إله إلا الله، وبالإيمان بما ينزل الله، فلما كذبوه كان في ذلك تكذيب لكل من بعث بعده بهذه الكلمة . وقيل: إن من كذب رسولاً فقد كذب جميع الرسل؛ لأنهم لا يفرق بينهم في الإيمان، ولأنه ما من نبي إلا يصدق سائر أنبياء الله، فمن كذب منهم نبياً ففسد كذب كل من صدقه من النبيين . ((أَغْرَقْنَاهُمْ)) أي بالطوفان، على ما تقدم في «هود» . ((وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً)) أي علامة ظاهرة على قدرتنا ((وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ)) أي للشركيين من قوم نوح ((عَذَابًا أَلِيمًا)) أي في الآخرة . وقيل: أي هذه سبيل في كل ظالم .

قوله تعالى: وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرِّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾

(٢) راجع ج ١٧ ص ١٨٣ .

(١) راجع ج ١١ ص ١٩٩ .

(٤) راجع ج ٩ ص ٢٩ فما بعد .

(٣) راجع ج ١٢ ص ١٢٦ فما بعد .

قوله تعالى : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴾ كنه معطوف على « قَوْمَ نُوحٍ » إذا كان « قوم نوح » منصوبا على العطف ، أو بمعنى أذكر . ويجوز أن يكون كنه منصوبا على أنه معطوف على المضمر في « دَمَرْنَاَهُمْ » أو على المضمر في « جَعَلْنَاهُمْ » وهو اختيار النحاس ؛ لأنه أقرب إليه . ويجوز أن يكون منصوبا بإضمار فعل ؛ أي أذكر عادا الذين كذبوا هودا فأهلكهم الله بالريح العقيم ، وثمودا كذبوا صالحا فأهلكوا بالرجفة . و﴿ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ ﴾ والرَّسُّ في كلام العرب البئر التي تكون غير مطوية ، والجمع رساس^(١) . قال :

* تنابلة يحفرون الرِّسَّاسَا *

يعنى آبار المعادن . قال ابن عباس : سألت كعبا عن أصحاب الرس قال : صاحب « يس » الذي قال : « يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ » قتله قومه ورأسه في بئر لهم يقال لها الرس طرحوه فيها ، وكذا قال مقاتل . السدى : هم أصحاب قصة « يس » أهل أنطاكية ، والرس بئر أنطاكية قتلوا فيها حبيبا النجار مؤمن آل « يس » فنسبوا إليها . وقال علي رضي الله عنه : هم قوم كانوا يعبدون شجرة صنوبر فدعا عليهم نبيهم ؛ وكان من ولد يهوذا ، فبست الشجرة فقتلوه ورأسه في بئر ، فأظلمت سخابة سوداء فأحرقتهم . وقال ابن عباس : هم قوم بأذربيجان قتلوا أنبياء بخفت أشجارهم وزرعهم فماتوا جوعا وعطشا . وقال وهب بن منبه : كانوا أهل بئر يقعدون عليها وأصحاب مواشي ، وكانوا يعبدون الأصنام ، فأرسل الله إليهم شعبيا فكذبوه وآذوه ، وتمادوا على كفرهم وطغيانهم ، فبينما هم حول البئر في منازلهم أنهارت بهم وبديارهم ؛ فحسف الله بهم فهلكوا جميعا . وقال قتادة : أصحاب الرس وأصحاب الأيكة أمثان أرسل الله إليهما شعبيا فكذبوه فعدبهما الله بعدايبين . قال قتادة : والرس قرية بفلج اليمامة . وقال عكرمة : هم قوم رأسوا نبيهم في بئر حيا . دليله ما روى محمد بن كعب القرظي عن حدثه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة عبد أسود وذلك أن الله تعالى بعث نبيا إلى قومه فلم يؤمن به إلا ذلك الأسود فخفر أهل القرية بئرا وألقوا فيها نبيهم حيا وأطبقوا عليه حجرا ضخما

(١) هو النابغة الجعدي والتنابلة : رجال قصار .

(٢) راجع ج ١٥ ص ١٧ فإبعد .

وكان العبد الأسود يحتطب على ظهره ويبيعه ويأتيه بطعامه وشرابه فيعينه الله على رفع تلك الصخرة حتى يديه إليه فينما هو يحتطب إذ نام فضرب الله على أذنه سبع سنين نائماً ثم هب من نومه فتمطى واتكأ على شقه الآخر فضرب الله على أذنه سبع سنين ثم هب فأحتمل حزمة الحطب فباعها وأتى بطعامه وشرابه إلى البئر فلم يجده وكان قومه قد أراهم الله تعالى آية فاستخرجوه وآمنوا به وصدقوه ومات ذلك النبي^(١). قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن ذلك العبد الأسود لأول من يدخل الجنة" وذكر هذا الخبر المهدوي والشعبي، واللفظ للشعبي، وقال: هؤلاء آمنوا بنبيهم فلا يجوز أن يكونوا أصحاب الرس؛ لأن الله تعالى أخبر عن أصحاب الرس أنه دمرهم، إلا أن يدمروا بأحداث أحدثوها بعد نبيهم. وقال الكلبي: أصحاب الرس قوم أرسل الله إليهم نبياً فأكلوه. وهم أول من عمل نساؤهم السحق؛ ذكره الماوردي. وقيل: هم أصحاب الأخدود الذين حفروا الأخاديد وحرقوا فيها المؤمنين، وسيأتي. وقيل: هم بقايا من قوم ثمود، وأن الرس البئر المذكورة في «البحر» في قوله: «وَبِئْرٍ مُّعْظَلَةٍ» على ما تقدم. وفي الصحاح: والرس اسم بئر كانت لبقية من ثمود. وقال جعفر بن محمد عن أبيه: أصحاب الرس قوم كانوا يستحسنون لنساؤهم السحق، وكان نساؤهم كلهم سخافات. وروى من حديث أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن من أشراط الساعة أن يكتفى الرجال بالرجال والنساء بالنساء وذلك السحق" وقيل: الرس ماء ونخل لبني أسد. وقيل: الثلج المتراكم في الجبال؛ ذكره القشيري. وما ذكرناه أولاً هو المعروف، وهو كل حفرة آتت كالفير والمعدن والبئر. قال أبو عبيدة: الرس كل ركية لم تطو، وجمعها رساس. قال الشاعر:

وهم سائرون إلى أرضهم * فإليتهم يحفرون الرساسا

والرس اسم واد في قول زهير:

بَكَرْنَ بُكُورًا وَأَسْتَحَرْنَ بِسُحْرَةٍ * فَهَنَ لَوَادِي الرَّسِّ كَالْيَدِ لِلْفِيمِ

ورسست رساً: حفرت بئراً. ورُس الميث أي قبر. والرّس: الإصلاح بين الناس، والإفساد أيضاً وقد رسست بينهم؛ فهو من الأضداد. وقد قيل في أصحاب الرس غير ما ذكرناه، ذكره

(١) راجع ج ١٩ ص ٢٨٤.

(٢) راجع ج ١٢ ص ٧٥.

العلبي وغيره . ﴿ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴾ أى أئماً لا يعلمهم إلا الله بين قوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرس . وعن الربيع بن خيثم أشتكى فقيل له : ألا تتداوى فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر به ؟ قال : لقد هممت بذلك ثم فكرت فيما بينى وبين نفسى فإذا عاد وثمود وأصحاب الرس وقرون بين ذلك كثيرا كانوا أكثر وأشد حرصا على جمع المال ، فكان فيهم أطباء ، فلا الناعت منهم بقى ولا المنعوت ، فأبى أن يتداوى فما مكث إلا خمسة أيام حتى مات ، رحمه الله .

قوله تعالى : ﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾ (٣٩)

قوله تعالى : ﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ ﴾ قال الزجاج . أى وأنذرنا كلا ضربنا له الأمثال وبينا لهم الحجمة ، ولم نضرب لهم الأمثال الباطلة كما يفعلها هؤلاء الكفرة . وقيل : انتصب على تقدير ذكرنا كلا ونحوه ، لأن ضرب الأمثال تذكير ووعظ ، ذكره المهدوى . والمعنى واحد . ﴿ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾ أى أهلكنا بالعذاب . وتبتر الشيء كسره . وقال المؤرج والأخفش : دمرناهم تدميرا . تبدل التاء والباء من الدال والميم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ (٤٠)

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ ﴾ يعنى مشركى مكة . والقرية قرية قوم لوط . و﴿ مَطَرَ السَّوْءِ ﴾ الحجارة التى أمطروا بها . ﴿ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ﴾ أى فى أسفارهم ليعتبروا . قال ابن عباس : كانت قريش فى تجارتها إلى الشام تمر بمدائن قوم لوط كما قال الله تعالى : « وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ » وقال : « وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ » وقد تقدم . ﴿ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ أى لا يصدقون بالبعث . ويجوز أن يكون معنى « يَرْجُونَ » يخافون . ويجوز أن يكون على بابه ويكون معناه : بل كانوا لا يرجون ثواب الآخرة .

قوله تعالى : وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : (وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا) جواب «إِذَا» «إِن يَتَّخِذُونَكَ» لأن معناه يتخذونك . وقيل : الجواب محذوف وهو قالوا أو يقولون : «أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُسْتَهْزِئًا : (أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا) والعائد محذوف ، أى بعثه الله . «رَسُولًا» نصب على الحال والتقدير : أهذا الذى بعثه الله مرسلًا . «أَهَذَا» رفع بالابتداء و «الَّذِي» خبره . «رَسُولًا» نصب على الحال . و «بَعَثَ» فى صلة «الَّذِي» واسم الله عز وجل رفع بـ «بَعَثَ» . ويجوز أن يكون مصدرًا ؛ لأن معنى «بَعَثَ» أرسل ويكون معنى «رَسُولًا» رسالة على هذا . والألف للاستفهام على معنى التقرير والاحتقار . (إِن كَادَ لَيُضِلَّنَا) أى قالوا قد كاد أن يصرفنا . (عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا) أى حبسنا أنفسنا على عبادتها . قال الله تعالى : (وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا) يريد من أضل ديننا أهم أم محمداً ، وقد رأوه فى يوم بدر .

قوله تعالى : أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ

وَكِيلًا ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : (أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ) عَجَب نبيه صلى الله عليه وسلم من إصرارهم على الشرك وإصرارهم عليه مع إقرارهم بأنه خالقهم ورازقهم ، ثم يعمدون إلى حجر يعبدونه من غير حجة . قال الكلبي وغيره : كانت العرب إذا هوى الرجل منهم شيئاً عبده من دون الله ، فإذا رأى أحسن منه ترك الأول وعبد الأحسن ؛ فعلى هذا معنى : أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ؛ فحذف الجار . وقال ابن عباس : الهوى إله يعبد من دون الله ، ثم تلا هذه الآية .

(١) فى ك : ثم يعمدون - يعبدونه وهو خطأ من النسخ وهو إن : يعمدون - يعبدونه - كما تقتضى العبارة .

قال الشاعر :

لعمري أيها لو تبدت لناسك * قد آعزل الدنيا بإحدى المناسك

لصلى لها قبل الصلاة لربه * ولا آرتد في الدنيا بأعمال فانك

وقيل : « آتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ » أى أطاع هواه . وعن الحسن لا يهوى شيئا إلا آتبعه ، والمعنى واحد . ﴿ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ أى حفيظا وكفيلا حتى تردّه إلى الإيمان وتخرجه من هذا الفساد . أى ليست الهداية والضلالة موكلتين إلى مشيئتكَ ، وإنما عليك التبليغ . وهذا رد على القدرية . ثم قيل : إنها منسوخة بآية القتال . وقيل : لم تنسخ ؛ لأن الآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ﴾ ولم يقل أنهم لأن منهم من قد علم أنه يؤمن . وذمهم جل وعز بهذا . « أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ » سماع قبول أو يفكرون فيما تقول فيعقلونه ؛ أى هم بمنزلة من لا يعقل ولا يسمع . وقيل : المعنى أنهم لما لم ينتفعوا بما يسمعون فكأنهم لم يسمعوا ؛ والمراد أهل مكة . وقيل : « أَمْ » بمعنى بل فى مثل هذا الموضع . ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ﴾ أى فى الأكل والشرب لا يفكرون فى الآخرة . ﴿ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ إذ لا حساب ولا عقاب على الأنعام . وقال مقاتل : البهائم تعرف ربها وتهتدى إلى مراعيها وتنقاد لأربابها التى تعقلها ، وهؤلاء لا ينقادون ولا يعرفون ربهم الذى خلقهم ورزقهم . وقيل : لأن البهائم إن لم تعقل صحة التوحيد والنبوة لم تعتقد بطلان ذلك أيضا .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾

(١) فى : أبك .

(٢) فى ك : مراتعها . التى تعلفها .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾ يجوز أن تكون هذه الرؤية من رؤية العين ، ويجوز أن تكون من العلم . وقال الحسن وقتادة وغيرهما : مد الظل من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس . وقيل : هو من غيوبة الشمس إلى طلوعها . والأول أصح ، والدليل على ذلك أنه ليس من ساعة أطيب من تلك الساعة ؛ فإن فيها يجد المريض راحة والمسافر وكل ذي علة : وفيها ترد نفوس الأموات والأرواح منهم إلى الأجساد ، وتطيب نفوس الأحياء فيها . وهذه الصفة مفقودة بعد المغرب . وقال أبو العالية : نهار الجنة هكذا ؛ وأشار إلى ساعة المصلين صلاة الفجر . أبو عبيدة : الظل بالغداة والفيء بالعشي ؛ لأنه يرجع بعد زوال الشمس ؛ سمي فيئا لأنه فاء من المشرق إلى جانب المغرب . قال الشاعر ، وهو حميد ابن ثور يصف سرحة^(١) وكفى بها عن امرأة :

فلا الظِّل من بَرْدِ الضُّحَا تَسْتَطِيعُهُ * ولا الْفَيْء من بَرْدِ الْعِشِيِّ تَذُوقُ

وقال ابن السكيت : الظل ما نسخته الشمس والفيء ما نسخ الشمس . وحكى أبو عبيدة عن رؤية قال : كل ما كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو فيء وظل ، وما لم تكن عليه الشمس فهو ظل . ﴿ وَأَوْ شَاءَ جَعَلْنَاهُ سَاكِئًا ﴾ أى دائماً مستقراً لا تنسخه الشمس . ابن عباس : يريد إلى يوم القيامة ، وقيل : المعنى لو شاء لمنع الشمس الطلوع . ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴾ أى جعلنا الشمس بنسخها الظل عند مجيئها دالة على أن الظل شيء ومعنى ؛ لأن الأشياء تعرف بأضدادها ولولا الشمس ما عرف الظل ، ولولا النور ما عرفت الظلمة . فالدليل فعيل بمعنى الفاعل . وقيل : بمعنى المفعول كالقتيل والدهين والخضيب . أى دللنا الشمس على الظل حتى ذهبت به ؛ أى أتبعناها إياه . فالشمس دليل أى حجة وبرهان ، وهو الذى يكشف المشكل ويوضحه . ولم يؤنث الدليل وهو صفة الشمس لأنه فى معنى الاسم ؛ كما يقال : الشمس برهان والشمس حق . ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ ﴾ يريد ذلك الظل المدود . ﴿ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ أى يسيراً قبضه علينا . وكل أمر ربنا عليه يسير . فالظل مكثه فى هذا الجو بمقدار طلوع

(١) السرحة : واحدة المرح ، وهو شجر كبار عظام لا ترعى وإنما يستظل فيه .

الفجر إلى طلوع الشمس ، فإذا طلعت الشمس صار الظل مقبوضا ، وخلفه في هذا الجو شعاع الشمس فأشرق على الأرض وعلى الأشياء إلى وقت غروبها ، فإذا غربت فليس هناك ظل ، إنما ذلك بقية نور النهار . وقال قوم : قبضه بغروب الشمس ؛ لأنها ما لم تغرب فالظل فيه بقية ، وإنما يتم زواله بحجى الليل ودخول الظلمة عليه . وقيل : إن هذا القبض وقع بالشمس ؛ لأنها إذا طلعت أخذ الظل في الذهاب شيئا فشيئا ؛ قاله أبو مالك وإبراهيم التيمي . وقيل : « ثُمَّ قَبَضْنَاهُ » أى قبضنا ضياء الشمس بالقيء « قَبْضًا يَسِيرًا » . وقيل : « يَسِيرًا » أى سريعا ، قاله الضحاك . قتادة : خفيا ؛ أى إذا غابت الشمس قبض الظل قبضا خفيا ؛ كلما قبض جزء منه جعل مكانه جزء من الظلمة ، وليس يزول دفعة واحدة . فهذا معنى قول قتادة ؛ وهو قول مجاهد .

قوله تعالى : **وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا** ﴿٤٧﴾
فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : **(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا)** يعنى سترًا للخلق يقوم مقام اللباس في ستر البدن . قال الطبري : وصف الليل باللباس تشبيها من حيث يستر الأشياء ويغشاها .

الثانية - قال ابن العربي : ظن بعض العقلة أن من صلى عريانا في الظلام أنه يحزنه ؛ لأن الليل لباس . وهذا يوجب أن يصلى في بيته عريانا إذا أغلق عليه بابه . والستر في [الصلاة] عبادة تختص بها ليست لأجل نظر الناس . ولا حاجة إلى الإطناب في هذا .
الثالثة - قوله تعالى : **(وَالنَّوْمَ سُبَاتًا)** أى راحة لأبدانكم بأنقطاعكم عن الأشغال . وأصل السبات من التمدد . يقال : سبت المرأة شعرها أى نقضته وأرسلته . ورجل مسبوت أى ممدود الخلقة . وقيل : للنوم سبات لأنه بالتمدد يكون ، وفي التمدد معنى الراحة . وقيل :

(١) في الأصول : « في الظلام » . والتصويب من « أحكام القرآن لابن العربي » .

السبت القطع ؛ فالنوم انقطاع عن الاشتغال ؛ ومنه سَبَتَ اليهودُ لانقطاعهم عن الأعمال فيه . وقيل : السبت الإقامة في المكان ؛ فكأن السبات سكون ما وثبت عليه ؛ فالنوم سُبَاتٌ على معنى أنه سكون عن الاضطراب والحركة . وقال الخليل : السبات نوم ثقيل ؛ أى جعلنا نومكم ثقيلاً ليكمل الإجمام والراحة .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴾ من الانتشار للعاش ؛ أى النهار سبب الإحياء الانتشار . شبه اليقظة فيه بتطابق الإحياء مع الإمامة . وكان عليه السلام إذا أصبح قال : « الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور » .

قوله تعالى : وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ^ج وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ نُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ تقدم في « الأعراف »^(١) مستوفى .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ .

فيه خمس عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : « مَاءً طَهُورًا » يتطهر به ؛ كما يقال : وضوء لاء الذى يتوضأ به . وكل طهور طاهر وليس كل طاهر طهورا . فالطهور (بفتح الطاء) الاسم . وكذلك الوضوء والوقود . وبالضم المصدر ، وهذا هو المعروف في اللغة ؛ قاله ابن الأنباري . فبين أن الماء المنزل من السماء طاهر في نفسه مطهر لغيره ؛ فإن الطهور بناء مبالغة في طاهر ، وهذه المبالغة اقتضت أن يكون طاهرا مطهرا . وإلى هذا ذهب الجمهور . وقيل : إن « طَهُورًا » بمعنى طاهر ؛ وهو قول أبي حنيفة ؛ وتعلق بقوله تعالى : « وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا »^(٢) .

(٢) راجع ج ١٩ ص ١٤٥ .

(١) راجع ج ٧ ص ٢٢٨ ر « نشرا » بالنون قراءة نافع .

وبقول الشاعر :

خليلٌ هل في نظرة بعد توبة * أداوى بها قلبي على بخُورٍ
إلى رُجِّج الأكَفَالِ غِيْدٍ من الظُّبَا ^(١) * عذاب الشيا رِيْقُهُنَّ طَهُورُ

فوصف الريق بأنه طهور وليس بمطهر . وتقول العرب : رجل تؤوم وليس ذلك بمعنى أنه منيم لغيره ، وإنما يرجع ذلك إلى فعل نفسه . واقد أجاب علماؤنا عن هذا فقالوا : وصف شراب الجنة بأنه طهور يفيد التطهير عن أوضار الذنوب وعن خساس الصفات كالغل والحسد ، فإذا شربوا هذا الشراب يطهرهم الله من رخص الذنوب وأوضار الاعتقادات الذميمة ، فبأعوا الله بقلب سليم ، ودخلوا الجنة بصفات التسليم ، وقيل لهم حينئذ : «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ» . ولما كان حكمه في الدنيا بزوال حكم الحدث بمریان الماء على الأعضاء كانت تلك حكمته في الآخرة . وأما قول الشاعر :

* ... رِيْقُهُنَّ طَهُورُ *

فإنه قصد بذلك المبالغة في وصف الريق بالطهورية لعدوئته وتعلقه بالقلوب ، وطيبه في النفوس ، وسكون غليل الحب برشفه حتى كأنه الماء الطهور ، وبالجمله فإن الأحكام الشرعية لا تثبت بالمجازاة الشعرية ؛ فإن الشعراء يتجاوزون في الاستغراق حد الصدق إلى الكذب ، ويسترسلون في القول حتى يخرجهم ذلك إلى البدعة والمعصية ، وربما وقعوا في الكفر من حيث لا يشعرون . ألا ترى إلى قول بعضهم :

ولو لم تُلاَمِسْ صفحة الأرض رجلها * لما كنت أدري علةً للنيم

وهذا كفر صراح ، نعوذ بالله منه . قال القاضي أبو بكر بن العربي : هذا منتهى لباب كلام العلماء ، وهو بالغ في فنّه ؛ إلا أني تأملت من طريق العربية فوجدت فيه

(١) في آبن العربي واللسان مادة « رَجَج » :

* إلى رَجَج الأكَفَالِ هيف خصوصها *

وأمرأة رَجَاح وراجح ، ثقيلة العجيزة ، من نسوة رَجَج .

(٢) في ب وزوك : حكمته ورحمته .

(٣) راجع ج ١٥ ص ٢٨٤ فما بعد .

مطلعا مشرقا ، وهو أن بناء فعول للبالغة ، إلا أن المبالغة قد تكون في الفعل المتعدي كما قال الشاعر :

* ضَرُوبٌ بِنَصْلِ السَّيْفِ سَوْقَ سِمَانِهَا ^(١) *

وقد تكون في الفعل الفاعل كما قال الشاعر :

* نَوُومُ الضُّحَا لَمْ تَنْتَطِقْ عَنْ تَفَضُّلٍ ^(٢) *

وإنما تؤخذ طهورية الماء لغيره من الحسن نظافة ومن الشرع طهارة ؛ كقوله عليه السلام : ” لا يقبل الله صلاة بغير طهور “ . وأجمعت الأمة لغة وشريعة على أن وصف طهور يختص بالماء فلا يتعدى إلى سائر المائعات وهي طاهرة ؛ فكان اقتصارهم بذلك على الماء أدل دليل على أن الطهور هو المطهر ، وقد يأتي فعول لوجه آخر ليس من هذا كله وهو العبارة به عن الآلة للفعل لا عن الفعل كقولنا : وَقُودٌ وَسَحُورٌ بَفَتْحِ الْفَاءِ ، فإنها عبارة عن الحطب والطعم المتسحر به ؛ فوصف الماء بأنه طهور (بفتح الطاء) أيضا يكون خبرا عن الآلة التي يتطهر بها . فإذا ضمت الفاء في الوقود والسحور والطهور عاد إلى الفعل وكان خبرا عنه . فثبت بهذا أن اسم الفعول (بفتح الفاء) يكون بناء للبالغة ويكون خبرا عن الآلة ، وهو الذي خطر ببال الحنفية ، ولكن قصرت أشداقها عن تركه ، وبعد هذا يقف البيان عن المبالغة وعن الآلة على الدليل بقوله تعالى : « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا » . وقوله عليه السلام : ” جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا “ . يحتمل المبالغة ويحتمل العبارة به عن الآلة ؛ فلا حجة فيه لعلمائنا ، لكن يبقى قوله : « لِيُطَهَّرَ كُمْ بِهِ ^(٣) » نص في أن فعله يتعدى إلى غيره .

الثانية — المياه المنزلة من السماء والمودعة في الأرض طاهرة مطهرة على اختلاف ألوانها وطعومها وأرياحها حتى يخالطها غيرها ، والمخالط لاء على ثلاثة أضرب : ضرب يوافقه

(١) هذا صدر بيت من قصيدة لأبي طالب بن عبد المطلب يمدح بها مسافرين عمرو القرشي ؛ وتسماه .

* إذا عدوا زادا فإنك عاقر *

(٢) هذا عجز بيت من معلقة امرئ القيس ؛ وصدره :

* ويضحى فتبت المسك فوق فراشها *

(٣) راجع ج ٧ ص ٣٧ .

والانتطاق : الانتزاع للعمل . والنضل : التوشع ، وهو لبسها أدنى ثيابها .

في صفتيه جميعا، فإذا خالطه فغيره لم يسلبه وصفا منهما لموافقته لها وهو التراب . والضرب^(١) الثاني يوافق في إحدى صفتيه وهي الطهارة، فإذا خالطه فغيره سلبه ماخالفه فيه وهو التطهير؛ كما ورد وسائر الطاهرات . والضرب الثالث يخالفه في الصفتين جميعا، فإذا خالطه فغيره سلبه الصفتين جميعا لمخالفته له فيهما وهو النجس .

الثالثة — ذهب المصريون من أصحاب مالك إلى أن قليل الماء يفسده قليل النجاسة، وأن الكثير لا يفسده إلا ما غير لونه أو طعمه أو ريحه من المحرمات . ولم يحدوا بين القليل والكثير حدًا يوقف عنده، إلا أن ابن القاسم روى عن مالك في الجنب يقتل في حوض من الحياض التي تسقى فيها الدواب ولم يكن غسل ما به من الأذى أنه قد أفسد الماء؛ وهو مذهب بن القاسم وأشهب وابن عبد الحكم ومن أتبعهم من المصريين . إلا أن وهب فإنه يقول في الماء بقول المدنيين من أصحاب مالك . وقولهم ما حكاه أبو مصعب عنهم وعنه : أن الماء لا يفسده النجاسة الحالة فيه قليلا كان أو كثيرا إلا أن تظهر فيه النجاسة [الحالة فيه] وتغير منه^(٢) طعما أو ريحا أو لونا . وذكر أحمد بن المعتدل أن هذا قول مالك بن أنس في الماء . وإلى هذا ذهب إسماعيل بن إسحق ومحمد بن بكير وأبو الفرج الأبهري وسائر المستحليين لمذهب مالك من البغداديين؛ وهو قول الأوزاعي والليث بن سعد والحسن بن صالح وداود بن علي . وهو مذهب أهل البصرة، وهو الصحيح في النظر وجيد الأثر . وقال أبو حنيفة : إذا وقعت نجاسة في الماء أفسدته كثيرا كان أو قليلا إذا تحققت عموم النجاسة فيه . ووجه تحققها عنده أن تقع مثلا نقطة بول في بركة، فإن كانت البركة يتحرك طرفاها يتحرك أحدهما فالكل نجس، وإن كانت حركة أحد الطرفين لا تحرك الآخر لم ينجس . وفي المجموعة نحو مذهب أبي حنيفة . وقال الشافعي بحديث القلتين، وهو حديث مطعون فيه؛ اختلف في إسناده ومتنه؛ أخرجه أبو داود والترمذي وخاصة الدارقطني، فإنه صدّره بكتابه وجمع طرقه . قال ابن العربي : وقد رام الدارقطني على إمامته أن يصحح حديث القلتين فلم يقدر . وقال أبو عمر بن عبد البر : وأما ما ذهب إليه الشافعي من حديث القلتين فذهب ضعیف من جهة النظر، غير ثابت

(١) قوله التطهير . المراد به رفع الحدث . محققه . (٢) في ك : البصريون . ويبدو أنه غلط من النسخ .

(٢) من ك . (٤) في ك : فلم يستطع .

في الأثر؛ لأنه قد تكلم فيه جماعة من أهل العلم بالنقل ، ولأن القلتين لا يوقف على حقيقة مبلغهما في أثرتاب ولا إجماع ، فلو كان ذلك حدا لازما لوجب على العلماء البحث عنه ليقفوا على حد ما حدّه النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لانه من أصل دينهم وفرضهم ، ولو كان ذلك كذلك ما ضيعوه ، فلقد بحثوا عما هو أدون من ذلك وألطف .

قلت : وفيما ذكر ابن المنذر في القلتين من الخلاف يدل على عدم التوقيف فيهما والتحديد . وفي سنن الدارقطني عن حماد بن زيد عن عاصم بن المنذر قال : القلال الخوابي العظام . وعاصم هذا هو أحد رواة حديث القلتين . ويظهر من قول الدارقطني أنها مثل قلال هجر ؛ لسياقه حديث الإسراء عن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " لما رفعت إلى سيدة المنتهى في السماء السابعة نبقتها مثل قلال هجر وورقها مثل آذان الفيلة " وذكر الحديث . قال ابن العربي : وتعلق علماؤنا بحديث أبي سعيد الخدري في بئر بضاعة ، رواه النسائي^(١) والترمذي وأبو داود وغيرهم . وهو أيضا حديث ضعيف لا قدم له في الصحة فلا تعويل عليه . وقد فاوضت الطوسي الأكبر في هذه المسئلة فقال : إن أخلص المذاهب في هذه المسئلة مذهب مالك ، فإن الماء طهور ما لم يتغير أحد أوصافه ؛ إذ لا حديث في الباب يعول عليه ، وإنما المعول على ظاهر القرآن وهو قوله تعالى : « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا » وهو ما دام بصفاته ، فإذا تغير عن شيء منها خرج عن الأسم لخروجه عن الصفة ، ولذلك لما لم يجد البخاري إمام الحديث والفقه في الباب خبرا يعول عليه قال : (اب إذا تغير وصف الماء) وأدخل الحديث الصحيح : " ما من أحد يكلم في سبيل الله والله أعلم بمن يكلم في سبيله إلا جاء يوم القيامة وجرحه يشعب^(٢) دما اللون لون الدم والريح ريح المسك " . فأخبر صلى الله عليه وسلم أن الدم بحاله وعليه رائحة المسك ، ولم تخرجه الرائحة عن صفة الدموية . ولذلك قال علماؤنا : إذا تغير الماء بریح جيفة على طرفه وساحله لم يمنع ذلك الوضوء منه . ولو تغير بها وقد وضعت فيه لكان ذلك تنجيسا له للمخالطة والأول مجاورة [لا تعويل عليها]^(٣) .

(١) بئر بضاعة : بئر قديمة بالمدينة . ويقال إن بضاعة أمم المرأة نسبت إليها البئر . (٢) يشعب : يجري .

(٣) هذه زيادة من الأحكام لابن العربي .

قلت : وقد استدلل به أيضا على نقيض ذلك ، وهو أن تغير الرائحة يخرج به عن أصله .
 ووجه هذا الاستدلال أن الدم لما استجالت رائحته إلى رائحة المسك خرج عن كونه مستخبثا
 نجسا ، وأنه صار مسكيا ، وإن المسك بعض دم الغزال .

فكذلك الماء إذا تغيرت رائحته . وإلى هذا التأويل ذهب الجمهور في الماء .
 وإلى الأول ذهب عبد الملك . قال أبو عمر : جعلوا الحكم للرائحة دون اللون ، فكان الحكم
 لها فاستدلوا عليها في زعمهم بهذا الحديث . وهذا لا يفهم منه معنى تسكن إليه النفس ،
 ولا في الدم معنى الماء فيقاس عليه ، ولا يشتغل بمثل هذا الفقهاء ، وليس من شأن أهل العلم
 اللغز به وإشكاله ، وإنما شأنهم إيضاحه وبيانه ، ولذلك أخذ الميثاق عليهم ليبيننه للناس
 ولا يكتُمونه ، والماء لا يخلو تغيره بنجاسة أو بغير نجاسة ، فإن كان بنجاسة وتغير فقد أجمع
 العلماء على أنه غير طاهر ولا مطهر ، وكذلك أجمعوا أنه إذا تغير بغير نجاسة أنه طاهر على
 أصله . وقال الجمهور : إنه غير مطهر إلا أن يكون تغيره من تربة و ماء . وما أجمعوا عليه
 فهو الحق الذي لا إشكال فيه ، ولا التباس معه .

الرابعة — الماء المتغير بقراره كزنيخ أو جير يجرى عليه ، أو تغير بطحلب أو ورق
 شجر ينبت عليه لا يمكن الاحتراز عنه فاتفق العلماء أن ذلك لا يمنع من الوضوء به ، لعدم
 الاحتراز منه والآنفكك عنه ؛ وقد روى ابن وهب عن مالك أن غيره أولى منه .

الخامسة — قال علماؤنا رحمة الله عليهم : ويكره سؤر النصراني وسائر الكفار والمدمن
 الخمر ، وما أكل الجيف ، كالكلاب وغيرها . ومن توضأ بسؤرهم فلا شيء عليه حتى
 يستيقن النجاسة . قال البخاري : وتوضأ عمر رضي الله عنه من بيت نصرانية . ذكر سفيان
 ابن عيينة قال : حدثونا عن زيد بن أسلم عن أبيه قال : لما كنا بالشام أتيت عمر بن الخطاب
 بماء فتوضأ منه فقال : من أين جئت بهذا الماء ؟ ما رأيت ماء عذبا ولا ماء سماء أطيب منه .
 قال قلت : جئت به من بيت هذه العجوز النصرانية ؛ فلما توضأ أنهاها فقال : أيتها العجوز
 أسلمي تسلمي ، بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم بالحق . قال : فكشفت عن رأسها ؛ فإذا

(١)

مثل الثغامة ، فقالت : عجوز كبيرة ، وإنما أموت الآن ! فقال عمر رضى الله عنه : اللهم أشهد . أخرجه الدارقطني ، حدثنا الحسين بن إسماعيل قال حدثنا أحمد بن إبراهيم البوشنجي قال حدثنا سفيان . . فذكره . ورواه أيضا عن الحسين بن إسماعيل قال حدثنا خلاد بن أسلم حدثنا سفيان عن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه توضأ من بيت نصرانية أتاه فقال : أيتها العجوز أسلمى ... ؛ وذكر الحديث بمثل ما تقدم .

السادسة — فأما الكلب إذا ولغ في الماء فقال مالك : يغسل الإناء سبعا ولا يتوضأ منه وهو طاهر . وقال الثوري : يتوضأ بذلك الماء ويتيمم معه . وهو قول عبد الملك ابن عبد العزيز ومحمد بن مسلمة . وقال أبو حنيفة : الكلب نجس ، ويغسل الإناء منه لأنه نجس . وبه قال الشافعي وأحمد وإسحق . وقد كان مالك يفرق بين ما يجوز آخذه من الكلاب وبين ما لا يجوز آخذه منها في غسل الإناء من ولوغه . وتحصيل مذهبه أنه طاهر عنده ، لا ينجس ولوغه شيئا ولغ فيه طعاما ولا غيره ؛ إلا أنه استحب هراقة ما ولغ فيه من الماء ليسارة مؤنته . وكلب البادية والحاضرة سواء . ويغسل الإناء منه على كل حال سبعا تعبدا . هذا ما استقر عليه مذهبه عند المناظرين من أصحابه . ذكر ابن وهب قال : حدثنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن عطاء عن أبي هريرة قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحياض التي تكون فيما بين مكة والمدينة ، ف قيل له : إن الكلاب والسباع ترد عليها . فقال : ” لها ما أخذت في بطونها ولنا ما بقي شراب وطهور “ أخرجه الدارقطني . وهذا نص في طهارة الكلاب وطهارة ما تلغ فيه . وفي البخاري عن ابن عمر أن الكلاب كانت تقبل وتدبر في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يرشون شيئا من ذلك . وقال عمر بحضرة الصحابة لصاحب الحوض الذي سأله عمرو بن العاص : هل ترد حوضك السباع . فقال عمر : يا صاحب الحوض ، لا تخبرنا فإننا نرد على السباع وترد علينا . أخرجه مالك والدارقطني . ولم يفرق بين السباع ، والكلب من جملتها ، ولا حجة للمخالف

(١) الثغامة : نبات أبيض الثمر والزهر يشبه بياض الشيب به .

في الأمر بإزالة ما ولغ فيه وأن ذلك للنجاسة ، وإنما أمر بإزاقته لأن النفس تعافه لا لنجاسته ؛ لأن التنزه من الأقدار مندوب إليه ، أو تغليظا عليهم لأنهم نهوا عن آفتنائها كما قاله ابن عمر والحسن ؛ فلما لم ينتهوا عن ذلك غلظ عليهم في الماء لقلته عندهم في البداية ، حتى يشتد عليهم فيمتنعوا من آفتنائها . وأما الأمر بغسل الإناء فعبادة لا لنجاسته كما ذكرناه بدليلين : أحدهما — أن الغسل قد دخله العدد . الثاني — أنه جعل للتراب فيه مدخل لقوله عليه السلام : ” وعفّروه الثامنة بالتراب “ . ولو كان للنجاسة لما كان للعدد ولا للتراب فيه مدخل كالبول . وقد جعل صلى الله عليه وسلم الهز وما ولغ فيه طاهرا ، والهز سبع لا خلاف في ذلك ؛ لأنه يفترس ويأكل الميتة ؛ فكذلك الكلب وما كان مثله من السباع ؛ لأنه إذا جاء نص في أحدهما كان نصا في الآخر . وهذا من أقوى أنواع القياس . هذا لو لم يكن هناك دليل ؛ وقد ذكرنا النص على طهارته فسقط قول المخالف . والحمد لله .

السابعة — ما مات في الماء مما لا دم له فلا يضر الماء إن لم يغير ريحه ؛ فإن أتن لم يتوضأ به . وكذلك ما كان له دم سائل من دواب الماء كالحوت والضفدع لم يفسد ذلك الماء موته فيه ؛ إلا أن تتغير رائحته ، فإن تغيرت رائحته وأتن لم يحز التطهر به ولا الوضوء منه ، وليس بنجس عند مالك . وأما ماله نفس سائلة فمات في الماء ونزع مكانه ولم يغير لونه ولا طعمه ولا ريحه فهو طاهر مطهر سواء كان الماء قليلا أو كثيرا عند المدنيين . وأستحب بعضهم أن ينزع من ذلك الماء دلاء لتطيب النفس به ، ولا يحذون في ذلك حدا لا يتعدى . ويكرهون استعمال ذلك الماء قبل نزع الدلاء ، فإن استعمله أحد في غسل أو وضوء جاز إذا كانت حاله ما وصفنا . وقد كان بعض أصحاب مالك يرى لمن توضأ بهذا الماء وإن لم يتغير أن يتيمم ، فيجمع بين الطهارتين احتياطا ، فإن لم يفعل وصلى بذلك الماء أجزأه . وروى الدارقطني عن محمد بن سيرين أن زنجيا وقع في زمزم — يعني فمات — فأمر به ابن عباس رضي الله عنه فأخرج فأمر بها أن تنزع . قال : فغلبتهم عين جأته من

الركن فأمر بها فدسّمت بالقُباطي^(١) والمطارف حتى نزحوها، فلما نزحوها انفجرت عليهم . وأخرجه عن أبي الطفيل أن غلاما وقع في بئر زمزم فترحت . وهذا يحتمل أن يكون الماء تغير ، والله أعلم . وروى شعبة عن مغيرة عن إبراهيم أنه كان يقول : كل نفس سائلة لا يتوضأ منها ، ولكن رخص في الخنفساء والعقرب والجراد والجُذجُد إذا وقعن في الرِّكَّاء^(٢) فلا بأس به . قال شعبة : وأظنه قد ذكر الوزغة . أخرجه الدارقُطني^(٣) ، حدّثنا الحسين بن إسماعيل قال حدّثنا محمد بن الوليد قال حدّثنا محمد بن جعفر قال حدّثنا شعبة ... ؛ فذكره .

الثامنة — ذهب الجمهور من الصحابة وفقهاء الأمصار وسائر التابعين بالحجاز والعراق أن ما ولغ فيه الهر من الماء طاهر ، وأنه لا بأس بالوضوء بسؤره ؛ لحديث أبي قتادة ، أخرجه مالك وغيره . وقد روى عن أبي هريرة فيه خلاف . وروى عن عطاء بن أبي رباح وسعيد ابن المسيّب ومحمد بن سيرين أنهم أمروا بإراقة ماء ولغ فيه الهر وغسل الإناء منه . وأختلف في ذلك عن الحسن . ويحتمل أن يكون الحسن رأى في فمه نجاسة ليصح مخرج الروايتين عنه . قال الترمذي لما ذكر حديث مالك : « وفي الباب عن عائشة وأبي هريرة ، هذا حديث حسن صحيح ، وهو قول أكثر أهل العلم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم والتابعين ومن بعدهم ؛ مثل الشافعي وأحمد وإسحق ، لم يروا بسؤر الهريرة بأسا » . وهذا أحسن شيء في الباب ، وقد جَوَّد مالك هذا الحديث عن إسحق بن عبد الله بن أبي طلحة ، ولم يأت به أحد أئمة من مالك . قال الحافظ أبو عمر : الحجّة عند التنازع والاختلاف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد صح من حديث أبي قتادة أنه أصغى لها الإناء حتى شربت . الحديث . وعليه اعتماد الفقهاء في كل عصر إلا أبا حنيفة ومن قال بقوله ؛ فإنه كان يكره سؤره . وقال : إن توضأ به أحد أجزاءه ، ولا أعلم حجة لمن كره الوضوء بسؤر الهريرة أحسن من أنه لم يبلغه حديث أبي قتادة ، وبلغه حديث أبي هريرة في الكلب فقاس الهر عليه ، وقد فرقت السنة بينهما في باب

(١) دسم الشيء يدمسه دسما : سدّه . والقباطي (بالضم) : ثياب من تخان رقيق يعمل بمصر ؛ نسبة إلى القبط على غير قياس . والمطارف : جمع مطرف ، وهو رداء من خز مربع ذرأعلام . (٢) الجذجد كهدد طوير شبه الجرادة . قول هو الصرصر . (٣) الركاء (جمع ركوة) : إناء صغير من جلد يشرب فيه الماء .

التعبد في غسل الإناء ، وَمَنْ حَجَّته السنة خاصته ، وما خالفها مطرح . وبالله التوفيق .
ومن حجَّتهم أيضا ما رواه قزّة بن خالد عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ” طهور الإناء إذا ولغ فيه الهر أن يغسل مرة أو مرتين ” شك قرة . وهذا الحديث لم يرفعه إلا قرة بن خالد ، وقرة ثقة ثبت .

قلت : هذا الحديث أخرجه الدارقطني ، ومثله : ” طهور الإناء إذا ولغ فيه الكلب أن يغسل سبع مرات الأولى بالتراب والهر مرة أو مرتين ” . قرة شك . قال أبو بكر : كذا رواه أبو عاصم مرفوعا ، ورواه غيره عن قرة (وادع الكلب) مرفوعا و (وادع الهر) موقوفا . وروى أبو صالح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” يغسل الإناء من الهر كما يغسل من الكلب ” قال الدارقطني : لا يثبت هذا مرفوعا والمحفوظ من قول أبي هريرة وأختلف عنه . وذكر معمر وأبن جريج عن ابن طاوس عن أبيه أنه كان يجعل الهر مثل الكلب . وعن مجاهد أنه قال في الإناء يلغ فيه السنور قال : آغسله سبع مرات . قاله الدارقطني .

التاسعة — الماء المستعمل طاهر إذا كانت أعضاء المتوضئ به طاهرة ؛ إلا أن مالكا وجماعة من الفقهاء الحلة كانوا يكرهون الوضوء به . وقال مالك : لا خير فيه ، ولا أحب لأحد أن يتوضأ به ، فإن فعل وصلى لم أر عليه إعادة الصلاة ويتوضأ لما يستقبل . وقال أبو حنيفة والشافعي وأصحابهما : لا يجوز استعماله في رفع الحدث ، ومن توضأ به أعاد ؛ لأنه ليس بماء مطلق ، ويتم واجده لأنه ليس بواجد ماء . وقال بقولهم في ذلك أصيب بن الفرج ، وهو قول الأوزاعي . واحتجوا بحديث الصنابحي أخرجه مالك وحديث عمرو بن عتبة أخرجه مسلم ، وغير ذلك من الآثار . وقالوا : الماء إذا توضئ به خرجت الخطايا معه ؛ فوجب التنزه عنه لأنه ماء الذنوب . قال أبو عمر : وهذا عندي لا وجه له ؛ لأن الذنوب لا تنجس الماء لأنها لا أشخاص لها ولا أجسام تمازج الماء فتفسده ، وإنما معنى قوله : « خرجت الخطايا مع الماء » إعلام منه بأن الوضوء للصلاة عمل يكفر الله به السيئات عن عباده (١) في ك : وابتوضأ .

المؤمنين رحمة منه بهم وتفضلا عليهم . وقال أبو ثور وداود مثل قول مالك ، وأن الوضوء بالماء المستعمل جائز ؛ لأنه ماء طاهر لا ينضاف إليه شيء وهو ماء مطلق . واحتجوا بإجماع الأمة على طهارته إذا لم يكن في أعضاء المتوضئ نجاسة . وإلى هذا ذهب أبو عبد الله المروزي^(١) محمد بن نصر . وروى عن علي بن أبي طالب وأبن عمر وأبي أمامة وعطاء بن أبي رباح والحسن البصري والنخعي^(٢) ومكحول والزهرى أنهم قالوا فيمن نسي مسح رأسه فوجد في لحيته بللا : إنه يجزئه أن يمسح بذلك البلل رأسه ؛ فهؤلاء كلهم أجازوا الوضوء بالماء المستعمل . روى عبد السلام بن صالح حدثنا إسحاق بن سويد عن العلاء بن زياد عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم مرضى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يخرج عليهم ذات يوم وقد آغسل وقد بقيت لمعة من جسده لم يصبها الماء ، فقلنا : يا رسول الله ، هذه لمعة لم يصبها الماء ؛ فكان له شعر وارد ، فقال بشعره هكذا على المكان قبله . أخرجه الدارقطني^(٣) ، وقال : عبد السلام بن صالح هذا بصرى وليس بقوى ، وغيره من الثقات يرويه عن إسحاق عن العلاء مرسلًا ، وهو الصواب .

قلت : الراوى الثقة عن إسحاق بن سويد العدوى عن العلاء بن زياد العدوى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم آغسل ... ؛ الحديث فيما ذكره هشيم . قال ابن العربي : «مسئلة الماء المستعمل إنما تنبئ على أصل آخر ، وهو أن الآلة إذا أدى بها فرض هل يؤدي بها فرض آخر أم لا ؛ فمنع ذلك المخالف قياسا على الرقبة إذا أدى بها فرض عتق لم يصلح أن يتكرر في أداء فرض آخر ؛ وهذا باطل من القول ، فإن العتق إذا أتى على الرق أنلفه فلا يبقى محل لأداء الفرض بعق آخر . ونظيره من الماء ما تلف على الأعضاء فإنه لا يصح أن يؤدي به فرض آخر لتلف عينه حسا كما تلف الرق في الرقبة بالعتق حكما ، وهذا نفيس فتأملوه » .

(١) أى مسترسل طويل . (٢) العرب تجعل القول عبارة عن جميع الأفعال ، وتطلقه على غير الكلام واللسان ؛ فنقول : قال بيده ، أى أخذ . وقال برجله ؛ أى مشى : وقال بالماء على يده ؛ أى قلب . وقال بشوبه ، أى رفعه . وكل ذلك على المجاز والاتساع .

العاشرة — لم يفرق مالك وأصحابه بين الماء تقع فيه النجاسة وبين النجاسة يرد عليها الماء ، راكدا كان الماء أو غير راكد ؛ لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” الماء لا ينجسه شيء إلا ما غلب عليه فغير طعمه أو لونه أو ريحه “ . وفرقت الشافعية فقالوا : إذا وردت النجاسة على الماء تنجس ؛ واختاره ابن العربي . وقال : من أصول الشريعة في أحكام المياه أن ورود النجاسة على الماء ليس كورود الماء على النجاسة ؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم : ” إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يغمس يده في الإناء حتى يغسلها ثلاثا فإن أحدكم لا يدرى أين باتت يده “ . فتنع من ورود اليد على الماء وأمر بإيراد الماء عليها ، وهذا أصل بديع في الباب ، ولولا وروده على النجاسة — قليلا كان أو كثيرا — لما طهرت . وقد ثبتت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في بول الأعرجي في المسجد : ” صبوا عليه دُوبًا من ماء “^(١) . قال شيخنا أبو العباس : وأستدلوا أيضا بحديث القلتين ، فقالوا : إذا كان الماء دون القلتين فخلته نجاسة تنجس وإن لم تغيره ، وإن ورد ذلك القدر فأقل على النجاسة فأذهب عنها بقى الماء على طهارته وأزال النجاسة . وهذه مناقضة ، إذ المخالطة قد حصلت في الصورتين ، وتفرقهم ورود الماء على النجاسة وورودها عليه فرق ضروري ليس فيه من الفقه شيء ، فليس الباب باب التعبدات بل من باب عقلية المعاني ، فإنه من باب إزالة النجاسة وأحكامها . ثم هذا كله منهم يردده قوله عليه الصلاة والسلام : ” الماء طهور لا ينجسه شيء إلا ما غلب لونه أو طعمه أو ريحه “ .

قلت : هذا الحديث أخرجه الدارقطني عن رشدين بن سعد أبي الحجاج عن معاوية ابن صالح عن راشد بن سعد عن أبي أمامة الباهلي وعن ثوبان عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وليس فيه ذكر اللون . وقال : لم يرفعه غير رشدين بن سعد عن معاوية بن صالح وليس بالقوى ، وأحسن منه في الاستدلال ما رواه أبو أسامة عن الوليد بن كثير عن محمد بن كعب عن عبيد الله بن عبد الله بن رافع بن خديج عن أبي سعيد الخدري قال قيل : يا رسول الله ،

(١) الذنوب (بالفتح) : الدلو .

(١)
 أنتوضأ من بئر بضاعة ؟ وهى بئر تلقى فيها الحيض ولحوم الكلاب والنتن ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” إن الماء طهور لا ينجسه شيء “ أخرجه أبو داود والترمذى والدارقطنى . كلهم بهذا الإسناد . وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن ، وقد جود أبو أسامة هذا الحديث ولم يرو أحد حديث أبي سعيد فى بئر بضاعة أحسن مما روى أبو أسامة . فهذا الحديث نص فى ورود النجاسة على الماء ، وقد حكم صلى الله عليه وسلم بطهارته وطهوره . قال أبو داود : سمعت قتبية بن سعيد قال سألت قيم بئر بضاعة عن عمهها ؛ قلت : أكثر ما يكون الماء فيها ؟ قال : إلى العانة . قلت : فإذا تقيص ؟ قال : دون الدورة . قال أبو داود : وقد رت بئر بضاعة بردأى مددته عليها ثم ذرعه فإذا عرضها ستة أذرع ؛ وسألت الذى فتح لى باب البستان فأدخانى إليه : هل غير بناؤها عما كانت عليه ؟ فقال لا . ورأيت فيها ماء متغير اللون . فكان هذا دليلا لنا على ما ذكرناه ، غير أن ابن العربى قال : إنها فى وسط السبخة ، فمائها يكون متغيرا من قرارها ؛ والله أعلم .

الحادية عشرة — الماء الطاهر المطهر الذى يجوز به الوضوء وغسل النجاسات هو الماء القراح الصافى من ماء السماء والأنهار والبحار والعيون والآبار ، وما عرفه الناس ماء مطلقا غير مضاف إلى شىء خالطه كما خلقه الله عز وجل صافيا ولا يضره لون أرضه على ما بيناه . وخالف فى هذه الجملة أبو حنيفة وعبد الله بن عمرو وعبد الله بن عمر فأما أبو حنيفة فأجاز الوضوء بالنبيذ فى السفر ، وجوز لإزالة النجاسة بكل مائع طاهر . فأما بالدهن والمرق فعنه رواية أنه لا يجوز إزالتها به . إلا أن أصحابه يقولون : إذا زالت النجاسة به جاز . وكذلك عنده النار والشمس ؛ حتى أن جلد الميتة إذا جف فى الشمس طهر من غير دباغ . وكذلك النجاسة على الأرض إذا جفت بالشمس فإنه يظهر ذلك الموضع ، بحيث تجوز الصلاة عليه ، ولكن لا يجوز التيمم بذلك التراب . قال ابن العربى : لما وصف الله سبحانه الماء بأنه طهور وآمن بإنزاله من السماء ليظهرنا به دل على اختصاصه بذلك ؛ وكذلك قال عليه الصلاة

(١) الحيض : الخرق التى يمسح بها دم الحيض ؛ ويقال لها الحايض .

(١) والسلام لأتماء بنت الصديق حين سأله عن دم الحيض يصيب الثوب : ” حُتِّبَهُ ثُمَّ أَقْرِصِيهِ ثُمَّ آغْسِلِيهِ بِالماء “ . فإذ ذلك لم يلحق غير الماء بالماء لما في ذلك من إبطال الأمتان ، وليست النجاسة معنى محسوسا حتى يقال كل ما أزالها فقد قام به الغرض ، وإنما النجاسة حكم شرعى عين له صاحب الشرع الماء فلا يلحق به غيره ؛ إذ ليس في معناه ، ولأنه لو لحق به لأسقطه ، والفرع إذا عاد إلحاقه بالأصل في إسقاطه سقط في نفسه . وقد كان تاج السنة ذو العز ابن المرتضى^(٢) الدبوسى يسميه فرخ زنى .

قلت : وأما ما أُسْتَدِلَّ به على استعمال التبيذ فأحاديث واهية ، ضعاف لا يقوم شئ منها على ساق ؛ ذكرها الدارقطني وضعفها ونص عليها . وكذلك ضعف ما روى عن ابن عباس موقوفا ” التبيذ وضوء لمن لم يجد الماء “ . في طريقه ابن محرز متروك الحديث . وكذلك ما روى عن علي أنه قال : لا بأس بالوضوء بالتبيذ . الحجاج وأبو ليلى ضعيفان . وضعف حديث ابن مسعود وقال : تفرد به ابن لهيعة وهو ضعيف الحديث . وذكر عن علقمة ابن قيس قال قلت لعبد الله بن مسعود : أشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد منكم ليلة أتاه داعى الجن ؟ فقال لا .

قلت : هذا إسناد صحيح لا يختلف في عدالة رواته . وأخرج الترمذى حديث ابن مسعود قال : سألنى النبي صلى الله عليه وسلم : ” ما فى إدراتك “^(٤) فقلت : نبيذ . فقال : ” تمر طيبة وماء طهور “ قال : فتوضأ منه . قال أبو عيسى : وإنما روى هذا الحديث عن أبي زيد عن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وأبو زيد رجل مجهول عند أهل الحديث لا نعرف له رواية غير هذا الحديث ، وقد رأى بعض أهل العلم الوضوء بالتبيذ ؛ منهم سفيان وغيره ، وقال بعض أهل العلم : لا يتوضأ بالتبيذ ، وهو قول الشافعى وأحمد وإسحق ، وقال إسحق : إن أبتلى رجل بهذا فتوضأ بالتبيذ وتيمم أحب إلى . قال أبو عيسى : وقول من يقول لا يتوضأ بالتبيذ أقرب إلى الكتاب والسنة وأشبه ؛ لأن الله تعالى قال : « فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا »

(١) أقْرِصِيهِ : والقرص بالصاد المهملة المدك بأطراف الأصابع والأظفار مع صب الماء عليه حتى يذهب أثره .

(٢) فى ب و ك : ذو العز المرتضى . (٣) فى ب : محرز . (٤) الإدارة (بالكسر) : إناء صغير

من جلد يتخذ لاء .

صَعِيدًا طَيِّبًا» . وهذه المسئلة مطولة في كتب الخلاف ؛ وعمدتهم التمسك بلفظ الماء حسبما تقدم في « المائدة^(١) » بيانه والله أعلم .

الثانية عشرة — لما قال الله تعالى : « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا » وقال : « لِيُطَهَّرَ كُمْ بِهِ »^(٢) توقف جماعة في ماء البحر ؛ لأنه ليس بمنزل من السماء ؛ حتى روى عن عبد الله بن عمرو وابن عمرو معا أنه لا يتوضأ به ؛ لأنه نار ولأنه طبق جهنم . ولكن النبي صلى الله عليه وسلم بين حكمه حين قال لمن سأله : « هو الطهور ماؤه الحَلّ ميتة » أخرجه مالك . وقال فيه أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . وهو قول أكثر الفقهاء من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، منهم أبو بكر وعمر وابن عباس ، لم يروا بأسا بماء البحر ، وقد كره بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الوضوء بماء البحر ؛ منهم ابن عمر وعبد الله بن عمرو ، وقال عبد الله بن عمرو : هو نار . قال أبو عمر ؛ وقد سئل أبو عيسى الترمذي عن حديث مالك هذا عن صفوان بن سليم فقال : هو عندي حديث صحيح . قال أبو عيسى فقلت للبخاري : هشيم يقول فيه أبي ابن بَرَزَة . فقال : وهم فيه ، إنما هو المغيرة بن أبي بَرْدَة . قال أبو عمر : لا أدري ما هذا من البخاري رحمه الله ، ولو كان صحيحا لأخرجه في مصنفه الصحيح عنده ، ولم يفعل لأنه لا يعول في الصحيح إلا على الإسناد . وهذا الحديث لا يحتج أهل الحديث بمثل إسناده ، وهو عندي صحيح لأن العلماء تلقوه بالقبول له والعمل به ، ولا يخالف في جملته أحد من الفقهاء ، وإنما الخلاف بينهم في بعض معانيه . وقد أجمع جمهور من العلماء وجماعة أئمة الفتوى بالأمصار من الفقهاء : أن البحر طهور ماؤه ، وأن الوضوء به جائز ؛ إلا ما روى عن عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمرو بن العاص أنها كرها الوضوء بماء البحر ، ولم يتابعهما أحد من فقهاء الأمصار على ذلك ولا عرج عليه ، ولا التفت إليه لحديث هذا الباب . وهذا يدلّك على أشتهار الحديث عندهم ، وعمامهم به وقبولهم له ، وهو أولى عندهم من الإسناد الظاهر الصحة لمعنى ترده الأصول . وبالله التوفيق .

(٢) راجع ج ٧ ص ٣٧١ فما بعد .

(١) راجع ج ٦ ص ١٠٥ فما بعد .

قال أبو عمر : وصفوان بن سليم مولى حميد بن عبد الرحمن بن عوف الزهرى ، من عباد أهل المدينة وأتقاهم لله ، ناسكا ، كثير الصدقة بما وجد من قليل وكثير ، كثير العمل ، خائفا لله ، يكنى أبا عبد الله ، سكن المدينة لم ينتقل عنها ، ومات بها سنة اثنتين وثلاثين ومائة . ذكر عبد الله بن أحمد بن حنبل قال : سمعت أبي يسأل عن صفوان بن سليم فقال : ثقة من خيار عباد الله وفضلاء المسلمين . وأما سعيد بن سلمة فلم يرو عنه فيما علمت إلا صفوان — والله أعلم — ومن كانت هذه حاله فهو مجهول لا تقوم به حجة عند جميعهم . وأما المغيرة ابن أبي بردة فثقل عنه إنه غير معروف في حملة العلم كسعيد بن سلمة . وقيل : ليس بمجهول . قال أبو عمر : المغيرة بن أبي بردة وجدت ذكره في مغازى موسى بن نصير بالمغرب ، وكان موسى يستعمله على الخليل ، وفتح الله له في بلاد البربر فتوحات في البر والبحر . وروى الدارقطني من غير طريق مالك عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” من لم يطهره ماء البحر فلا طهره الله “ . قال إسناده حسن .

الثالثة عشرة — قال ابن العربي : توهم قوم أن الماء إذا فضلت للجنب منه فضلة لا يتوضأ به ، وهو مذهب باطل ، فقد ثبت عن ميمونة أنها قالت : أجنبيت أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم وأغتسلت من جفنة وفضلت فضلة ، بخاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ليغتسل منه فقلت : إني قد أغتسلت منه . فقال : ” إن الماء ليس عليه نجاسة — أو — إن الماء لا يُنجب “ . قال أبو عمر : وردت آثار في هذا الباب مرفوعة في النهي عن أن يتوضأ الرجل بفضل المرأة . وزاد بعضهم في بعضها : ولكن ليغترفا جميعا . فقالت طائفة : لا يجوز أن يغترف الرجل مع المرأة في إناء واحد ؛ لأن كل واحد منهما متوضئ بفضل صاحبه . وقال آخرون : إنما كره من ذلك أن تنفرد المرأة بالإناء ثم يتوضأ الرجل بعدها بفضلها . وكل واحد منهم روى بما ذهب إليه أثرا . والذي ذهب إليه الجمهور من العلماء وجماعة فقهاء الأمصار أنه لا بأس أن يتوضأ الرجل بفضل المرأة ويتوضأ المرأة من فضله ، أنفردت المرأة بالإناء أو لم تنفرد . وفي مثل هذا آثار كثيرة صحاح . والذي نذهب إليه أن

الماء لا ينجسه شيء إلا ما ظهر فيه من النجاسات أو غلب عليه منها ؛ فلا وجه للاشتغال بما لا يصح من الآثار والأقوال . والله المستعان .

روى الترمذی عن ابن عباس قال حدثتني ميمونة قالت : كنت أغتسل أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم من إناء واحد من الجنابة . قال هذا حديث حسن صحيح . وروى البخاري عن عائشة قالت : كنت أغتسل أنا والنبي صلى الله عليه وسلم من إناء واحد يقال له الفرق^(١) . وفي صحيح مسلم عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يغتسل بفضل ميمونة . وروى الترمذی عن ابن عباس قال : أغتسل بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم في جَنَمَةٍ فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتوضأ منه فقالت : يا رسول الله ، إني كنت جنباً . قال : ” إن الماء لا يُجَبِّبُ “ . قال : هذا حديث حسن صحيح ، وهو قول سفيان الثوري ومالك والشافعي . وروى الدارقطني عن عمرة عن عائشة رضي الله عنها قالت : كنت أتوضأ أنا والنبي صلى الله عليه وسلم من إناء واحد وقد أصابت المرة منه قبل ذلك . قال : هذا حديث حسن صحيح . وروى أيضاً عن رجل من بني غفار قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن فضل طهور المرأة . وفي الباب عن عبد الله بن سرجس ، وكره بعض الفقهاء فضل طهور المرأة ، وهو قول أحمد وإسحق .

الرابعة عشرة — روى الدارقطني عن زيد بن أسلم مولى عمر بن الخطاب أن عمر ابن الخطاب كان يسخن له الماء في قُمَقَةٍ^(٢) ويغتسل به . قال : وهذا إسناد صحيح . وروى عن عائشة قالت : دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سخنت ماء في الشمس . فقال ” لا تفعل يا حميراء فإنه يورث البرص “ . رواه خالد بن إسماعيل المخزومي عن هشام ابن عروة عن أبيه عن عائشة ، وهو متروك . ورواه عمرو بن محمد الأعشى عن فليح عن الزهري عن عروة عن عائشة . وهو منكر الحديث ، ولم يروه غيره عن فليح ، ولا يصح عن الزهري ؛ قاله الدارقطني .

(١) الفرق (بفتح راء) : مكيال يسع ستة عشر رطلاً ، وبالسكون مائة وعشرون رطلاً .

(٢) القمقة والقمقم (كهدد) : ما يسخن فيه الماء من نحاس وغيره .

الخامسة عشرة - كل إناء طاهر بفائز الوضوء منه إلا إناء الذهب والفضة ؛ لنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن اتخاذهما . وذلك - والله أعلم - للتشبه بالأعاجم والجبابة لا لنجاسة فيهما . ومن توضأ فيهما أجزاء وضوءه وكان عاصيا باستعمالهما . وقد قيل : لا يجزئ الوضوء في أحدهما . والأقول أكثر ؛ قاله أبو عمر . وكل جلد ذكئ بفائز آستهاله للوضوء وغير ذلك . وكان مالك يكره الوضوء في إناء جلد الميتة بعد الدباغ ؛ على اختلاف من قوله . وقد تقدم في « النحل »^(١) .

قوله تعالى : لِنُخِجِي بِهِ بَلَدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَا بِيْ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿ لِنُخِجِي بِهِ ﴾ أى بالمطر . ﴿ بَلَدَةً مَّيْتًا ﴾ بالحدوبة والمحل وعدم النبات . قال كعب : المطر روح الأرض يحييها الله به . وقال : « ميتا » ولم يقل ميتة لأن معنى البلدة والبلد واحد ؛ قاله الزجاج . وقيل : أراد بالبلد المكان . ﴿ وَنُسْقِيَهُ ﴾ قراءة العامة بضم النون . وقرأ عمر بن الخطاب وعاصم والأعمش فيما روى المفضل عنهما « نُسْقِيَهُ » (بفتح) النون . ﴿ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَا بِيْ كَثِيرًا ﴾ أى بشرا كثيرا وأناسى واحده إنسى نحو جمع القرقور قَرَارِيرٌ وقَرَارِرٌ فى قول الأخفش والمبرد وأحد قولى الفراء ؛ وله قول آخر وهو أن يكون واحده إنسانا ثم تبدل من النون ياء ؛ فنقول : أناسى ، والأصل أناسين ، مثل سرحان وسراحين ، وبستان وبساتين ؛ فجعلوا الياء عوضا من النون ، وعلى هذا يجوز سراحى وبساتى ، لا فرق بينهما . قال الفراء : ويجوز « أَنَا بِيْ » بتخفيف الياء التى فيما بين لام الفعل وعينه ؛ مثل قَرَارِيرٌ وقَرَارِرٌ . وقال « كَثِيرًا » ولم يقل كثيرين ؛ لأن فعلا قد يراد به الكثرة ؛ نحو « وَحَسَنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا »^(٢) .

(١) راجع ج ١٠ ص ١٥٦ . (٢) كذا فى ب و ك . وفى غيرهما : « بضم النون » ، وهو خطأ .

(٣) القرقور : ضرب من السفن . وقيل : هى السفينة العظيمة أو الطويلة .

(٤) راجع ج ٥ ص ٢٧١ فابعد .

قوله تعالى : وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ ﴾ يعني القرآن ، وقد جرى ذكره في أول السورة : قوله تعالى : « تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ » . وقوله : « لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي » وقوله : « آخِذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا » . ﴿ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ أي جمودا له وتكذيبا به . وقيل : « وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ » هو المطر . روى عن ابن عباس وابن مسعود : وأنه ليس عام بأكثر مطرا من عام ولكن الله يصرفه حيث يشاء ، فما زيد لبعض نقص من غيرهم . فهذا معنى التصريف . وقيل : « صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ » وابلا وطشا وطلا ورهاما — الجوهرى : الرهام الأمطار اللينة — ورذاذا . وقيل : تصريفه تنويع الانتفاع به في الشرب والسقي والزراعات به والطهارات وسقي البساتين والغسل وشبهه . « لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا » قال عكرمة : هو قولهم في الأنواء : مطرنا بنوء كذا . قال النحاس : ولا نعلم بين أهل التفسير اختلافا أن الكفر هاهنا قولهم مطرنا بنوء كذا وكذا ، وأن نظيره فعل النجم كذا ، وأن كل من نسب إليه فعلا فهو كافر . وروى الربيع بن صهيب قال : مُطِرَ النَّاسَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ لَيْلَةٍ ، فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَصْبَحَ النَّاسُ فِيهَا رَجُلَيْنِ شَاكِرٍ وَكَافِرٍ فَأَمَّا الشَّاكِرُ فَيُحَمَّدُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى سَقْيَاهُ وَغِيَاثِهِ وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيَقُولُ مُطِرْنَا بِنُوءِ كَذَا وَكَذَا » . [وهذا متفق على صحته بمعناه وسيأتى في الواقعة إن شاء الله ^(٢)] وروى من حديث ابن مسعود عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال : « مَا مِنْ سَنَةٍ بِأَمْطَرٍ مِنْ أُخْرَى وَلَكِنْ إِذَا عَمِلَ قَوْمٌ بِالْمَعَاصِي صَرَفَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَى غَيْرِهِمْ فَإِذَا عَصَوْا جَمِيعًا صَرَفَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَى الْفَيَافَى وَالْبَحَارِ » . وقيل : التصريف راجع إلى الريح ، وقد مضى في « البقرة » بيانه . وقرأ حمزة والكسائي : « لِيَذَّكَّرُوا » مخففة الذال من الذكر . الباقيون مثقلا من التذكُّر ؟ أي ليدذكروا نعم الله ويعلموا أن من أنعم بها لا يجوز الإشراف به ؛ فالتذكُّر قريب من الذكر غير أن التذكُّر يطلق فيما بعد عن القلب فيحتاج إلى تكلف في التذكُّر .

(١) كذا في زوا . وفي ك : بنوء كذا . (٢) راجع ج ١٧ ص ٢٢٣ . (٣) راجع ج ٢ ص ١٩٧ .

قوله تعالى : وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تَطْعُمُ
الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴾ أى رسولا ينذرهم كما قسمنا المطر
ليخفف عليك أعباء النبوة ، ولكنا لم نفعل بل جعلناك نذيرا لكل لترتفع درجتك فأشكر نعمه
الله عليك . ﴿ فَلَا تَطْعُمُ الْكَافِرِينَ ﴾ أى فيما يدعونك إليه من أتباع آلهتهم . ﴿ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ ﴾
قال ابن عباس بالقرآن . ابن زيد : بالإسلام . وقيل : بالسيف ؛ وهذا فيه بعد ؛ لأن
السورة مكية نزلت قبل الأمر بالقتال . ﴿ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ لا يخالطه فتور .

قوله تعالى : وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا
مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَجِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٥٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ ﴾ عاد الكلام إلى ذكر النعم . و « مَرَجَ »
خَلَّى وخالط وأرسل . قال مجاهد : أرسلهما وأفاض أحدهما في الآخر . قال ابن عرفة :
« مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ » أى خلطهما فهما يلتقيان ؛ يقال : مَرَجْتُهُ إِذَا خَلَطْتَهُ . وَمَرَجَ الدِّينُ
وَالأمر أختلط وأضطرب ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ فِي أَمْرِ مَرْيَمَ ﴾^(١) . ومنه قوله عليه الصلاة
والسلام لعبد الله بن عمرو بن العاصي : « إِذَا رَأَيْتَ النَّاسَ مَرَجَتْ عُهُودُهُمْ وَخَفَّتْ أَمَانَاتُهُمْ
وَكَانُوا هَكَذَا وَهَكَذَا » وشبك بين أصابعه فقالت له : كيف أصنع عند ذلك ، جعلني الله
فداك ! قال : « أَلْزَمَ بَيْنَكَ وَأَمْلَكَ عَلَيْكَ لِسَانَكَ وَخَذَ بِمَا تَعْرِفُ وَدَعَ مَا تَنْكَرُ وَعَلَيْكَ
بِخَاصَةِ أَمْرِ نَفْسِكَ وَدَعَ عَنْكَ أَمْرَ الْعَامَةِ » نرجه النساءى وأبو داود وغيرهما . وقال
الأزهري : « مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ » خَلَّى بَيْنَهُمَا ؛ يقال مَرَجْتُ الدَّابَّةَ إِذَا خَلَيْتَهَا تَرعى . وقال
ثعلب : المَرَجُ الإجراء ؛ فقوله : « مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ » أى أجراهما . وقال الأخفش : يقول قوم
أمرج البحرين مثل مرج فعل وأفعل بمعنى . ﴿ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ ﴾ أى حلو شديد العذوبة .

(٢) الحديث في الفتن .

(١) راجع ج ١٧ ص ٤ .

(وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ) أى فيه ملوحة ومرارة . وروى [عن] طلحة أنه قرئ : « وَهَذَا مَالِحٌ »^(١) بفتح الميم وكسر اللام . (وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا) أى حاجزا من قدرته لا يغلب أحدهما على صاحبه ؛ كما قال في سورة الرحمن « مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ . بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ »^(٢) . (وَحِجْرًا مَحْجُورًا) أى مستورا يمنع أحدهما من الاختلاط بالآخر . فالبرزخ الحاجز ، والحجر المانع . وقال الحسن : يعنى بحر فارس وبحر الروم . وقال ابن عباس وابن جبير : يعنى بحر السماء وبحر الأرض . قال ابن عباس : يلتقيان في كل عام وبينهما برزخ قضاء من قضائه . « وَحِجْرًا مَحْجُورًا » حراما محترما أن يعذب هذا الملح بالعذب ، أو يملح هذا العذب بالملح . قوله تعالى : وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا جَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا^(٣) وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا) أى خلق من النطفة إنسانا . (جَعَلَهُ) أى جعل الإنسان « نَسَبًا وَصِهْرًا » . وقيل : « مِنَ الْمَاءِ » إشارة إلى أصل الخلقة في أن كل حي مخلوق من الماء . وفي هذه الآية تعديد النعمة على الناس في إيجادهم بعد العدم ، والتنبيه على العبرة في ذلك .

الثانية — قوله تعالى : (جَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا) النسب والصهر معنيان يعان كل قربنى تكون بين آدميين . قال ابن العربي : النسب عبارة عن خاط الماء بين الذكر والأنثى على وجه الشرع ؛ فإن كان بمصيبة كان خلقا مطلقا ولم يكن نسبا محققا ، ولذلك لم يدخل تحت قوله : « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ »^(٤) بنته من الزنى ؛ لأنها ليست ببنت له في أصح القولين لعلمائنا وأصح القوانين في الدين ؛ وإذا لم يكن نسب شرعا فلا صهر شرعا فلا يحترم الزنى بنت أم ولا أم بنت ، وما يحترم من الحلال لا يحترم من الحرام ؛ لأن الله آمتن بالنسب والصهر على عباده ورفع قدرهما ، وعلق الأحكام في الحل والحرم عليهما فلا يلحق الباطل بهما ولا يساويهما .

(١) من ب . (٢) راجع ج ١٧ ص ١٦١ .

(٣) راجع ج ٥ ص ١٠٥ .

(٤) من ب . (٥) في ك : قضاء من قضائه . لعله الأشبه .

قلت : اختلف الفقهاء في نكاح الرجل أبنته من زنى أو أخته أو بنت أبنته من زنى ؛ فحرم ذلك قوم منهم ابن القاسم ، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه ، وأجاز ذلك آخرون منهم عبد الملك ابن الماجشون ، وهو قول الشافعي^(١) ، وقد مضى هذا في « النساء »^(٢) مجودا . قال الفراء : النسب الذي لا يحل نكاحه ، [والصهر الذي يحل نكاحه] . وقاله الزجاج ، وهو قول علي بن أبي طالب رضى الله عنه . واشتقاق الصهر من صهرت الشيء إذا خلطته ؛ فكل واحد من الصهرين قد خلط صاحبه ، فسميت المناكح صهرا لاختلاط الناس بها . وقيل : الصهر قرابة النكاح ؛ فقرابة الزوجة هم الأختان ، وقرابة الزوج هم الأعمام . والأصهار يقع عاما لذلك كله ؛ قاله الأصمعي . وقال ابن الأعرابي : الأختان أبو المرأة وأخوها وعمها — كما قال الأصمعي — والصهر زوج أبنة الرجل وأخوه وأبوه وعمه . وقال محمد بن الحسن في رواية أبي سليمان الجوزجاني : أختان الرجل أزواج بناته وأخواته وعماته وخالاته ، وكل ذات محرم منه ، وأصهاره كل ذى رحم محرم من زوجته . قال النحاس : الأولى في هذا أن يكون القول في الأصهار ما قال الأصمعي ، وأن يكون من قبلهما جميعا . يقال : صهرت الشيء أى خلطته ؛ فكل واحد منهما قد خلط صاحبه . والأولى في الأختان ما قال محمد بن الحسن لجهتين : إحداهما الحديث المرفوع ، روى محمد بن إسحق عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن محمد بن أسامة بن زيد عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما أنت يا عليّ نخنتي وأبو ولدي وأنت مني وأنا منك » . فهذا على أن زوج البنت ختن . والجهة الأخرى أن اشتقاق الختن من خنته إذا قطعه ؛ وكأن الزوج قد أنقطع عن أهله ، وقطع زوجته عن أهلها . وقال الضحاك : الصهر قرابة الرضاع . قال ابن عطية : وذلك عندي وهم أوجبهم أن ابن عباس قال : حرم من النسب سبع ، ومن الصهر خمس . وفي رواية أخرى من الصهر سبع ؛ يريد قوله عز وجل : « حَرَّمْتُ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ » فهذا هو النسب . ثم يريد بالصهر قوله تعالى : « وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ » إلى قوله : « وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ » . ثم ذكر المحصنات . ومجمل هذا أن ابن عباس أراد حرم من الصهر ما ذكر معه ، فقد أشار

(١) في ك : خالط .

(٢) من ك .

(١) راجع ج ٥ ص ١١٤ فابعد .

بما ذكر إلى عظمه وهو الصهر ، لا أن الرضاع صهر ، وإنما الرضاع عدل النسب يحرم منه ما يحرم من النسب بحكم الحديث المأثور فيه . ومن روى : وحرم من الصهر خمس أسقط من الآيتين الجمع بين الأختين والمحصنات ؛ وهن ذوات الأزواج .

قلت : فأبن عطية جعل الرضاع مع ما تقدم نسبا ، وهو قول الزجاج . قال أبو إسحق : النسب الذى ليس بصهر من قوله جل ثناؤه : « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ » إلى قوله « وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ » والصهر من له التزويج . قال ابن عطية : وحكى الزهراوى قولاً أن النسب من جهة البنين والصهر من جهة البنات .

قلت : وذكر هذا القول النحاس ، وقال : لأن المصاهرة من جهتين تكون . وقال ابن سيرين : نزلت هذه الآية فى النبي صلى الله عليه وسلم وعلى رضى الله عنه ؛ لأنه جمعه معه نسب وصهر . قال ابن عطية : فأجمعهما وكادة حرمة إلى يوم القيامة . (وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا) على خلق ما يريد .

قوله تعالى : وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ
وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ) لما عدد النعم وبين كمال قدرته عجب من المشركين فى إشرأفهم به من لا يقدر على نفع ولا ضر ؛ أى إن الله هو الذى خلق ما ذكره ، ثم هؤلاء لجهلهم يعبدون من دونه أمواتا جمادات لا تنفع ولا تضر ، (وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا) روى عن ابن عباس « الْكَافِرُ » هنا أبو جهل [لعنه الله] ؛ وشرحه أنه يستظهر بعبادة الأوثان على أوليائه . وقال عكرمة : « الْكَافِرُ » إبليس ، ظهر على عداوة ربه . وقال مطرف : « الْكَافِرُ » هنا الشيطان . وقال الحسن : « ظَهِيرًا » أى معيناً للشيطان على المعاصى . وقيل : المعنى ؛ وكان الكافر على ربه هينا ذليلا لا قدر له ولا وزن عنده ؛ من قول العرب : ظهرت به أى جماعته خلف ظهره ولم تلتفت إليه . ومنه قوله تعالى : « وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهِيرًا (٢) » أى هينا .

ومنه قول الفرزدق :

تَمِيمَ بْنَ قَيْسٍ لَا تَكُونَنَّ حَاجَتِي * يَظْهَرُ فَلَا يَعْيبَا عَلَيَّ جَوَابَهَا

هذا معنى قول أبي عبيدة . وظهير بمعنى مظهر . أى كفر الكافرين هين على الله تعالى ، والله مستهين به لأن كفره لا يضره . وقيل : وكان الكافر على ربه الذى يعبد وهو الصنم قويا غالبا يعمل به ما يشاء ؛ لأن الجهاد لا قدرة له على دفع ضر ونفع .

قوله تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ يريد بالجنة مبشرا ونذيرا من النار ؛ وما أرسلناك وكلا ولا مسيطرا . ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ يريد على ما جئتكم به من القرآن والوحى . و « مِنْ » للتأكيد . ﴿ إِلَّا مَنْ شَاءَ ﴾ لكن من شاء ؛ فهو استثناء منقطع ، والمعنى : لكن من شاء ﴿ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ بإنفاقه من . الله فى سبيل الله فلينفق . ويجوز أن يكون متصلا ويقدر حذف المضاف ؛ التقدير : إلا أجر « مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا » بأتباع دينى حتى ينال كرامة الدنيا والآخرة .

قوله تعالى : وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ۚ وَكَفَىٰ بِهِ بُذُنُوبٍ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾ تقدم معنى التوكل فى « آل عمران »^(١) وهذه السورة وأنه اعتماد القلب على الله تعالى فى كل الأمور ، وأن الأسباب وسائط أمر بها من غير اعتماد عليها . ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ﴾ أى تزه الله تعالى عما يصفه هؤلاء الكفار به من الشركاء . والتسبيح التنزيه ، وقد تقدم . وقيل : « وَسَبِّحْ » أى وصل له ؛ وتسمى الصلاة تسبيحا . ﴿ وَكَفَىٰ بِهِ بُذُنُوبٍ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴾ أى علميا فيجازيهم بها .

قوله تعالى : الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ
أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسُئِلَ بِهِ خَيْرًا ﴿٥٩﴾

قوله تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى
عَلَى الْعَرْشِ ﴾ تقدم في الأعراف . و « الَّذِي » في موضع خفض نعتا للحي . وقال :
« بَيْنَهُمَا » ولم يقل بينهما ؛ لأنه أراد الصنفين والنوعين والشيئين ؛ كقول القطامي :
ألم يحزنك أن حبال قيس * وتغلب قسد تباينتا أنقطاعا

أراد وحبال تغلب فنني ، والحبال جمع ؛ لأنه أراد الشيئين والنوعين . ﴿ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ
خَيْرًا ﴾ قال الزجاج : المعنى فأسأل عنه . وقد حكى هذا جماعة من أهل اللغة أن الباء تكون
بمعنى عن ؛ كما قال تعالى : « سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ » وقال الشاعر :
هَلَّا سَأَلْتُ الْخَلِيلَ بِأَبْنَةِ مَالِكِ * إِنْ كُنْتُ جَاهِلَةً بِمَا لَمْ تَعْلَمْ
وقال [علقمة بن عبدة^(٤)] :

فإِنْ تَسْأَلُونِي بِالنِّسَاءِ فَلَا تُنْخِي * خَيْرٌ بِأَدْوَاءِ النِّسَاءِ طَيِّبُ

أى عن النساء وعما لم تعلمي . وأنكره علي بن سليمان وقال : أهل النظر ينكرون أن تكون الباء
بمعنى عن ؛ لأن في هذا إفسادا لمعاني قول العرب : لوليت فلانا للفتك به الأسد ؛ أى للفتك
بلقائك إياه الأسد . المعنى فأسأل بسؤالك إياه خيرا . وكذلك قال ابن جبير : الخبير
هو الله تعالى . فـ « خَيْرًا » نصب على المفعول به بالسؤال .

قلت : قول الزجاج يخرج على وجه حسن ، وهو أن يكون الخبير غير الله ؛ أى فأسأل عنه
خبيرا ، أى عالما به ، أى بصفاته وأسمائه . وقيل : المعنى فأسأل له خيرا ، فهو نصب

(١) راجع ج ٧ ص ٢١٨ فما بعد . (٢) راجع ج ١٨ ص ٢٧٨ . (٣) البيت من معلقة عنترة .

(٤) في نسخ الأصول : « وقال امرؤ القيس » وهو تحريف . والبيت من قصيدة لعلقمة مطاوعها :

طحا بك قلب في الحسان طروب * بعيد الشباب عصر حان مشيب

(٥) يروى : بصير أى عليم .

على الحال من الهاء المضمرة . قال المهدوي : ولا يحسن حالا إذا لا يخلو أن تكون الحال من السائل أو المسئول ، ولا يصح كونها حالا من الفاعل ؛ لأن الخبر لا يحتاج أن يسأل غيره . ولا يكون من المفعول ؛ لأن المسئول عنه وهو الرحمن خير أبدا ، والحال في أغلب الأمر يتغير وينتقل ؛ إلا أن يحمل على أنها حال مؤكدة ؛ مثل : « وَدَوَّ الْحَقُّ مُصَدِّقًا ^(١) » فيجوز . وأما « الرَّحْمَنُ » ففي رفعه ثلاثة أوجه : يكون بدلا من المضمر الذي في « أَسْتَوَى » . ويجوز أن يكون مرفوعا بمعنى هو الرحمن . ويجوز أن يكون مرفوعا بالابتداء وخبره « فَاسْتَلَّ بِهِ خَيْرًا » . ويجوز الخفض بمعنى وتوكل على الحي الذي لا يموت الرحمن ؛ يكون نعتا . ويجوز النصب على المدح .

قوله تعالى : **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا** ﴿٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ ﴾ أى لله تعالى . ﴿ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ ﴾ على جهة الإنكار والتعجب ، أى ما نعرف الرحمن إلا الرحمن اليمامة ، يعنون مسيلة الكذاب . وزعم القاضي أبو بكر بن العربي أنهم إنما جهلوا الصفة لا الموصوف ، وآستدل على ذلك بقوله : « وَمَا الرَّحْمَنُ » ولم يقولوا ومن الرحمن . قال ابن الحصار : وكأنه رحمه الله لم يقرأ الآية الأخرى « وَهُمْ يَكْفُرُونَ ^(٢) بِالرَّحْمَنِ » . ﴿ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا ﴾ هذه قراءة المدنيين والبصريين ؛ أى لما تأمرنا أنت يا محمد . واختاره أبو عبيد وأبو حاتم . وقرأ الأعمش وحمة والمكسائي : « يَاْمُرُنَا » بالياء ، يعنون الرحمن ؛ كذا تأوله أبو عبيد ، قال : ولو أقرؤا بأن الرحمن أمرهم ما كانوا كفارا . فقال النحاس : وليس يجب أن يتأول عن الكوفيين في قراءتهم هذا التأويل البعيد ، ولكن الأولى أن يكون التأويل لهم « أَنَسْجُدُ لِمَا يَأْمُرُنَا » النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فتصح القراءة على هذا ، وإن كانت الأولى أبين وأقرب تناولا . ﴿ وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾ أى زادهم قول القائل لهم اسجدوا للرحمن نفورا عن الدين . وكان سفيان الثوري يقول في هذه الآية : إلهي زادني لك خضوعا ما زاد أعداك نفورا .

(١) راجع ج ٢ ص ٢٩ . (٢) راجع ج ٩ ص ٣١٧ . (٣) في ك وز : متناولا .

قوله تعالى : تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا
وَقَرَرًا مُنِيرًا ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا ﴾ (١) أى منازل ؛ وقد تقدّم ذكرها .
﴿ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا ﴾ قال ابن عباس : يعنى الشمس ؛ نظيره : « وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا » .
وقراءة العامة : « سِرَاجًا » بالتوحيد . وقرأ حمزة والكسائي : « سُرُجًا » يريدون النجوم العظام
الوقادة . والقراءة الأولى عند أبي عبيد أولى ؛ لأنه تأول أن السُّرُج النجوم ، وأن البروج النجوم ؛
فيجىء المعنى نجومًا ونجومًا . النحاس : ولكن التأويل لهم أن أبان بن تغلب قال : السرج النجوم
الدرارى . الثعلبي : كالزهرة والمشتري وزحل والسماكين ونحوها . ﴿ وَقَرَرًا مُنِيرًا ﴾ ينير الأرض
إذا طلع . وروى عصمة عن الأعمش « وَقَرَرًا » بضم القاف وإسكان الميم . وهذه قراءة شاذة ،
ولولم يكن فيها إلا أن أحمد بن حنبل وهو إمام المسلمين فى وقته قال : لا تكتبوا ما يحكيه
عصمة الذى يروى القراءات ، وقد أطلع أبو حاتم السجستاني بذكر ما يرويه عصمة هذا .

قوله تعالى : وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ
أَنۡ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿١٢﴾
فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ خِلْفَةً ﴾ قال أبو عبيدة : الخلفة كل شيء بعد شيء .
وكل واحد من الليل والنهار يخلف صاحبه . ويقال للبطن : أصابته خلفة ؛ أى قيام وقعود
يخلف هذا ذاك . ومنه خلفة النبات ، وهو ورق يخرج بعد الورق الأول فى الصيف .
ومن هذا المعنى قول زهير بن أبى سلمى :

بِهَا الْعَيْنُ وَالْأَرَامُ يَمْشِينَ خِلْفَةً * وَأَطْلَاؤُهَا يَنْهَضْنَ مِنْ كُلِّ مَجْنَمٍ (٢)

(١) راجع ج ١٠ ص ٩ . (٢) راجع ج ١٩ ص ٣٠٥ . (٣) العين (بالكسر) جمع أعين
وعيناء ، وهى بقر الوحش ؛ سميت بذلك لسعة أعينها . والأطلاء : جمع طلاء ، وهو ولد البقرة وولد الغنمية الصغير .
والمجنم : الموضع الذى يجثم فيه ؛ أى يقام فيه .

الرثم ولد الظبي وجمعه آرام؛ يقول : إذا ذهب فوج جاء فوج . ومنه قول الآخر يصف
أمرأة تنتقل من منزل في الشتاء إلى منزل في الصيف دأبا .

ولها بالمطرون إذا * أكل النمل الذي جمعها
خلفه حتى إذا ارتبعت * سكنت من جلق بيعة
في بيوت وسط دسكرة * حولها الزيتون قد ينعا

قال مجاهد : « خَلْفَةٌ » من الخلاف ؛ هذا أبيض وهذا أسود ؛ والأول أقوى . وقيل :
يتعاقبان في الضياء والظلام والزيادة والنقصان . وقيل : هو من باب حذف المضاف ؛ أى جعل
الليل والنهار ذوى خلفه ، أى اختلاف . (لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ) أى يتذكر ، فيعلم أن الله
لم يجعله كذلك عبثا فيعتبر في مصنوعات الله ، ويشكر الله تعالى على نعمه عليه في العقل والفكر
والفهم . وقال عمر بن الخطاب وأبن عباس والحسن : معناه من فاته شيء من الخير بالليل
أدركه بالنهار ، ومن فاته بالنهار أدركه بالليل . وفي الصحيح : ” ما من أمرئ تكون له صلاة
بالليل فغلبه عليها نوم فيصلي ما بين طلوع الشمس إلى صلاة الظهر إلا كتب الله له أجر
صلاته وكان نومه عليه صدقة “ . وروى مسلم عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم : ” من نام عن حزبه أو عن شيء منه فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر
كتب له كأنما قرأه من الليل “ .

الثانية — قال ابن العربي : سمعت ذا الشهيد الأكبر يقول : إن الله تعالى خلق العبد
حيا عالما ، وبذلك كماله ، وسلط عليه آفة النوم وضرورة الحدث ونقصان الحلقة ؛ إذ الكمال
لأول الخلق ، فما أمكن الرجل من دفع النوم بقله الأكل والسهر في طاعة الله فليفعل . ومن
الغبين العظيم أن يعيش الرجل ستين سنة ينام ليلا فيذهب النصف من عمره لغوا ، وينام
سدس النهار راحة فيذهب ثلثاه ويبقى له من العمر عشرون سنة ، ومن الجهالة والسفاهة
أن يتلف الرجل ثلثي عمره في لذة فانية ، ولا يتلف عمره بسهر في لذة باقية عند الغنى الوفي
الذي ليس بعديم ولا ظلوم .

(١) هو يزيد بن معاوية . والمطرون : موضع بالشام قرب دمشق .

الثالثة — الأشياء لا تتفاضل بأنفسها ؛ فإن الجواهر والأعراض من حيث الوجود متماثلة ، وإنما يقع التفاضل بالصفات . وقد اختلف أىّ الوقتين أفضل ، الليل أو النهار . وفي الصوم غنية في الدلالة ، والله أعلم ؛ قاله ابن العربي .

قلت : والليل عظيم قدره ؛ أمر نبيه عليه الصلاة والسلام بقيامه فقال : « وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ » ، وقال : « قُمِ اللَّيْلَ »^(٢) على ما يأتى بيانه . ومدح المؤمنين على قيامه فقال : « نَتَجَفَّى جُؤُورَهُ عَنِ الْمَصَاحِجِ »^(٣) . وقال عليه الصلاة والسلام : « وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ وَصَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ وَفِيهِ سَاعَةٌ يَسْتَجَابُ فِيهَا الدُّعَاءُ وَفِيهِ يَنْزِلُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى » حسبما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

الرابعة — قرأ حمزة وحده : « يَذْكُرْ » بسكون الذال وضم الكاف . وهى قراءة ابن وثاب وطلحة والنخعي . وفي مصحف أبيّ « يَتَذَكَّرْ » بزيادة تاء . وقرأ الباقون : « يَذْكُرْ » بتشديد الكاف . ويَذْكُرْ ويَذْكُرْ بمعنى واحد . وقيل : معنى « يَذْكُرْ » بالتخفيف أى يذكر ما نسيه في أحد الوقتين في الوقت الثانى ، أوليذكر تنزيه الله وتسبيحه فيها . ﴿ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ يقال : شكر يشكر شكرا وشكورا ، مثل كفر يكفر كفرا وكفورا . وهذا الشكور على أنهما جعلهما قواما لمعاشهم . وكأنهم لما قالوا : « وَمَا الرَّحْمَنُ »^(٤) قالوا : هو الذى يقدر على هذه الأشياء .

قوله تعالى : وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ لما ذكر جهالات المشركين وطعنهم في القرآن والنبوة ذكر عباده المؤمنين أيضا وذكر صفاتهم ، وأضافهم إلى عبوديته تشريفا لهم ، كما قال : « سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ » وقد تقدم . فمن أطاع الله وعبده وشغل سمعه وبصره ولسانه وقلبه بما أمره فهو الذى يستحق

(١) راجع ج ١٠ ص ٢٠٥ و ص ٣٠٧ . (٢) راجع ج ١٩ ص ٣٠ .

(٥) فى ك : قال .

(٣) راجع ج ١٤ ص ٩٩ فما بعد .

آسم العبودية ، ومن كان بعكس هذا شمله قوله تعالى : « أُولَئِكَ كَانُوا لَنَا عِبَادًا بَلْ هُمْ أَضَلُّ » يعنى فى عدم الاعتبار ؛ كما تقدّم فى « الأعراف » . وكأنه قال : وعباد الرحمن هم الذين يمشون على الأرض ، فحذف هم ؛ كقولك : زيد الأمير ، أى زيد هو الأمير . فـ « الَّذِينَ » خبر مبتدأ محذوف ؛ قاله الأخفش . وقيل : الخبر قوله فى آخر السورة : « أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا » وما بين المبتدأ والخبر أوصاف لهم وما تعلق بها ؛ قاله الزجاج . قال : ويجوز أن يكون الخبر « الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ » . و « يَمْشُونَ » عبارة عن عيشهم ومدة حياتهم وتصرفاتهم ، فذكر من ذلك العظم ، لا سيما وفى ذلك الانتقال فى الأرض ؛ وهو معايشة الناس وخطاتهم .

قوله تعالى : « هَوْنًا » الهون مصدر الهين وهو من السكينة والوقار . وفى التفسير : يمشون على الأرض حلماء متواضعين ، يمشون فى اقتصاد . والقصد والتؤدة وحسن السمات من أخلاق النبوة . وقال صلى الله عليه وسلم : « أيها الناس عليكم بالسكينة فإن البر ليس فى الإيضاع »^(٢) وروى فى صفته صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا زال زال تقاعا ، ويخطو تكفؤا ، ويمشى هونا ، ذريع المشية إذا مشى كأنما ينحط من صَبَب . التقاع ، رفع الرجل بقوة والتكفؤ : الميل إلى سنن المشى وقصده . والهون الرفق والوقار . والذريع الواسع الخطا ؛ أى أن مشيه كان يرفع فيه رجله بسرعة ويمد خطوه ؛ خلاف مشية المختال ، ويقصد ستمته ؛ وكل ذلك برفق وثبت دون عجلة . كما قال : كأنما ينحط من صَبَب ؛ قاله القاضى عياض . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يسرع جبلة لا تكلفا . قال الزهرى : سرعة المشى تذهب بهاء الوجه . قال ابن عطية : يريد الإسراع الخيث لأنه يخل بالوقار ؛ والخير فى التوسط . وقال زيد بن أسلم : كنت أسأل عن تفسير قوله تعالى : « الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا » فما وجدت من ذلك شفاء ، فرأيت فى المنام من جاءنى فقال لى : هم الذين لا يريدون أن يفسدوا فى الأرض . قال القشيري : وقيل لا يمشون لإفساد ومعصية ، بل فى طاعة الله والأمور المباحة من غير هوك . وقد قال الله تعالى : « وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ »^(٣)

(١) راجع ج ٧ ص ٣٢٤ فابعد . (٢) الإيضاع : سير مثل الخبب . (٣) فى ك : هزل .

كُلُّ مُخْتَالٍ نُخُورٍ^(١) . وقال ابن عباس : بالطاعة والمعروف والتواضع . الحسن : حلماء إن جهل عليهم لم يجهلوا . وقيل : لا يتكبرون على الناس .

قلت : وهذه كلها معانٍ متقاربة ، ويجمعها العلم بالله والخوف منه ، والمعرفة بأحكامه والخشية من عذابه وعقابه ، جعلنا الله منهم بفضله ومنه . وذهبت فرقة إلى أن « هُونًا » مرتبط بقوله : « يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ » ، أن المشى هو هون . قال ابن عطية : ويشبهه أن يتأول هذا على أن تكون أخلاق ذلك الماشى هونا مناسبة لمشيئه ، فيرجع القول إلى نحو ما بيناه . وأما أن يكون المراد صفة المشى وحده فباطل ، لأنه رب ماش هونا رويده وهو ذئب أطلس^(٢) . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتكفأ في مشيه كأنما ينحط^(٣) في صلب . وهو عليه الصلاة والسلام الصدر في هذه الأمة . وقوله عليه الصلاة والسلام : « من مشى منكم في طمع فليمش رويدا » إنما أراد في عقد نفسه ، ولم يرد المشى وحده . ألا ترى أن المبطلين المتحلين بالدين تمسكوا بصورة المشى فقط ، حتى قال فيهم الشاعر ذمًا لهم^(٤) :

كُلُّهُمْ يَمْشِي رُويْد * كُلُّهُمْ يَطْلُبُ صَيْد

قلت : وفي عكسه أنشد ابن العربي لنفسه .

تواضعتُ في العلياء والأصل كابر * وحزتُ قصابَ السبق بالهون في الأمر
سكونٌ فلا خبث السريرة أصله * وجلّ سكون الناس من عظم الكبر

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ۖ ﴾ قال النحاس : ليس « سَلَامًا » من التسليم إنما هو من التسلم ، تقول العرب : سلاما ، أى تسلمنا منك ، أى براءة منك . منصوب على أحد أمرين : يجوز أن يكون منصوبا بـ « قَالُوا » ، ويجوز أن يكون مصدرا ، وهذا قول سيوييه . قال ابن عطية : والذي أقوله : أن « قَالُوا » هو العامل في « سَلَامًا » لأن المعنى قالوا هذا اللفظ . وقال مجاهد : معنى « سَلَامًا » سَدَادًا . أى يقول للجاهل كلاما

(١) راجع ج ١٤ ص ٦٩ فابعد . (٢) الأطلس من الذئاب : هو الذى تساقط شعره ، وهو أحب ما يكون . وقيل : هو الذى فى لونه غيرة إلى السواد . (٣) من هـ ، وهو الرواية . (٤) هذا من كلام أبي جعفر المنصور الخليفة فى مدح عمرو بن عبيد الزاهد المشهور . وتماه : * غير عمرو بن عبيد *

يدفعه به برفق ولين . فـ « قَالُوا » على هذا التأويل عامل في قوله : « سَلَامًا » على طريقة النجويين ؛ وذلك أنه بمعنى قولاً . وقالت فرقة : ينبغي للمخاطب أن يقول للجاهل سلاماً ؛ بهذا اللفظ . أى سلمنا سلاماً أو تسليماً ، ونحو هذا ؛ فيكون العامل فيه فعلاً من لفظه على طريقة النجويين .

مسئلة : هذه الآية كانت قبل آية السيف ، نسخ منها ما يخص الكفرة وبقى أُنْهَيا في المسلمين إلى يوم القيامة . وذكر سيديويه النسخ في هذه الآية في كتابه ، وما تكلم فيه على نسخ سواء ؛ رجع به أن المراد السلامة لا التسليم ؛ لأن المؤمنين لم يؤمروا قط بالسلام على الكفرة . والآية مكية فنسختها آية السيف . قال النحاس : ولا نعلم لسيديويه كلاماً في معنى النسخ والمنسوخ إلا في هذه الآية . قال سيديويه : لم يؤمر المسلمون يومئذ أن يسلموا على المشركين لكنه على معنى قوله : تَسَلَّمُوا مِنْكُمْ ، ولا خير ولا شربيننا وبينكم . المبرد : كان ينبغي أن يقال : لم يؤمر المسلمون يومئذ بحربهم ثم أمروا بحربهم . محمد بن يزيد : أخطأ سيديويه في هذا وأساء العبارة . ابن العربي : لم يؤمر المسلمون يومئذ أن يسلموا على المشركين ولا نُهوا عن ذلك ، بل أمروا بالصفح والهجر الجميل ، وقد كان عليه الصلاة والسلام يقف على أُنْدِيَتِهِمْ وَيُحْيِيهِمْ وَيُدَانِيهِمْ ، ولا يداهنهم . وقد آتفق الناس على أن السفية من المؤمنين إذا جفاك يجوز أن تقول له سلام عليك .

قلت : هذا القول أشبه بدلائل السنة . وقد بينا في سورة « مريم » ^(١) اختلاف العلماء في جواز التسليم على الكفار ، فلا حاجة إلى دعوى النسخ ؛ والله أعلم . وقد ذكر النضر بن شميل قال حدثني الخليل قال : أتيت أبا ربيعة الأعرابي وكان من أعلم من رأيت ، فإذا هو على سطح ، فلما سلمنا رَدَّ علينا السلام وقال لنا : آستوا . وبقينا متحيرين ولم ندر ما قال . فقال لنا أعرابي إلى جنبه : أمركم أن ترتفعوا . قال الخليل : هو من قول الله عز وجل : « ثُمَّ آسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ » ^(٢) فصعدنا إليه فقال : هل لكم في خبز فطير ، وابن هجير ، وماء نَمِيرَ؟ ^(٣) فقلنا : الساعة فارقناه . فقال : سلاماً . فلم ندر ما قال . قال فقال الأعرابي : إنه

(١) راجع ج ١١ ص ١١١ فابعد . (٢) راجع ج ١٥ ص ٣٤٢ فابعد .

(٣) الفطير : خلاف الخمير ، وهو العجين الذي لم يختمر . والهجير : الفائق الفاضل . والنمير : الناجع في الرى .

سألکم متاركة لا خير فيها ولا شر . فقال الخليل : هو من قول الله عز وجل : « وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا » . قال ابن عطية : ورأيت في بعض التواريخ أن إبراهيم بن المهدي — وكان من المائلين على علي بن أبي طالب رضي الله عنه — قال يوما بحضرة المأمون وعنده جماعة : كنت أرى علي بن أبي طالب في النوم فكنت أقول له من أنت ؟ فكان يقول : علي بن أبي طالب . فكنت أجيء معه إلى قنطرة فيذهب فيتقدمني في عبورها . فكنت أقول : إنما تدعى هذا الأمر بامرأة ونحن أحق به منك . فما رأيت له في الجواب بلافة كما يذكر عنه . قال المأمون : وبماذا جابوك ؟ قال : فكان يقول لي سلاما . قال الراوي : فكان إبراهيم بن المهدي لا يحفظ الآية أو ذهبت عنه في ذلك الوقت . فنبه المأمون على الآية من حضره وقال : هو والله ياعم علي بن أبي طالب ، وقد جابوك بأبلغ جواب ، نخزي إبراهيم وأستحيا . وكانت رؤيا لا محالة صحيحة .

قوله تعالى : **وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا** ﴿٦٤﴾

قوله تعالى : **(وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا)** قال الزجاج : بات الرجل يبيت إذا أدركه الليل ، نام أو لم ينم . قال زهير ^(١) :

فبتنا قياما عند رأس جوادنا * يزاولنا عن نفسه ونزاوله

وأنشدوا في صفة الأولياء :

امنع جفونك أن تذوق مناما * وأذر الدموع على الحدود سجاما
وَأَعْلَمُ بِأَنْكَ مِيتٍ وَمَحَاسَبٌ * يَا مَنْ عَلَى سَخَطِ الْجَلِيلِ أَقَامَا
لله قوم أخلصوا في حبه * فرضى بهم وأختصهم خداما
قوم إذا جنّ الظلام عليهم * باتوا هنالك سُجَّدًا وَقِيَامَا
نحصد البطون من التعفف ضمرا * لا يعرفون سوى الحلال طعاما

(١) في الأصول : « قال امرؤ القيس » . وهو تحريف . والبيت من قصيدة زهير مقلدها :

صحا القلب عن سلمي وأقصر باطله * وعمرى أفراس الصلح ورواحله

وقال ابن عباس : من صلى ركعتين أو أكثر بعد العشاء فقد بات لله ساجدا وقائما .
 وقال الكلبي : من أقام ركعتين بعد المغرب وأربعاً بعد العشاء فقد بات ساجدا وقائما .
 قوله تعالى : **وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ**
إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۖ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : **﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾** أى هم مع طاعتهم مشفقون خائفون وجلون من عذاب الله . ابن عباس : يقولون ذلك في سجودهم وقيامهم .
﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أى لازما دائما غير مفارق . ومنه سمي الغريم لملازمته . ويقال :
 فلان مغرم بكذا أى لازم له مولع به . وهذا معناه في كلام العرب فيما ذكر ابن الأعرابي
 وابن عرفة وغيرهما . وقال الأعشى :

إن يعاقب يكن غراما وإن يعد * يط جزىلا فإنه لا يسالى

وقال الحسن : قد علموا أن كل غريم يفارق غريمه إلا غريم جهنم . وقال الزجاج : الغرام
 أشد العذاب . وقال ابن زيد : الغرام الشر . وقال أبو عبيدة : الهلاك . والمعنى واحد .
 وقال محمد بن كعب : طالبهم الله تعالى بئس النعيم في الدنيا فلم يأتوا به ، فأغرمهم ثمنها بل داخلهم
 النار . **﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾** أى بئس المستقر وبئس المقام . أى لأنهم يقولون ذلك
 عن علم ، وإذا قالوه عن علم كانوا أعرف بعظم قدر ما يطلبون ، فيكون ذلك أقرب إلى النجاح .

قوله تعالى : **وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ**
ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : **﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا﴾** اختلف المفسرون في تأويل هذه الآية .
 فقال النحاس : ومن أحسن ما قيل في معناه أن من أنفق في غير طاعة الله فهو الإسراف ،
 ومن أمسك عن طاعة الله عز وجل فهو الإقتار ، ومن أنفق في طاعة الله تعالى فهو القوام .

وقال ابن عباس : من أنفق مائة ألف في حق فليس بسرف ، ومن أنفق درهما في غير حقه فهو سرف ، ومن منع من حق عليه فقد قتر . وقاله مجاهد وابن زيد وغيرهما . وقال عون ابن عبد الله : الإسراف أن تنفق مال غيرك . قال ابن عطية : وهذا ونحوه غير مرتبط بالآية ، والوجه أن يقال . إن النفقة في معصية أمر قد حظرت الشريعة قليله وكثيره وكذلك التعدي على مال الغير ، وهؤلاء الموصوفون منزهون عن ذلك ، وإنما التأكيد في هذه الآية هو في نفقة الطاعات في المباحات ، فأدب الشرع فيها ألا يفرط الإنسان حتى يضع حقا آخر أو عيالا ونحو هذا ، وألا يضيق أيضا ويقتصر حتى يجمع العيال ويفرط في الشح ، والحسن في ذلك هو القوام ، أي العدل ، والقوام في كل واحد بحسب عياله وحاله ، وخفة ظهره وصبره وجلده على الكسب ، أو ضد هذه الخصال ، وخير الأمور أوساؤها ، ولهذا ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق أن يتصدق بجميع ماله ، لأن ذلك وسط بنسبة جلده وصبره في الدين ، ومنع غيره من ذلك . ونعم ما قال إبراهيم النخعي : هو الذي لا يجمع ولا يعرى ولا ينفق نفقة يقول الناس قد أسرف . وقال يزيد بن أبي حبيب : هم الذين لا يلبسون الثياب الجمال ، ولا يأكلون طعاما للذة . وقال يزيد أيضا في هذه الآية : أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا لا يأكلون طعاما للتنعم واللذة ، ولا يلبسون ثيابا للجمال ، ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يستدعونهم الجوع ويقويهم على عبادة ربهم ، ومن اللباس ما يستر عوراتهم ويكفهم من الحر والبرد . وقال عبد الملك ابن مروان لعمر بن عبد العزيز حين زوجه أخته فاطمة : ما نفقتك ؟ فقال له عمر : الحسنة بين سيئين ، ثم تلا هذه الآية . وقال عمر بن الخطاب : كفى بالمرء سرفا ألا يشتهي شيئا إلا اشتراه فأكله . وفي سنن ابن ماجه عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” إن من السرف أن تأكل كل ما أشتيت “ وقال أبو عبيدة : لم يزيدوا على المعروف ولم يخسروا . كقوله تعالى : « وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ^(١) » وقال الشاعر :

ولا تغل في شيء من الأمر واقتصد * كلا طرفي قصيد الأمور ذميم

وقال آخر :

إذا المرء أعطى نفسه كل ما آشتهت * ولم ينهها تافت إلى كل باطل
وسافت إليه الإثم والعار بالذي * دعتة إليه من حلاوة عاجل
وقال عمر لابنه عاصم : يا بني ، كل في نصف بطنك ؛ ولا تطرح ثوبا حتى تستخلفه ،
ولا تكن من قوم يحملون ما رزقهم الله في بطونهم وعلى ظهورهم . ولحاتم طي :
إذا أنت قد أعطيت بطنك سؤله * وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا
(وَلَمْ يَقْتُرُوا) قرأ حمزة والكسائي والأعمش وعاصم ويحيى بن وثاب على اختلاف عنهما
« يَقْتُرُوا » بفتح الياء وضم التاء ، وهي قراءة حسنة ؛ من قتر يقر . وهذا القياس في اللازم ،
مثل قعد يقعد . وقرأ أبو عمرو بن العلاء وابن كثير بفتح الياء وكسر التاء ، وهي لغة معروفة
حسنة . وقرأ أهل المدينة وابن عامر وأبو بكر عن عاصم بضم الياء وكسر التاء . قال الثعلبي :
كلها لغات صحيحة . النحاس : وتعجب أبو حاتم من قراءة أهل المدينة هذه ؛ لأن أهل
المدينة عنده لا يقع في قراءتهم الشاذ ، وإنما يقال : أقتر يقر إذا أفتر ، كما قال عز وجل :
« وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ » وتأول أبو حاتم لم أن المسرف يفتر سريعا . وهذا تأويل بعيد ،
ولكن التأويل لم أن أبا عمر الجرمي حكى عن الأصمعي أنه يقال للإنسان إذا ضيق : قتر يقر
ويقر ، وأقتر يقر . فعلى هذا تصح القراءة ، وإن كان فتح الياء أصح وأقرب متناولا ،
وأشهر وأعرف . وقرأ أبو عمرو والناس « قَوَّامًا » بفتح القاف ؛ يعني ددلا . وقرأ حسبان
ابن عبد الرحمن : « قَوَّامًا » بكسر القاف ؛ أي مبلغا وسدادا وملاك حال . والقوام بكسر
القاف : ما يدوم عليه الأمر ويستقر . و[قيل :] هما لغتان بمعنى . و« قَوَّامًا » خبر كان ، وأسمها
مقدر فيها ؛ أي كان الإنفاق بين الإسراف والقتل قواما ؛ قاله الفراء . وله قول آخر يجعل
« بَيْنَ » اسم كان وينصبها ؛ لأن هذه الألفاظ كثير استعمالها فتركت على حالها في موضع الرفع .
قال النحاس : ما أدري ما وجه هذا ؛ لأن « بَيْنَا » إذا كانت في موضع رفع رفعت ؛ كما يقال :
بَيْنَ عَيْنَيْهِ أَحْمَرُ .

قوله تعالى : **وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ
النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَنقُ
أَثَمًا ۖ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا ۖ** ﴿٦٩﴾

قوله تعالى : **(وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ)** إخراج لعباده المؤمنين من صفات
الكفرة في عبادتهم الأوثان ، وقتلهم النفس بؤاد البنات ، وغير ذلك من الظلم والاغتيال ،
والغارات ، ومن الزنى الذى كان عندهم مباحا . وقال من صرف هذه الآية عن ظاهرها
من أهل المعانى : لا يليق بمن أضافهم الرحمن إليه إضافة الاختصاص ، وذكرهم ووصفهم
من صفات المعرفة والتشريف وقوع هذه الأمور القبيحة منهم حتى يمدحوا بنفها عنهم لأنهم
أعلى وأشرف ، فقال : معناها لا يدعون الهوى إلهًا ، ولا يذلون أنفسهم بالمعاصى فيكون
قتلها . ومعنى **(إِلَّا بِالْحَقِّ)** أى إلا بسكين الصبر وسيف المجاهدة فلا ينظرون إلى نساء
ليست لهم بمحرم بشهوة فيكون سفاحا ، بل بالضرورة فيكون كالنكاح . قال شيخنا أبو العباس :
وهذا كلام رائق غير أنه عند السبر مائق ^(١) . وهى نبعة باطنية ونزعة باطية وإنما صح تشريف
عباد الله باختصاص الإضافة بعد أن تحلوا بتلك الصفات الحميدة وتحلوا عن نقائص ذلك من
الأوصاف الذميمة ، فبدأ فى صدر هذه الآيات بصفات التحلى تشريفا لهم ، ثم أعقبها بصفات
التخلى تبعيذا لها ^(٢) ، والله أعلم .

قلت : ومما يدل على بطلان ما أدعاه هذا القائل من أن تلك الأمور ليست على ظاهرها
ما روى مسلم من حديث عبد الله بن مسعود قال قلت : يا رسول الله ، أى الذنب أكبر
عند الله ؟ قال : **« أن تدعو الله ندا وهو خلقك »** قال : ثم أى ؟ قال : **« أن تقتل ولدك
مخافة أن يطعم »** قال : ثم أى ؟ قال : **« أن تزنى حليلة جارك »** فأنزل الله تعالى تصديقها :
**« وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ
يَفْعَلْ ذَلِكَ يَنقُ أَثَمًا »** . والأثام فى كلام العرب العقاب ، وبه قرأ ابن زيد وقادة هذه الآية .

ومنه قول الشاعر :

جَزَى الله ابن عُرْوَةَ حَيْثُ أَمْسَى * عُقُوقًا وَالْعُقُوقُ لَهُ أَثَامُ
أى جزاء وعقوبة . وقال عبد الله بن عمرو وعكرمة ومجاهد : إن «أَثَامًا» وادٍ فى جهنم جعله
الله عقابا للكفرة . قال الشاعر :

لَقِيتُ الْمَهَالِكَ فى حَرْبِنَا * وَبَعْدَ الْمَهَالِكِ تَلَقَى أَثَامَا

وقال السدّى : جبل فيها . قال :

وَكَانَ مُقَامُنَا نَدَعُوا عَلَيْهِمْ * بِأَبْطَحِ ذَى الْمَجَازِلِ أَثَامُ

وفى صحيح مسلم أيضا عن ابن عباس : أن ناسا من أهل الشرك قتلوا فأكثرُوا وزنوا فأكثرُوا ،
فأتوا محمدا صلى الله عليه وسلم فقالوا : إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن ، وهو يخبرنا بأن لما
عملنا كفارة ، فنزلت : « وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ ^(١)
إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَنقُ أَثَامًا » . ونزل : « يَا عِبَادِى الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ^(٢)
الآية . وقد قيل : إن هذه الآية ، « يَا عِبَادِى الَّذِينَ أَسْرَفُوا » نزلت فى وحشى قاتل حمزة ،
قاله سعيد بن جبيرة وابن عباس ، وسيأتى فى « الزمر » بيانه .

قوله تعالى : « إِلَّا بِالْحَقِّ » أى بما يحق أن تقتل به النفوس من كفر بعد إيمان أو زنى
بعد إحصان ؛ على ما تقدم بيانه فى « الأنعام » . « وَلَا يَزْنُونَ » ^(٣) فيستحلون الفروج بغير نكاح
ولا ملك يمين . ودلت هذه الآية على أنه ليس بعد الكفر أعظم من قتل النفس بغير الحق
ثم الزنى ؛ ولهذا ثبت فى حد الزنا القتل لمن كان محصنا أو أقصى الجلد لمن كان غير محصن .
قوله تعالى : « وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَنقُ أَثَامًا » . يُضَاعَفُ لَهُ الْعَذَابُ » قرأ نافع وابن عامر
وحمة والكسائى « يُضَاعَفُ . وَيَحْلُدُ » جزما . وقرأ ابن كثير : « يُضَعَّفُ » بشد العين وطرح
الألف ؛ وبالحزم فى « يُضَعَّفُ . وَيَحْلُدُ » . وقرأ طلحة بن سليمان : « نُضَعَّفُ » بضم النون
وكسر العين المشددة . « الْعَذَابُ » نصب « وَيَحْلُدُ » جزم ، وهى قراءة أبى جعفر وشيبة .

(١) فى ك وز : لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة . ولعله الأشبه بالمعنى . محققه .

(٢) راجع ج ١٥ ص ٢٦٧ فلا بعد . (٣) راجع ج ٧ ص ١٣٣ .

وقرأ عاصم في رواية أبي بكر : « يُضَاعَفُ . وَيُحْلَدُ » بالرفع فيهما على العطف والاستئناف .
 وقرأ طلحة بن سليمان : « وَتُحْلَدُ » بالبناء على معنى مخاطبة الكافر . وروى عن أبي عمرو « وَيُحْلَدُ »
 بضم الياء من تحت وفتح اللام . قال أبو علي : وهي غلط من جهة الرواية . و « يُضَاعَفُ »
 بالجزم بدل من « يُلْقَى » الذي هو جزاء الشرط . قال سيبويه : مضاعفة العذاب لُقي الأثام .
 قال الشاعر :

مَتَى تَأْتِنَا تُبْلِمُ بِنَا فِي دِيَارِنَا * تَجِدُ حَطَبًا جَزْلًا وَنَارًا تَأْتِجَا

وقال آخر :

إِنِّ عَلَى اللَّهِ أَنْ تُبَايِعَ ^(١) * تُوْخِذَ كَرْهًا أَوْ تَجِيَّ طَائِعًا

وأما الرفع ففيه قولان : أحدهما أن تقطعه مما قبله . والآخر أن يكون محمولا على المعنى ؛
 كأن قائلا قال : ما ألقى الأثام ؟ فقبل له : يضاعف له العذاب . و (مُهَاتَا) معناه ذليلا
 خاسئا مبعدا مطرودا .

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ
 يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ^(٢) وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ^(٣) ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا ﴾ لا خلاف بين العلماء أن
 الاستثناء عامل في الكافر والزاني . وأختلفوا في القاتل من المسلمين على ما تقدم بيانه
 في « النساء » ومضى في « المائدة » ^(٢) القول في جواز التراخي في الاستثناء في اليمين ، وهو
 مذهب ابن عباس مستدلا بهذه الآية .

قوله تعالى : ﴿ فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ قال النحاس : من أحسن ما قيل
 فيه أنه يكتب موضع كافر مؤمن ، وموضع عاصٍ طمع . وقال مجاهد والضحاك : أن يبدلهم

(١) الشاهد في حمل تؤخذ على تبائع وإبداله منه . وأراد بقوله « الله » القسم ، والمعنى إن الله على الله فلما

حذف الجار نصب . (٢) راجع ج ٥ ص ٣٣٢ فما بعد . (٣) راجع ج ٦ ص ٢٧٣ .

الله من الشرك الإيمان وروى نحوه عن الحسن . قال الحسن : قوم يقولون التبديل في الآخرة ، وليس كذلك ، إنما التبديل في الدنيا ؛ يبدلهم الله إيماناً من الشرك ، وإخلاصاً من الشك ، وإحصاناً من الفجور . وقال الزجاج : ليس يجعل مكان السيئة الحسنة ، ولكن يجعل مكان السيئة التوبة ، والحسنة مع التوبة . وروى أبو ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم : ” أن السيئات تبدل بحسنات “ . وروى معناه عن سلمان الفارسي وسعيد بن جبير وغيرهما . وقال أبو هريرة : ذلك في الآخرة فيمن غلبت حسناته على سيئاته ، فيبدل الله السيئات حسنات . وفي الخبر : ” لَيَتَمَنَّيْنَ أَقْوَامُ أَنَّهُمْ أَكْثَرُوا مِنَ السَّيِّئَاتِ “ فقل : ومن هم ؟ قال : ” الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات “ . رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ذكره الثعلبي والقشيري . وقيل : التبديل عبارة عن الغفران ؛ أي يغفر الله لهم تلك السيئات لا أن يبدلها حسنات .

قلت : فلا يبعد في كرم الله تعالى إذا صحت توبة العبد أن يضع مكان كل سيئة حسنة ؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم لمعاذ : ” أتبع السيئة الحسنة تحبها وخالف الناس بخلق حسن “ . وفي صحيح مسلم عن أبي ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولا الجنة وآخر أهل النار خروجاً منها رجلٌ يؤتى به يوم القيامة فيقال أعرضوا عليه صغار ذنوبه وأرفعوا عنه كبارها فتعرض عليه صغار ذنوبه فيقال عملت يوم كذا وكذا وكذا وكذا وعملت يوم كذا وكذا وكذا فيقول نعم لا يستطيع أن ينكروه وهو مشفق في كبار ذنوبه أن تعرض عليه فيقال له فإن لك مكان كل سيئة حسنة فيقول يا رب قد عملت أشياء لا أراها ها هنا “ فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه . وقال أبو طویل : ^(١) يا رسول الله ، أرايت رجلاً عمل الذنوب كلها ولم يترك منها شيئاً ، وهو في ذلك لم يترك حاجة ولا داجة إلا أقطعتها فهل له من توبة ؟ قال : ” هل أسلمت “ قال : أنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنك عبد الله ورسوله . قال ” نعم .

(١) أبو طویل : كنية شطب الممدود ، رجل من كندة .

تفعل الخيرات وتترك السيئات يجعلهن الله كلهن خيرات “ . قال : وغدراقي وبخراتي
 يانبي الله قال : ” نعم “ . قال : الله أكبر ! فما زال يكررها حتى تواري . ذكره الثعلبي .
 قال مبشر بن عبيد ، وكان عالماً بالنحو والعربية : الحاجة التي تقطع على الحاج إذا توجهوا .
 والداجة التي تقطع عليهم إذا قفلوا . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

قوله تعالى : وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾
 قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴾ لا يقال : من قام
 فإنه يقوم ؛ فكيف قال من تاب فإنه يتوب ؟ فقال ابن عباس : المعنى من آمن من أهل
 مكة وهاجر ولم يكن قتل وزنى بل عمل صالحا وأدى الفرائض فإنه يتوب إلى الله متابا ؛
 أى فلانى قدمتهم وفضلتهم على من قاتل النبي صلى الله عليه وسلم واستحل المحارم . وقال القفال :
 يحتمل أن تكون الآية الأولى فيمن تاب من المشركين ، ولهذا قال : « إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ »
 ثم عطف عليه من تاب من المسلمين وأتبع توبته عملا صالحا فله حكم التائبين أيضا . وقيل :
 أى من تاب بلسانه ولم يحقق ذلك بفعله ، فليست تلك التوبة نافعة ؛ بل من تاب وعمل
 صالحا فحقق توبته بالأعمال الصالحة فهو الذى تاب إلى الله متابا ؛ أى تاب حق التوبة وهى
 النصوح ، ولذا أكد بالمصدر . فـ « متابا » مصدر معناه التأكيد ، كقوله : « وَكَلَّمَ اللَّهُ
 مُوسَى تَكْلِيمًا » أى فإنه يتوب إلى الله حقا فيقبل الله توبته حقا .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا

كِرَامًا ﴿٧٢﴾

فيه مستثنان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ أى لا يحضرون الكذب والباطل
 ولا يشاهدونه . والزور كل باطل زور وزُحْرِف ، وأعظمه الشرك وتمظيم الأنداد . وبه فسر
 الضحاك وابن زيد وابن عباس . وفى رواية عن ابن عباس أنه أعياد المشركين . عكرمة : لعب

كان في الجاهلية يسمى بالزور . مجاهد : الغناء ؛ وقاله محمد بن الحنفية أيضا . ابن جريج : الكذب ؛ وروى عن مجاهد . وقال علي بن أبي طاحه ومحمد بن علي : المعنى لا يشهدون بالزور ، من الشهادة لا من المشاهدة . قال ابن العربي : أما القول بأنه الكذب فصحيح ، لأن كل ذلك إلى الكذب يرجع ، وأما من قال إنه لعب كان في الجاهلية فإنه يحرم ذلك إذا كان فيه قمار أو جهالة ، أو أمر يعود إلى الكفر ، وأما القول بأنه الغناء فليس ينتهي إلى هذا الحد . قلت : من الغناء ما ينتهي سماعه إلى التحريم ، وذلك كالأشعار التي توصف فيها الصور المستحسنات والخمر وغير ذلك مما يحرك الطباع ويخرجها عن الاعتدال ، أو يشير كامنا من حب اللهو ؛ مثل قول بعضهم :

ذهبي اللون تحسب من * وجنتيه النار تفتدح

خوفوني من فضيحتي * ليتني وافي وأفتضح^(١)

لا سيما إذا اقترن بذلك شبّابات وطارات مثل ما يفعل اليوم في هذه الأزمان ، على ما بيناه في غير هذا الموضع . وأما من قال إنه شهادة الزور ؛ وهي :

الثانية — فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يجلد شاهد الزور أربعين جلدة ، ويسخّم وجهه ، ويحلق رأسه ، ويطوف به في السوق . وقال أكثر أهل العلم : ولا تقبل له شهادة أبدا وإن تاب وحسنت حاله فأمره إلى الله . وقد قيل : إنه إذا كان غير مبرز فحسنت حاله قبلت شهادته حسبما تقدم بيانه في سورة « الحج » فتأمل هناك .^(٢)

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ۖ ﴾ قد تقدم الكلام في اللغو ، وهو كل سقط من قول أو فعل ؛ فيدخل فيه الغناء واللهو وغير ذلك مما قاربه ، ويدخل فيه سفه المشركين وأذاهم المؤمنين وذكر النساء وغير ذلك من المنكر . وقال مجاهد : إذا أودوا صفعوا . وروى عنه : إذا ذكر النكاح كنوا عنه . وقال الحسن : اللغو المعاصي كلها . وهذا جامع . و « كرامًا » معناه معرضين منكربين لا يرضونه ، ولا يمالئون عليه ، ولا يجالسون أهله .^(٣)

(١) الشابة (بالتشديد) : نوع من المزمار (مولد) . (٢) في ك : الأسواق .

(٣) راجع ج ١٢ ص ٥٥٥ . (٤) راجع ج ٣ ص ٩٩ فابعد . (٥) كنوا عنه من التكنية . كذا في ك وز .

أى مروا مَرَّ الكرام الذين لا يدخلون فى الباطل . يقال : تكرم فلان عما يشينه ، أى تنزه وأكرم نفسه عنه . وروى أن عبد الله بن مسعود سمع غناء فأسرع وذهب ، فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " لقد أصبح ابن أم عبد كريما " . وقيل : من المرور باللغو كريما أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾

فيه مسئلتان :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ أى إذا قرئ عليهم القرآن ذكروا آحزتهم ومعادهم ولم يتغافلوا حتى يكونوا بمنزلة من لا يسمع . وقال : ﴿ لَمْ يَخِرُّوا ﴾ وليس ثمَّ خور ، كما يقال : قعد يبكي وإن كان غير قاعد ، قاله الطبري واختاره ، قال ابن عطية : وهو أن يخروا صمًا وعميانا هى صفة الكفار ، وهى عبارة عن إعراضهم ، وقرن ذلك بقولك : قعد فلان يشتمنى وقام فلان يبكي وأنت لم تقصد الإخبار بقعود ولا قيام ، وإنما هى توطئات فى الكلام والعبارة . قال ابن عطية : فكأن المستمع للذكر قائم القناة قويم الأمر ، فإذا أعرض وضلَّ كان ذلك خرورا ، وهو السقوط على غير نظام وترتيب ، وإن كان قد شبه به الذى يخر ساجدا لكن أصله على غير ترتيب . وقيل : أى إذا نليت عليهم آيات الله وجلت قلوبهم نفخروا سجدا وبكيا ، ولم يخروا عليها صمًا وعميانا . وقال الفراء : أى لم يقعدوا على حالهم الأول كأن لم يسمعوا .

الثانية - قال بعضهم : إن من سمع رجلا يقرأ سجدة يسجد معه ، لأنه قد سمع آيات الله تنلى عليه . قال ابن العربي : وهذا لا يلزم إلا القارئ وحده ، وأما غيره فلا يلزمه ذلك إلا فى مسألة واحدة ، وهو أن الرجل إذا تلا القرآن وقرأ السجدة فإن كان الذى جلس معه جلس ليسجد معه ، وإن لم يلتزم السماع [معه] فلا يسجد عليه . وقد مضى هذا فى « الأعراف » .

(١) فى ك : بن عمر . لقد أصبح ابن آدم عبدا كريما . (٢) بن ك . (٣) راجع ج ٧ ص ٢٥٢ .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا
قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا
وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾
قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : (وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ) قال
الضحّاك : أى مطيعين لك . وفيه جواز الدعاء بالولد وقد تقدّم . والذرية تكون واحدا
وجمعا . فكونها للواحد قوله : « رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً » « فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ
وَلِيًّا » وكونها للجمع « ذُرِّيَّةً ضِعَافًا » وقد مضى في « البقرة » اشتقاقها مستوفى . وقرأ نافع
وآبن كثير وآبن عامر والحسن : « وَذُرِّيَّاتِنَا » وقرأ أبو عمر وحمزة والكسائي وطلحة وعيسى :
« وَذُرِّيَّتِنَا » بالأفراد . « قُرَّةَ أَعْيُنٍ » نصب على المفعول ، أى قرة أعين لنا . وهذا نحو
قوله عليه الصلاة والسلام لأنس : « اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيه » وقد تقدّم بيانه
في « آل عمران » ^(١) و « مريم » ^(٢) . وذلك أن الإنسان إذا بورك له في ماله وولده قُرت عينه
بأهله وعياله ، حتى إذا كانت عنده زوجة اجتمعت له فيها أمانيه من جمال وعفة ونظروحوطة
أو كانت عنده ذرية محافظون على الطاعة ، معاونون له على وظائف الدين والدنيا ، لم يلتفت
إلى زوج أحد ولا إلى ولده ، فتسكن عينه عن الملاحظة ، ولا تمتد عينه إلى ما ترى ، فذلك
حين قُرت العين ، وسكون النفس . ووحد « قُرة » لأنه مصدر ، تقول : قُرت عينك قُرة .
وقُرة العين يحتمل أن تكون من القرار ، ويحتمل أن تكون من القُـر وهو الأشهر . والقُـر
البرد ، لأن العرب تتأذى بالحر وتستريح إلى البرد . وأيضا فإن دمع السرور بارد ، ودمع
الحزن سخى ، فمن هذا يقال : أقز الله عينك ، وأسخن الله عين العدو . وقال الشاعر :

فكم سَخِنْتُ بالأمس عين قـريرة * وقُرت عيون دمعها اليوم ساكبُ

(٢) راجع ج ١١ ص ٧٩ فما بعد .

(١) راجع ج ٤ ص ٧٢ فما بعد .

(٤) راجع ج ٢ ص ١٠٧ .

(٣) راجع ج ٥ ص ٥٠ .

قوله تعالى : ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ أى قدوة يقتدى بنا فى الخير، وهذا لا يكون إلا أن يكون الداعى متقياً قدوة ؛ وهذا هو قصد الداعى . وفى الموطأ : ” إنكم أيها الرهط أئمة يقتدى بكم “ فكان ابن عمر يقول فى دعائه : اللهم اجعلنا من أئمة المتقين . وقال : « إماماً » ولم يقل أئمة على الجمع ؛ لأن الإمام مصدر . يقال : أتم القوم فلان إماماً ؛ مثل الصيام والقيام . وقال بعضهم : أراد أئمة ، كما يقول القائل أميرنا هؤلاء ، يعنى أمراءنا . وقال الشاعر

يا عاذلاتى لا تزدن ملامتى * إن العواذل لسن لي بأمير

أى أمراء . وكان القشيري أبو القاسم شيخ الصوفية يقول : الإمامة بالدعاء لا بالدعوى ، يعنى بتوفيق الله وتيسيره ومنتبه لا بما يدعيه كل أحد لنفسه . وقال إبراهيم النخعي : لم يطلبوا الرياسة بل بأن يكونوا قدوة فى الدين . وقال ابن عباس : آجعلنا أئمة هدى ، كما قال تعالى : « وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ^(١) » وقال مكحول : آجعلنا أئمة فى التقوى يقتدى بنا المتقون . وقيل : هذا من المقلوب ؛ مجازه : وآجعل المتقين لنا إماماً ؛ وقاله مجاهد . والقول الأول أظهر وإليه يرجع قول ابن عباس ومكحول ، ويكون فيه دليل على أن طلب الرياسة فى الدين ندب . وإمام واحد يدل على جمع ؛ لأنه مصدر كالقيام . قال الأخفش : الإمام جمع آتم من أتم يؤتم جمع على فعال ، نحو صاحب وصحاب ، وقائم وقيام .

قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ « أُولَئِكَ » خبر « وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ » فى قول الزجاج على ما تقدم ، وهو أحسن ما قيل فيه . وما تخلل بين المبتدأ وخبره أوصافهم من التحلى والتخلى ؛ وهى إحدى عشرة : التواضع ، والحلم ، والتمجد ، والخوف ، وترك الإسراف والإقتار ، والزهادة عن الشرك ، والزنى والقتل ، والتوبة وتجنب الكذب ، والعفو عن المسيء ، وقبول المواعظ ، والابتهاال إلى الله . و« الْغُرْفَةُ » الدرجة الرفيعة وهى أعلى منازل الجنة وأفضلها كما أن الغرفة أعلى مساكن الدنيا . حكاه ابن شجرة . وقال الضحاك : الغرفة الجنة . « بِمَا صَبَرُوا » أى بصبرهم على أمر ربهم : وطاعة نبيهم عليه أفضل الصلاة والسلام . وقال محمد بن على بن الحسين : « بِمَا صَبَرُوا » على الفقر والفاقة فى الدنيا . وقال الضحاك : « بِمَا صَبَرُوا » عن الشهوات . ﴿ وَيُلْقُونَ فِيهَا تِجَةً وَسَلَامًا ﴾ قرأ أبو بكر والمفضل والأعمش ويحيى

وحمة والكسائي وخلف : « وَيَلْقَوْنَ » مخففة، وأختره الفراء؛ قال لأن العرب تقول : فلان يُتلقى بالسلام وبالتحية وبالخير بالتاء، قلما يقولون فلان يُلقى السلامة . وقرأ الباقيون : « وَيَلْقَوْنَ » وأختره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لقوله تعالى : « وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ^(١) » . قال أبو جعفر النحاس : وما ذهب إليه الفراء وأختره غلط؛ لأنه يزعم أنها لو كانت « يَلْقَوْنَ » كانت في العربية بتحية وسلام، وقال كما يقال : فلان يُتلقى بالسلام وبالخير؛ فمن عجيب ما في هذا الباب أنه قال يتلقى والآية « يَلْقَوْنَ » والفرق بينهما بين : لأنه يقال فلان يتلقى بالخير ولا يجوز حذف الباء، فكيف يشبه هذا ذلك ! وأعجب من هذا أن في القرآن « وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا » ولا يجوز أن يقرأ بغيره . وهذا يبين أن الأولى على خلاف ما قال . والتحية من الله والسلام من الملائكة . وقيل : التحية البقاء الدائم والملك العظيم؛ والأظهر أنهما بمعنى واحد، وأنهما من قبل الله تعالى؛ دليله قوله تعالى : « تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ^(٢) » وسيأتي . ((خَالِدِينَ)) نصب على الحال ((فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا)) .

قوله تعالى : ((قُلْ مَا يَعْباُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ)) هذه آية مشكلة تعلق بها الملحدة . يقال : ما عبأت بفلان أى ما باليت به؛ أى ما كان له عندى وزن ولا قدر . وأصل يعبا من العِبء وهو الثقل . وقول الشاعر ^(٤) :

كَأَنْ بَصْدْرَهُ وَبِجَانِبِهِ * عَيْرًا بَاتَ يَعْبُوهُ عَرُوسُ

أى يجعل بعضه على بعض . فالعبء الحمل الثقيل ، والجمع أعباء . والعبء المصدر . وما استفهامية؛ ظهر في أثناء كلام الزجاج، وصرح به الفراء . وليس يبعد أن تكون نافية؛ لأنك إذا حكمت بأنها استفهام فهو نفى خرج مخرج الاستفهام؛ كما قال تعالى : « هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ^(٥) » قال ابن السجري : وحقيقة القول عندى أن موضع « ما » نصب؛ والتقدير : أى عِبء يعبا بكم؛ أى أى مبالاة يبالي ربي بكم لولا دعائكم؛ أى لولا دعائهم إياكم لتعبدهم، فالمصدر الذى هو الدعاء على هذا القول مضاف إلى مفعوله؛ وهو اختيار الفراء . وفاعله محذوف وجواب لولا محذوف كما حذف في قوله : « وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ

(١) راجع ج ١٩ ص ١٣٣ . (٢) في ك : بالتحية . (٣) راجع ج ١٤ ص ١٩٩ .

(٤) هو أبو زيد يصف أسدا، كما في اللسان مادة « عبأ » . ورواه هكذا :

كَأَنْ بَغْرَهُ وَبِمَنْكِبِهِ * عَيْرًا بَاتَ يَعْبُوهُ عَرُوسُ (٥) راجع ج ١٧ ص ١٨٢ .

الْجِبَالُ» ^(١) تقديره : لم يعبا بكم . ودليل هذا القول قوله تعالى : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » ^(٢) فالخطاب لجميع الناس ؛ فكأنه قال لقريش منهم : أى ما يبال الله بكم لولا عبادتكم إياه أن لو كانت ؛ وذلك الذى يعبا بالبشر من أجله . ويؤيد هذا قراءة ابن الزبير وغيره . « فَقَدْ كَذَّبَ الْكَافِرُونَ » فالخطاب بما يعبا لجميع الناس ، ثم يقول لقريش : فأنتم قد كذبتُم ولم تعبدوه فسوف يكون التكذيب هو سبب العذاب لزما . وقال النقاش وغيره : المعنى ؛ لولا استغاثتكم إليه فى الشدائد ونحو ذلك . بيانه : « فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَاُ اللَّهَ مُخْلِصِينَ » ^(٣) ونحو هذا . وقيل : « مَا يَعْبا بِكُمْ » أى بمغفرة ذنوبكم ولا هو عنده عظيم « لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ » معه الآلهة والشركاء . بيانه : « مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ » ^(٤) قاله الضحاك . وقال الوليد بن أبى الوليد : بلغنى فيها أى ما خلقتكم ولى حاجة إليكم إلا تسألونى فأغفر لكم وأعطىكم . وروى وهب بن منبه أنه كان فى التوراة : « يَا بَنَى آدَمَ وَعِزَّتِي مَا خَلَقْتُكَ لِأَرْبَحَ عَلَيْكَ إِنَّمَا خَلَقْتُكَ لِتَرْبَحَ عَلَيَّ فَاتَّخِذْنِي بَدَلًا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فَإِنَّا خَيْرُكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ » . قال ابن جني : قرأ ابن الزبير وابن عباس « فَقَدْ كَذَّبَ الْكَافِرُونَ » . قال الزهراوى والنحاس : وهى قراءة ابن مسعود وهى على التفسير ؛ للتاء والميم فى « كَذَّبْتُمْ » . وذهب القتيبي والفارسي إلى أن الدعاء مضاف إلى الفاعل والمفعول محذوف ، الأصل لولا دعاؤكم آلهة من دونه ؛ وجواب « لَوْلَا » محذوف تقديره فى هذا الوجه : لم يعذبكم . ونظير قوله : لولا دعاؤكم آلهة قوله : « إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ » ^(٥) « فَقَدْ كَذَّبْتُمْ » أى كذبتُم بما دعيتم إليه ؛ هذا على القول الأول ؛ وكذبتُم بتوحيد الله على الثانى . « فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا » أى يكون تكذيبكم ملازما لكم . والمعنى : فسوف يكون جزاء التكذيب كما قال : « وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا » ^(٦) أى جزاء ما عملوا وقوله : « فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ » ^(٧) أى جزاء ما كنتم تكفرون . وحسن إضمار التكذيب لتقدم ذكر فعله ؛ لأنك إذا ذكرت الفعل دلّ بلفظه على مصدره ، كما قال : « وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ » ^(٨) أى لكان الإيمان . وقوله : « وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ » ^(٩) أى يرضى الشكر . ومثله كثير . وجمهور المفسرين

(١) راجع ج ٩ ص ٣١٨ . (٢) راجع ج ١٧ ص ٥٥ . (٣) راجع ص ٣٦٢ من هذا الجزء .

(٤) راجع ج ٥ ص ٤٢٦ . (٥) راجع ج ٧ ص ٣٤٢ . (٦) راجع ج ١٠ ص ٤١٨ .

(٧) راجع ج ٦ ص ٤١١ . (٨) راجع ج ٤ ص ١٧٣ . (٩) راجع ج ١٥ ص ٢٣٦ فبا هذا .

على أن المراد باللزام هنا ما نزل بهم يوم بدر ، وهو قول عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب وأبي مالك ومجاهد ومقاتل وغيرهم . وفي صحيح مسلم عن عبد الله : وقد مضت البطشة والدخان واللزام . وسيأتي مبينا في سورة « الدخان »^(١) إن شاء الله تعالى . وقالت فرقة : هو تواعد بعذاب الآخرة . وعن ابن مسعود أيضا : اللزام التكذيب نفسه ؛ أى لا يعطون التوبة منه ؛ ذكره الزهراوى ؛ فدخل في هذا يوم بدر وغيره من العذاب الذى يلزمونه . وقال أبو عبيدة : لزاما فيصلا أى فسوف يكون فيصلا بينكم وبين المؤمنين . والجمهور من القراء على كسر اللام ؛ وأنشد أبو عبيدة لصخر :

فإِذَا يَنْجُوْنَ مِنْ خُسْفٍ أَرْضٍ * فَقَدْ لَقِيَا حُتُوْفَهُمَا لِرَازِمَا

ولزاما وملازمة واحد . وقال الطبرى : « لِرَازِمَا » يعنى عذابا دائما لازما ، وهلاكا مفنيا يلحق بعضهم ببعض ؛ كقول أبي ذؤيب :

ففساجاه بعادية لِرَازِمٍ * كَمَا يَتَفَجَّرُ الْحَوْضُ اللَّقِيفُ^(٢)

يعنى باللزام الذى يتبع بعضه بعضا ، وباللقيف المتساقط الجحارة المتهدم . النحاس : وحكى أبو حاتم عن أبي زيد قال سمعت قَعْنَبَا أبا السَّمَالِ يَقْرَأُ : « لِرَازِمَا » بفتح اللام . قال أبو جعفر : يكون مصدر لزم والكسر أولى ، يكون مثل قتال ومقاتلة ، كما أجمعوا على الكسر فى قوله عز وجل : « وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى »^(٣) . قال غيره : اللزام بالكسر مصدر لازم لزاما مثل خاصم خصاما ، واللزام بالفتح مصدر لزم مثل سلم سلاما أى سلامة ؛ فاللزام بالفتح اللزوم ، واللزام الملازمة ، والمصدر فى القراءتين وقع موقع اسم الفاعل ، فاللزام وقع موقع ملازم ، واللزام وقع موقع لازم . كما قال تعالى : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا »^(٤) أى غائرا . قال النحاس : وللغراء قول فى اسم يكون ؛ قال : يكون مجهولا وهذا غلط ؛ لأن المجهول لا يكون خبره إلا جملة ، كما قال تعالى : « إِنَّهُ مِنْ يَتَّيْقٍ وَيَصِيرُ »^(٥) . وكما حكى النحويون كان زيد منطلق [يكون فى كان مجهول]^(٦) ويكون المبتدأ وخبره خبر المجهول ، والتقدير : كان الحديث ؛ فأما أن يقال كان منطلقا ، ويكون فى كان مجهول فلا يجوز عند أحد علمناه . وبالله التوفيق وهو المستعان والحمد لله رب العالمين .

(١) راجع ج ١٦ ص ١٣٣ . (٢) العادية . القوم يعدون على أرجلهم ؛ أى غملتهم لزام كأنهم لزموا لا يفارقون ما هم فيه وشبه حلتهم يهدم الحوض إذا تهدم . ويرى : * فلم ير غير عادية لزاما * (٣) راجع ج ١١ ص ٢٦٠ . (٤) راجع ج ١٨ ص ٢٢٢ . (٥) راجع ج ٩ ص ٢٥٥ فابعد . (٦) منك .

سورة الشعراء

هي مكة في قول الجمهور . وقال مقاتل : منها مدني ؛ الآية التي يذكر فيها الشعراء ، وقوله : « أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ » . وقال ابن عباس وقتادة : مكة إلا أربع آيات منها نزلت بالمدينة من قوله : « وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ » إلى آخرها . وهي مائتان وسبع وعشرون آية . وفي رواية : ست وعشرون . وعن ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم : ” أعطيت السورة التي تذكر فيها البقرة من الذكر الأول وأعطيت طه وطسم من ألواح موسى وأعطيت فواتح القرآن وخواتيم سورة البقرة من تحت العرش وأعطيت المفصل نافلة “ . وعن البراء بن عازب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ” إن الله أعطاني السبع الطوال مكان التوراة وأعطاني المئين مكان الإنجيل وأعطاني الطواسين مكان الزبور وفضلني بالحواميم والمفصل ما قرأهن نبي قبلي “ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : طَسَمَ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ
بِخِصِّ نَفْسِكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِنْ تَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ
ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ وَءَايَاتِهِمْ مِنْ ذِكْرِ مَنْ رَحِمَنِ
مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ
مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ
كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ طَسَمَ ﴾ قرأ الأعمش ويحيى وأبو بكر والمفضل وحمزة والكسائي وخلف :
 بإمالة الطاء مشبعا في هذه السورة وفي أختيها . وقرأ نافع وأبو جعفر وشيبة والزهرى : بين
 اللفظين ؛ وأختره أبو عبيد وأبو حاتم . وقرأ الباقر بالفتح مشبعا . قال الثعلبي : وهى
 كلها لغات فصيحة . وقد مضى فى « طه^(١) » قول النحاس فى هذا . قال النحاس : وقرأ
 المدنيون وأبو عمرو وعاصم والكسائي : « طَسَمَ » بإدغام النون فى الميم ، والفراء يقول بإخفاء
 النون . وقرأ الأعمش : وحمزة : « طسين ميم » بإظهار النون . قال النحاس : للنون الساكنة
 والتنوين أربعة أقسام عند سيبويه : يبينان عند حروف الحلق ، ويدغمان عند الزاء واللام
 والميم والواو والياء ، ويقلبان ميمًا عند الباء ويكونان من الخياشيم ؛ أى لا يبينان ؛ فعلى هذه
 الأربعة الأقسام التى نهى سيبويه لا تجوز هذه القراءة ؛ لأنه ليس هاهنا حرف من حروف
 الحلق فتبين النون عنده ، ولكن فى ذلك وجيه : وهوان حروف المعجم حكما أن يوقف
 عليها ، فإذا وقف عليها تبيذت النون . قال الثعلبي : الإدغام اختيار أبى عبيد وأبى حاتم
 قياسا على كل القرآن ، وإنما أظهرها أولئك للتبيين والتمكين ، وأدغمها هؤلاء لمجاورتها حروف
 الفم . قال النحاس : وحكى أبو إسحق فى كتابه « فيما يجرى وفيما لا يجرى » أنه يجوز أن
 يقال : « طسين ميمٌ » بفتح النون وضم الميم ، كما يقال هذا معدى كرب . وقال أبو حاتم :
 قرأ خالد : « طسين ميمٌ » . ابن عباس : « طسم » وهو أسم من أسماء الله تعالى ، والمقسم
 عليه : « إِنْ نَشَأْ نُذِرْهُمْ مِنْ السَّمَاءِ آيَةً » . وقال قتادة : أسم من أسماء القرآن أقسم الله به .
 مجاهد : هو أسم السورة ؛ ويحسن افتتاح السورة . الربيع : حساب مدة قوم . وقيل :
 قارعة تحل بقوم . « طَسَمَ » و « طَسَ » واحد . قال :

وَقَاؤُكُمْ كَالرَّبِّعِ أَشْجَاهُ طَاسِمُهُ * بَأْنُ تُسْعِدَا وَالْدَّمْعُ أَشْفَاهُ سَاجِمُهُ

(١) راجع ج ١١ ص ١٦٨ . (٢) هو المتنبي ؛ والبيت مطلع قصيدة له مدح بها أبا الحسن على
 ابن عبد الله العدوى . وأشجاء : أحزنه . والطاسم : الدارس . والساجم : السائل . والمعنى : طالب وفاء هما بالإسعاد
 وهو الإمانة على البكاء والموافقة ، ولذلك قال : (والدمع أشفاه ساجمه) والمعنى ابكيا معى بدمع فى غاية السجوم فهو
 أشفى للوجد ، فإن الربيع فى غاية الطسوم وهو أشجى للحب . وأراد بالوفاء هنا البكاء لأنهما عاهداه على الإسعاد .
 « شرح التبيان ج ٢ للعكبرى » .

وقال القرطبي : أقسم الله بطوله وسنائه ومملكه . وقال عبد الله بن محمد بن عَـقِيل : الطاء
 طور سيناء والسين إسكندرية والميم مكة . وقال جعفر بن محمد بن علي : الطاء شجرة طوبى ،
 والسين سِدرة المنتهى ، والميم محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : الطاء من الطاهر والسين
 من القدوس — وقيل : من السميع وقيل : من السلام — والميم من المجيد . وقيل :
 من الرحيم . وقيل : من الملك . وقد مضى هذا المعنى في أول سورة « البقرة » . والطَّوَّاسِيمُ
 والطَّوَّاسِينُ سور في القرآن جُمعت على غير قياس . وأنشد أبو عبيدة :
 وبالطَّوَّاسِيمِ التي قد ثُلُثت * وبالحواميم التي قد سُبُعت

قال الجوهري : والصواب أن تجمع بذوات وتضاف إلى واحد ، فيقال : ذوات طسم
 وذوات حم .

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ رفع على إضمار مبتدأ أى هذه « تِلْكَ
 آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ » التي كنتم وعدتم بها ؛ لأنهم قد وعدوا في التوراة والإنجيل بإزال
 القرآن . وقيل : « تِلْكَ » بمعنى هذه . ﴿ لَعَلَّكَ بَآخِضٌ نَفْسِكَ ﴾ أى قاتل نفسك ومهلكها .
 وقد مضى في « الكهف » بيانه . ﴿ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ أى تركهم الإيمان . قال الفراء :
 « أن » في موضع نصب ؛ لأنها جزء . قال النحاس : وإنما يقال : بأن مكسورة لأنها
 جزء ؛ كذا المتعارف . والقول في هذا ما قاله أبو إسحق في كتابه في القرآن ؛ قال : « أن »
 في موضع نصب مفعول من أجله ؛ والمعنى لعلك قاتل نفسك لتركهم الإيمان . ﴿ إِنْ نَشَأْ
 نُنَزِّلْ عَنِّي سَمًّا مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً ﴾ أى معجزة ظاهرة وقدرة باهرة فتصير معارفهم ضرورية ،
 ولكن سبق القضاء بأن تكون المعارف نظرية . وقال أبو حمزة الثمالي في هذه الآية : [بلغني أن
 لهذه الآية] صوتا يسمع من السماء في النصف من شهر رمضان ؛ تخرج به العواتق من البيوت
 وتضع له الأرض . وهذا فيه بعد ؛ لأن المراد قریش لا غيرهم . ﴿ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ ﴾ أى فتظل
 أعناقهم ﴿ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ قال مجاهد : أعناقهم كبرائهم ؛ وقال النحاس : ومعروف في اللغة ؛
 يقال : جاءني عنق من الناس أى رؤساء منهم . أبو زيد والأخفش : « أَعْنَاقُهُمْ » جماعاتهم ؛

(٣) من زوك

(٢) راجع ج ١٠ ص ٣٤٨

(١) راجع ج ١ ص ١٥٤

يقال : جاءني عُقٌّ من الناس أى جماعة . وقيل : إنما أراد أصحاب الأعناق ، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه . قتادة : المعنى لو شاء لأنزل آية يذلون بها فلا يلوى أحد منهم عنقه إلى معصية . ابن عباس : نزلت فينا وفي بنى أمية ستكون لنا عليهم الدولة فتذل لنا أعناقهم بعد معاوية ؛ ذكره الثعلبي والغزنوي [فالتة أعلم ^(١)] . وخاضعين وخاضعة هنا سواء ؛ قاله عيسى بن عمر وأختره المبرد . والمعنى : إنهم إذا ذلت رقابهم ذلوا ؛ فالإخبار عن الرقاب لإخبار عن أصحابها . ويسوغ في كلام العرب أن تترك الخبر عن الأول وتخبر عن الثانى ؛ قال الراجز :

طُولُ اللَّيَالِي أَسْرَعَتْ فِي تَقْضَى * طَوَيْنَ طَوِيلِي وَطَوَيْنَ عَرَضِي

فأخبر عن الليالى وترك الطول . وقال جرير ^(٢) :

أَرَى مَرَّ السَّنِينِ أَخَذَنَ مَتْنِي * كَمَا أَخَذَ السَّرَّارُ مِنَ الْهَلَالِ

وإنما جاز ذلك لأنه لو أسقط مَرَّ وطول من الكلام لم يفسد معناه ، فكذلك رد الفعل إلى الكناية في قوله : « فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ » لأنه لو أسقط الأعناق لما فسد الكلام ، ولأدى ما بقى من الكلام عنه حتى يقول : فظلوا لها خاضعين . وعلى هذا أعتمد الفراء وأبو عبيدة . والكسائى يذهب إلى أن المعنى خاضعيا هم ، وهذا خطأ عند البصريين والفراء . ومثل هذا الحذف لا يقع في شىء من الكلام ؛ قاله النحاس .

قوله تعالى : (وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدِّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ) تقدم في « الأنبياء » ^(٣) . (فَقَدْ كَذَّبُوا) أى أعرضوا ومن أعرض عن شىء ولم يقبله فهو تكذيب له . (فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) وعيد لهم ؛ أى فسوف يأتهم عاقبة ما كذبوا والذي استهزءوا به .

قوله تعالى : (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ) نبه على عظمتة وقدرته وأنهم لو رأوا بقلوبهم ونظروا ببصائرهم لعلموا أنه الذى يستحق أن يُعبد ؛ إذ هو القادر على كل شىء . والزوج هو اللون ؛ قاله الفراء . و « كَرِيمٍ » حسن شريف ، وأصل

(١) من ذك . (٢) تقدم البيت في ج ٧ ص ٢٦٤ . (٣) راجع ج ١١ ص ٢٦٨ فابعد .

الكرم في اللغة الشرف والفضل ، فنخلة كريمة أى فاضلة كثيرة الثمر^(١)، ورجل كريم شريف فاضل صفوح . ونبت الأرض وأنبت بمعنى . وقد تقدم في سورة « البقرة »^(٢) والله سبحانه هو المخرج^(٣) والمثبت له . وروى عن الشعبي أنه قال : الناس من نبات الأرض فمن صار منهم إلى الجنة فهو كريم ، ومن صار إلى النار فهو لئيم . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ﴾ أى فيما ذكر من الإنبات في الأرض لدلالته على أن الله قادر، لا يعجزه شيء . ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أى مصدقين لما سبق من علمي فيهم . و « كَانَ » هنا صلة في قول سيويه ؛ تقديره : وما أكثرهم مؤمنين . ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ يريد المنيع المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليائه .

قوله تعالى : وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَتِيَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَإِذْ هَبَا بَٰعِثْنَاهُ إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ ﴾ « إذ » في موضع نصب ؛ المعنى : وآتاه عليهم « إِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ » ويدل على هذا أن بعده . « وآتاه عليهم نبأ إبراهيم » ذكره النحاس . وقيل : المعنى ؛ وأذكر إذ نادى كما صرح به في قوله : « وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ » وقوله : « وَأَذْكُرْ عِبَادَنَا لِإِبْرَاهِيمَ » وقوله : « وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ » . وقيل : المعنى ؛ « وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ » كان كذا وكذا . والنداء الدعاء بيا فلان، أى قال ربك يا موسى : ﴿ أَنْ أَتِيَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ثم أخبر من هم فقال ، ﴿ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ ﴾ فـ « قَوْم » بدل ؛ ومعنى « أَلا يَتَّقُونَ » ألا يخافون عقاب الله ؟ وقيل : هذا من الإيماء إلى الشيء لأنه أمره أن يأتي القوم الظالمين ، ودل قوله : « يَتَّقُونَ » على أنهم لا يتقون، وعلى أنه أمرهم بالتقوى . وقيل : المعنى ؛ قل لهم « أَلا تَتَّقُونَ » وجاء بالياء لأنهم غيب وقت الخطاب ، ولو جاء بالياء

(١) في زوك : كثيرة الثمر . (٢) راجع ج ١ ص ٢٢٧ فما بعد . (٣) في ك المخرج للنبات .

(٤) راجع ج ١٦ ص ٢٠٣ . (٥) راجع ج ١٥ ص ٢١٧ . (٦) راجع ج ١١ ص ٨٩ فما بعد .

لحاز . ومثله « قُلِ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَابُونَ ^(١) » بالتاء والياء . وقد قرأ عبيد بن عمير وأبو حازم « أَلَا تَتَّقُونَ » بتاءين أى قل لهم « أَلَا تَتَّقُونَ » . (قَالَ رَبِّ) أى قال موسى : (رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ) أى فى الرسالة والنبوة . (وَيَضِيقُ صَدْرِي) لتكذيبهم لىأى . وقراءة العامة « وَيَضِيقُ » « وَلَا يَنْطَلِقُ » بالرفع على الاستثناف . وقرأ يعقوب وعيسى بن عمر وأبو حيوه : « وَيَضِيقُ — وَلَا يَنْطَلِقُ » بالنصب فيهما ردًا على قوله : « أَنْ يُكَذِّبُونِ » قال الكسائى : القراءة بالرفع ؛ معنى فى « يَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي » [من وجهين : أحدهما الابتداء والآخر بمعنى وإنى يضيق صدرى ولا ينطلق لسانى] ^(٢) يعنى نسقا على « إِنِّي أَخَافُ » . قال الفراء : ويقرأ بالنصب . حكى ذلك عن الأعرج وطلحة وعيسى ابن عمر وكلاهما له وجه . قال النحاس : الوجه الرفع ؛ لأن النصب عطف على « يُكَذِّبُونِ » وهذا بعيد يدل على ذلك قوله عز وجل : « وَأَخْلَلْ عُقْدَةَ مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي » فهذا يدل على أن هذه كذا . ومعنى ، « وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي » فى الحاجة على ما أحب ؛ وكان فى لسانه عُقْدَةٌ على ما تقدم فى « طه » . (فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ) أرسل إليه جبريل بالوحى ، واجعله رسولا معى ليؤازرنى ويظاهرنى ويعاوننى . ولم يذكر هنا ليعيننى ؛ لأن المعنى كان معلوما ، وقد صرح به فى سورة « طه » : « وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا » وفى القصص : « أَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي » وكان موسى أذن له فى هذا السؤال ، ولم يكن ذلك استعفاء من الرسالة بل طلب من يعينه . ففى هذا دليل على أن من لا يستقل بأمر ، ويخاف من نفسه تقصيرا ، أن يأخذ من يستعين به عليه ، ولا يباحقه فى ذلك لوم . (وَلَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ) الذنب هنا قتل القبطى واسمه فائور على ما يأتى فى « القصص » ^(٣) بيانه ، وقد مضى فى « طه » ذكره . وخاف موسى أن يقتلوه به ، ودل على أن الخوف قد يصحب الأنبياء والفضلاء والأولياء مع معرفتهم بالله وأن لا فاعل إلا هو ؛ إذ قد يسلط من شاء على من شاء (قَالَ كَلَّا) أى كلا لن يقتلوك . فهو ردع وزجر عن هذا الظن ، وأمر بالثقة بالله تعالى ؛ أى ثق بالله واتزجر عن خوفك منهم ؛ فإنهم لا يقدرُونَ على قتلِكَ ،

(٢) من ك .

(١) راجع ج ٤ ص ٢٤ .

(٤) راجع ص ٢٨٤ وص ٢٥٩ من هذا الجزء .

(٣) راجع ج ١١ ص ١٩٢ .

ولا يقولون عليه . (فَأَذْهَبَا) أى أنت وأخوك فقد جعلته رسولا معك . (يَا بَاتِنَا)
 أى ببراهيننا وبالمعجزات . وقيل : أى مع آياتنا . (إِنَّا مَعَكُمْ) يريد نفسه سبحانه وتعالى .
 (مُسْتَمِعُونَ) أى سامعون ما يقولون وما يجاوبون . وإنما أراد بذلك تقوية قلوبهما
 وأنه يعينهما ويحفظهما . والاستماع إنما يكون بالإصغاء ، ولا يوصف البارئ سبحانه بذلك .
 وقد وصف سبحانه نفسه بأنه السميع البصير . وقال فى « طه » : « أَسْمِعْ وَأَرَى » ^(١) وقال :
 « مَعَكُمْ » فأجراهما مجرى الجمع ؛ لأن الاثنين جماعة . ويجوز أن يكون لهما ولمن أرسلنا إليه .
 ويجوز أن يكون لجميع بنى إسرائيل .

قوله تعالى : فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾
 أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلَيْدًا وَلَبِثْتَ فِينَا
 مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾
 قَالَ فَعَلْتَهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَزْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خَفَنتُكُمْ
 فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا
 عَلَى أَنْ عَبَّدَتْ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : (فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ) قال أبو عبيدة : رسول
 بمعنى رسالة والتقدير على هذا ؛ إنا ذوو رسالة رب العالمين . قال الهذلي :

الْكُنَى إِلَيْهَا وَخَيْرُ الرُّسُو * لِأَعْلَهُمْ بَنَوَاحِي الْخَبَرِ

الكنى إليها معناه أرسلنى . وقال آخر ^(٢) :

لَقَدْ كَذَّبَ الْوَاشُونَ مَا بُحْتُ عَنْهُمْ * بِسِرٍّ وَلَا أَرْسَلْتُهُمْ بِرَسُولِ

(١) راجع ج ١١ ص ٢٠١ فابعد . (٢) هو كثير . ويرى أيضا فى اللسان مادة « رسل » :

* بلسل ولا أرسلتهم برسيل *

آخر: ^(١) أَلَا أَبْلَغُ بَنِي عَمْرٍو رَسُولًا * بَأْتِي عَنْ فَتَاخَتِكُمْ غَنِيً^(١)

وقال العباس بن مرداس :

أَلَا مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي خُفَافًا * رَسُولًا بَيْتُ أَهْلِكَ مُنْتَهَاهَا

يعنى رسالة فلذلك أُنْتَهَا . قال أبو عبيد : ويجوز أن يكون الرسول فى معنى الاثنين والجمع ؛ فتقول العرب : هذا رسولى ووكلى ، وهذا رسولى ووكلى ، وهؤلاء رسولى ووكلى . ومنه قوله تعالى : « فَهُمْ عَدُوِّي » . وقيل : معناه إن كل واحد منا رسول رب العالمين . ﴿ أَنْ أَرْسَلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أى أطلقهم وخلّ سبيلهم حتى يسيروا معنا إلى فلسطين ولا تستعبدهم ؛ وكان فرعون آستعبدهم أربعمائة سنة ، وكانوا فى ذلك الوقت ستمائة ألف وثلاثين ألفا . فَأَنْطَلَقَا . فرعون فلم يؤذن لهما سنة فى الدخول عليه ، فدخل البواب على فرعون فقال : ها هنا إنسان يزعم أنه رسول رب العالمين . فقال فرعون : آيذن له لعلنا نضحك منه ؛ فدخل عليه وأديا الرسالة . وروى وهب وغيره : أنهما لما دخلا على فرعون وجداه وقد أخرج سباعا من أسد ونمور وفهود يتفرج عليها ، تخاف سواهما أن تبطش بموسى وهرون ، فأسرعوا إليها ، وأسرعت السباع إلى موسى وهرون ، فأقبلت تلحس أقدامهما ، وتبصبص إليهما بأذناهما ، وتلصق خدودها بفخذيهما ، فعجب فرعون من ذلك فقال : ما أنتما ؟ قالا : « إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ » فعرف موسى لأنه نشأ فى بيته ؛ فـ ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ﴾ على جهة المنّ عليه والاحتقار . أى ربيناك صغيرا ولم نقتلك فى جملة من قتلنا ﴿ وَلَيْثَ فِينَا مِنْ عُمَرِكَ سِنِينَ ﴾ فمضى كان هذا الذى تدعيه . ثم قرره بقتل القبطى بقوله : ﴿ وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ بَفَتْحِ الْفَاءِ الْمَرَّةِ مِنَ الْفَعْلِ . وقرأ الشعبي : « فِعْلَتِكَ » بكسر الفاء والفتح أولى ؛ لأنها المرة الواحدة ، والكسر بمعنى الهيئة والحال ، أى فعلتك التى تعرف فكيف تدعى مع علمنا أحوالك بأن الله أرسلك . وقال الشاعر :

كَأَنَّ مِشْيَتَهَا مِنْ بَيْتِ جَارَتِهَا * مِثْرُ السَّحَابَةِ لَا رَيْثٌ وَلَا عَجَلُ

(١) هو الأسمر الجمعى . عن فتاحكم : أى عن حكمكم .

ويقال : كان ذلك أيام الردة والردة . (وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ) قال الضحاك : أى فى قتلك القبطى إذ هو نفس لا يحل قتله . وقيل : أى بنعمتى التى كانت لنا عليك من التربية والإحسان إليك ؛ قاله ابن زيد . الحسن : « مِنَ الْكَافِرِينَ » فى أنى إهلك . السدى : « مِنَ الْكَافِرِينَ » بالله لأنك كنت معنا على ديننا هذا الذى تعييه . وكان بين خروج موسى عليه السلام حين قتل القبطى وبين رجوعه نبيا أحد عشر عاما غير أشهر . فـ (يَقَالُ فَعَلْتُهَا إِذَا) أى فعلت تلك الفعلة يريد قتل القبطى (وَأَنَا) إذ ذاك (مِنَ الضَّالِّينَ) أى من الجاهلين ؛ ففنى عن نفسه الكفر ، وأخبر أنه فعل ذلك على الجهل . وكذا قال مجاهد ؛ « مِنَ الضَّالِّينَ » من الجاهلين . ابن زيد : من الجاهلين بأن الوكرة تبلغ القتل . وفى مصحف عبد الله « مِنَ الْجَاهِلِينَ » ويقال لمن جهل شيئا ضل عنه . وقيل : « وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ » من الناسين ؛ قاله أبو عبيدة . وقيل : « وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ » عن النبوة ولم يأتنى عن الله فيه شيء ، فليس علىّ فيما فعلته فى تلك الحالة توبيخ . وبين بهذا أن التربية فيهم لا تنافى النبوة والحلم على الناس ، وأن القتل خطأ أو فى وقت لم يكن فيه شرع لا ينافى النبوة .

قوله تعالى : (فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ) أى خرجت من بينكم إلى مدين كما فى سورة « القصص » : « نَخْرَجُ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ » وذلك حين القتل . (فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا) يعنى النبوة ؛ عن السدى وغيره . الزجاج : تعليم التوراة التى فيها حكم الله . وقيل : علما وفهما . (وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ) .

قوله تعالى : (وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ) أختلف الناس فى معنى هذا الكلام ؛ فقال السدى والطبرى والفراء : هذا الكلام من موسى عليه السلام على جهة الإقرار بالنعمة ؛ كأنه يقول : نعم ؟ وتربيتك نعمة علىّ من حيث عبّدت غيرى وتركتنى ، ولكن لا يدفع ذلك رسالتى . وقيل : هو من موسى عليه السلام على جهة الإنكار ؛ أى أتمنّ علىّ بأن ربيتى وليدا وأنت قد استعبدت بنى إسرائيل وقتلتهم ؟ ! أى ليست بنعمة ؟ لأن الواجب كان ألا تقتلهم ولا تستعبدهم فإنهم قومي ؛ فكيف تذكر إحسانك إلىّ على

الخصوص ؟ ! قال معناه قتاده وغيره . وقيل : فيه تقدير استفهام ؛ أى أو تلك نعمة ؟
 قاله الأخفش والفراء أيضا وأنكره النحاس وغيره . قال النحاس : وهذا لا يجوز لأن ألف
 الاستفهام تحدث معنى ، وحذفها محال إلا أن يكون فى الكلام أم ؛ كما قال الشاعر :

* تَرْوُحُ مِنَ الْحَيِّ أَمْ تَبْتَكِرُ *

ولا أعلم بين النحويين اختلافا فى هذا إلا شيئا قاله الفراء . قال : يجوز حذف ألف
 الاستفهام فى أفعال الشك ، وحكى تَرَى زيدا منطلقا ؟ بمعنى أترى . وكان على بن سليمان
 يقول فى هذا : إنما أخذه من ألفاظ العامة . قال الثعالبي : قال الفراء ومن قال إنها إنكار
 قال معناه أو تلك نعمة ؟ على طريق الاستفهام ؛ كقوله : « هَذَا رَبِّي » (١) « فَهُمُ الْخَالِدُونَ » .
 قال الشاعر (٢) :

رَفَوْنِي وَقَالُوا يَا خَوِيلُدُ لَا تُرْعَ * فَقُلْتُ وَأَنْكَرْتُ الْوَجْوهَ هُمُ هُمُ

وأنشد الغزنوى شاهدا على ترك الألف قولهم :

لَمْ أُنْسَ يَوْمَ الرِّحِيلِ وَقَفَّتْهَا * وَجَفَّتْهَا مِنْ دُمُوعِهَا شَرِيقُ
 وَقَوْلَهَا وَالرَّكَّابُ وَاقْفِئْ * تَرَكْتَنِي هَكَذَا وَلَنْطَلِقُ

قلت : فنى هذا حذف ألف الاستفهام مع عدم أم خلاف قول النحاس . وقال الضحاك :
 إن الكلام خرج مخرج التبيكيت والتبيكيت يكون باستفهام وبغير استفهام ؛ والمعنى : لو لم
 تقتل بنى إسرائيل لربانى أبواى ؛ فأى نعمة لك على ! فأنت تمنى على بما لا يجب أن تمنى به .
 وقيل : معناه كيف تمنى بالتربية وقد أهنت قومي ؟ ومن أهين قومه ذل . و « أَنْ عَبَدْتَ »
 فى موضع رفع على البدل من « نِعْمَةٌ » ويجوز أن تكون فى موضع نصب بمعنى : لأن عبدت
 بنى إسرائيل ؛ أى اتخذتهم عبيدا . يقال : عبدته وأعبدته بمعنى ؛ قاله الفراء وأنشد :

عَلَّامٌ يُعِيدُنِي قَوْمِي وَقَدْ كَثُرَتْ * فِيهِمْ أَبَاعِرُ مَا شَاءُوا وَعِبْدَانُ

(١) راجع ج ٧ ص ٢٥ . (٢) هو أبو خراش الهذلى ؛ وقد تقدّم شرح البيت فى ج ١١ ص ٢٨٧ .

قوله تعالى : قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا
تَسْمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ
الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا
إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَنْ أَتَّخِذَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ
الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أُولَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ
كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿٣٢﴾
وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنْ هَذَا
لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾
قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَا تُؤْتِكُ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ جُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ
هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾
فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنْ لَنَا لَأَجْرٌ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾
قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى الْقُوا مَا أَنْتُمْ
مُلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ
الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾
فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِهْنَهُمْ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى
وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي

عَلَيْكُمْ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَا تُقِطِعْنَ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ
وَلَا صَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾
إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ لما غلب موسى فرعون بالحجة ولم يجد
اللعين من تقريره على التريسة وغير ذلك حجة رجع إلى معارضة موسى في قوله : رسول
رب العالمين ؛ فاستفهمه آستفهاما عن مجهول من الأشياء . قال مكى وغيره : كما يستفهم
عن الأجناس فلذلك آستفهم به « ما » . قال مكى : وقد ورد له آستفهام به « من » في موضع
آخر ويشبه أنها مواطن ؛ فأتى موسى بالصفات الدالة على الله من مخلوقاته التي لا يشاركه فيها
مخلوق ، وقد سأل فرعون عن الجنس ولا جنس لله تعالى ؛ لأن الأجناس محدثة ؛ فعلم موسى
جهله فأضرب عن سؤاله وأعلمه بعظيم قدرة الله التي تبين للسامع أنه لا مشاركة لفرعون
فيها . فقال فرعون : ﴿ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ على معنى الإغراء والتعجب من سفه المقالة إذ كانت
عقيدة القوم أن فرعون ربههم ومعبودهم والفراغة قبله كذلك . فزاد موسى في البيان بقوله :
﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ بجاء بدليل يفهمونه عنه ؛ لأنهم يعلمون أنه قد كان لهم
آباء وأنهم قد فنعوا وأنه لا بد لهم من مغير ، وأنهم قد كانوا بعد أن لم يكونوا ، وأنهم لا بد
لهم من مكوّن . فقال فرعون حينئذ على جهة الاستخفاف : ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ
إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ أى ليس يجيبنى عما أسأل ؛ فأجابه موسى عليه السلام عن هذا بأن قال :
﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ أن ليس ملكه كللك ؛ لأنك إنما تملك بلدا واحدا لا يجوز أمرك
في غيره ، ويموت من لا تحب أن يموت ، والذي أرسلنى يملك المشرق والمغرب ؛ ﴿ وَمَا يَلْنَهُمَا
إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ . وقيل : علم موسى عليه السلام أن قصده في السؤال معرفة من سأل عنه ،
فأجاب بما هو الطريق إلى معرفة الرب اليوم . ثم لما آتقطع فرعون لعنه الله في باب الحجة
رجع إلى الاستعلاء والتغلب فتوعد موسى بالسيجن ، ولم يقل ما دليلك على أن هذا الإله
أرسلك ؛ لأن فيه الاعتراف بأن ثم لها غيره . وفي توعد بالسيجن ضعف . وكان فيما يروى

أنه يفزع منه فزعاً شديداً حتى كان اللعين لا يمك بوله . وروى أن سجنه كان أشد من القتل . وكان إذا سجن أحداً لم يخرج من سجنه حتى يموت ، فكان مخوفاً . ثم لما كان عند موسى عليه السلام من أمر الله تعالى ما لا يرعه توعده فرعون (قَالَ) له على جهة اللطف به والطمع في إيمانه : (أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ) فيتضح لك به صدقي ، فلما سمع فرعون ذلك طمع في أن يحدد أثناءه موضع معارضة (فَقَالَ) له (فَأَتِ بِهِ إِنَّ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) . ولم يحتاج الشرط إلى جواب عند سبويه ، لأن ما تقدم يكفى منه . (فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ) من يده فكان ما أخبر الله من قصته . وقد تقدم بيان ذلك وشرحه في « الأعراف » إلى آخر القصة . وقال السجدة لما توعدهم فرعون بقطع الأيدي والأرجل (لَا ضَيْرَ) أى لا ضرر علينا فيما يلحقنا من عذاب الدنيا ، أى إنما عذابك ساعة فنصبر لها وقد لقينا الله . ومبين . وهذا يدل على شدة استبصارهم وقوة إيمانهم . قال مالك : دعا موسى عليه السلام فرعون أربعين سنة إلى الإسلام ، وأن السجدة آمنوا به في يوم واحد . يقال : لا ضير ولا ضرر ولا ضرر ولا ضرر ولا ضرورة بمعنى واحد ، قاله الهروي . وأنشد أبو عبيدة :
فإنك لا يضورك بعد حول * أظني كان أمك أم حمار
وقال الجوهري : ضاره يضوره ويضيره ضيراً وضوراً أى ضره . قال الكسائي : سمعت بعضهم يقول لا ينفعني ذلك ولا يضورني ، والتضور الضرب والتلوى عند الضرب أو الجوع . والضورة بالضم الرجل الحقيق الصغير الشأن . (إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ) يريد تنقلب إلى رب كريم رحيم (إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ) . « أَنْ » في موضع نصب أى لأن كنا . وأجاز الفراء كسرهما على أن تكون مجازاة . ومعنى : (أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ) أى عند ظهور الآية ممن كان في جانب فرعون . الفراء : أول مؤمنى زماننا . وأنكره الزجاج وقال : قد روى أنه آمن معه ستمائة ألف وسبعون ألفاً ، وهم الشردمة القليلون الذين قال فيهم فرعون : « إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشَرْدِمَةٌ قَلِيلُونَ » روى ذلك عن ابن مسعود وغيره .

(١) راجع ج ٧ ص ٢٥٦ فما بعد . (٢) البيت لحداش بن زهير ، وأستشهد به سبويه في كتابه على جعل اسم كان نكرة وخبرها معرفة ضرورة . والمعنى : لا تبالي بعد قيامك بنفسك وأستغناك عن أبوك من أنسبت إليه من شريف أو وضعيع ، وضرب المثل بالظبي أو الحمار .

قوله تعالى : وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي ۖ إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ ﴿٥٢﴾
فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾
وَأِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ
جَنَّتِ وَعُمُونِ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزِ وَمَقَامِ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي
إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَاتَّبَعُوهُمْ مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَىٰ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ
مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا
إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ
الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَازْلَفْنَا مَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ۖ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾
ثُمَّ اغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : (وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي ۖ إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ) لما كان من سنته
تعالى في عباده إنجاء المؤمنين المصدقين من أوليائه ، المعترفين برسالة رساله وأنبيائه ، وإهلاك
الكافرين المكذبين لهم من أعدائه ، أمر موسى أن يخرج بني إسرائيل ليلا وسماهم عباده ؛
لأنهم آمنوا بموسى . ومعنى : « إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ » أى يتبعكم فرعون وقومه ليردوكم . وفى ضمن
هذا الكلام تعريفهم أن الله ينجيهم منهم ؛ فخرج موسى عليه السلام ببني إسرائيل سحرا ، فترك
الطريق إلى الشام على يساره وتوجه نحو البحر ، فكان الرجل من بني إسرائيل يقول له فى ترك
الطريق فيقول : هكذا أمرت . فلما أصبح فرعون وعلم بسر موسى ببني إسرائيل ، خرج
في أثرهم ، وبعث إلى مدائن مصر لتلحقه العساكر ، فروى أنه لحقه ومعه مائة ألف أدهم من
الخيال سوى سائر الألوان . وروى أن بني إسرائيل كانوا ستمائة ألف وسبعين ألفا . والله أعلم
بصحته . وإنما اللازم من الآية الذى يُقطع به أن موسى عليه السلام خرج بجمع عظيم من

بنى إسرائيل وأن فرعون تبعه بأضعاف ذلك . قال ابن عباس : كان مع فرعون ألف جبار كلهم عليه تاج وكلهم أمير خيل . والشّرذمة الجمع القليل المحتقر والجمع الشّراذم . قال الجوهري : الشّرذمة الطائفة من الناس والقطعة من الشيء . وثوب شراذم أى قطع . وأنشد الثعلبي قول الراجز :

جاء الشتاء وثيابي أخلاق * شراذم يضحك منها النّواق

النّواق من الرجال الذى يروض الأمور ويصلحها ، قاله فى الصحاح . واللام فى قوله : « لَشِرْذِمَةً » لام تأكيد وكثيرا ما تدخل فى خبر إن ، إلا أن الكوفيين لا يجوزون إن زيدا لسوف يقوم . والدليل على أنه جائز قوله تعالى : « فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ » وهذه لام التوكيد بعينها وقد دخلت على سوف ، قاله النحاس . (١) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ أى أعداء لنا لمخالفتهم ديننا وذهابهم بأموالنا التى استعاروها على مائة قدم . ومات أبكارهم تلك الليلة . وقد مضى هذا فى « الأعراف » و « طه » مستوفى . يقال : غاظنى كذا وأغاظنى . والغيط الغضب ومنه التغيط والأغتيال . أى غاظونا بخروجهم من غير إذن . (٢) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَازِرُونَ أى مجتمع [مستعد] أخذنا حذرنا وأساحتنا . وقرئ : « حَازِرُونَ » ومعناه « نى » « حَازِرُونَ » أى فرقون خائفون . قال الجوهري : وقرئ : « وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَازِرُونَ » و « حَازِرُونَ » و « حَازِرُونَ » بضم الذال حكاه الأخفش ، ومعنى : « حَازِرُونَ » متأهبون ، ومعنى : « حَازِرُونَ » خائفون . قال النحاس : « حَازِرُونَ » قراءة المدنيين وأبى عمرو ، وقراءة أهل الكوفة : « حَازِرُونَ » وهى معروفة عن عبد الله بن مسعود وابن عباس ، و « حَازِرُونَ » بالدال غير المعجمة قراءة أبى عباد وحكاها المهدوى عن ابن أبى عمير ، والماوردى والثعلبي عن سميّط بن عجلان . قال النحاس : أبو عبيدة يذهب إلى أن معنى « حَازِرُونَ » « وحَازِرُونَ » واحد . وهو قول سيبويه وأجاز : هو حَازِرٌ زيدا ، كما يقال : حاذر زيدا ، وأنشد :

حَازِرٌ أُمُورًا لَا تَضِيرُ وَأَمِينٌ * مَا لَيْسَ مُنْجِيَهُ مِنَ الْأَقْدَارِ

(١) ويقال هو أسم ابنه . ويرى (النواق) بالناء . (٢) راجع ج ٧ ص ٢٧٣ فابعد .

(٣) راجع ج ١١ ص ٢٢٧ فابعد . (٤) من زرك .

وزعم أبو عمر الجرمي أنه يجوز هو حذر زيدا على حذف من . فأما أكثر النحويين فيفرون بين حذر وحاذر ؛ منهم الكسائي والفراء ومحمد بن يزيد ؛ فيذهبون إلى أن معنى حذر في خلقته الحذر ، أى متيقظ متنبه ، فإذا كان هكذا لم يتعد ، ومعنى حاذر مستعد وبهذا جاء التفسير عن المتقدمين . قال عبد الله بن مسعود في قول الله عز وجل : « وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ » قال : مُؤَدُونَ في السلاح والكراع مُقَوُونَ ، فهذا ذاك بعينه . وقوله : مُؤَدُونَ معهم أداة . وقد قيل : إن المعنى : معنا سلاح وليس معهم سلاح يحرضهم على القتال ؛ فأما « حادرون » بالبدال المهملة فاشتق من قولهم عين حاذرة أى متلئة ؛ أى نحن متمثلون غيظا عليهم ؛ ومنه قول الشاعر^(١) :

وَعَيْنٌ لَهَا حَذْرَةٌ بِذَرَةٍ * شُقَّتْ مَا قِيمًا مِنْ أُخْرٍ

وحكى أهل اللغة أنه يقال : رجل حادِرٌ إذا كان ممتلئ اللحم ؛ فيجوز أن يكون المعنى الأمتلاء من السلاح . المهدوى : الحادر القوى الشديد .

قوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ يعنى من أرض مصر . وعن عبد الله ابن عمرو قال : كانت الجنات بحافتي النيل في الشقّتين جميعا من أسوان إلى رشيد ، وبين الجنات زروع . والنيل سبعة خاجان : خليج الإسكندرية ، وخليج سنّا ، وخليج دمياط ، وخليج مرّدوس ، وخليج منّف ، وخليج الفيوم ، وخليج المنهى^(٢) متصلة لا ينقطع منها شيء عن شيء ، والزروع ما بين الخلاجان كلها . وكانت أرض مصر كلها تروى من ستة عشر ذراعا بما دبّروا وقدرّوا من قناطرها وجسورها وخاجانها ؛ ولذلك سمي النيل إذا غلق ستة عشر ذراعا^(٣) نيل السلطان ، ويُجمّع على ابن أبي الرّداد ؛ وهذه الحال مستمرة إلى الآن . وإنما قيل نيل السلطان لأنه حينئذ يجب الخراج على الناس . وكانت أرض مصر جميعها تروى

(١) هو امرؤ القيس . (٢) وهو بحر يوسف عليه السلام . (٣) هو عبد الله بن عبد السلام

ابن عبد الله بن أبي الرّداد المؤذن ؛ قدم مصر من البصرة وحّدث بها ، وجعل على قياس النيل في ولاية يزيد بن عبد الله التركي — وكانت النصارى تتولى قياسه — وأجرى عليه سبعة دنانير في كل شهر ، وأستقر قياسه في بني

زمانا طويلا . وتوفى أبو الرّداد سنة ٢٦٦ هـ . عن خطط المقرئ ج ١ ص ٥٨ .

من إصبع واحدة من سبعة عشر ذراعا ، وكانت إذا غلق النيل سبعة عشر ذراعا ونودى عليه إصبع واحد من ثمانية عشر ذراعا ، ازداد في خراجها ألف ألف دينار . فإذا خرج عن ذلك ونودى عليه إصبعها واحدا من تسعة عشر ذراعا نقص خراجها ألف ألف دينار . وسبب هذا ما كان ينصرف في المصالح والخلجان والجسور والاهتمام بعمارتها . فأما الآن فإن أكثرها لا يروى حتى ينادى إصبع من تسعة عشر ذراعا بمقياس مصر . وأما أعمال الصعيد الأعلى ، فإن بها ما لا يتكامل رية إلا بعد دخول المساء في الذراع الثاني والعشرين بالصعيد الأعلى .

قلت : أما أرض مصر فلا تروى جميعها الآن إلا من عشرين ذراعا وأصابع ، لعلو الأرض وعدم الاهتمام بعمارة جسورها ، وهو من عجائب الدنيا ، وذلك أنه يزيد إذا آنصبت المياه في جميع الأرض حتى يسبح على جميع أرض مصر ، وتبقى البلاد كالأعلام لا يوصل إليها إلا بالمراكب والقياسات . وروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال : نيل مصر سيد الأنهار ، سخر الله له كل نهر بين المشرق والمغرب ، وذلل الله له الأنهار ، فإذا أراد الله أن يجرى نيل مصر أمر كل نهر أن يمد ، فأمدته الأنهار بمائها ، وبقر الله له عيونا ، فإذا انتهى إلى ما أراد الله عز وجل ، أوحى الله تبارك وتعالى إلى كل ماء أن يرجع إلى عنصره . وقال قيس بن الحجاج : لما افتتحت مصر أتى أهلها إلى عمرو بن العاص حين دخل بثبونة من أشهر القبط فقالوا له : أيها الأمير إن لنيلنا هذا سنة لا يجرى إلا بها ، فقال لهم : وما ذلك ؟ فقالوا : إذا كان لآلئتي عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكرين أبويها ، أرضينا أبويها ، وحملنا عليهما من الحل والثياب أفضل ما يكون ، ثم ألقيناها في هذا النيل ، فقال لهم عمرو : هذا لا يكون في الإسلام ، وإن الإسلام يهدم ما قبله . فأقاموا ألباب ومسرى لا يجرى قليل ولا كثير ، وهموا بالجللاء . فلما رأى ذلك عمرو بن العاص كتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، فأعلمه بالقصة ، فكتب إليه عمر بن الخطاب : إنك قد أصبت بالذي فعلت ، وإن الإسلام يهدم ما قبله ولا يكون هذا . وبعث إليه ببطاقة في داخل كتابه . وكتب إلى عمرو : إنني قد بعثت إليك ببطاقة داخل كتابي ، فآلقها في النيل

إذا أتاك كتاب . فلما قدم كتاب عمر إلى عمرو بن العاص أخذ البطاقة ففتحها فإذا فيها : من عبد الله أمير المؤمنين عمر إلى نيل مصر — أما بعد — فإن كنت إنما تجرى من قبلك فلا تجر وإن كان الله الواحد القهار هو الذى يُجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك . قال : فألقى البطاقة فى النيل قبل الصليب بيوم وقد تها أهل مصر للجلاء والخروج منها ؛ لأنه لا تقوم مصالحتهم فيها إلا بالنيل . فلما ألقى البطاقة فى النيل ، أصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله فى ليلة واحدة ستة عشر ذراعاً ، وقطع الله تلك السيرة عن أهل مصر من تلك السنة . قال كعب الأحبار : أربعة أنهار من الجنة وضعها الله فى الدنيا سيحان وجيحان والنيل والفرات ، فسيحان نهر الماء فى الجنة ، وجيحان نهر اللبن فى الجنة ، والنيل نهر العسل فى الجنة ، والفرات نهر الخمر فى الجنة . وقال ابن هبة : الدجلة نهر اللبن فى الجنة .

قلت : الذى فى الصحيح من هذا حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سَيِّحَانٌ وَجِيحَانٌ وَالنَّيْلُ وَالْفَرَاتُ كُلُّ مِنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ » لفظ مسلم . وفى حديث الإسراء من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة رجل من قومه قال : « وحدث نبى الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى أربعة أنهار يخرج من أصلها نهران ظاهران ونهران باطنان فقلت يا جبريل ما هذه الأنهار قال أما النهران الباطنان فنهران فى الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات » لفظ مسلم . وقال البخارى من طريق شريك عن أنس « فإذا هو فى السماء الدنيا بنهرين يطردان فقال ما هذان النهران يا جبريل قال هذا النيل والفرات عنصرهما ثم مضى فى السماء فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من اللؤلؤ والزبرجد ف ضرب بيده فإذا هو مسك أذفر فقال ما هذا يا جبريل فقال هذا هو الكوثر الذى خبا لك ربك . » وذكر الحديث . والجمهور على أن المراد بالعيون عيون الماء . وقال سعيد بن جبیر : المراد عيون الذهب . وفى الدخان « كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ » . قيل : إنهم كانوا يزرعون ما بين الجبلين من أول مصر إلى آخرها . وليس فى الدخان « وكنوز » . « وكنوز » جمع كنز ؛ وقد مضى هذا

(١) يطردان : أى يجريان ، وهما يفتعلان ، من الطرد . (٢) راجع ج ١٦ ص ١٣٨ .

في سورة « براءة »^(١) . والمراد بها ها هنا الخزائن . وقيل : الدفائن . وقال الضحاك : الأنهار ؛ وفيه نظر ؛ لأن العيون تشملها . (وَمَقَامٍ كَرِيمٍ) قال ابن عمرو وابن عباس ومجاهد : المقام الكريم المنابر ؛ وكانت ألف منبر لألف جبار يُعْظَمُونَ عليها فرعون وملكه . وقيل : مجالس الرؤساء والأمراء ؛ حكاه ابن عيسى وهو قريب من الأول . وقال سعيد بن جبير : المساكن الحسان . وقال ابن لهيعة : سمعت أن المقام الكريم الفيوم . وقيل : كان يوسف عليه السلام قد كتب على مجلس من مجالسه (لا إله إلا الله إبراهيم خليل الله) فسمها الله كريمة بهذا . وقيل : مرابط الخيل لتفرد الزعماء بارتباطها عُدَّة وزينة ؛ فصار مقامها أكرم منزل بهذا ؛ ذكره الماوردي . والأظهر أنها المساكن الحسان كانت تكرم عليهم . والمقام في اللغة يكون الموضع ويكون مصدرا . قال النحاس : المقام في اللغة الموضع ؛ من قولك قام يقوم ، وكذا المقامات واحدها مقامة ؛ كما قال :^(٢)

وفيهـم مَقَامَاتٌ حِسانٌ وجوهُهُم * وأنديـةً ينتابها القولُ والفعلُ

والمقام أيضا المصدر من قام يقوم . والمقام (بالضم) الموضع من أقام . والمصدر أيضا من أقام يقيم .

قوله تعالى : (كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ) يريد أن جميع ما ذكره الله تعالى من الجنات والعيون والكنوز والمقام الكريم أورثه الله بني إسرائيل . قال الحسن وغيره : رجع بنو إسرائيل إلى مصر بعد هلاك فرعون وقومه . وقيل : أراد بالوراثه هنا ما استعاروه من حلي آل فرعون بأمر الله تعالى .

قلت : وكلا الأمرين حصل لهم . والحمد لله . (فَأَتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ) أى فتبع فرعون وقومه بني إسرائيل . قال السدي : حين أشرقت الشمس بالشعاع . وقال قتادة : حين أشرقت الأرض بالضياء . قال الزجاج : يقال شَرَقَتِ الشمس إذا طلعت ، وأشرقت إذا أضاءت . واختلف في تآخر فرعون وقومه عن موسى وبني إسرائيل على قولين : أحدهما —

(١) راجع ج ٨ ص ١٢٣ . (٢) هو زمير بن أبي سفيان ؛ رُبِنَاهَا : أى يقال فيها الجليل ويفعل به .

لاشتغالهم بدفن أبكارهم في تلك الليلة ؛ لأن الوباء في تلك الليلة وقع فيهم ؛ فتسوله : « مُشْرِقِينَ » حال لقوم فرعون . الثاني — إن سخابة أظلمتهم وظلمة فقالوا : نحن بعد في الليل فما تقشعت عنهم حتى أصبحوا . وقال أبو عبيدة : معنى « فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ » ناحية المشرق . وقرأ الحسن وعمر بن ميمون : « فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ » بالتشديد وألف الوصل ؛ أى نحو المشرق ؛ مأخوذ من قولهم : شرق وغرب إذا سار نحو المشرق والمغرب . ومعنى الكلام قدرنا أن يرثها بنو إسرائيل فأتبع قوم فرعون بنى إسرائيل مشرقين فهلكوا ، وورث بنو إسرائيل بلادهم .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانِ ﴾^(١) أى تقابلا الجمعان بحيث يرى كل فريق صاحبه ، وهو تفاعل من الرؤية . ﴿ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴾ أى قرب منا العدو ولا طاقة لنا به . وقراءة الجماعة : « لَمُدْرِكُونَ » بالتخفيف من أدرك . ومنه : « حَتَّى إِذَا آدَرَكَهُ الْفُرْقُ »^(٢) . وقرأ عبيد بن عمير والأعرج والزهرى : « لَمُدْرِكُونَ » بتشديد الدال من أدرك . قال الفراء : حفر وأحتفر بمعنى واحد ، وكذلك « لَمُدْرِكُونَ » و « لَمُدْرِكُونَ » بمعنى واحد . النحاس : وليس كذلك يقول النحويون الحداق ؛ إنما يقواون : مُدْرِكُونَ ملحقون ، ومُدْرِكُونَ مجتهد في لحاقهم ، كما يقال : كسبت بمعنى أصبت وظفرت ، وآكتسبت بمعنى اجتهدت وطلبت وهذا معنى قول سيدييه .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ لما لحق فرعون بجمعه جمع موسى وقرب منهم ، ورأت بنو إسرائيل العدو القوي والبحر أمامهم ماءت ظنونهم ، وقالوا لموسى على جهة التوبيخ والافتاء : « إِنَّا لَمُدْرِكُونَ » فرد عليهم قولهم وزجرهم وذكرهم وعد الله سبحانه له بالهداية والظفر « كَلَّا » أى لم يدركوكم « إِنَّ مَعِيَ رَبِّي » أى بالنصر على العدو . « سَيَهْدِينِ » أى سيدلني على طريق النجاة ؛ فلما عظم البلاء على بنى إسرائيل ، ورأوا من الجيوش ما لا طاقة لهم بها ، أمر الله تعالى موسى أن يضرب البحر بعصاه ؛ وذلك أنه

(١) كذا في الأصول . (٢) راجع ج ٨ ص ٣٧٧ وكسر الزاء — كما في البحر وروح المعاني والكشاف . (٣) على وزن مفعولون ، وهو لازم بمعنى الفناء والإضمحلال ، من أدرك الشيء إذا تابعه ففنى .

عن وجل أراد أن تكون الآية متصلة بموسى ومتعلقة بفعل يفعله ؛ وإلا فضرب العصا ليس بفارق للبحر ، ولا معين على ذلك بذاته إلا بما اقترن به من قدرة الله تعالى واختراعه . وقد مضى في « البقرة »^(١) قصة هذا البحر . ولما انفلق صار فيه اثنا عشر طريقا على عدد أسباط بنى إسرائيل ، ووقف الماء بينها كالطود العظيم ، أى الجبل العظيم . والطود الجبل ؛ ومنه قول امرئ القيس :

فبينما المرء في الأحياء طود * رماه الناس عن كثب فإلا

وقال الأسود بن يعفر :

حلوا بأنقصة يسيل عليهم * ماء الفرات يحيى من أطواد

جمع طود أى جبل . فصار لموسى وأصحابه طريقا في البحر ينسا ؛ فلما خرج أصحاب موسى وتكامل آخر أصحاب فرعون على ما تقدم في « يونس »^(٢) انصب عليهم وغرق فرعون ؛ فقال بعض أصحاب موسى : ما غرق فرعون ؛ فنبذ على ساحل البحر حتى نظروا إليه . وروى ابن القاسم عن مالك قال : خرج مع موسى عليه السلام رجلان من التجار إلى البحر فلما أتوا إليه قال له بم أمرك الله ؟ قال : أمرت أن أضرب البحر بعصاى هذه فينفلق ؛ فقال له افعل ما أمرك الله فإن يخلفك ؛ ثم ألقيا أنفسهما في البحر تصديقا له ؛ فما زال كذلك البحر حتى دخل فرعون ومن معه ، ثم ارتد كما كان . وقد مضى هذا المعنى في سورة « البقرة »^(٣) . قوله تعالى : ﴿ وَأَزَلَّ قَنَا ثُمَّ الْآخَرِينَ ﴾ أى قربناهم إلى البحر ؛ يعنى فرعون وقومه .

قاله ابن عباس وغيره ؛ قال الشاعر :

وكل يوم مضى أو ليلة سلفت * فيها النفوس إلى الآجال تزلف

أبو عبيدة : « أَزَلَّ قَنَا » جمعنا ومنه قيل لليلة المزدلفة ليلة جمع . وقرا أبو عبد الله بن الحرث وأبى بن كعب وابن عباس : « وَأَزَلَّ قَنَا » بالقف على معنى أهلكتهم ؛ من قوله : أزلفت الناقة وأزلفت الفرس فهى مزلق إذا أزلفت ولدها .^(٢) ﴿ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴾ . ثم أغرقنا الآخرين ﴿ يعنى فرعون وقومه . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ﴾ أى علامة على قدرة الله تعالى

(٢) راجع ج ٨ ص ٢٧٠ .

(١) راجع ج ١ ص ٢٨٩ فما بعد ص ٣٨٧ .

(٣) فى ك : إذا ألفت ولدها .

(وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ) لأنه لم يؤمن من قوم فرعون إلا مؤمن آل فرعون وأسمه حزقيل وأبنته آسية امرأة فرعون ، ومريم بنت دا موسى العجوز التي دلت على قبر يوسف الصديق عليه السلام . وذلك أن موسى عليه السلام لما خرج بنى إسرائيل من مصر أظلم عليهم القمر فقال لقومه : ما هذا ؟ فقال علماءهم : إن يوسف عليه السلام لما حضره الموت أخذ علينا موثقا من الله ألا نخرج من مصر حتى ننقل عظامه معنا . قال موسى : فأيكم يدري قبره ؟ قال : ما يعلمه إلا عجوز لبنى إسرائيل ؛ فأرسل إليها ؛ فقال : دأبني على قبر يوسف ، قالت : لا والله لا أفعل حتى تعطيني حكى ، قال : وما حكك ؟ قالت : حكى أن أكون معك في الجنة ؛ فنقل عليه ، فقيل له : أعطها حكها ؛ فدلتهم عليه ، فاحتفروه واستخرجوا عظامه ، فلما أفلوها ، فإذا الطريق مثل ضوء النهار في رواية : فأوحى الله إليه أن أعطها ففعل ، فأتت بهم إلى بحيرة ، فقالت لهم : أنضبوا هذا الماء فأنضبوه واستخرجوا عظام يوسف عليه السلام ؛ فتبينت لهم الطريق مثل ضوء النهار . وقد مضى في « يوسف » . وروى أبو بردة عن أبي موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل بأعرابي فأكرمه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حاجتك » قال : ناقة أرحلها وأعزأ أرحلها ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فلم عجزت أن تكون مثل عجوز بنى إسرائيل » فقال أصحابه : وما عجوز بنى إسرائيل ؟ فذكر لهم حال هذه العجوز التي أحكمت على موسى أن تكون معه في الجنة .

قوله تعالى : وَآتَلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ لَهَا عَظِيمِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكَ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلَى وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَآتِلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ نبه المشركين على فرط جهالهم إذ رغبوا عن اعتقاد إبراهيم ودينه وهو أبوهم . والنبا الخبر ؛ أى أقصص عليهم يا محمد خبره وحديثه وعيبه على قومه ما يعبدون . وإنما قال ذلك ملزما لهم الحجّة . والجمهور من القراء على تخفيف الهمزة الثانية وهو أحسن الوجوه ؛ لأنهم قد أجمعوا على تخفيف الثانية من كلمة واحدة نحو آدم . وإن شئت حَقَّقْتُهُمَا فَقُلْتُ : « نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ » . وإن شئت خَفَّفْتُهُمَا فَقُلْتُ : « نَبَا إِبْرَاهِيمَ » . وإن شئت خَفَّفْتُ الْأَوَّلَى . وَثُمَّ وَجَّهْتُ خَامِسًا إِلَّا أَنَّهُ بَعِيدٌ فِي الْعَرَبِيَّةِ وَهُوَ أَنَّ يَدْغُمُ الْهَمْزَةَ فِي الْهَمْزَةِ كَمَا يَقَالُ رَأْسٌ لِلَّذِي يَبِيعُ الرُّءُوسَ . وَإِنَّمَا بَعْدَ لَأَنَّكَ تَجْمَعُ بَيْنَ هَمْزَيْنِ كَأَنَّهُمَا فِي كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَحَسُنَ فِي فَعَالٍ لِأَنَّهُ لَا يَأْتِي إِلَّا مَدْغَمًا . ﴿ إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ أى أى شئ تعبدون ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا ﴾ وكانت أصنامهم من ذهب وفضة ونحاس وحديد وخشب . ﴿ فَظَلُّوا لَهَا عَافِيَةً ﴾ أى فنقيم على عبادتها . وليس المراد وقتا معينا بل هو إخبار عما هم فيه . وقيل : كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل ، وكانوا في الليل يعبدون الكواكب . فيقال : ظل يفعل كذا إذا فعله نهارا وبات يفعل كذا إذا فعله ليلا . ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ ﴾ قال الأخفش : فيه حذف ؛ والمعنى : هل يسمعون منكم ؟ أو هل يسمعون دعاءكم ؛ قال الشاعر ^(١) :

القائد الخليل منكوبا دوايرها * قد أحكمت حكايت القيد والأبقا

قال : والأبق الكنان لحذف . والمعنى ؛ وأحكمت حكايت الأبق . وفي الصحاح : والأبق بالتحريك القنب . وروى عن قتادة أنه قرأ : « هَلْ يُسْمَعُونَكُمْ » بضم الياء ؛ أى هل يسمعونكم أصواتهم ﴿ إِذْ تَدْعُونَ . أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ أى هل تنفعكم هذه الأصنام وترزقكم ، أو تملك لكم خيرا أو ضرا إن عصيتم ؟ ! وهذا آستفهام لتقرير الحجّة ؛ فإذا لم ينفعوكم ولم يضرّوا فما معنى عبادتكم لها . ﴿ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ فنزعوا إلى التقليد

(١) هو زهير بن أبى سلى . والبيت من قصيدة يمدح بها هرم بن سنان . وأحكمت : جعلت لها حكايت من القيد . والحكايت جمع حكمة وهى ما تكون على أنف الدابة . ودوايرها : مؤخر حوافرها . ومنكوب : أى أصابت الحجارة دوايرها وأدمتها .

من غير حجة ولا دليل . وقد مضى القول فيه . (قَالَ) إبراهيم (أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ) من هذه الأصنام (أَنْتُمْ وَأَبَاءُكُمْ الْأَقْدَمُونَ) الأولون (فَلَمَّانَهُمْ عَدُوِّي) واحد يؤدى عن جماعة ، وكذلك يقال للمرأة هي عدوة الله وعدوة الله ؟ حكاهما الفراء . قال علي بن سليمان : من قال عدوة الله وأثبت الهاء قال هي بمعنى معادية ، ومن قال عدوة للأوثان والجمع جعله بمعنى النسب . ووصف الجناد بالعداوة بمعنى أنهم عدو لي إن عبدتهم يوم القيامة ؛ كما قال : « كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا » . وقال الفراء : هو من المقلوب ؛ مجازة فإنى عدو لهم لأن من عاديته عاداك . ثم قال : (إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ) قال الكلابي : أى إلامن عبد رب العالمين ؛ إلا عابد رب العالمين ؛ فحذف المضاف . قال أبو إسحق الزجاج : قال النحويون هو استثناء ليس من الأول ؛ وأجاز أبو إسحق أن يكون من الأول على أنهم كانوا يعبدون الله عز وجل ويعبدون معه الأصنام ، فأعلمهم أنه تبرأ مما يعبدون إلا الله . وتأوله الفراء هل الأصنام وحدها والمعنى عنده : فإنهم لو عبدتهم عدو لي يوم القيامة ؛ على ما ذكرنا . وقال الجرجاني : تقديره : أفرايتم ما كنتم تعبدون أنتم وأباؤكم الأقدمون إلا رب العالمين فإنهم عدو لي . وإلا بمعنى دون وسوى ؛ كقوله : « لَا يَدُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى »^(٢) أى دون الموتة الأولى .

قوله تعالى : الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾

قوله تعالى : (الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ) أى يرشدنى إلى الدين . (وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ) أى يرزقنى . ودخول « هو » تنبيه على أن غيره لا يطعم ولا يسقى ؛ كما تقول : زيد هو الذى فعل كذا ؛ أى لم يفعله غيره . (وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ) قال : « مَرِضْتُ » رعاية للأدب وإلا فالمرض والشفاء من الله عز وجل جميعا . ونظيره قول

فتى موسى : « وَمَا أَنَسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ » ^(١) . (وَالَّذِي يُمَيِّنُنِي ثُمَّ يُحْيِيَنِي) يريد البعث وكانوا ينسبون الموت إلى الأسباب ؛ فبين أن الله هو الذي يميت ويحيي . وكله بغير ياء : « يهدين » « يشفين » لأن الحذف في رؤوس الآي حسن لتتفق كلها . وقرأ ابن أبي إسحق على جلالته ومجمله من العربية هذه كلها بالياء ؛ لأن الياء أسم وإنما دخلت النون لعلمة . فإن قيل : فهذه صفة لجميع الخلق فكيف جعلها لإبراهيم دليلا على هدايته ولم يهتد بها غيره ؟ قيل : إنما ذكرها احتجاجا على وجوب الطاعة ؛ لأن من أنعم وجب أن يطاع ولا يعصى ليلتزم غيره من الطاعة ما قد التزمها ؛ وهذا إلزام صحيح .

قلت : وتجاوز بعض أهل الإشارات في غوامض المعاني فعدل عن ظاهر ما ذكرناه إلى ما تدفعه بدائه العقول من أنه ليس المراد من إبراهيم . فقال : « وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي » أى يطعمنى لذة الإيمان ويسقين حلاوة القبول . ولهم في قوله : « وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي » وجهان : أحدهما — إذا مرضت بخالفته شفاى برحمته . الثانى — إذا مرضت بمقاساة الخلق ، شفاى بمشاهدة الحق . وقال جعفر بن محمد الصادق : إذا مرضت بالذنوب شفاى بالتوبة . وتأولوا قوله : « وَالَّذِي يُمَيِّنُنِي ثُمَّ يُحْيِيَنِي » على ثلاثة أوجه : فالذى يميتنى بالمعاصى يحيينى بالطاعات . الثانى : يميتنى بالخوف يحيينى بالرجاء . الثالث : يميتنى بالطمع ويحيينى بالقناعة . وقول رابع : يميتنى بالعدل ويحيينى بالفضل . وقول خامس : يميتنى بالفراق ويحيينى باللاق . وقول سادس : يميتنى بالجهل ويحيينى بالعقل ؛ إلى غير ذلك مما ليس بشيء منه مراد من الآية ؛ فإن هذه التأويلات الغامضة ، والأمور الباطنة ، إنما تكون لمن حذق وعرف الحق ، وأما من كان فى عمى عن الحق ولا يعرف الحق فكيف ترمز له الأمور الباطنة ، وتترك الأمور الظاهرة ؟ هذا محال . والله أعلم .

قوله تعالى : (وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ) « أَطْمَعُ » أى أرجو . وقيل : هو بمعنى اليقين فى حقه ، وبمعنى الرجاء فى حق المؤمنين سواء . وقرأ الحسن وابن أبي إسحق : « خَطَايَاىَ » وقال : ليست خطيئة واحدة . قال النحاس : خطيئة بمعنى

خطايا معروف في كلام العرب ، وقد أجمعوا على التوحيد في قوله عز وجل « فَأَعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ » ومعناه بذنوبهم . وكذا « وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ » معناه الصلوات ، وكذا « خَطِئْتَنِي » إن كانت خطايا . والله أعلم . قال مجاهد : يعني بخطيئته قوله : « بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا » وقوله : « إِنِّي سَقِيمٌ » وقوله : إن سارة أخته . زاد الحسن وقوله للكوكب : « هَذَا رَبِّي » وقد مضى بيان هذا مستوفى . وقال الزجاج : الأنبياء بشر فيجوز أن تقع منهم الخطيئة ؛ نعم لا تجوز عليهم الكبائر لأنهم معصومون عنها . (يَوْمَ الدِّينِ) يوم الجزاء حيث يجازى العباد بأعمالهم . وهذا من إبراهيم إظهار للعبودية وإن كان يعلم أنه مغفور له . وفي صحيح مسلم عن عائشة ؛ قالت يا رسول الله : ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ، ويطعم المسكين ، فهل ذلك نافعه ؟ قال : « لا ينفعه إنه لم يقل يوما « رَبِّ آغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ » . »

قوله تعالى : رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْخَفِيَّ بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَآغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُنْعَشُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ قوله تعالى : (رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْخَفِيَّ بِالصَّالِحِينَ) « حُكْمًا » معرفة بك وبمحدودك وأحكامك ؛ قاله ابن عباس . وقال مقاتل : فهما وعلمها ؛ وهو راجع إلى الأول . وقال الكلبي : نبوة ورسالة إلى الخلق . « وَالْخَفِيَّ بِالصَّالِحِينَ » أى بالنبيين من قبلى في الدرجة . وقال ابن عباس : بأهل الجنة ؛ وهو تأكيد قوله : « هَبْ لِي حُكْمًا » .

قوله تعالى : (وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ) قال ابن عباس : هو اجتماع الأئم عليه . وقال مجاهد : هو الثناء الحسن . قال ابن عطية : هو الثناء وخلد المكانة بإجماع المفسرين ؛ وكذلك أجاب الله دعوته ، وكل أمة لتمسك به وتعظمه ، وهو على الخيفية التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم . وقال مكى : وقيل معناه سؤاله أن يكون من ذريته في آخر الزمان

(١) راجع ج ١٨ ص ٢١٣ . (٢) راجع ج ١ ص ٣٤٢ فـأ بعد . (٣) راجع ج ١١ ص ٢٩٩ فـأ بعد . (٤) راجع ج ١٥ ص ٩٢ . (٥) راجع ج ٧ ص ٢٥ فـأ بعد .

من يقوم بالحق ؛ فأجبت الدعوة في عهد صلى الله عليه وسلم ، قال ابن عطية : وهذا معنى حسن إلا أن لفظ الآية لا يعطيه إلا بتحكم على اللفظ . وقال القشيري : أراد الدعاء الحسن إلى قيام الساعة ؛ فإن زيادة الثواب مطلوبة في حق كل أحد .

قلت : وقد فعل الله ذلك إذ ليس أحد يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم إلا وهو يصلي على إبراهيم وخاصة في الصلوات ، وعلى المنابر التي هي أفضل الحالات وأفضل الدرجات . والصلوة دعاء بالرحمة : والمراد باللسان القول ، وأصله جارحة الكلام . قال القتيبي : وموضع اللسان موضع القول على الاستعارة ، وقد تكنى العرب بها عن الكلمة . قال الأعشى :

إِنِّي أَتَذْنِي لِسَانٌ لَا أَسْرُهَا * مِنْ عَالُو لَا عَجَبَ مِنْهَا وَلَا سَخَرُ

قال الجوهري : يروى من علوبضم الواو وفتحها وكسرها . أى أتانى خبر من أعلى ، والتأنيث للكلمة . وكان قد أتاه خبر مقتل أخيه المنتشر . روى أشهب عن مالك قال قال الله عز وجل : « وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ » لا بأس أن يحب الرجل أن يثنى عليه صالحاً ويرى في عمل الصالحين ، إذا قصد به وجه الله تعالى ؛ وقد قال الله تعالى : « وَالْقَائِتُ عَلَيْكَ حَبَّةٌ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ » وقال : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا » (١) أى حبا في قلوب عباده وثناء حسنا ، فنبه تعالى بقوله : « وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ » على استحباب اكتساب ما يورث الذكر الجميل . الليث بن سليمان : إذ هي الحياة الثانية . قيل :

* قَدْ مَاتَ قَوْمٌ وَهُمْ فِي النَّاسِ أَحْيَاءُ *

قال ابن العربي : قال المحققون من شيوخ الزهد في هذا دليل على الترغيب في العمل الصالح الذي يكسب الثناء الحسن ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث " [الحديث] وفي رواية إنه كذلك في الغرس والزرع وكذلك فيمن مات مرابطا يكتب له عمله إلى يوم القيامة . وقد بيناه في آخر « آل عمران » (٢) والحمد لله .

(١) في ك : معنى الآية . (٢) راجع ج ١١ ص ١٩٦ و ١٦٠ فابعد . (٣) راجع ج ٤ ص ٣٢٣ .

قوله تعالى : ﴿وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ دعاء بالجنة وبمن يرثها ، وهو يرد قول بعضهم : لا أسأل جنة ولا نارا .

قوله تعالى : ﴿وَأَغْفِرْ لِي إِيَّاهُ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ كان أبوه وعده في الظاهر أن يؤمن به فاستغفر له لهذا ، فلما بان أنه لا يفى بما قال تبرأ منه . وقد تقدم هذا المعنى ^(١) . « إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ » أى المشركين . « وكان » زائدة . ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ أى لا تفضحنى على رؤوس الأشهاد ، أو لا تعذبنى يوم القيامة . وفى البخارى عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن إبراهيم يرى أباه يوم القيامة عليه الغبرة والفترة » والغبرة هى الفترة . وعنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يلقى إبراهيم أباه فيقول يارب إنك وعدتني ألا تخزنى يوم يبعثون فيقول الله تعالى إني حرمت الجنة على الكافرين » أنفرد بهما البخارى رحمه الله .

قوله تعالى : ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ « يَوْمَ » بدل من « يوم » الأول . أى يوم لا ينفع مال ولا بنون أحدا . والمراد بقوله : « وَلَا بَنُونَ » الأعوان ؛ لأن الابن إذا لم ينفع غيره متى ينفع ؟ وقيل : ذكر البنين لأنه جرى ذكر والد إبراهيم ، أى لم ينفعه إبراهيم . ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ هو استثناء من الكافرين ؛ أى لا ينفعه ماله ولا بنوه . وقيل : هو استثناء من غير الجنس ، أى لكن « مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » ينفعه لسلامة قلبه . وخص القلب بالذكر ؛ لأنه الذى إذا سلم سلمت الجوارح ، وإذا فسد فسدت سائر الجوارح . وقد تقدم فى أول « البقرة » ^(٢) . وأختلف فى القلب السليم فقيل : من الشك والشرك ، فأما الذنوب فليس يسلم منها أحد ؛ قاله قتادة وابن زيد وأكثر المفسرين . وقال سعيد بن المسيب : القلب السليم الصحيح هو قلب المؤمن ؛ لأن قلب الكافر والمنافق مريض ؛ قال الله تعالى : « فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ » وقال أبو عثمان السيارى : هو القلب الخالى عن البدعة المظنة إلى السنة . وقال الحسن : سليم من آفة المال والبنين . وقال الجنيدي : السليم فى اللغة اللديغ ؛ فمعناه أنه قلب كاللديغ من خوف الله . وقال الضحاك : السليم الخالص .

(١) راجع ج ٨ ص ٢٧٤ . (٢) راجع ج ١ ص ١٨٧ فابعد ص ١٩٧ .

قلت : وهذا القول يجمع شتات الأقوال بمومه وهو حسن ، أى الخالص من الأوصاف الذميمة ، والمتصف بالأوصاف الجميلة ؛ والله أعلم . وقد روى عن عمرو أنه قال : يا بنى لا تكونوا لغاين فإن إبراهيم لم يلعن شيئا قط ، قال الله تعالى : « إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » . وقال محمد بن سيرين : القلب السليم أن يعلم أن الله حق ، وأن الساعة قائمة ، وأن الله يبعث من فى القبور . وفى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة عن النبى - صلى الله عليه وسلم قال : " يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير " يريد - والله أعلم - أنها مثلها فى أنها خالية من كل ذنب ، سائمة من كل عيب ، لا خبرة لهم بأمور الدنيا ؛ كما روى أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أكثر أهل الجنة البله " وهو حديث صحيح . أى البله عن معاصى الله . قال الأزهري : الأبله هنا هو الذى طبع على الخير وهو غافل عن الشر لا يعرفه . وقال القتيبي : البله هم الذين غلبت عليهم سلامة الصدور وحسن الظن بالناس .

قوله تعالى : وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩١﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩٢﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٩٤﴾ فَكُفُّوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٥﴾ وَجُنُودُ إبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٧﴾ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لِنَافِلٍ ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٩٨﴾ إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْأُمُجِرُونَ ﴿١٠٠﴾ قَالُوا لَنَا مِنْ شَفِيعِينَ ﴿١٠١﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠٢﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٥﴾

قوله تعالى : (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ) أى قربت وأدنت ليدخلوها . وقال الزجاج : قرب دخولهم إياها . (وَبُرِّزَتِ) أى أظهرت (الْجَحِيمُ) بمعنى جهنم . (لِلْغَاوِينَ)

أى الكافرين الذين ضلوا عن الهدى . أى تظهر جهنم لأهلها قبل أن يدخلوها حتى يستشعروا
الروع والحزن ، كما يستشعر أهل الجنة الفرح لعلمهم أنهم يدخلون الجنة . ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيُّكُمْ كُنْتُمْ
تَعْبُدُونَ . مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ من الأصنام والأنداد ﴿ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ ﴾ من عذاب الله ﴿ أَوْ يَنْتَصِرُونَ ﴾
لأنفسهم . وهذا كله توبيخ . ﴿ فَكُفُّوا فَمِنْهَا ﴾ أى قلبوا على رؤوسهم . وقيل : دهوروا وألقى
بعضهم على بعض . وقيل : جمعوا . مأخوذ من الكُفِّ كُفِّبَتْ وهى الجماعة ؛ قاله الهروى . وقال
النحاس : هو مشتق من كَوَّكِبَ الشئ أى معظمه . والجماعة من الخيل كَوَّكِبٌ وكُكْبَةٌ .
وقال ابن عباس : جمعوا فطرحوا فى النار . وقال مجاهد : دهوروا . وقال مقاتل : قذفوا .
والمعنى واحد . تقول : دهورت الشئ إذا جمعته ثم قذفته فى مهوأة . يقال : هو يدهور
اللقم إذا كبرها . ويقال : فى الدعاء كَبَّ الله عدو المسلمين ولا يقال أكبه . وككبته ،
أى كبه وقلبه . ومنه قوله تعالى : « فَكُفُّوا فَمِنْهَا » والأصل كُفِّبُوا فأبدل من الباء الوسطى
كاف استثقالا لاجتماع الباءات . قال السدى : الضمير فى « كُفِّبُوا » لمشركي العرب
﴿ وَالْغَاوُونَ ﴾ الآلهة . ﴿ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ ﴾ من كان من ذريته . وقيل : كل من دعاه
إلى عبادة الأصنام فأتبعه . وقال قتادة والكلبى ومقاتل : « الْغَاوُونَ » هم الشياطين . وقيل :
إنما تلقى الأصنام فى النار وهى حديد ونحاس ليعذب بها غيرهم . ﴿ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴾
يعنى الإنس والشياطين والغاوين والمعبودين اختصموا حيثئذ . ﴿ تَاللَّهِ ﴾ حلفوا بالله
﴿ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أى فى خسار وتبار وحيرة عن الحق بينة إذا اتخذنا مع الله آلهة
فعبدناها كما يعبد ؛ وهذا معنى قوله : ﴿ إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى فى العبادة وأنتم
لا تستطيعون الآن نصرنا ولا نصر أنفسكم . ﴿ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴾ يعنى الشياطين الذين
زينوا لنا عبادة الأصنام . وقيل : أسلافنا الذين قلدناهم . قال أبو العالية وعكرمة : « الْمُجْرِمُونَ »
إبليس وآبن آدم القاتل هما أول من سن الكفر والقتل وأنواع المعاصي . ﴿ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴾
أى شفعاء يشفعون لنا من الملائكة والنبيين والمؤمنين . ﴿ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ أى صديق
مشفق ؛ وكان على رضى الله عنه يقول : عليكم بالإخوان فإنهم عدّة الدنيا وعدّة الآخرة ؛

ألا تسمع إلى قول أهل النار: « قَسَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ » . الزمخشري : وجمع الشافع لكثرة الشافعين ووجد الصديق لقلته ؛ ألا ترى أن الرجل إذا امتحن بإرهاق ظالم مضت جماعة وافرة من أهل بلده لشفاعته برحمة له وحسبة وإن لم تسبق له بأكثرهم معرفة ؛ وأما الصديق فهو الصادق في ودادك الذي يهمله ما يهملك فأعز من بيض الأنوق ؛ وعن بعض الحكماء أنه سئل عن الصديق فقال : أسمى لا معنى له . ويجوز أن يريد بالصديق الجمع والحميم القريب والخاص ؛ ومنه حاقمة الرجل أى أقرباؤه . وأصل هذا من الحميم وهو الماء الحار ؛ ومنه الحمام والحُمى ؛ لحاقمة الرجل الذين يحرقهم ما أحرقه ؛ يقال : وهم حُرانتة أى يحزنهم ما يحزنه . ويقال : حُم الشيء وأَحْم إذا قرب ، ومنه الحُمى ؛ لأنها تقرب من الأجل . وقال على بن عيسى : إنما سمي القريب حميا ؛ لأنه يَحْمَى لغضب صاحبه ، فجعله مأخوذا من الحمية . وقال قتادة : يذهب الله عز وجل يوم القيامة مودة الصديق ورقة الحميم . ويجوز : « وَلَا صَدِيقٌ حَمِيمٌ » بالرفع على موضع « مِنْ شَافِعِينَ » ؛ لأن « مِنْ شَافِعِينَ » في موضع رفع . وجمع صديق أصدقاء وصُداق . ولا يقال صُدُق للفرق بين النعت وغيره . وحكى الكوفيون : أنه يقال في جمعه صُدُقان . النحاس : وهذا بعيد ؛ لأن هذا جمع ما ليس بنعت نحو رغيف ورُغفان . وحكوا أيضا صديق وأصديق . وأفعال إنما هو جمع أَفْعَل إذا لم يكن نعتا نحو أشجع وأشاجع . ويقال : صديق للواحد والجماعة والمرأة ؛ قال الشاعر^(١) :

نَصَبْنِ الْهَوَىٰ ثُمَّ آرَمْنِ قُلُوبَنَا * بِأَعْيُنٍ أَعْدَاءٍ وَهَرَبَ صَدِيقٍ

ويقال : فلان صَدِيقى أى أخص أصدقائى ، وإنما يُصَغَّر على جهة المدح ؛ كقول حُباب ابن المنذر : (أَنَا جَذَائِلُهَا الْمُحَكِّكُ ، وَعُدَّتُهَا الْمَرْجَبُ) ذكره الجوهري . النحاس : وجمع حميم أَحِمَاءٌ وَأَحِمَّةٌ وكرهوا أفعلاء للتضعيف . (فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً) « أن » في موضع رفع - المعنى ولو وقع لنا رجوع إلى الدنيا لآمنا حتى يكون لنا شفعاء . تمنوا حين لا ينفعهم التمنى .

(١) هو جرير . (٢) على بجذائيلها المحكك الأصل من الشجرة - أو عود ينصب - تحك به الإبل فتشتمى به ؛ أى قد جربنى الأمورولى علم ورأى يشتمى بهما كما تشتمى هذه الإبل الجربى بهذا الجذيل . والتزييب هنا إفراد النخلة من جانب لينعها من السقوط ؛ أى إن لى عشيرة تعضدنى وتمنعنى . والمذيق تصغير عذق (بالفتح) وهى النخلة بمعالها .

وإنما قالوا ذلك حين شفع الملائكة والمؤمنون . قال جابر بن عبد الله قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الرجل ليقول في الجنة ما فعل فلان وصديقه في الجحيم فلا يزال يشفع له حتى يشفعه الله فيه فإذا نجا قال المشركون : « مَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ » . وقال الحسن : ما أجمع ملاء على ذكر الله ، فيهم عبدٌ من أهل الجنة إلا شفعه الله فيهم ، وإن أهل الإيمان ليشفع بعضهم في بعض وهم عند الله شافعون مشفعون . وقال كعب : إن الرجلين كانا صديقين في الدنيا ، فيمتر أحدهما بصاحبه وهو يُجر إلى النار ، فيقول له أخوه : والله ما بقي لي إلا حسنة واحدة أنجوها ، خذها أنت يا أخى فتنجوها مما أرى ، وأبقى أنا وإياك من أصحاب الأعراف . قال : فيأمر الله بهما جميعا فيدخلان الجنة . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ تقدم والحمد لله .

قوله تعالى : كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَالُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا لَيْنَ لَا تَنْتَهِي يَنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّ قَوْمِي كَذِبُونَ ﴿١١٧﴾ فَأَفْتَحْ بَنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ قال « كَذَّبَتْ » والقوم مذكرة لأن المعنى كذبت جماعة قوم نوح ، وقال : « الْمُرْسَلِينَ » لأن من كذب رسولا فقد كذب الرسل ، لأن كل رسول يأمر بتصديق جميع الرسل . وقيل : كذبوا نوحا في النبوة وفيما أخبرهم به من مجيء المرسلين بعده . وقيل : ذكر الجنس والمراد نوح عليه السلام . وقد مضى هذا في « الفرقان » .
 ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ نُوحٌ ﴾ أى ابن أبيهم وهى أخوة نسب لا أخوة دين . وقيل : هى أخوة المجانسة . قال الله تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ » وقد مضى هذا في « الأعراف » . وقيل : هو من قول العرب يا أخا بنى تميم . يريدون يا واحدا منهم .
 الرخشمى : ومنه بيت الحماسة :

لَا يَسْأَلُونَ أَخَاهُمْ حِينَ يَنْدُبُهُمْ * فِي النَّائِبَاتِ عَلَى مَا قَالَ بُرْهَانَا

﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أى ألا تتقون الله في عبادة الأصنام . ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ أى صادق فيما أبلغكم عن الله تعالى . وقيل : « أَمِينٌ » فيما بينكم ، فإنهم كانوا عرفوا أمانته وصدقه من قبل ، كحمد صلى الله عليه وسلم في قريش . ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أى فاستتروا بطاعة الله تعالى من عقابه . ﴿ وَأَطِيعُوا ﴾ فيما أمركم به من الإيمان . ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أى لا طمع لى فى مالكم . ﴿ إِنِ أَجْرِي ﴾ أى ما جزائى ﴿ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ كرر تأكيدا .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَنْزِلْ لَنَا آيَةً ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : « قَالُوا أَنْزِلْ لَنَا آيَةً » أى نصدق قولك . « وَأَنْتَ بَعَثَ الْأَرْدَلُونَ » الواو للحال وفيه إضمار قد ، أى وقد آتبعك . « الْأَرْدَلُونَ » جمع الأرذل ، المكسر الأراذل والأئشى الرذلى والجمع الرذل . قال النحاس : ولا يجوز حذف الألف واللام فى شيء من هذا عند أحد من النحويين علمناه . وقرا ابن مسعود والضحاك ويعقوب الحضرمي وغيرهم ،

(١) راجع ص ٣١ من هذا الجزء .

(٢) راجع ج ٩ ص ٢٤٠ .

(٣) راجع ج ٧ ص ٢٣٥ .

« وَاتَّبَاعَكَ الْأَرْدَاوْنَ » . النحاس : وهى قراءة حسنة ؛ وهذه الواو أكثرها تتبعها الأسماء

والأفعال بقى . وأتباع جمع تبع وتببع يكون للواحد والجمع . قال الشاعر :

له تَبَعٌ قَدْ يَعْلَمُ النَّاسُ أَنَّهُ * عَلَى مَنْ يُدَانِي صَيْفٌ وَرَبِيعٌ

ارتفاع « أَتْبَاعَكَ » يجوز أن يكون بالابتداء و « الْأَرْدَاوْنَ » الخبر ؛ التقدير أنؤمن لك

وإنما أتباعك الأرداون . ويجوز أن يكون معطوفا على الضمير فى قوله : « أَنُؤْمِنُ لَكَ »

والتقدير : أنؤمن لك نحن وأتباعك الأرداون فنعمة منهم ؛ وحسن ذلك الفصل بقوله : « لَكَ »

وقد مضى القول فى الأردا فى سورة « هود » ^(١) مستوفى . ونزيده هنا بيانا وهى المسئلة :

الثانية — فقيل : إن الذين آمنوا به بنوه ونسأؤه وكهاته وبنو بنيه . وأختلف هل كان

معهم غيرهم أم لا . وعلى أن الوجهين كان فالكل صالحون ؛ وقد قال نوح : « وَنَجِّنِي وَمَنْ

مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » والذين معه هم الذين آتبعوه ، ولا يلحقهم من قول الكفرة شين ولا ذم

بل الأرداون هم المكذبون لهم . قال السهيلي : وقد أغرى كثير من العوام بمقالة رويت

فى تفسير هذه الآية : هم الحاكة والحجّامون . ولو كانوا حاكة كما زعموا لكان إيمانهم بنبيّ

الله وأتباعهم له مشرفا كما تشرف بلالٌ وسلمانٌ بسبقهما للإسلام ؛ فهما من وجوه أصحاب

النبيّ صلى الله عليه وسلم ومن أكابرهم ، فلا ذرية نوح كانوا حاكة ولا حجّامين ، ولا قول

الكفرة فى الحاكة والحجّامين إن كانوا آمنوا بهم أرداون ما يلحق اليوم بحاكتنا ذما

ولا نقصا ؛ لأن هذه حكاية عن قول الكفرة إلا أن يجعل الكفرة حجة ومقاتلهم أصلا ؛

وهذا جهل عظيم وقد أعلم الله تعالى أن الصناعات ليست بضائرة فى الدين .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ وَمَا عَلَّمِي مِمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ « كان » زائدة ؛ والمعنى : وما علمى

بما يعملون ؛ أى لم أكلف العلم بأعمالهم إنما كلفت أن أدعوهم إلى الإيمان ، والاعتبار

بالإيمان لا بالحرف والصنائع ؛ وكأنهم قالوا : إنما أتبعك هؤلاء الضعفاء طمعا فى العزة

والمال . فقال : إني لم أقف على باطن أمرهم وإنما إلى ظاهرهم . وقيل : المعنى إني

(١) راجع ج ٩ ص ٢٢ فما بعد .

(٢) فى ك فلا زلة .

لم أعلم أن الله يهديهم ويضلهم ويرشدهم ويفويهم ويفقههم ويخذلكم . (إِنْ حَسَابُهُمْ)
 أى فى أعمالهم وإيمانهم (إِلَّا عَلَى رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ) وجواب « لو » محذوف ؛ أى لو شعرتم
 أن حسابهم على ربهم لما عبتهم بصنائعهم . وقراءة العامة : « تَشْعُرُونَ » بالناء على المخاطبة
 للكفار وهو الظاهر . وقرأ ابن أبى عبلة ومحمد بن السَّمِيع : « لو يشعرون » بالياء كأنه خبر
 عن الكفار وترك الخطاب لهم ؛ نحو قوله : « حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ^(١) » . وروى
 أن رجلا سأل سفيان عن امرأة زنت وقتلت ولدها وهى مسلمة هل يقطع لها بالنار؟ فقال :
 « إِنْ حَسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ » . (وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ) أى لخساسة أحوالهم
 وأشغالهم . وكانهم طلبوا منه طرد الضعفاء كما طلبته قريش . (إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ)
 يعنى : إن الله ما أرسلنى أخص ذوى الغنى دون الفقراء ، إنما أنا رسول أبلغكم ما أرسلت به ،
 فمن أطاعنى فذلك السعيد عند الله وإن كان فقيرا .

قوله تعالى : (قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ) أى عن سب آلهتنا وعيب ديننا (لَتَكُونَنَّ
 مِنَ الْمَرْجُومِينَ) أى بالحجارة ؛ قاله قتادة . وقال ابن عباس ومقاتل : من المقتولين . قال
 الثمالي : كل مرجومين فى القرآن فهو القتل إلا فى مريم : « لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ^(٢) »
 أى لأسبئك . وقيل : « مِنَ الْمَرْجُومِينَ » من المشتومين ؛ قاله السدى . ومنه قول أبى دؤاد .
 (قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ فَافْتَحْ بَنِيَّ وَبَنَاتَهُمْ فَتَحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) قال ذلك
 لما يأس من إيمانهم . والفتح الحكم وقد تقدم . (فَانْجِيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ)
 يريد السفينة وقد مضى ذكرها . والمشحون المملوء ، والشحن ملء السفينة بالناس والدواب
 وغيرهم . ولم يؤث الفلك ها هنا ؛ لأن الفلك ها هنا واحد لا جمع (ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ)
 أى بعد إنجائنا نوحا ومن آمن . (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ
 لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) .

(٢) راجع ج ١١ ص ١١٠ .

(١) راجع ج ٨ ص ٢٢٤ .

(٣) كذا فى جميع نسخ الأصل ، وهنا سقط لعله بيت من الشعر أوردته المؤلف شاهدا على أن الرجم معناه الشتم ؛
 كما أورد بيت الجعدى شاهدا على ذلك عند تفسير قوله تعالى : « وأولاهم طه لرجمته » . راجع ج ٩ ص ٩١ .

قوله تعالى : كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٢﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ
 أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٣﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٤﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١٢٥﴾
 وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٦﴾
 أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٧﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ ﴿١٢٨﴾
 وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٢٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١٣٠﴾ وَاتَّقُوا
 الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣١﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَمِ وَبَنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَجَنَّاتٍ
 وَعُيُونٍ ﴿١٣٣﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٤﴾ قَالُوا سَوَاءٌ
 عَلَيْنَا أَوْعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٥﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ
 الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ۖ إِنَّ فِي ذَلِكَ
 لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ
 الرَّحِيمُ ﴿١٣٩﴾

قوله تعالى : (كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ) التائب بمعنى القبيلة والجماعة . وتكذيبهم المرسلين
 كما تقدم . (إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ . إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي .
 وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ) بين المعنى وقد تقدم .

قوله تعالى : (أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ) الزرع ما ارتفع من الأرض في قول ابن
 عباس وغيره ، جمع ريمة . وكل ريع أرضك أى كم ارتفعها . وقول قتادة : الزرع الطريق .
 وهو قول الضحاك والكلبى ومقاتل والسدى . وقاله ابن عباس أيضا . ومنه قول المسيب^(١)
 ابن علس :

فِي الْآلِ يَخْفِضُهَا وَيَرْفَعُهَا * رِيعٌ يَلُوحُ كَأَنَّهُ سَحَابُ

(١) مسيب بشد اللام مع فتح . قاموس .

شبه الطريق بشوب أبيض . النحاس : ومعروف في اللغة أن يقال لما ارتفع من الأرض ريعٌ وللطريق ريعٌ . قال الشاعر ^(١) :

طرائق الخوافي مشرق فوق ربيعة * ندى ليليه في ريشه يترقُّ

وقال عمارة : الريع الجبل الواحد ربيعة والجمع رِباع . وقال مجاهد : هو الفج بين الجبلين . وعنه : الثنية الصغيرة . وعنه : المنطرة . وقال عكرمة ومقاتل : كانوا يهتدون بالنجوم إذا سافروا ، فبنوا على الطريق أمثالا طوالا ليهتدوا بها : يدل عليه قوله تعالى : « آيةٌ » أى علامة . وعن مجاهد : الريع ببيان الحسام دليله « تعبثون » أى تلعبون ؛ أى تبنون بكل مكان مرتفع آية علمها تلعبون بها على معنى أبنية الحمام وبروجها . وقيل : تعبثون بمن يمر في الطريق . أى تبنون بكل موضع مرتفع لتسرفوا على السابلة فتسخرؤا منهم . وقال الكلابي : إنه عبت العشارين بأموال من يجرهم ؛ ذكره الماوردي . وقال ابن الأعرابي : الريع الصومعة ، والزريع البرج من الحمام يكون في الصحراء . والزريع الثل العالى . وفي الزريع لغتان : كسر الراء وفتحها وجمعها أرياح ؛ ذكره الثعلبي .

قوله تعالى : ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ ﴾ أى منازل ؛ قاله الكلابي . وقيل : حصونا مشيدة ؛ قاله ابن عباس ومجاهد . ومنه قول الشاعر :

ترنكا ديارهم منهم قفاراً * وهدمنا المصانع والبروجا

وقيل : قصورا مشيدة ؛ وقاله مجاهد أيضا . وعنه : بروج الحمام ؛ وقاله السدي . قلت : وفيه بعد عن مجاهد ؛ لأنه تقدم عنه في الريع أنه ببيان الحمام فيكون تكرارا في الكلام . وقال قتادة : ما جل للماء تحت الأرض . وكذا قال الزجاج : إنها مصانع الماء ، واحداً مصنة ومصنع . ومنه قول لبيد :

بلىنا وما تبلى النجوم الطوالع * وتبقى الجبال بعدنا والمصانع

(١) هو ذوالرمة بصف بازيا . وفي ديوانه — ملج أوربا — « واقع » بدل « مشرق » .

الجوهري : المصنعة كالحوض يجتمع فيها ماء المطر، وكذلك المصنعة بضم النون . والمصانع الحصون . وقال أبو عبيدة : يقال لكل بناء مصنعة . حكاه المهدوي . وقال عبد الرزاق : المصانع عندنا بلغة اليمن القصور العادية . (لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ) أى كى تخلصوا . وقيل : لعل أستفهام بمعنى التوبيخ أى فهل « تَخْلُدُونَ » كقولك : لعلك تستمنى أى هل تستمنى . روى معناه عن ابن زيد . وقال الفراء : كىما تخلصون لا تفتكرون فى الموت . وقال ابن عباس وقتادة : كأنكم خالدون باقون فيها . وفى بعض القراءات « كَأَنَّكُمْ تُخْلَدُونَ »^(١) ذكره النحاس . وحكى قتادة : أنها كانت فى بعض القراءات « كَأَنَّكُمْ خَالِدُونَ » .

قوله تعالى : (وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ) البطش السطوة والأخذ بالعنف . وقد بَطَشَ به يبطش وبيطش بطشا . وباطشه مباطشة . وقال ابن عباس ومجاهد : البطش العسف قتلا بالسيف وضربا بالسوط . ومعنى ذلك فعلتم ذلك ظلمًا . وقال مجاهد أيضا : هو ضرب بالسياط ؛ ورواه مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر فيما ذكر ابن العربى . وقيل : هو القتل بالسيف فى غير حق . حكاه يحيى بن سَلام . وقال الكلبي والحسن : هو القتل على الغضب من غير تثبت . وكله يرجع إلى قول ابن عباس . وقيل : إنه المؤاخضة على العمد والخطأ من غير عفو ولا إبقاء . قال ابن العربى : ويؤيد ما قال مالك قول الله تعالى عن موسى : « فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبِطِشَ الَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَا يَمْوَسَىٰ أَرِيدُ أَنْ نَبُنِيَ لَكَ مَقَلًا فَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ أَنْ رُدْ إِلَيْهِ فَأَرْسَلْنَا فِي الْأَرْضِ »^(٢) وذلك أن موسى عليه السلام لم يسئل عليه سيفًا ولا طعنه برمح ، وإنما وكره وكانت منية فى وكرته . والبطش يكون باليد وأقله الوكر والدفع ، ويليه السوط والعصا ، ويليه الحديد ، والكل مذموم إلا بحق . والآية نزات خبرا عن تقدم من الأمم ، ووعظا من الله عز وجل لنا فى مجانبة ذلك الفعل الذى ذمهم به وأنكره عليهم . قلت : وهذه الأوصاف المذمومة قد صارت فى كثير من هذه الأمة ، لا سيما بالديار المصرية منذ وليتها البحرية ؛ فيبطشون بالناس بالسوط والعصا فى غير حق . وقد أخبر صلى

(١) مبنى لفعل مخففا ومشددا . (٢) راجع ج ٩٢٥ من هذا الجزء . فابعد .

(٣) البحرية : هم من الممالك الأتراك الذين أسندهم الملك الصالح الأيوبي ، وأسكنهم جزيرة الروضة . وأول ملوكهم عز الدين أيلك . وكانت مدة حكمهم من سنة ٦٤٨ — ٧٨٤ هـ .

الله عليه وسلم أن ذلك يكون . كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "صنفان من أهل النار لم أرهما قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رءوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا". وخرج أبو دود من حديث ابن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد ساط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم" . « جَبَّارِينَ » قتالين . والجبار القتال في غير حق . وكذلك قوله تعالى : « إِنْ تُرِيدُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ » قاله الهروي . وقيل : الجبار المتسلط العاني ؛ ومنه قوله تعالى : « وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ » أي بسلط . وقال الشاعر :

سَلَبْنَا مِنَ الْجَبَّارِ السَّيْفَ مُلْكُهُ * عَشِيًّا وَأَطْرَافُ الرَّمَاكِ شَوَارِعُ

قوله تعالى ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ تقدم . ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي من الخيرات ؛ ثم فسرهما بقوله : ﴿ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ . وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ أي سخر ذلك لكم وتفضل بها عليكم ، فهو الذي يجب أن يعبد ويشكر ولا يكفر . ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ إن كفرتم به وأصررتم على ذلك . ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴾ كل ذلك عندنا سواء لا نسمع منك ولا نلوي على ما تقوله . وروى العباس عن أبي عمرو وبشر عن الكسائي : « أَوَعَضْتَ » مدغمة الظاء في التاء وهو بعيد ؛ لأن الظاء حرف إطباق إنما يدغم فيما قرب منه جدا وكان مثله ومخرجه . ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي دينهم ؛ عن ابن عباس وغيره . وقال الفراء : عادة الأولين . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي : « خُلُقُ الْأَوَّلِينَ » . الباقيون « خُلُقُ » . قال الهروي : وقوله عز وجل : « إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ » أي اختلافهم وكذبهم ، ومن قرأ : « خُلُقُ الْأَوَّلِينَ » فمعناه عادتهم ، والعرب تقول : حدثنا فلان بأحاديث الخلق أي بالخرافات والأحاديث المفتعلة . وقال ابن الأعرابي :

(١) العينة أن تبع من رجل سلعة بثمن معلوم إلى أجل معلوم ثم تشتريها منه بأقل من الثمن الذي بعثها به .

(٢) راجع ج ١٧ ص ٢٨ .

الخلق الدين والخلق الطبع والخلق المروءة . قال النحاس : « خُلِقَ الْأَوَّلِينَ » عند الفراء
يعنى عادة الأولين . وحكى لنا محمد بن الوليد عن محمد بن يزيد قال : « خُلِقَ الْأَوَّلِينَ »
مذهبهم وما جرى عليه أمرهم ؛ قال أبو جعفر : والقولان متقاربان ، ومنه الحديث عن النبي
صلى الله عليه وسلم " أكل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً " أى أحسنهم مذهباً وعادة وما يجرى
عليه الأمر فى طاعة الله عز وجل ، ولا يجوز أن يكون من كان حسن الخلق فاجراً فاضلاً ،
ولا أن يكون أكل إيماناً من السيئ الخلق الذى ليس بفاجر . قال أبو جعفر : حكى لنا
عن محمد بن يزيد أن معنى « خُلِقَ الْأَوَّلِينَ » تكذيبهم وتخصصهم غير أنه كان يميل إلى القراءة
الأولى ؛ لأن فيها مدح آبائهم ، وأكثر ما جاء القرآن فى صفتهم مدحهم لا بائهم ، وقولهم :
« إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ » . وعن أبي قلابة : أنه قرأ : « خُلِقَ » بضم الخاء وإسكان اللام
تخفيف « خُلِقَ » . ورواها ابن جبير عن أصحاب نافع عن نافع . وقد قيل : إن معنى « خُلِقَ
الْأَوَّلِينَ » دين الأولين . ومنه قوله تعالى : « فَلْيَغْيِرْ خَلْقَ اللَّهِ » أى دين الله . و« خُلِقَ
الْأَوَّلِينَ » عادة الأولين : حياة ثم موت ولابعث . وقيل : ما هذا الذى أنكرت علينا من
البيان والبطش إلا عادة من قبلنا فنحن نفتدى بهم (وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ) على ما نفعل .
وقيل : المعنى خلق أجسام الأولين ؛ أى ما خلقنا إلا نخلق الأولين الذين خلقوا قبلنا وماتوا ،
ولم ينزل بهم شيء مما تحذرناه من العذاب . (فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ) أى برح صرصر عاتية
عل ما يأتى فى « الحاقة » . (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ) قال بعضهم : أسلم
معه ثلثمائة ألف ومثون وهلك باقيهم . (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) .

قوله تعالى : كَذَبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ صَالِحٌ
أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٤٤﴾
وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾
أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَلَهْنَا أَمِينِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ

(١) راجع ١٦ ص ٧٤ فما بعد . (٢) راجع ج ٥ ص ٣٨٩ . (٣) راجع ج ١٨ ص ٢٥٦ .

طَلَعَهَا هَظِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَخْتُونُ مِنَ الْجَبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ
وَاطِيعُونَ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ
وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ
مِثْلُنَا فَأْتِ بِغَايَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ
لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ
عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ
الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ذكر قصة صالح وقومه وهم ثمود ؛ وكانوا
يسكنون الحجر كما تقدم في « الحجر » وهى ذوات نخل وزروع ومياه . ﴿ أَنْتَرَكُونَهَا هَٰهُنَا
أَمِنْهِنَّ ﴾ يعنى فى الدنيا آمنين من الموت والعذاب . قال ابن عباس : كانوا معمرين لا يبق
البنيان مع أعمارهم . ودل على هذا قوله : ﴿ وَأَسْتَعْمَرُكُمْ فِيهَا ﴾ فقرعهم صالح ووجعهم وقال :
أَنْظِنُونَ أَنْكُمْ بَاقُونَ فِي الدُّنْيَا بِلَا مَوْتٍ ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَظِيمٌ ﴾ .
الزمخشري : فإن قلت لم قال : « وَنَخْلٍ » بعد قوله : « وَجَنَّاتٍ » والجَنَّاتُ لتناول النخل أول شيء
كما يتناول النعم الإبل كذلك من بين الأزواج حتى إنهم ليدكرون الجنة ولا يقصدون إلا النخل
كما يذكرون النعم ولا يريدون إلا الإبل قال زهير ،

كَأَنَّ عَيْنِي فِي غَرَبِي مُقْتَلَةٌ * مِنَ النَّوَاضِجِ تَسْقِي جَنَّةً سُحُوقًا

يعنى النخل ؛ والنخلة السُّحُوقُ البعيدة الطول .

قلت : فيه وجهان ؛ أحدهما — أن يخص النخل بإفراده بعد دخوله فى جملة سائر الشجر
تنبيهاً على أنفراده عنها بفضله عنها . والثانى — أن يريد بالجنات غيرها من الشجر ؛ لأن اللفظ

يصلح لذلك ثم يعطف عليها النخل . والطلعة هي التي تطلع من النخلة كنصل السيف ؛ في جوفه شماريخ القِنْدِو ، والقِنْدِو اسم للخارج من الجذع كما هو بمرجونه وشماريخه . و « هَضِيمٌ » قال ابن عباس : لطيف مادام في كُفْرَته . والهضم اللطيف الدقيق ؛ ومنه قول امرئ القيس :

* عَلَى هَضِيمِ الْكَشْحِ رَيًّا الْمُخْلَلِ^(١) *

الجوهرى : ويقال للطلع هَضِيمٌ ما لم يخرج من كُفْرَته ؛ لدخول بعضه في بعض . والهضم من النساء اللطيفة الكشحيين . ونحوه حكى الهروى ؛ قال : هو المنضم في وعائه قبل أن يظهر ؛ ومنه رجل هضم الجنين أى منضمهما ؛ هذا قول أهل اللغة . وحكى الماوردى وغيره في ذلك آثنى عشر قولاً : أحدهما — أنه الرطب اللين ؛ قاله عكرمة . الثانى — هو المذنب من الرطب ؛ قاله سعيد بن جبیر . قال النحاس : وروى أبو إسحق عن يزيد — هو ابن أبي زياد كوفى ويزيد بن أبى مریم شامى — « وَتَحَلَّى طَلْعُهَا هَضِيمٌ » قال : منه ما قد أرطب ومنه مذنب . الثالث — أنه الذى ليس فيه نوى ؛ قاله الحسن . الرابع — أنه المتهم المتفتت إذا مس تفتت ؛ قاله مجاهد . وقال أبو العالیه : يتهم فى الفم . الخامس — هو الذى قد ضمرك بركوب بعضه بعضاً ؛ قاله الضحاك ومقاتل . السادس — أنه المتلاصق بعضه ببعض ؛ قاله أبو صخر . السابع — أنه الطلع حين يتفرق ويخضر ؛ قاله الضحاك أيضاً . الثامن — أنه البائع النضيج ؛ قاله ابن عباس . التاسع — أنه المكتنز قبل أن ينشق عنه القشر ؛ حكاه ابن شجرة ؛ قال :

كَأَنَّ حَمُولَةً تُجَلَّى عَلَيْهِ * هَضِيمٌ مَا يُحْسُّ لَهُ شُقُوقٌ

العاشر — أنه الرخو ؛ قاله الحسن . الحادى عشر — أنه الرخص اللطيف أول ما يخرج وهو الطالع النَضِيدُ ؛ قاله الهروى . الثانى عشر — أنه البرنى^(٢) ؛ قاله ابن الأعرابى ؛ فعيل بمعنى فاعل أى هنى مرئى من أنهضام الطعام . والطالع اسم مشتق من الطلوع وهو الظهور ؛ ومنه طلوع الشمس والقمر والنبات .

(١) صدر البيت . * هضرت بغودى رأها فتأملت *

(٢) البرنى : ضرب من التمر وهو أجوده ؛ واحده برنية .

قوله تعالى : « وَتَخْتُونُ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ » النّجّت النّجر والبرى ؛ نخته ينجته (بالكسر) نختا إذا براه والنّحاتة البراية . والمِنْجَت ما ينجت به . وفي « وَالصّافَاتِ » قال : « اتَّعَبِدُونَ مَا تَخْتُونُ^(١) » . وكانوا ينجتونها من الجبال لما طالت أعمارهم وتهدم بناؤهم من المدر . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع : « فَرِهِينَ » بغير ألف . الباقيون : « فَارِهِينَ » بألف وهما بمعنى واحد في قول أبي عبيدة وغيره ؛ مثل : « عِظَامًا تَخِرَّةً^(٢) » و « نَاخِرَةً » . وحكاه قطرب . وحكى فرّه يفرّه فهو فارّه وفرّه يفرّه فهو فرّه وفارّه إذا كان شيطا . وهو نصب على الحال . وفرق بينهما قوم فقالوا : « فَارِهِينَ » حاذقين ينجتها ؛ قاله أبو عبيدة ؛ وروى عن ابن عباس وأبي صالح وغيرهما . وقال عبد الله بن شداد : « فَارِهِينَ » متجبرين . وروى عن ابن عباس أيضا أن معنى : « فَرِهِينَ » بغير ألف أشرين بطرين ؛ وقاله مجاهد . وروى عنه شمرهين . الضحاك : كبّسين . قتادة : معجبين ؛ قاله الكلبي ؛ وعنه : ناعمين . وعنه أيضا آمنين ؛ وهو قول الحسن . وقيل : متخيرين ؛ قاله الكلبي والسدي . ومنه قول الشاعر :

إلى فَرِهِه يماجد كلّ أمرٍ * قصّدتُ له لأختبر الطّباعا

وقيل : متعجبين ؛ قاله خُصيف . وقال ابن زيد : أقوياء . وقيل : فرهين فرحين ؛ قاله الأخفش . والعرب تعاقب بين الهاء والحاء ؛ تقول : مدهته ومدحته ؛ فالفرّه الأشر الفرح ثم الفرح بمعنى المرح مذموم ؛ قال الله تعالى : « وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا^(٣) » وقال : « إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ^(٤) » . (فَأَتَقُوا اللَّهَ وَاطِيعُونَ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ) قيل : المراد الذين عقروا الناقة . وقيل : التسعة الرهط الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون . قال السّدي وغيره : أوحى الله تعالى إلى صالح : إن قومك سيعقرون نافتك ؛ فقال لهم ذلك ، فقالوا : ما كنا لنفعل . فقال لهم صالح : إنه سيولد في شهركم هذا غلام يعقرها ويكون هلاككم على يديه ؛ فقالوا : لا يولد في هذا الشهر ذكر إلا قتلناه . فولد تسعة منهم في ذلك الشهر فذبّحوا أبناءهم ، ثم ولد للعاشر فأبى أن يذبح ابنه وكان لم يولد له قبل ذلك . وكان ابن العاشر أزرق أحمر فنبت نباتا سريعا ؛ وكان إذا مر بالتسعة فرأوه قالوا : لو كان أبناءنا أحياء لكانوا مثل هذا . وغضب

(١) راجع ج ١٥ ص ٩٤ فما بعد .

(٢) راجع ج ١٩ ص ١٩٥ .

(٣) راجع ص ٣١٣ من هذا الجزء .

(٤) راجع ج ١٠ ص ٢٦٠ .

التسعة على صالح ؛ لأنه كان سبب قتلهم أبناءهم فتعصبوا وتقاسموا بالله لبئيتنه وأهله . قالوا :
نخرج إلى سفر فترى الناس سفرنا فنكون في غار ، حتى إذا كان الليل ونخرج صالح إلى مسجده
أتيناه فقتلناه ، ثم قلنا ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون ؛ فيصدقوننا ويعلمون أننا قد خرجنا
إلى سفر . وكان صالح لا ينام معهم في [القرية وكان يأوى إلى] مسجده ، فإذا أصبح أتاهم
فوعظهم ، فلما دخلوا الغار أرادوا أن يخرجوا فسقط عليهم الغار فقتلهم ، فرأى ذلك ناس
من كان قد أطلع على ذلك ، فصاحوا في القرية : يا عباد الله ! أما رضى صالح أن أمر بقتل
أولادهم حتى قتلهم ؛ فأجمع أهل القرية على قتل الناقة . وقال ابن إسحق : إنما اجتمع
التسعة على سبِّ صالح بعد عقربهم الناقة وإنذارهم بالعذاب على ما يأتي بيانه في سورة « النمل »
إن شاء الله تعالى . (قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ) هو من السحر في قول مجاهد وقتادة
على ما قال المهدوي . أى أصبت بالسحر فبطل عقلك ؛ لأنك بشر مثلنا فلم تدع الرسالة دوننا .
وقيل : من المعللين بالطعام والشراب ؛ قاله ابن عباس والكلبي وقتادة ومجاهد أيضا فيما ذكر
الثعلبي . وهو على هذا القول من السحر وهو الرئة أى بشرتك تتحرأى رئة تأكل وتشرب
مثلنا كما قال [لبید^(٣)] :

فإن تسألينا فيم نحن فلئننا * عصافير من هذا الأنعام المسحور

وقال [أمرؤ القيس] :

* ونُسحر بالطعام وبالشراب^(٤) *

(فَأْتِ بآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) في قولك . (قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ
يَوْمٍ مَعْلُومٍ) قال ابن عباس : قالوا إن كنت صادقاً فدع الله يخرج لنا من هذا الجبل ناقة
حمراء عشراء فتضع ونحن ننظر ، وترد هذا الماء فتشرب وتغدو علينا بمثله لبناً . فدعا الله

(١) الزيادة من « قصص الأنبياء » للثعلبي . (٢) راجع ص ٢١٥ من هذا الجزء .

(٣) في نسخ الأصل : أمرؤ القيس ؛ والتصويب من ديوان لبید . (٤) صدر البيت :

* أرانا موضعين لأمر غيب *

موضعين : مسرعين . وأمر غيب يريد الموت وأنه قد غيب منا وقته ونحن نلهي عنه بالطعام والشراب .

(٥) ناقة عشراء : مضى لحملها عشرة أشهر .

وفعل الله ذلك فـ « قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ ^(١) » أى حظ [من الماء] ؛ أى لكم شرب يوم ولها شرب يوم ؛ فكانت إذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله أول النهار وتسقيهم اللبن آخر النهار ، وإذا كان يوم شربهم كان لأنفسهم ومواشيهم وأرضهم ، ليس لهم في يوم ورودها أن يشربوا من شربها شيئاً ، ولا لها أن تشرب في يومهم من مائهم شيئاً . قال الفراء : الشَّرب الحظ من الماء . قال النحاس : فأما المصدر فيقال فيه شَرِبَ شَرْباً وشَرَبَا وشَرَبَا وأكثرها المضمومة ؛ لأن المكسورة والمفتوحة يشتركان مع شيء آخر فيكون الشَّرب الحظ من الماء ، ويكون الشَّرب جمع شارب كما قال ^(٢) :

* فَقُلْتُ لِلشَّربِ فِي دُرْنَا وَقَدْ تَمَلُّوا *

إلا أن أبا عمرو بن العلاء والكسائي يختاران الشَّرب بالفتح في المصدر ، ويحتجان برواية بعض العلماء أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لِمَ نَأْكُلُ وَنَشْرَبُ » . (وَلَا تَمَسُّوْهَا بِسُوءٍ) لا يجوز إظهار التضعيف هاهنا ؛ لأنهما حرفان متحركان من جنس واحد . (فَيَأْخُذْكُمْ) جواب النهي ، ولا يجوز حذف الفاء منه ، والجزم كما جاء في الأمر إلا شيئاً روى عن الكسائي أنه يحيزه . (فَعَقَرُوْهَا فَاصْبِرُوا نَادِمِينَ) أى على عقرها لما أيقنوا بالعذاب . وذلك أنه أنظرهم ثلاثاً فظهرت عليهم العلامة في كل يوم ، وندبوا ولم ينفعهم الندم عند معاينة العذاب . وقيل : لم ينفعهم الندم لأنهم لم يتوبوا ، بل طلبوا صالحاً عليه السلام ليقتلوه لما أيقنوا بالعذاب ، وقيل : كانت ندامتهم على ترك الولد إذ لم يقتلوه معها . وهو بعيد . (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً) إلى آخره تقدم . ويقال : إنه ما آمن به من تلك الأمم إلا ألقان وثمانمائة رجل وآمرأة . وقيل : كانوا أربعة آلاف . وقال كعب : كان قوم صالح اثني عشر ألف قبيل كل قبيل نحو اثني عشر ألفاً من سوى النساء والذرية ، ولقد كان قوم عاد مثلهم ست مرات .

(١) زيادة بقتضيا المعنى . (٢) هو الأعشى وتماه :

* شَبِروا فكيف يشم الشارب النمل *

ودرنا (بضم الدال والفتح) موضع زعموا أنه بناحية اليمامة . اللسان .

قوله تعالى : كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ
 لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١٦٨﴾
 وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٩﴾
 أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٧٠﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ
 أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٧١﴾ قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ
 مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٧٢﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٧٣﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي
 مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٧٤﴾ فَنجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٥﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧٦﴾
 ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٨﴾
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ
 الرَّحِيمُ ﴿١٨٠﴾

قوله تعالى : (كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ) مضى معناه وقصته في « الأعراف »
 و « هود » مستوفى والحمد لله .

قوله تعالى : (أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ) كانوا ينكحونهم في أديارهم وكانوا يفعلون
 ذلك بالغرباء على ما تقدم « في الأعراف » . (وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ)
 يعني فروج النساء فإن الله خلقها للنكاح . قال إبراهيم بن مهاجر : قال لي مجاهد كيف يقرأ
 عبد الله : « وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ » قلت : « وتذرون ما أصلح لكم ربكم
 من أزواجكم » قال : الفرج ؛ كما قال : « فَأَتَوْهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمُ اللَّهُ » . (بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ
 عَادُونَ) أي متجاوزون لحدود الله . (قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ) عن قولك هذا . (لَتَكُونَنَّ

(١) راجع ج ٧ ص ٢٤٣ فابعد .

(٢) راجع ج ٩ ص ٧٣ فابعد .

(٣) راجع ج ٣ ص ٨٠ .

مِنَ الْمُخْرِجِينَ) أى من بلدنا وقريننا . (قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ) يعنى اللواط (مِنَ الْقَالِينَ)
أى المبغضين والقليل البغض ؛ فليته أقلية قِلَ وقلاء . قال :

* فَلَسْتُ بِمَقْلٍ لِّلْخِلَالِ وَلَا قَالِي *

وقال آخر (٢)

ملك السلام لا ملكت قريبة * ومالك عندي إن نأيت قلاء
(رَبِّ نَجْنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ) أى من عذاب عملهم . دعا الله لما أيس من إيمانهم
ألا يصيبه من عذابهم .

قال تعالى : (فَنَجِّنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ) ولم يكن إلا آبناء على ما تقدم فى « هود » .
(إِلَّا عَجُوزًا فِي الْفَارِينَ) روى سعيد عن قتادة قال : غبرت فى عذاب الله عز وجل
أى بقيت . وأبو عبيدة يذهب إلى أن المعنى من الباقي فى الحرم أى بقيت حتى هيرمت .
قال النحاس : يقال للذاهب غابر والباقي غابر كما قال :

لَا تَكْسَعُ الشُّوْلُ بِأَغْبَارِهَا * إِنَّكَ لَا تَذِرِي مِنَ النَّاتِجِ

وهكذا قال (٣)

فأوتى محمد مذ أن غفر * له الإله ما مضى وما غبر
أى ما بقى . والأغبار بقيات الألبان . (ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ) أى أهلكتهم بالخسف والحصب ؛
قال مقاتل : خسف الله بقوم لوط وأرسل الحجارة على من كان خارجا من القرية . (وَأَمْطَرْنَا
عَلَيْهِمْ مَطَرًا) يعنى الحجارة (فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ) . وقيل : إن جبريل خسف بقريتهم
وجعل عاليها سافلها ، ثم أتبعها الله بالحجارة . (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)
لم يكن فيها مؤمن إلا بيت لوط وآبنتاه .

(١) هو أمرؤ القيس ؛ وصدر البيت : * صرفت الهوى عن من خشية الردى *

(٢) هو الحرث بن حلزة ؛ وكدم الناقة بغيرها ترك فى ضرعها بقية من اللبن .

وبعد : وأحلب لأضيافك ألبانها * فإن شر اللبن الواج

يقول : لا تغزر إبلك تطلب بذلك قوة نسائها ، وأحلبها لأضيافك ، فلعسل عدوا يغير عليها فيكون نتائجها له دونك .

(٣) راجع ج ٩ ص ٧٣ فما بعد . (٤) هو العجاج .

قوله تعالى : كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ
 شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١٧٩﴾
 وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾
 أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ
 الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ
 مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولَى ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا
 أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ
 الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنْ
 الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ
 يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ
 أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾

قوله تعالى : (كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ) الأيك الشجر الملتف الكثير الواحدة
 أيكة . ومن قرأ : « أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ » فهي الغيضة ، ومن قرأ : « لَيْكَةِ » فهو اسم القرية .
 ويقال : هما مثل بكة ومكة ؛ قاله الجوهري . وقال النحاس : وقرأ أبو جعفر ونافع :
 « كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ » وكذا قرأ : في « ص » . وأجمع القراء على الحذف في التي
 في سورة « الْحَجَرِ » والتي في سورة « ق » فيجب أن يرد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه
 إذ كان المعنى واحدا . وأما ما حكاه أبو عبيد من أن « لَيْكَةِ » هي اسم القرية التي كانوا
 فيها وأن « الْأَيْكَةِ » اسم البلد فشيء لا يثبت ولا يعرف من قاله فيثبت علمه ، ولو عرف
 من قوله لكان فيه نظر ؛ لأن أهل العلم جميعا من أهل التفسير والعلم بكلام العرب على خلافه .

وروى عبد الله بن وهب عن جرير بن حازم عن قتادة قال : أرسل شعيب^١ عليه السلام إلى أمتين : إلى قومه من أهل مدين ، وإلى أصحاب الأيكة ؛ قال : والأيكة غيضة من شجر مذب . وروى سعيد عن قتادة قال : كان أصحاب الأيكة أهل غيضة وشجر وكانت عاقمة شجرهم الدوم وهو شجر المقل . وروى ابن جبير عن الضحاك قال : خرج أصحاب الأيكة — يعني حين أصابهم الحر — فانضموا إلى الغيضة والشجر ، فأرسل الله عليهم سحابة فاستظلوا تحتها ، فلما تكاملوا تحتها أحرقوا . ولو لم يكن هذا إلا ما روى عن ابن عباس قال : « الأيكة » الشجر . ولا نعلم بين أهل اللغة اختلافاً أن الأيكة الشجر المذب ، فاما احتجاج بعض من احتج بقراءة من قرأ في هذين الموضعين بالفتح أنه في السواد « ليكة » فلا حجة له ؛ والقول فيه : إن أصله الأيكة ثم خففت الهمزة فألقت حركتها على اللام فسقطت وأستغنت عن ألف الوصل ؛ لأن اللام قد تحركت فلا يجوز على هذا إلا الحذف ؛ كما نقول بالأحمر تحقق الهمزة ثم تخففها بلحمر ؛ فإن شئت كتبته في الخط على ما كتبته أولاً ، وإن شئت كتبته بالحذف ؛ ولم يحز إلا الحذف ؛ قال سيبويه : وأعلم أن ما لا ينصرف إذا دخلت عليه الألف واللام أو أضيف أنصرف ؛ ولا نعلم أحدا خالف سيبويه في هذا . وقال الخليل : « الأيكة » غيضة تنبت السدر والأراك ونحوهما من ناعم الشجر . (إِذْ قَالَ لَهُمُ شُعَيْبٌ) ولم يقل أخوهم شعيب ؛ لأنه لم يكن أحدا لأصحاب الأيكة في النسب ، فلما ذكر مدين قال : « أَخَاهُمْ شُعَيْبًا » ؛ لأنه كان منهم . وقد مضى في « الأعراف » القول في نسبه . قال ابن زيد : أرسل الله شعيبا رسولا إلى قومه أهل مدين ، وإلى أهل البادية وهم أصحاب الأيكة ؛ وقاله قتادة . وقد ذكرناه . (أَلَّا تَتَّقُونَ) تخافون الله (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ) فاتقوا الله وأطيعون (لآية) . وإنما كان جواب هؤلاء الرسل واحدا على صيغة واحدة ؛ لأنهم متفقون على الأمر بالتقوى ، والطاعة والإخلاص في العبادة ، والامتناع من أخذ الأجر على تبليغ الرسالة . (أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ) الناصين للكيل

(١) راجع ج ٧ ص ٢٤٧ فابعد .

(١)

والوزن . (وَزِنُوا بِالْقِسَاطِ الْمُسْتَقِيمِ) أى أعطوا الحق . وقد مضى فى « سبحان » وغيرها
 (وَلَا تَجْسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) تقدم فى « هود » وغيرها .
 (وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولَى) قال مجاهد : الجبللة هى الخليفة . وجبل فلان على
 كذا أى خلق ؛ فالخلق جبللة وجبللة وجبللة وجبللة ذكره النحاس فى « معانى القرآن » .
 « وَالْجِبِلَّةَ » عطف على الكاف والميم . قال الهروى : الجبللة والجبللة والجبلل والجبلل والجبلل
 لغات ؛ وهو الجمع ذو العدد الكثير من الناس ؛ ومنه قوله تعالى : « جِبِلًّا كَثِيرًا » .
 قال النحاس فى كتاب « إعراب القرآن » له : ويقال جبللة والجمع فيهما جبَّالٌ ، وتحذف
 الضمة والكسرة من الباء ، وكذلك التشديد من اللام ؛ فيقال : جبللة وجبيلٌ ، ويقال :
 جبيلة وجبَّالٌ ، وتحذف الهاء من هذا كله . وقرأ الحسن باختلاف عنه : « وَالْجِبِلَّةَ الْأُولَى »
 بضم الجيم والباء ؛ وروى عن شيبة والأعرج . الباقر بالكسر . قال :

والموت أعظم حادث * فيما يمر على الجبللة

(قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ) الذين يأكلون الطعام والشراب على ما تقدم . (وَإِنْ
 نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ) أى مانظنك إلا من الكاذبين فى أنك رسول الله تعالى . (فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا
 كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ) أى جانباً من السماء وقطعة منه ، فننظر إليه ؛ كما قال : « وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا
 مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ » . وقيل : أرادوا أنزل علينا العذاب . وهو مبالغة
 فى التكذيب . قال أبو عبيدة : اليكسف جمع كسفة مثل سذر وسذرة . وقرأ السلمي وحفص :
 « كِسْفًا » جمع كسفة أيضا وهى القطعة والجانب تقديره كسرة وكسر . قال الجوهري :
 اليكسفة القطعة من الشيء ؛ يقال أعطنى كسفة من ثوبك والجمع كسف وكسف . ويقال :
 اليكسف واليكسفة واحد . وقال الأخفش : من قرأ : « كِسْفًا » جعله واحداً ومن قرأ :
 « كِسْفًا » جعله جمعا . وقد مضى هذا فى سورة « سبحان » . وقال الهروى : ومن قرأ :
 « كِسْفًا » على التوحيد بجمعه أ كساف وكسوف ؛ كأنه قال أو تسقطه علينا طبقا واحدا ،

(١) راجع ج ١٠ ص ٢٥٦ و ٣٣٠ . (٢) راجع ج ٩ ص ٨٦ . (٣) راجع ج ١٥ ص ٤٧ .

(٤) « كسفا » بإسكان السين قراءة نافع . (٥) راجع ج ١٧ ص ٧٧ .

وهو من كسفت الشيء كسفا إذا غطيته . ﴿ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . قَالَ رَبِّ أَعْلَمْ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ تهديد ؛ أى إنما على التبليغ وليس العذاب الذى سألتهم إلى وهو يجازيكم . ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ﴾ قال ابن عباس : أصابهم حر شديد ، فأرسل الله سبحانه سحابة فهربوا إليها ليستظلوا بها ، فلما صاروا تحتها صبح بهم فهلكوا . وقيل : أقامها الله فوق رؤسهم ، وألهمها حرا حتى ماتوا من الرميد . وكان من أعظم يوم فى الدنيا عذابا . وقيل : بعث الله عليهم سموما فخرجوا إلى الأيكة يستظلون بها فأضرهم الله عليهم نارا فاحترقوا . وعن ابن عباس أيضا وغيره : إن الله تعالى فتح عليهم بابا من أبواب جهنم ، وأرسل عليهم هدة وحرًا شديدا فأخذ بأنفاسهم ، فدخلوا بيوتهم فلم ينفعهم ظل ولا ماء فأنضجهم الحر ، فخرجوا هربا إلى البرية ، فبعث الله عز وجل سحابة فأظلمت فوجدوا لها بردا وروحا وريحا طيبة ، فنادى بعضهم بعضا ، فلما اجتمعوا تحت السحابة ألهمها الله تعالى عليهم نارا ، ورجفت بهم الأرض ، فاحترقوا كما يحترق الحراد فى المقل ، فصاروا رمادا ؛ فذلك قوله : « فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ . كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا » وقوله : ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ . وقيل : إن الله تعالى حبس عنهم الريح سبعة أيام ، وسأط عليهم الحر حتى أخذ بأنفاسهم ، ولم ينفعهم ظل ولا ماء فكانوا يدخلون الأسراب ، ليتبردوا فيها فيجدوها أشد حرا من الظاهر . فهربوا إلى البرية ، فأظلمت سحابة وهى الظلة ، فوجدوا لها بردا ونسima ، فأمطرت عليهم نارا فأحترقوا . وقال يزيد الجُرَيْرِي : سألط الله عليهم الحر سبعة أيام وليلتين ثم رفع لهم جبل من بعيد « فأناه رجل فإذا تحته أنهار وعيون وشجر وماء بارد ، فاجتمعوا كلهم تحته ، فوقع عليهم الجبل وهو الظلة . وقال قتادة : بعث الله شعبيا إلى أمّنين : أصحاب مدين وأصحاب الأيكة فأهلك الله أصحاب الأيكة بالظلة ، وأما أصحاب مدين فصاح بهم جبريل صيحة فهلكوا أجمعين . ﴿ إِن فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ قيل : آمن بشعيب من الفتيين تسعمائة نفر .

قوله تعالى : وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾

قوله تعالى : (وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ) عاد إلى ما تقدم بيانه في أول السورة من إعراض المشركين عن القرآن . (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ) « نَزَلَ » مخففاً قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو . الباقون : « نَزَلَ » مشدداً « بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ » نصبا وهو اختيار أبي حاتم وأبي عبيد لقوله : « وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ » وهو مصدر نزل ، والحجة لمن قوا بالتخفيف أن يقول ليس هذا بمقدر ؛ لأن المعنى وإن القرآن لتنزيل رب العالمين نزل به جبريل إليك ؛ كما قال تعالى : « قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلْجَبْرِيلِ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ ^(١) » أى يتلوه عليك فيعيه قلبك . وقيل : ليثبت قلبك . (لَتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) أى لثلاثا يقولوا لسانا نفهم ما تقول . (وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ) أى وإن ذكر نزوله لفي كتب الأولين يعنى الأنبياء . وقيل : أى إن ذكر عهد عليه السلام في كتب الأولين ؛ كما قال تعالى : « يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ^(٢) » والزُّبُرُ الكتب الواحد زُبُور كرسول ورسول ؛ وقد تقدم .

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِءَ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِءَ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾

قوله تعالى : (أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَءِيلَ) قال مجاهد : يعنى عبدالله ابن سلام وسلمان وغيرهما ممن أسلم وقال ابن عباس : بعث أهل مكة إلى اليهود وهم بالمدينة

يسألونهم عن محمد عليه السلام، فقالوا : إن هذا لزمانه ، وإنا لنجد في التوراة نعتة وصفته .
فيرجع لفظ العلماء إلى كل من كان له علم بكتبهم أسلم أو لم يسلم على هذا القول . وإنما
صارت شهادة أهل الكتاب حجة على المشركين ؛ لأنهم كانوا يرجعون في أشياء من أمور الدين
إلى أهل الكتاب ؛ لأنهم مظنون بهم علم . وقرأ ابن عامر : « أَوَلَمْ تَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ » . الباقون
« أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ » بالنصب على الخبر وأسم يكن « أَنْ يَعْلَمَهُ » والتقدير أو لم يكن لهم علم
علماء بني إسرائيل الذين أسلموا آية واضحة . وعلى القراءة الأولى أسم كان « آيَةٌ » والخبر « أَنْ
يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ » . وقرأ عاصم الجحدري : « أَنْ تَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ » . (وَأَوْ
تَزِيلُهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ) أى على رجل ليس بعربي اللسان (فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ) بغير لغة العرب
لما آمنوا ولقالوا لا نفقه ، نظيره : « وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَجَمِيًّا » الآية . وقيل : معناه ولو تزلناه
على رجل ليس من العرب لما آمنوا به أنفه وكبرا . يقال : رجل أعجم وأعجمى إذا كان
غير فصيح وإن كان عربيا ، ورجل عجمى وإن كان فصيحاً ينسب إلى أصله ؛ إلا أن الفراء
أجاز أن يقال رجل عجمى بمعنى أعجمى . وقرأ الحسن : « عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ » مشددة
بباءين جعله نسبة . ومن قرأ : « الْأَعْجَمِينَ » فقل : إنه جمع أعجم . وفيه بعد ؛ لأن ما كان
من الصفات الذى مؤنثه فعلاء لا يجمع بالواو والنون ، ولا بالألف والياء ؛ لا يقال أحرون
ولا حمراوات . وقيل : إن أصله الأعجمين كقراءة الجحدري ثم حذفت ياء النسب ، وجعل
جمعه بالياء والنون دليلا عليها . قاله أبو الفتح عثمان بن جنى . وهو مذهب سيدييه .

قوله تعالى : (كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ) يعنى القرآن أى الكفر به (فِي قُلُوبِ الْمُتَجَرِّمِينَ) .
لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ) . وقيل : سلكا التكذيب في قلوبهم ؛ فذلك الذى منعهم من الإيمان ؛ قاله
يحيى بن سلام . وقال عكرمة : القسوة . والمعنى متقارب وقد مضى في « المجمر » . وأجاز
الفراء الجزم في « لَا يُؤْمِنُونَ » ؛ لأن فيه معنى الشرط والمجازاة . وزعم أن من شأن العرب
إذا وضعت لا موضع كى لا فى مثل هذا ربما جزمت ما بعدها وربما رفعت ؛ فتقول : ربطت

(١) راجع ج ١٥ ص ٣٦٨ . (٢) راجع ج ١٠ ص ٧ . (٣) فى ك : احذرو .

الفرس لا ينفلت بالرفع والجزم ؛ لأن معناه إن لم أر بطله ينفلت ، والرفع بمعنى يكلا ينفلت .
وأنشد لبعض بني عَقيـل :

وحتى رأينا أحسنَ الفعلِ بيننا * مُسَاكِنَةً لا يَقْرِفُ الشَّرَّ قَارِفُ

بالرفع لما حذف كي . ومن الجزم قول الآخر :

لَطَائِمًا حَلًّا تَمَاهَا لَا تَرْدُ * نَخْلِيَّاهَا وَالسَّجَالَ تَبْتَرِدُ^(١)

قال النحاس : وهذا كله في « يُؤْمِنُونَ » خطأ عند البصريين ، ولا يجوز الجزم بلا جازم ؛ ولا يكون شيء يعمل عملاً فإذا حذف عمل عملاً أقوى من عمله وهو موجود ؛ فهذا احتجاج بين . (حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ . فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً) أى العذاب . وقرأ الحسن : « فَيَأْتِيَهُمْ » بالناء ؛ والمعنى : فأتاهم الساعة بغتة فاضمرت لدلالة العذاب الواقع فيها ، ولكثرة ما في القرآن من ذكرها . وقال رجل للحسن وقد قرأ : « فَيَأْتِيَهُمْ » : يا أبا سعيد إنما يأتهم العذاب بغتة . فاتهره وقال : إنما هي الساعة تأتيهم بغتة أى فجأة . (وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) بلاتيانها . (فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ) أى مؤخرون وممهلون . يطلبون الرجعة هنالك فلا يجابون لايها . قال القشيري : وقوله : « فَيَأْتِيَهُمْ » ليس عطفا على قوله : « حَتَّى يَرَوْا » بل هو جواب قوله : « لَا يُؤْمِنُونَ » فلما كان جواباً للنفي انتصب ؛ وكذلك قوله : « فَيَقُولُوا » .

قوله تعالى : أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٥﴾ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾
قوله تعالى : (أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ) قال مقاتل : قال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم يا محمد إلى متى تعدنا بالعذاب ولا تأتي به ! فنزلت : « أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ » . (أَفَرَأَيْتَ)

(١) حلاؤها : منعها من ورود الماء . والسجال : (جمع سجل) وهى الدلو الضخمة المملوءة ماء . وتبرد :

تشرب الماء لتبرد به كبدها . والبيت قاله بعض النسوة لبعض لما زرن امرأة قد تزوجت من رجل كان عاشقاً لها .

إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ) يعنى فى الدنيا والمراد أهل مكة فى قول الضحاك وغيره . (ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ) من العذاب والهلاك (مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ) . « ما » الأولى أستفهام معناه التقرير ، وهو فى موضع نصب بـ « ما غنى » و « ما » الثانية فى موضع رفع ، ويجوز أن تكون الثانية نفيا لا موضع لها . وقيل : « ما » الأولى حرف نفى ، و « ما » الثانية فى موضع رفع بـ « ما غنى » والهاء العائدة محذوفة . والتقدير : ما أغنى عنهم الزمان الذى كانوا يتمتعونه . وعن الزهرى : إن عمر بن عبد العزيز كان إذا أصبح أمسك بإحنيه ثم قرأ : « أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ . ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ . مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ » ثم يبكى ويقول :

نهارك يا مغرور سهو وغفلة * وليك نوم والردى لك لازم
فلا أنت فى الأيقاظ يقظان حازم * ولا أنت فى النوم ناچ فسالم
نسر بما يقنى وتفرح بالمسنى * كما سر بالذات فى النوم حالم
وتسعى إلى ماسوف تكره غيبه * كذلك فى الدنيا تعيش البهائم

قوله تعالى : (وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ) « من » صلة ؛ المعنى : وما أهلكنا قرية . (إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ) أى رسل . (ذِكْرَى) . قال الكسائى : « ذِكْرَى » فى موضع نصب على الحال . النحاس : وهذا لا يحصل ، والقول فيه قول الفراء وأبى إسحق أنها فى موضع نصب على المصدر ؛ قال الفراء : أى يذكرون ذِكْرَى ؛ وهذا قول صحيح ؛ لأن معنى « إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ » إلا لها مذكرون . و « ذِكْرَى » لا يتبين فيه الإعراب ؛ لأن فيها ألفا مقصورة . ويجوز « ذِكْرَى » بالتنوين ، ويجوز أن يكون « ذِكْرَى » فى موضع رفع على إضمار مبتدأ . قال أبو إسحق : أى إنذارنا ذِكْرَى . وقال الفراء : أى ذلك ذِكْرَى ، وتلك ذِكْرَى . وقال ابن الأنبارى قال بعض المفسرين : ليس فى « الشعراء » وقف تام إلا قوله « إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ » وهذا عندنا وقف حسن ؛ ثم يبتدئ « ذِكْرَى » على معنى هى ذِكْرَى أى يذكركم ذِكْرَى ، والوقف على « ذِكْرَى » أجود . (وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ) فى تعذيبهم حيث قدمنا الحجة عليهم وأعذرنا إليهم :

قوله تعالى : وَمَا تَنْزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ
وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ
إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾

قوله تعالى : (وَمَا تَنْزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ) يعنى القرآن بل ينزل به الروح الأمين .
(وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ . إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ) أى برى الشهب كما مضى
فى سورة « الحجر » بيانه . وقرأ الحسن ومحمد بن السميع : « وَمَا تَنْزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطُونُ » قال
المهدوى : وهو غير جائز فى العربية ومخالف للخط . وقال النحاس : وهذا غلط عند جميع
النحويين ؛ وسمعت على بن سليمان يقول سمعت محمد بن يزيد يقول : هذا غلط عند العلماء ،
إنما يكون بدخول شبهة ؛ لما رأى الحسن فى آخره ياء ونونا وهو فى موضع رفع أشبهه عليه
بالجمع المسلم فغلط ، وفى الحديث : « آخذروا زلة العالم » وقد قرأ هو مع الناس : « وَإِذَا خَلَوْا
إِلَى شَيَاطِينِهِمْ » ولو كان هذا بالواو فى موضع رفع لوجب حذف انون للإضافة . وقال
الثعلبى : قال القراء : غلط الشيخ — يعنى الحسن — فقبل ذلك للنضر بن شميل فقال : إن
جاز أن يحتج بقول رؤية والعجاج وذويهما ، جاز أن يحتج بقول الحسن وصاحبه . مع أنا نعلم
أنهما لم يقرأ بذلك إلا وقد سمعا فى ذلك شيئاً ؛ وقال المؤرج : إن كان الشيطان من شاط
يشيط كان لقراءتهما وجه . وقال يونس بن حبيب : سمعت أعرابياً يقول دخلنا بساتين من
ورائهما بساتون ؛ فقلت : ما أشبه هذا بقراءة الحسن .

قوله تعالى : (فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ) قيل : المعنى قل لمن
كفر هذا . وقيل : هو مخاطبة له عليه السلام وإن كان لا يفعل هذا ؛ لأنه معصوم مختار
ولكنه خوطب بهذا والمقصود غيره . ودل على هذا قوله : « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ »
أى لا يتكلمون على نسبهم وقرابتهم فيدعون ما يجب عليهم .

(١) راجع ج ١٠ ص ١٠ فما بعد .

(٢) راجع ج ١ ص ٢٠٦ .

قوله تعالى : **وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ** ﴿٢١٤﴾ **وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴿٢١٥﴾ **فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرِيءٍ مِمَّا تَعْمَلُونَ** ﴿٢١٦﴾ **وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ** ﴿٢١٧﴾ **الَّذِي يَرْنَكَ حِينَ تَقُومُ** ﴿٢١٨﴾ **وَتَقْلُبَكَ فِي السَّجْدِينَ** ﴿٢١٩﴾ **إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴿٢٢٠﴾

قوله تعالى : **(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)** فيه مسئلتان :

الأولى - قوله تعالى : **« وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ »** خص عشيرته الأقربين بالإندار؛ لتنحيم أطماع سائر عشيرته وأطماع الأجانب في مفارقتها إياهم على الشرك . وعشيرته الأقربون قريش . وقيل : بنو عبد مناف . ووقع في صحيح مسلم : **« وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ وَرَهْطَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ »** . وظاهر هذا أنه كان قرآنا يتلى وأنه نسخ ؛ إذ لم يثبت نقله في المصحف ولا تواتر . ويلزم على ثبوته إشكال ؛ وهو أنه كان يلزم عليه ألا يندر إلا من آمن من عشيرته ؛ فإن المؤمنين هم الذين يوصفون بالإخلاص في دين الإسلام وفي حب النبي صلى الله عليه وسلم لا المشركون ؛ لأنهم ليسوا على شيء من ذلك ، والنبي صلى الله عليه وسلم دعا عشيرته كلهم مؤمنهم وكافرهم ، وأنذر جميعهم ومن معهم ومن يأتي بعدهم صلى الله عليه وسلم ؛ فلم يثبت ذلك نقلا ولا معنى . وروى مسلم من حديث أبي هريرة قال : لما نزلت هذه الآية **« وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ »** دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا فأجتمعوا فعم وخص فقال : **« يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ ثَعْلَبَةَ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ يَا بَنِي مَرْثَدَةَ بْنِ كَعْبِ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ يَا بَنِي عَبْدِ مَنْفٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ ، يَا بَنِي هَاشِمٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ يَا فَاطِمَةَ أَنْقِذِي نَفْسَكَ مِنَ النَّارِ فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا غَيْرَ أَنْ لَكُمْ رِجَاءٌ سَأَبْلُهَا بِهَا »** .

(١) **« سَأَبْلُهَا بِهَا »** : أي أصابكم في الدنيا ولا أغني عنكم من الله شيئا .

الثانية - في هذا الحديث والآية دليل على أن القرب في الأنساب لا ينفع مع البعد في الأسباب ، ودليل على جواز صلة المؤمن الكافر وإرشاده ونصيحته ؛ لقوله : " إن لكم رَحِمًا سَابِلَهَا بِلَالُهَا " وقوله عز وجل : « لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ ^(١) » الآية ، على ما يأتي بيانه هناك [إن شاء الله] .

قوله تعالى : « وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » تقدم في سورة « الحجر » ^(٢) و « سبحان » يقال : خفض جناحه إذا لان . « فَإِنْ عَصَوْكَ » أى خالفوا أمرك . « فَقُلْ إِيَّايَ بَرِئُوا مِمَّا تَعْمَلُونَ » أى برئ من معصيتكم إياي ؛ لأن عصيانهم إياه عصيان لله عز وجل ، لأنه عليه السلام لا يأمر إلا بما يرضاه ، ومن تبرأ منه فقد تبرأ الله منه .

قوله تعالى : « وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ » أى فوض أمرك إليه فإنه العزيز الذى لا يغالب ، الرحيم الذى لا ينخذل أوليائه . وقرأ العامة : « وَتَوَكَّلْ » بالواو وكذلك هو في مصاحفهم .

وقرأ نافع وابن عامر : « فَتَوَكَّلْ » بالفاء وكذلك هو في مصاحف المدينة والشام . « الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ » أى حين تقوم إلى الصلاة في قول أكثر المفسرين : ابن عباس وغيره . وقال مجاهد : معنى حين تقوم حينما كنت . « وَتَقْلُبَكَ فِي السَّاجِدِينَ » قال مجاهد وقتادة : في المصلين . وقال ابن عباس : أى في أصلاب الآباء ، آدم ونوح وإبراهيم حتى أخرجه نبياً . وقال عكرمة : يراك قائماً وراكماً وساجداً ؛ وقاله ابن عباس أيضاً . وقيل : المعنى ؛ إنك ترى بقلبك في صلاتك من خلفك كما ترى بعينك من قدامك . وروى عن مجاهد ؛ ذكره الماوردي والتملي . وكان عليه السلام يرى من خلفه كما يرى من بين يديه ، وذلك ثابت في الصحيح وفي تأويل الآية بعيد « إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » تقدم .

قوله تعالى : هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٣﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ إنما قال : « تَنَزَّلُ » لأنها أكثر ما تكون في الهواء ، وأنها تمر في الريح . ﴿ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾ تقدم في « الحجر » . فـ « يُلْقُونَ السَّمْعَ » صفة الشياطين « وَأَكْثُرُهُمْ » يرجع إلى الكهنة . وقيل : إلى الشياطين .

قوله تعالى : وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « وَالشُّعْرَاءُ » جمع شاعر مثل جاهل وجهلاء ؛ قال ابن عباس : هم الكفار « يَتَّبِعُهُمُ » ضلال الجن والإنس . وقيل : « الْغَاوُونَ » الزائلون عن الحق ، ودل بهذا أن الشعراء أيضا غاؤون ؛ لأنهم لو لم يكونوا غاوين ما كان أتباعهم كذلك . وقد قدمنا في سورة « النور » أن من الشعر ما يجوز إنشاده ، ويكره ، ويحرم . روى مسلم من حديث عمرو بن الشريد عن أبيه قال : ردت رسول الله صلى الله عليه وسلم [يوما] فقال : « هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء » قلت : نعم . قال « هيه » فأنشدته بيتا . فقال « هيه » ثم أنشدته بيتا . فقال « هيه » حتى أنشدته مائة بيت . هكذا صواب هذا السند وصحيح روايته . وقد وقع لبعض رواة كتاب مسلم : عن عمرو بن الشريد عن الشريد أبيه ؛ وهو وهم ؛ لأن الشريد هو الذي أردفه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأسم أبي الشريد سويد . وفي هذا دليل على حفظ الأشعار والاعتناء بها إذا تضمنت الحكم والمعاني المستحسنة شرعا وطبعا ، وإنما استكثر النبي صلى الله عليه وسلم من شعر أمية ؛ لأنه

(١) راجع ج ١٠ ص ١٠ فابعد . (٢) راجع ج ١٢ ص ٢٧١ . (٣) الزيادة من صحيح مسلم .

كان حكيماً؛ ألا ترى قوله عليه السلام: "وكاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم" فأما ما تضمن ذكر الله وحمده والثناء عليه فذلك مندوب إليه ، كقول القائل :

الحمد لله العلى المنان * صار الثريد في رءوس العيدان^(١)

أو ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أو مدحه كقول العباس :

من قبلها طُبَّتْ في الظلال وفي مُسَد * تتودع حيث يُخَصِّفُ الورقُ
ثم هبطت البلاد لا بشرُّ أُن * تَ ولا مُضْغَةً ولا عَلَقُ
بل نطفة تركب السفين وقد أُل * جَمَ نَسْرًا وأهله الفَرْقُ
تنقلُ من صَالِبٍ إلى رَحِيم * إذا مَضَى عالمٌ بَدَا طَبَقُ^(٢)

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : " لا يَفْضُضُ الله فاك " . أو الذب عنه كقول حسان :

هجوتَ هجداً فأجبتُ عنه * وعند الله في ذاك الجزاءُ

وهي أبيات ذكرها مسلم في صحيحه وهي في السير أتم . أو الصلاة عليه ؛ كما روى زيد بن أسلم ؛ نخرج عمر ليلة يحرس فرأى مصباحاً في بيت ، وإذا عجوز تنفث صوفاً وتقول :

على عهدِ صلاةِ الأبرار * صلى عليه الطيبون الأخيارُ
قد كنتَ قَوَّاماً بُكَاً بالأنحار * ياليتَ شِعْرى والمنايا أطوارُ
* هل يَجْمَعُنِي وحيبي الدارُ *

يعني النبي صلى الله عليه وسلم ؛ مجلس عمر يكي . وكذلك ذكر أصحابه ومدحهم رضى الله عنهم ؛ ولقد أحسن محمد بن سابق حيث قال :

إني رَضِيتُ علياً للهدى عَلمًا * كما رَضِيتُ عَتِيقاً صاحبَ الغارِ
وقد رَضِيتُ أبا حفصٍ وشيعتهُ * وما رَضِيتُ بقتل الشيخ في الدارِ
كُلَّ الصحابةِ عندي قُدوةٌ عَلمٌ * فهل على بهذا القول من عارِ
إن كنتَ تعلمُ أنَّي لا أَحِبُّمُ * إلا من أجلك فاعتقني من النارِ

(٢) طبق : قرن . أراد إذا مضى قرن ظهر قرن آخر .

(١) كذا في الأصول .

وقال آخر فأحسن :

حُبُّ النَّبِيِّ رَسُولِ اللَّهِ مُفْتَرَضٌ * وَحُبُّ أَصْحَابِهِ نَوْرٌ يَبْرَهَانُ
 مَنْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ خَالِقُهُ * لَا يَرْمِيَنَّ أَبَا بَكْرٍ بِيَهْتَانِ
 وَلَا أَبَا حَفِصٍ الْفَارُوقَ صَاحِبَهُ * وَلَا الْخَلِيفَةَ عُمَانَ بْنَ عَفَّانِ
 أَمَّا عَلِيُّ فَمُشْهُورٌ فَضَائِلُهُ * وَالْبَيْتُ لَا يَسْتَوِي إِلَّا بِأَرْكَانِ

قال ابن العربي : أما الاستعارات في التشبيهات فمأذون فيها وإن استغرقت الحد وتجاوزت المعتاد ؛ فبذلك يضرب الملك الموكل بالرؤيا المثل ، وقد أنشد كعب بن زهير

النبي صلى الله عليه وسلم :

بانت سعادُ فقلبي اليوم متبولٌ * مُتَمِّمٌ لِمَا رَها لم يُقَدِّمْ مَكْبُولُ
 وما سعادُ غداةَ البين إِذ رَحَلُوا * إِلَّا أَغْنَى غَضِيضُ الطَّرْفِ مَكْحُولُ
 تَجَلَّوْا عَوَارِضَ ذِي ظَلَمٍ إِذَا أَبْصَمْتُ * كَأَنَّهُ مُنْهَلٌ بِالرَّاحِ مَعْلُولُ

بخاء في هذه القصيدة من الاستعارات والتشبيهات بكل بديع ، والنبي صلى الله عليه وسلم يسمع ولا ينكر في تشبيهه ريقها بالراح . وأنشد أبو بكر رضي الله عنه ^(١) :

فَقَدْ ذَا الْوَحْيَ إِذْ وَلَّيْتَ عَنَّا * وَودَّعْنَا مِنْ اللَّهِ الْكَلَامُ
 سَوَى مَا قَدْ تَرَكْتَ لَنَا رَهِيئاً * تَوَارِثَهُ الْقَرَّاطِيصُ الْكَرَامُ
 فَقَدْ أَوْرَثْنَا مِيرَاثَ صَدِيقٍ * عَلَيْكَ بِهَ التَّحِيَّةُ وَالسَّلَامُ

فإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع وأبو بكر ينشده ، فهل للتقليد والافتداء موضع أرفع من هذا . قال أبو عمر : ولا ينكر الحسن من الشعر أحد من أهل العلم ولا من أولى النُّهى ، وليس أحد من كبار الصحابة وأهل العلم وموضع القدوة إلا وقد قال الشعر ، أو تمثل به أو سمعه فرضيه ما كان حكمة أو مباحا ، ولم يكن فيه فحش ولا خنا ولا لمسلم أذى ، فإذا كان كذلك فهو والمنثور من القول سواء لا يحل سماعه ولا قوله ؛ وروى أبو هريرة قال

(١) قال ذلك في رثاء النبي صلى الله عليه وسلم .

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر يقول : ” أصدق كلمة — أو أشعر كلمة — قالتها العرب قول لبيد : * أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ * “
 أخرجه مسلم وزاد ” وكاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم “ وروى عن ابن سيرين أنه أنشد شعرا فقال له بعض جلسائه : مثلك ينشد الشعر يا أبا بكر . فقال : ويلك يا بُكَع ! وهل الشعر إلا كلام لا يخالف سائر الكلام إلا في القوافي ، فحسنه حسن وقبيحه قبيح ! قال : وقد كانوا يتذاكرون الشعر . قال : وسمعت ابن عمر ينشد :

يُحِبُّ الخمرَ من مال الندامى * ويكره أن يفارقه الغلوس

وكان عبيد الله بن عبيد الله بن عتبة بن مسعود أحد فقهاء المدينة العشرة ثم المشيخة السبعة شاعرا مجيدا مقدما فيه ، وللزبير بن بكار القاضي في أشعاره كتاب ، وكانت له زوجة حسنة تسمى عثمة فعتب عليها في بعض الأمر فطلقها ، وله فيها أشعار كثيرة ، منها قوله :

تَغْلَغَلُ حُبُّ عَثْمَةَ^(١) فِي فَوَادِي * فبَادِيهِ مَعَ الْخَافِي يَسِيرُ
 تَغْلَغَلُ حَيْثُ لَمْ يَبَاحِ شَرَابٌ * وَلَا حَزَنٌ وَلَمْ يَبْلُغْ سُرُورُ
 أَكَادَ إِذَا ذَكَرْتُ الْعَهْدَ مِنْهَا * أَطِيرُ لَوْ أَنَّ إِنْسَانًا يَطِيرُ

وقال ابن شهاب : قلت له تقول الشعر في نسكك وفضلك ! فقال : إن المصدور إذا نفث برا .

الثانية — وأما الشعر المذموم الذي لا يحل سماعه وصاحبه ملوم ، فهو المتكلم بالباطل حتى يفضلوا أجبن الناس على عنزة ، وأشجعهم على حاتم ، وأن يبهتوا البريء ويفسقوا التقى ، وأن يفرطوا في القول بما لم يفعله المرء ، رغبة في تسلية النفس وتحسين القول ، كما روى عن الفرزدق أن سليمان بن عبد الملك سمع قوله :

فَيْثَنَ يِجَانِي مَصْرَمَاتٍ^(٢) * وَبِتْ أَفْضُ أَغْلَاقَ الْخَنَامِ

فقال : قد وجب عليك الحد . فقال : يا أمير المؤمنين قد درأ الله عني الحد بقوله : « وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ » . وروى أن النعمان بن عدي بن نضلة كان عاملا لعمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال :

مَنْ مَبْلُغُ الْحَسَنَاءِ أَتَ حَلِيلَهَا * بِمَيْسَانَ يُسْقَى فِي زُجَاجٍ وَحَنَتِيمٍ
إِذَا شَدْتُ غَنَتِي دَهَاقِينَ قَرْيَةٍ * وَرَقَاصَةً تَجْذُو عَلَى كُلِّ مَنَسِيمٍ^(٢)
فَإِنْ كُنْتُ نَدْمَانِي فَبَالًا كَبِرَ اسْقِنِي * وَلَا تَسْقِنِي بِالْأَصْغَرِ الْمُتَشَلِّمِ
لَعَلَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَسُوءُهُ * تَنَادُمْنَا بِالْجَوْسَقِ الْمُتَهَدِّمِ^(٣)

فبلغ ذلك عمر فأرسل إليه بالقدوم عليه . وقال : إني والله إني ليسوءني ذلك . فقال : يا أمير المؤمنين ما فعلت شيئا مما قلت ، وإنما كانت فضلة من القول ، وقد قال الله تعالى : « وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَاهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ » فقال له عمر : أما عذرك فقد درأ عنك الحد ، ولكن لا تعمل لي عملا أبدا وقد قلت ما قلت . وذكر الزبير بن بكار قال : حدثني مصعب بن عثمان أن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة لم يكن له هم إلا عمر بن أبي ربيعة والأحوص فكتب إلى عامله على المدينة : إني قد عرفت عمر والأحوص بالشر والخبث فإذا أتاك كتابي هذا فاشدد عليهما وأحملهما إلى . فلما أتاه الكتاب حملهما إليه ، فأقبل على عمر ، فقال : هيه !

فلم أراك تجمير منظرا ناظرا * ولا كليالي الجحافل ذاهوي

وكم مالي عيني من شيء غيره * إذا راح نحو الجمره البيض كالدمي

أما والله لو أهتممت بحبك لم تنظر إلى شيء غيرك ، فإذا لم يفلت الناس منك في هذه الأيام فمتي يفلتون ! ثم أمر بنفيه . فقال : يا أمير المؤمنين ! أواخر من ذلك ؟ فقال : ماهو ؟ قال : أعاهد الله أني لا أعود إلى مثل هذا الشعر ، ولا أذكر النساء في شعر أبدا ، وأجدد توبة ، فقال : أو تفعل ؟ قال : نعم ، فعاهد الله على توبته وخلاه ، ثم دعا بالأحوص ، فقال هيه !

الله يلني وبين قيمها * يفر مني بها وأتبع

(١) في ك : الأهل أتى الحسناء ... وفي أسد الغابة : فن مبلغ . وفي ب : الحسناء .

(٢) تجذو : تقوم على أطراف الأصابع . (٣) الجوسق : القصر ، فارسي معرب .

بل الله بين قيمها وبينك ! ثم أمر بنفيه ؛ فكلبه فيه رجال من الأنصار فأبى ، وقال : والله لأأرذه ما كان لى سلطان ، فإنه فاسق مجاهر . فهذا حكم الشعر المذموم وحكم صاحبه ، فلا يحل سماعه ولا إنشاده فى مسجد ولا غيره ، كمنثور الكلام التبيح ونحوه . وروى إسماعيل بن عيَّاش عن عبد الله بن عون عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” حَسَنُ الشَّعْرِ كَحَسَنِ الْكَلَامِ وَقَبِيحُهُ كَقَبِيحِ الْكَلَامِ ” رواه إسماعيل عن عبد الله الشَّامِ وحديثه عن أهل الشام صحيح فيما قال يحيى بن معين وغيره . وروى عبد الله ابن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” الشَّعْرُ بِمِثْلَةِ الْكَلَامِ حَسَنُهُ كَحَسَنِ الْكَلَامِ وَقَبِيحُهُ كَقَبِيحِ الْكَلَامِ ” .

الثالثة — روى مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” لَأَنَّ يَمْتَلَى جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَبِيحًا حَتَّى يَرِيَهُ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَمْتَلَى شَعْرًا ” وفى الصحيح أيضا عن أبي سعيد الخدرى قال : بينا نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عرض شاعر يُنشد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” خذوا الشيطان — أو أمسكوا الشيطان — لَأَنَّ يَمْتَلَى جَوْفُ رَجُلٍ قَبِيحًا خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلَى شَعْرًا ” قال علماءنا : وإنما فعل النبي صلى الله عليه وسلم هذا مع هذا الشاعر لما علم من حاله ؛ فلعل هذا الشاعر كان ممن قد عرف من حاله أنه قد آخذ الشعر طريقا للتكسب ، فيفرط فى المدح إذا أعطى ، وفى الهجو والذم إذا منع ، فيؤذى الناس فى أموالهم وأعراضهم . ولا خلاف فى أن من كان على مثل هذه الحالة فكل ما يكتسبه بالشعر حرام . وكل ما يقوله من ذلك حرام عليه ، ولا يحل الإصغاء إليه ، بل يجب الإنكار عليه ؛ فإن لم يمكن ذلك لمن خاف من لسانه قطعاً تعين عليه أن يداريه بما استطاع ، ويدافعه بما أمكن ، ولا يحل له أن يمطى شيئاً ابتداء ، لأن ذلك عون على المعصية ؛ فإن لم يجد من ذلك بداً أعطاه بنية وقاية العرض ؛ فما وقى به المرء عرضه كتب له به صدقة . قلت : [قوله :] ” لَأَنَّ يَمْتَلَى جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَبِيحًا حَتَّى يَرِيَهُ ” القبيح المدة بخالطها دم . يقال منه : قاح الجُرح يقيح و تقبح و قبيح . و ” يريه ” قال الأصمعى : هو من الورى على

مثال الرمي وهو أن يدوى جوفه ، يقال منه : رجل مَوْرِيّ مشدد غير مهموز . وفي الصحاح :
ورى القبيح جوفه يريه وريا إذا أكله . وأنشد البيهقي :

• قالت له ورياً إذا تنحنحاً •

وهذا الحديث أحسن ما قيل في تأويله : إنه الذي قد غلب عليه الشعر ، وأمتلاً صدره منه
دون علم سواء ولا شيء من الذكر ممن يخوض به في الباطل ، ويسلك به مسالك لا تتحمله ،
كالمكثر من اللفظ والهذر والغيبة وقبيح القول . ومن كان الغالب عليه الشعر لزمته هذه
الأوصاف المذمومة الدنية ، لحكم العادة الأدبية . وهذا المعنى هو الذي أشار إليه البخاري
في صحيحه لما بَوَّبَ على هذا الحديث « باب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر » .
وقد قيل في تأويله : إن المراد بذلك الشعر الذي هُجِيَ به النبي صلى الله عليه وسلم أو غيره .
وهذا ليس بشيء ؛ لأن القليل من هجو النبي صلى الله عليه وسلم وكثيره سواء في أنه كفر
ومذموم ، وكذلك هجو غير النبي صلى الله عليه وسلم من المسلمين محترم قليله وكثيره ، وحينئذ
لا يكون لتخصيص الذم بالكثير معنى .

الرابعة — قال الشافعي : الشعر نوع من الكلام حسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيح
الكلام ، يعني أن الشعر ليس يكره لذاته وإنما يكره لمضمّناته ، وقد كان عند العرب عظيم
الموقع . قال الأول منهم :

• وجرح اللسان بكُرح اليد •

وقال النبي صلى الله عليه وسلم في الشعر الذي يرد به حسان على المشركين : ” إنه لأُسرع
فيهم من رشق النبل ” أخرجه مسلم . وروى الترمذي وصححه عن ابن عباس أن النبي صلى الله
عليه وسلم دخل مكة في عُمره القضاء وعبد الله بن رَوَاحَة يمشي بين يديه ويقول :

خَلُّوا بَنِي الْكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ • الْيَوْمَ نَضْرِبُكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ

ضَرْبًا يَزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ • وَيُذْهِلُ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ

فقال عمر : يا بن رَوَاحَة ! في حرم الله وبين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ! فقال رسول
الله صلى الله عليه وسلم : ” خل عنه يا عمر فلهو أسرع فيهم من نضج النبل ” .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ لم يختلف القراء في رفع « وَالشُّعْرَاءُ » فيما علمت . ويجوز النصب على إضمار فعل يفسره « يَتَّبِعُهُمُ » وبه قرأ عيسى ابن عمر ؛ قال أبو عبيد : كان الغالب عليه حب النصب ؛ قرأ : « وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ » و « حَمَّالَةُ الْحَطَبِ » و « سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا » . وقرأ نافع وشيبة والحسن والسلمي : « يَتَّبِعُهُمُ » مخففا . الباقيون « يَتَّبِعُهُمُ » . وقال الضحاك : تهاجى رجلان أحدهما أنصاري والآخر مهاجري على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مع كل واحد غواة قومه وهم السفهاء فنزلت ؛ وقاله ابن عباس . وعنه هم الرواة للشعر . وروى عنه علي بن أبي طلحة أنهم هم الكفار يتبعهم ضلال الجن والإنس ؛ وقد ذكرناه . وروى غُضَيْفٌ ^(٤) عن النبي صلى الله عليه وسلم : « من أحدث هجاء في الإسلام فاقطعوا لسانه » وعن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أفتتح مكة رنَّ إبليس رنة وجمع إليه ذريته ؛ فقال آيسوا أن تريدوا أمة محمد على الشرك بعد يومكم هذا ولكن أفسحوا فيها — يعني مكة والمدينة — الشعر .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ يقول : في كل لغوي يخوضون ، ولا يتبعون سنن الحق ؛ لأن من أتبع الحق وعلم أنه يكتب عليه ما يقوله ثبت ، ولم يكن هائما يذهب على وجهه لا يبالي ما قال . نزلت في عبد الله بن الزبعرى ومُسَافِع بن عبد مناف وأمية بن أبي الصلت . ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ يقول : أكثرهم يكذبون ؛ أي يداون بكلامهم على الكرم والخير ولا يفعلونه . وقيل : إنها نزلت في أبي عزة الجمحي حيث قال :
أَلَا أَبْلَغَا عَنِّي النَّبِيَّ مُحَمَّدًا * بِأَنَّكَ حَقٌّ وَالْمَلِكُ حَمِيدٌ
وَلَكِنْ إِذَا ذُكِّرْتُ بِدَرًا وَأَهْلُهُ * تَأَوَّاهُ مَنَىٰ أعْظَمَ وَجَلُودُ

ثم استثنى شعر المؤمنين : حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وكعب بن زهير ومن كان على طريقهم من القول الحق ؛ فقال : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ في كلامهم ﴿ وَأَنْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ﴾ وإنما يكون الانتصار بالحق ،

(١) راجع ج ٦ ص ١٤٩ فإسمه . (٢) راجع ج ٢٠ ص ٢٣٩ (٣) راجع ج ١٢ ص ١٥٨

(٤) في أ : غصيف . (٥) رن : صاح صبيحة حزينة . (٦) كذا في زوب وطوك وفي أ و هـ : هائما .

وبما حده الله عز وجل ، فإن تجاوز ذلك فقد أنتصر بالباطل . وقال أبو الحسن المبرد .
لما نزلت : « وَالشُّعْرَاءُ » جاء حسان وكعب بن مالك وابن رواحة فيكون إلى النبي صلى الله
عليه وسلم ، فقالوا : يا نبي الله ! أنزل الله تعالى هذه الآية ، وهو تعالى يعلم أنا شعراء ؟ فقال :
« أَقْرَءُوا مَا بَعْدَهَا » إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ « — الآية — أتم » وَأَنْتَصَرُوا مِنْ
بَعْدِ مَا ظَلَمُوا » أتم « أى بالرد على المشركين . قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أَنْتَصَرُوا
وَلَا تَقُولُوا إِلَّا حَقًّا وَلَا تَذْكُرُوا الْآبَاءَ وَالْأُمَّهَاتِ » فقال حسان لأبي سفيان :
هجوت محمداً فأجبتُ عنه * وعند الله في ذلك الجزء
وإن أبي ووالدتي وعرضي * لعرض محمد منكم وقاء
أنشتمه ولست له بكفٍ * فشركا لخيركما الفداء
لساني صارم لا عيب فيه * وبحري لا تكدره الدلاء

وقال كعب يا رسول الله ! إن الله قد أنزل في الشعر ما قد علمت فكيف ترى فيه ؟ فقال النبي
صلى الله عليه وسلم : « إن المؤمن يجاهد بنفسه وسيفه ولسانه والذي نفسي بيده لكان
ما ترمونهم به نضح النبل » . وقال كعب :

جاءت سَخِينَةُ كى تُغَالِبَ رَهْأً * وَلَيُغَالِبَنَّ مُغَالِبُ الْغَالِبِ

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لقد مدحك الله يا كعب في قولك هذا » . وروى الضحاك
عن ابن عباس أنه قال في قوله تعالى : « وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ » منسوخ بقوله :
« إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » . قال المهدي : وفي الصحيح عن ابن عباس أنه
استثناء . (وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ) في هذا تهديد لمن أنتصر بظلم^(٢) [قال شريح]
سيعلم الظالمون كيف يخلصون من بين يدي الله عز وجل ، فالظالم ينتظر العقاب ، والمظلوم^(٢)
ينتظر النصر . وقرأ ابن عباس : « أَيُّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ » بالفاء والتاء ومعناها واحد [ذكره] النعابي .
ومعنى : « أَيُّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ » أى مصير يصيرون وأى مرجع يرجعون ؛ لأن مصيرهم إلى

(١) السخينة : طعام حار يتخذ من دقيق وسمن — وقيل من دقيق وتمر — أغلظ من الحساء وأرق من العصيدة ،
وكانت قریش تكثر من أكلها فغيرت بها حتى سما سخينة . (٢) من جوزوك .

النار، وهو أقبح مصير، ومرتجعهم إلى العقاب وهو شر مرجع . والفرق بين المنقلب والمرجع أن المنقلب الانتقال إلى ضد ما هو فيه ، والمرجع العود من حال هو فيها إلى حال كان عليها فصار كل مرجع منقلبا ، وليس كل منقلب مرجعا ؛ والله أعلم ؛ ذكره الماوردي . و « أَيْ » منصوب بـ « يَنْقَلِبُونَ » وهو بمعنى المصدر ، ولا يجوز أن يكون منصوبا بـ « سَيَعْلَمُ » لأن أيا وسائر أسماء الاستفهام لا يعمل فيها ما قبلها فيما ذكر التجويون ؛ قال النحاس : وحقيقة القول في ذلك أن الاستفهام معنى وما قبله معنى آخر فلو عمل فيه ما قبله لدخل بعض المعاني في بعض .

سورة النمل

مكية كلها في قول الجميع ، وهي ثلاث وتسعون آية . وقيل : أربع وتسعون آية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : طَسَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زِينَةً لَهُمْ أَغْمَلَهُمْ فَهُمْ يَنْغَمُّونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَمُلْقِي الْقُرْءَانِ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ مضي الكلام في الحروف المقطعة في « البقرة » وغيرها . و « تِلْكَ » بمعنى هذه ؛ أي هذه السورة آيات القرآن وآيات كتاب مبين . وذكر القرآن بلفظ المعرفة ، وقال : « وَكِتَابٍ مُبِينٍ » بلفظ النكرة وهما في معنى المعرفة ؛ كما تقول : فلان رجل عاقل وفلان الرجل العاقل . والكتاب هو القرآن ، بجمع له بين الصفتين : بأنه قرآن وأنه كتاب ؛ لأنه ما يظهر بالكتابة ، ويظهر بالقراءة . وقد مضى

اشتقاقهما في « البقرة » . وقال في سورة الحجر : « الرَّاتِلَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ^(١) » فأخرج الكتاب بلفظ المعرفة والقرآن بلفظ النكرة ؛ وذلك لأن القرآن والكتاب آسمان يصلح لكل واحد منهما أن يجعل معرفة ، وأن يجعل صفة . ووصفه بالمبين لأنه بين فيه أمره ونهيه وحلاله وحرامه ووعدته ووعيده ؛ وقد تقدم .

قوله تعالى : (هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ) « هُدًى » في موضع نصب على الحال من الكتاب ؛ أي تلك آيات الكتاب هادية ومبشرة . ويجوز فيه الرفع على الابتداء ؛ أي هو هدى . وإن شئت على حذف حرف الصفة ؛ أي فيه هدى . ويجوز أن يكون الخبر « لِلْمُؤْمِنِينَ » ثم وصفهم فقال : (الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ) وقد مضى في أول « البقرة » بيان هذا .

قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ) أي لا يصدقون بالبعث . (زِينًا لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ) قيل : أعمالهم السيئة حتى رأوها حسنة . وقيل : زيناهم أعمالهم الحسنة فلم يعملوها . وقال الزجاج : جعلنا جزاءهم على كفرهم أن زيناهم ما هم فيه . (فَهُمْ يَعْمَهُونَ) أي يترددون في أعمالهم الخبيثة ، وفي ضلالتهم . عن ابن عباس . أبو العالية : يتمادون . قتادة : يلعبون . الحسن : يتحIRON ؛ قال الرازي :

وَمَهْمِهِ أَطْرَافُهُ فِي مَهْمِهِ * أَعْمَى الْهُدَى بِالْحَاثِرِينَ الْعَمَى ^(٢)

قوله تعالى : (أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ) وهو جهنم . (وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ) . « فِي الْآخِرَةِ » تبين وليس بمتعلق بالأخسرين فإن من الناس من خسر الدنيا وربح الآخرة ، وهؤلاء خسروا الآخرة بكفرهم فهم أخسر كل خاسر .

قوله تعالى : (وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ) أي يلقي عليك فتلقاه وتعلمه وتأخذه . (مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ) « لَدُنْ » بمعنى عند إلا أنها مبنية غير معربة ؛ لأنها لا تمكن ، وفيها لغات ذكرت في « الكهف » ^(١) . وهذه الآية بساط وتمهيد لما يريد أن يسوق من الأقاصيص ، وما في ذلك من لطائف حكمته ، ودقائق علمه .

(١) راجع ج ١٠ ص ١ و ص ٣٥٢ . (٢) راجع ج ١ ص ١٦٢ .

(٣) البيت لرؤبة ، ويروي : بالجاهلين العمه .

قوله تعالى : إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنستُ نارا سَاعَتِكُمْ مِنْهَا
 بَخِيرٌ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ
 أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾
 يَمْوَسِي إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا
 تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَرَّ يُعَقِّبُ يَمْوَسِي لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ
 لَدَى الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ
 رَحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ
 ءَايَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ
 ءَايَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا
 أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُورًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ ﴾ « إِذْ » منصوب بمضمر وهو آذ كر ؛ كأنه قال
 على أثر قوله : « وَإِنَّكَ لَتَأْتِي الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ » : خذ يا محمد من آثار حكيمته وعلمه قصة
 موسى إذ قال لأهله . ﴿ إِنِّي آنستُ نارا ﴾ أى أبصرتها من بعد . قال الحرث بن حنظلة :
 آنستُ نبأةً وأفزعها القنصاصُ عصرًا وقد دنا الإمساء^(١)

﴿ سَاعَتِكُمْ مِنْهَا بَخِيرٌ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ قرأ عاصم وحمة والكسائي :
 « بِشِهَابٍ قَبَسٍ » بتنوين « شِهَابٍ » . والباقون بغير تنوين على الإضافة ؛ أى بشعلة نار ؛
 وأختره أبو عبيد وأبو حاتم . وزعم الفراء فى ترك التنوين أنه بمنزلة قولهم : ولدار الآخرة ،
 ومسجد الجامع ، وصلاة الأولى ؛ يضاف الشيء إلى نفسه إذا اختلفت أسماؤه . قال النحاس :
 إضافة الشيء إلى نفسه محال عند البصريين ، لأن معنى الإضافة فى اللغة ضم شيء إلى شيء

فحال أن يضم الشيء إلى نفسه، وإنما يضاف الشيء إلى الشيء ليتبين به معنى المملك أو النوع، فحال أن يتبين أنه مالك نفسه أو من نوعها . و « شهاب قيس » إضافة النوع والجنس ، كما تقول : هذا نوبٌ خز، وخاتمٌ حديد وشبهه . والشهاب كل ذى نور؛ نحو الكوكب والعود الموقد . والقيس اسم لما يقتبس من جمر وما أشبهه ؛ فالمعنى بشهاب من قيس . يقال . أقبست قبسا ؛ والاسم قيس . كما تقول : قبضت قبضا . والاسم القبض . ومن قرأ : « بشهاب قيس » جعله بدلا منه . المهدوى : أو صفة له ؛ لأن القيس يجوز أن يكون اسما غير صفة ، ويجوز أن يكون صفة ؛ فأما كونه غير صفة فلا نهم قالوا قبسته أقبسه قبسا والقيس المقبوس ؛ وإذا كان صفة فالأحسن أن يكون نعتا . والإضافة فيه إذا كان غير صفة أحسن . وهى إضافة النوع إلى جنسه تكاتم فضة وشبهه . ولو قرئ بنصب قيس على البيان أو الحال كان أحسن . ويجوز فى غير القرآن بشهاب قيسا على أنه مصدر أو بيان أو حال . « لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ » أصل الطاء تاء فأبدل منها هنا طاء ؛ لأن الطاء مطبقة والصاد مطبقة فكان الجمع بينهما حسنا ، ومعناه يستدفئون من البرد . يقال : أصطلى بصطلى إذا آستدنا . قال الشاعر :

النارُ فأكهةُ الشتاءِ فمن يُردُّ * أكلَ الفواكهِ شاتياً فليصطِلِ

الزجاج : كل أبيض ذى نور فهو شهاب . أبو عبيدة : الشهاب النار . قال أبو النجم :

كأنما كان شهاباً وافداً * أضاء ضوءاً ثم صار خامداً

أحمد بن يحيى : أصل الشهاب عود فى أحد طرفيه جمرة والآخر لا نار فيه ؛ وقول النحاس فيه حسن : والشهاب الشعاع المضى ومنه الكوكب الذى يمد ضوءه فى السماء . وقال الشاعر :

فى كفه صعدةٌ مثقفةٌ * فيها سنانٌ كشعلة القيس

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا ﴾ أى فلما جاء موسى الذى ظن أنه نار وهى نور ؛ قاله وهب بن منبه . فلما رأى موسى النار وقف قريباً منها ، فرآها تخرج من فرع شجرة خضراء شديدة الخضرة يقال لها العليق ، لا تزداد النار إلا عظماً وتضمر ما ، ولا تزداد الشجرة

إلا خضرة وحسنا ، فعجب منها وأهوى إليها بضغث في يده ليقبّس منها ، فمالت إليه ،
 تخافها فتأخر عنها ، ثم لم تزل تطمعه ويطمع فيها إلى أن وضع أمرها على أنها مأمورة لا يدرى
 من أمرها ، إلى أن « نُودِيَ أَنَّ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا » . وقد مضى هذا المعنى
 في « طه » . (نُودِيَ) أى ناداه الله ، كما قال : « وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ »^(١) .
 (أَنَّ بُورِكَ) قال الزجاج : « أَنَّ » في موضع نصب ، أى بأنه . قال : ويجوز أن تكون
 في موضع رفع جعلها اسم ما لم يسم فاعله . وحكى أبو حاتم أن في قراءة أبيّ وابن عباس
 ومجاهد « أن بوركت النار ومن حولها » . قال النحاس : ومثل هذا لا يوجد بإسناد صحيح ،
 ولو صح لكان على التفسير ، فتكون البركة راجعة إلى النار ومن حولها الملائكة وموسى .
 وحكى الكسائي عن العرب : باركك الله ، وبارك فيك . الثعلبي : العرب تقول باركك الله ،
 وبارك فيك ، وبارك عليك ، وبارك لك ، أربع لغات . قال الشاعر :

فبوركت مولوداً وبوركت ناشئاً * وبوركت عند الشيب إذ أنت أشيب

الطبري : قال « بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ » ولم يقل بورك [في من في] النار على لغة من يقول
 باركك الله . ويقال باركك الله ، وبارك له ، وبارك عليه ، وبارك فيه بمعنى ، أى بورك على
 من في النار وهو موسى ، أو على من في قرب النار ، لأنه كان في وسطها . وقال السدي :
 كان في النار ملائكة فالتبريك عائد إلى موسى والملائكة ، أى بورك فيك يا موسى وفي الملائكة
 الذين هم حولها . وهذا تحية من الله تعالى لموسى وتكرمة له ، كما حيا إبراهيم على ألسنة الملائكة
 حين دخلوا عليه ، قال : « رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ »^(٢) . وقول ثالث قاله ابن عباس
 والحسن وسعيد بن جبير : قُدِّسَ مَنْ فِي النَّارِ وَهُوَ اللَّهُ سبحانه وتعالى ، عني به نفسه تقدّس
 وتعالى . قال ابن عباس ومحمد بن كعب : النار نور الله عز وجل ، نادى الله موسى وهو
 في النور ، وتأويل هذا أن موسى عليه السلام رأى نوراً عظيماً فظنه ناراً ، وهذا لأن الله تعالى ظهر
 لموسى بآياته وكلامه من النار لا أنه يتخيز في جهة « وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ »^(٣)

(١) راجع ج ١١ ص ١٧٢ فابعد ص ١١٣ . (٢) الزيادة من تفسير الطبري . وفي طرك :

ولم يقل بورك على النار (٣) راجع ج ٩ ص ٧٠ . (٤) راجع ج ١٦ ص ١٢١ .

لا أنه يتخيز فيهما، ولكن يظهر في كل فعل فيعلم به وجود الفاعل . وقيل على هذا : أى بورك من فى النار سلطانه وقدرته . وقيل : أى بورك ما فى النار من أمر الله تعالى الذى جعله علامة . قلت : ومما يدل على صحة قول ابن عباس ما أخرجه مسلم فى صحيحه ، وابن ماجه فى سننه واللفظ له عن أبى موسى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” إن الله لا ينام ولا يذنبى له أن ينام ينخفض لقسط ويرفعه حجاب به النور لو كشفها لأحرقت ^(١) سُبُحات وجهه كل شئ أدركه بصره “ ثم قرأ أبو عبيدة : ” أَنَّ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ “ أخرجه البيهقي أيضا . ولفظ مسلم عن أبى موسى قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس كلمات ؛ فقال : ” إن الله عز وجل لا ينام ولا يذنبى له أن ينام ينخفض القسط ويرفعه يُرْفَعُ إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل حجابه النور — وفى رواية أبى بكر النار — لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه “ قال أبو عبيد : يقال السُّبُحات إنها جلال وجهه ، ومنها قيل : سبحان الله إنما هو تعظيم له وتزنيه . وقوله : ” لو كشفها “ يعنى لو رفع الحجاب عن أعينهم ولم يثبتهم لرؤيته لاحترقوا وما استطاعوا لها . قال ابن جرير : النار حجاب من الحجب وهى سبعة حجب ؛ حجاب العزة ، وحجاب الملك ، وحجاب السلطان ، وحجاب النار ، وحجاب النور ، وحجاب الغمام ، وحجاب الماء . وبالحقيقة المخلوق المحجوب والله لا يحجبه شئ ؛ فكانت النار نورا وإنما ذكره بلفظ النار ؛ لأن موسى حسبه نارا ، والعرب تضع أحدهما موضع الآخر . وقال سعيد بن جبير : كانت النار بعينها فاستمعته تعالى كلامه من ناحيتها ، وأظهر له ربو بيته من جهتها . وهو كما روى أنه مكتوب فى التوراة : « جاء الله من سيناء وأشرف من ساعير وأستعلى من جبال فاران » . فجيئته من سيناء بعثه موسى منها ، وإشراقه ^(٢) من ساعير بعثه المسيح منها ، وأستعلاؤه من فاران بعثه محمدا صلى الله عليه وسلم ، وفاران مكة . وسيأتى فى « القصص » ^(٣) بإسماعه سبحانه كلامه من الشجرة زيادة بيان إن شاء الله تعالى .

(١) لعل تأنيث الضمير بتأويل النور بالأنوار . (عاش ابن ماجه) .

(٢) فى ك : وأشرف وإشراقه . وهو الأشبه . (٣) راجع ص ٢٨١ من هذا الجزء .

قوله تعالى : ﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ تنزيها وتقديسا لله رب العالمين . وقد تقدم في غير موضع ، والمعنى : أى ويقول من حولها : « وَسُبْحَانَ اللَّهِ » لحذف . وقيل : إن موسى عليه السلام قاله حين فرغ من سماع النداء ؛ استعانة بالله تعالى وتنزيها له ؛ قاله السدى . وقيل : هو من قوله الله تعالى . ومعناه : وبورك فيمن سبح الله تعالى رب العالمين ؛ حكاه ابن شجرة .

قوله تعالى : ﴿ يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ الهاء عماد وليست بكناية في قول الكوفيين . والصحيح أنها كناية عن الأمر والشأن . « أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ » الغالب الذى ليس كمثل شئ « الْحَكِيمُ » فى أمره وفعله . وقيل : قال موسى يارب من الذى نادى ؟ فقال له : « إِنَّهُ » أى أنى أنا المنادى لك « أَنَا اللَّهُ » .

قوله تعالى : ﴿ وَأَتَىٰ عَصَاكَ ﴾ قال وهب بن منبه : ظن موسى أن الله أمره أن يرفضها فرفضها . وقيل : إنما قال له ذلك ليعلم موسى أن المكلم له هو الله ، وأن موسى رسوله ؛ وكل نبي لا بد له من آية فى نفسه يعلم بها نبوته . وفى الآية حذف : أى وأتى عصاك فألقاها من يده فصارت حية تهتر كأنها جان ، وهى الحية الخفيفة الصغيرة الجسم . وقال الكلبي : لاصغيرة ولا كبيرة . وقيل : إنها قلبت له أولا حية صغيرة فلما أنس منها قلبت حية كبيرة . وقيل : أنقلب مرة حية صغيرة ، ومرة حية تسمى وهى الأنتى ، ومرة ثعبانا وهو الذكر الكبير من الحيات . وقيل : المعنى أنقلب ثعبانا تهتر كأنها جان لها عظم الثعبان وخفة الجان وأهترازه وهى حية تسمى . وجمع الجان جنان ؛ ومنه الحديث ” نهى عن قتل الجنان التى فى البيوت “ . ﴿ وَلَىٰ مُدِيرًا ﴾ خائفا على عادة البشر ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ أى لم يرجع ؛ قاله مجاهد . وقال قتادة : لم يلتفت . ﴿ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ ﴾ أى من الحية وضررها . ﴿ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَىٰ الْمُرْسَلُونَ ﴾ وتم الكلام ثم استثنى استثناء منقطعا فقال : ﴿ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ﴾ . وقيل : إنه استثناء من محذوف ؛ والمعنى : إني لا يخاف لدى المرسلون وإنما يخاف غيرهم ممن ظلم ﴿ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ ﴾ فإنه لا يخاف ؛ قاله الفراء .

قال النحاس : استثناء من محذوف محال ؛ لأنه استثناء من شيء لم يذكر ولو جاز هذا لجاز
إني لأضرب القوم إلا زيدا بمعنى إني لا أضرب القوم وإنما أضرب غيرهم إلا زيدا ؛ وهذا
ضدّ البيان ، والمجىء بما لا يعرف معناه . وزعم الفراء أيضا : أن بعض النحويين يجعل
إلا بمعنى الواو أى ولا من ظلم ؛ قال :

وكلُّ أخٍ مفارقة أخوه * لعمرك إنيك إلا الفرقدان

قال النحاس : وكون « إلا » بمعنى الواو لا وجه له ولا يجوز في شيء من الكلام ، ومعنى
« إلا » خلاف الواو ؛ لأنك إذا قلت : جاءني إخوتك إلا زيدا أخرجت زيدا مما دخل
فيه الإخوة فلا نسبة بينهما ولا تقارب . وفي الآية قول آخر : وهو أن يكون الاستثناء
متصلا ؛ والمعنى إلا من ظلم من المرسلين بإتيان الصغائر التي لا يسلم منها أحد ، سوى ما روى
عن يحيى بن زكريا عليه السلام ، وما ذكره الله تعالى في نبينا عليه السلام في قوله : « لِيَغْفِرَ
لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ ^(١) وَمَا تَأَخَّرَ » ذكره المهدي وأخبره النحاس ؛ وقال : عليم الله من
عصى منهم [يسر الخيفة ^(٢)] فاستثناه فقال : « إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء » فإنه يخاف
وإن كنت قد غفرت له . الضحاك : يعنى آدم وداود عليهما السلام . الزمخشري : كالذى
فرط من آدم ويونس وداود وسليمان وإخوة يوسف ، ومن موسى عليه السلام بوكزه القبطى .
فإن قال قائل : فما معنى الخوف بعد التوبة والمغفرة ؟ قيل له : هذه سبيل العلماء بالله
عز وجل أن يكونوا خائفين من معاصيهم وجليل ، وهم أيضا لا يأمنون أن يكون قد بقى من
أشراط التوبة شيء لم يأتوا به ، فهم يخافون من المطالبة به . وقال الحسن وأبن جريح :
قال الله لموسى إني أخفك لقتلك النفس . قال الحسن : وكانت الأنبياء تذب فتعاقب .
قال الثعلبي والقشيري والمساوردي وغيرهم : فالاستثناء على هذا صحيح ؛ أى إلا من ظلم نفسه من
النبين والمرسلين فيما فعل من صغيرة قبل النبوة . وكان موسى خاف من قتل القبطى وتاب منه .
وقد قيل : إنهم بعد النبوة معصومون من الصغائر والكبائر . وقد مضى هذا في « البقرة » ^(٣) .

(١) راجع ج ١٦ ص ٢٦١ فابعد . (٢) الزيادة من « إعراب القرآن » للنحاس .

(٣) راجع ج ١ ص ٣٠٨ فابعد .

قلت : والأول أصح لتصلهم من ذلك في القيامة كما في حديث الشفاعة ، وإذا أحدث المقرب حدثاً فهو وإن غفر له ذلك الحدث فإثر ذلك الحدث باق ، وما دام الأثر والتهمة قائمة فالخوف كائن لا خوف العقوبة ولكن خوف العظمة ، والمتهم عند السلطان يجند للتهمة حرازة تؤديه إلى أن يكدر عليه صفاء الثقة . وموسى عليه السلام قد كان منه الحدث في ذلك الفرعوني ، ثم استغفر وأقر بالظلم على نفسه ، ثم غفر له ، ثم قال بعد المغفرة : « رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ ^(١) » ثم آبتلى من الغد بالفرعوني الآخر وأراد أن يبطش به ، فصار حدثاً آخر بهذه الإرادة . وإنما آبتلى من الغد لقوله : « فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ » وتلك كلمة آفتدار من قوله لن أفعل ، فعوقب بالإرادة حين أراد أن يبطش ولم يفعل ، فسلط عليه الإسرائيلي حتى أفشى سره ؛ لأن الإسرائيلي لما رآه تسمم للبطش ظن أنه يريد ، فافشى عليه فـ « قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ » فهرب الفرعوني وأخبر فرعون بما أفشى الإسرائيلي على موسى ، وكان القتل بالأمس مكتوماً أمره لا يدرى من قتله ، فلما علم فرعون بذلك ، وجه في طلب موسى ليقطله ، وأشدت الطلب وأخذوا مجامع الطرق ؛ جاء رجل يسعى فـ « قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ » الآية . فخرج كما أخبر الله . نخوف موسى إنما كان من أجل هذا الحدث ؛ فهو وإن قتر به وأكرمه وأصطفاه بالكلام فالتهمة الباقية ولت به . يلم يعقب .

قوله تعالى : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ تقدم في « طه » القول فيه . ﴿ فِي تِسْعِ آيَاتٍ ﴾ قال النحاس أحسن ما قيل فيه أن المعنى : هذه الآية داخلة في تسع آيات . المهدوى : المعنى : « أَلْقِ عَصَاكَ » « وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ » فهما آيتان من تسع آيات . وقال القشيري معناه : كما تقول خرجت في عشرة نفر وأنت أحدهم . أى خرجت عاشر عشرة . فـ « نَحْيَ » بمعنى « مَنْ » لقربها منها كما تقول خذ لي عشرة من الإبل فيها فحلان أى منها . وقال الأصمعي في قول امرئ القيس :

وهل يتعمن من كان آخر عهده * ثلاثين شهراً في ثلاثة أحوال ^(٢)

(١) راجع ص ٢٦٢ من هذا الجزء . (٢) راجع ج ١١ ص ١٩١ . (٣) وفي رواية : « وهل يعن » .

في بمعنى من . وقيل : في بمعنى مع ؛ فالآيات عشرة منها اليد ، والتسع : الفلق والعصا والجراد والقمل والطوفان والدم والضفادع والسنين والطمس^(١) . وقد تقدم بيان جميعه .
 ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾ قال الفراء : في الكلام إضمار لدلالة الكلام عليه ، أى إنك مبعوث أو مرسل إلى فرعون وقومه . ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أى خارجين عن طاعة الله ؛ وقد تقدم :

قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً﴾ أى واضحة بينة . قال الأخفش : ويجوز مبصرة وهو مصدر كما يقال : الولد مجبنة . ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ جروا على عادتهم في التكذيب فلهذا قال : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ أى تيقنوا أنها من عند الله وأنها ليست سحرا ، ولكنهم كفروا بها وتكبروا أن يؤمنوا بموسى . وهذا يدل على أنهم كانوا معاندين . و « ظُلْمًا » و « عُلُوًّا » منصوبان على نعت مصدر محذوف ، أى وجحدوا بها بجحودا ظلما وعلوا . والباء زائدة أى وجحدوها ؛ قاله أبو عبيدة . ﴿فَأَنْظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أى آخر أمر الكافرين الطاغين ، أنظر ذلك بعين قلبك وتدبر فيه . الخطاب له والمراد غيره .

قوله تعالى : وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَبْنَئُهَا النَّاسُ عَلَيْنَا مِنْ طَائِفٍ مِّنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾ أى فهما ؛ قاله قتادة . وقيل : علما بالدين والحكم وغيرهما كما قال : « وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ » . وقيل : صنعة الكيمياء . وهو شاذ . وإنا الذى آتاهما الله النبوة والخلافة فى الأرض والزبور . « وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ

(١) الطمس : طمس الشيء ، إذهابه عن صورته . وقد صير الله أموالهم ودرامهم حجارة . راجع ج ٨ ص ٣٧٤ .

(٢) راجع ج ١١ ص ٨٠ .

الَّذِي فَضَّلْنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ » وفي الآية دليل على شرف العلم وإتافه محله وتقدم حملته وأهله ، وأن نعمة العلم من أجل النعم وأجل القسَم ، وأن من أوتيها فقد أوتي فضلا على كثير من عباد الله المؤمنين . « يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ » ^(١) . وقد تقدم هذا في غير موضع .

قوله تعالى : (وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ) قال الكلبي : كان لداود صلى الله عليه وسلم تسعة عشر ولدا فورث سليمان من بينهم نبوته ومملكه ، ولو كان وراثته مال لكان جميع أولاده فيه سواء ، وقاله ابن العربي ؛ قال : فلو كانت وراثته مال لانقسمت على العدد ؛ فخص الله سليمان بما كان لداود من الحكمة والنبوة ، وزاده من فضله ملكا لا ينبغي لأحد من بعده . قال ابن عطية : داود من بنى إسرائيل وكان ملكا وورث سليمان مملكه ومزله من النبوة ، بمعنى صار إليه ذلك بعد موت أبيه فسمى ميراثا تجوزا ؛ وهذا نحو قوله : « العلماء ورثة الأنبياء » ويحتمل قوله عليه السلام : « إنا معشر الأنبياء لا نورث » أن يريد أن ذلك من فعل الأنبياء وسيرتهم ، وإن كان فيهم من ورث ماله كزكرياء على أشهر الأقوال فيه ؛ وهذا كما تقول : إنا معشر المسلمين إنما شغلتنا العبادة ، والمراد أن ذلك فعل الأكثر . ومنه ما حكى سيبويه : إنا معشر العرب أقرى الناس للضيف .

قلت : قد تقدم هذا المعنى في « مريم » ^(٢) وأن الصحيح القول الأول لقوله عليه السلام : « إنا معشر الأنبياء لا نورث » فهو عام ولا يخرج منه شيء إلا بدليل . قال مقاتل : كان سليمان أعظم ملكا من داود وأقضى منه ، وكان داود أشد تعبدا من سليمان . قال غيره : ولم يبلغ أحد من الأنبياء ما بلغ مملكه ؛ فإن الله سبحانه وتعالى سخر له الإنس والجن والطير والوحش ، وآتاه ما لم يؤت أحدا من العالمين ، وورث أباه في الملك والنبوة ، وقام بعده بشريعته ، وكل نبي جاء بعد موسى ممن بعث أو لم يبعث فإنما كان بشريعة موسى ، إلى أن بعث المسيح عليه السلام فنسخها . وبينه وبين الهجرة نحو من ألف وثمانمائة سنة . واليهود تقول ألف

(١) راجع ج ١٧ ص ٢٩٦ فابعد . (٢) راجع ج ١١ ص ٨١ فابعد .

وثلاثمائة وأثنان وستون سنة . وقيل : إن بين موته وبين مولد النبي صلى الله عليه وسلم نحواً من ألف وسبعمائة ، واليهود تنقص منها ثلاثمائة سنة ، وعاش نيفاً وخمسين سنة .

قوله تعالى : « وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ » أى قال سليمان لبني إسرائيل على جهة الشكر لنعم الله « عَلَّمَنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ » أى تفضل الله علينا على ما ورثنا من داود من العلم والنبوة والخلافة فى الأرض فى أن فهمنا من أصوات الطير المعانى التى فى نفوسها . قال مقاتل فى الآية : كان سليمان جالسا ذات يوم إذ مرّ به طائر يطوف ، فقال بحسائه : أتدرون ما يقول هذا الطائر؟ إنها قالت لى : السلام عليك أيها الملك المسلط والنبي لبني إسرائيل ! أعطاك الله الكرامة ، وأظهرك على عدوك ، إني منطلق إلى أفرانخي ثم أمرت بك الثانية ؛ وإنه سيرجع إلينا الثانية ثم رجع ؛ فقال إنه يقول : السلام عليك أيها الملك المسلط ، إن شئت أن أأذن لى كيما أكنسب على أفرانخي حتى يشبوا ثم آتيك فافعل بى ما شئت . فأخبرهم سليمان بما قال ؛ وأذن له فانطلق . وقال فرقد السبّخي : مرّ سليمان على بلبل فوق شجرة يحرك رأسه ويميل ذنبه ، فقال لأصحابه : أتدرون ما يقول هذا البلبل ؟ قالوا لا يا نبي الله . قال إنه يقول : أكلت نصف ثمرة فعلى الدنيا العفاء . ومرّ بهدود فوق شجرة وقد نصب له صبيّ فخا فقال له سليمان : أحذريا هدهد ! فقال : يا نبي الله ! هذا صبيّ لا عقل له فأنا أسخر به . ثم رجع سليمان فوجده قد وقع فى حباله الصبيّ وهو فى يده ، فقال : هدهد ما هذا ؟ قال : ما رأيته حتى وقعت فيها يا نبي الله . قال : ويحك ! فانت ترى الماء تحت الأرض أما ترى الفخ ! قال : يا نبي الله إذا نزل الغضاء عمى البصر . وقال كعب . صاح ورّشان عند سليمان ابن داود ، فقال : أتدرون ما يقول ؟ قالوا : لا . قال إنه يقول : لدوا للموت وآبنوا للخراب . وصاحت فاختة ، فقال : أتدرون ما تقول ؟ قالوا : لا . قال إنها تقول : ليت هذا الخلق لم يُخلقوا وليتهم إذ خُلقوا علموا لما إذا خُلقوا . وصاح عنده طاوس ، فقال : أتدرون ما يقول ؟ قالوا : لا . قال إنه يقول : كما تدين تدان . وصاح عنده هدهد ، فقال : أتدرون ما يقول ؟ قالوا : لا . قال إنه يقول : من لا يرحم لا يرحم . وصاح صرد عنده ، فقال : أتدرون ما يقول ؟

قالوا : لا . قال إنه يقول : استغفروا الله يا مذبذبين ؛ فمن ثم نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتله . وقيل : إن الصُّرْد هو الذى دلَّ آدم على مكان البيت . وهو أول من صام ؛ ولذلك يقال للصُّرْد الصَّوَام ؛ روى عن أبي هريرة . وصاحت عنده طيطوى فقال : أتدرون ما تقول ؟ قالوا : لا . قال إنها تقول : كل حى ميت وكل جديد بال . وصاحت خُطَّانة عنده ، فقال : أتدرون ما تقول ؟ قالوا : لا . قال إنها تقول : قدموا خيرا تجدوه ؛ فمن ثم نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتلها . وقيل : إن آدم خرج من الجنة فاشتكى إلى الله الوحشة ، فأنسه الله تعالى بالخطاف والزمها البيوت ، فهى لا تفارق بنى آدم أنساً لهم . قال : ومعها أربع آيات من كتاب الله عز وجل : « لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ^(١) إِلَى آخِرِهَا وَاثِقًا صَوْتًا بِقَوْلِهِ « الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » . وهدرت حمامة عند سليمان فقال : أتدرون ما تقول ؟ قالوا : لا . قال إنها تقول : سبحان ربى الأعلى عدد ما فى سمواته وأرضه . وصاح قُمرى عند سليمان ، فقال : أتدرون ما يقول ؟ قالوا : لا . قال إنه يقول : سبحان ربى العظيم المهيمن . وقال كعب : وحدثهم سليمان ، فقال الغراب يقول : اللهم ألعن العشارى والحدأة تقول : « كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ » . والقطاة تقول : من سكت سليم . والبيغاء تقول : ويل لمن الدنيا همه . والضفدع يقول : سبحان ربى القدوس . والبايزى يقول : سبحان ربى وبجده . والسرطان يقول : سبحان المذكور بكل لسان فى كل مكان .

وقال مكحول : صاح دُرَّاج عند سليمان ، فقال : أتدرون ما يقول ؟ قالوا : لا . قال إنه يقول : « الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى » . وقال الحسن قال النبى صلى الله عليه وسلم : "الديك إذا صاح قال أذكروا الله يا غافلين" . وقال الحسن بن على بن أبى طالب قال النبى صلى الله عليه وسلم : "النسر إذا صاح قال يا بن آدم عِشْ مَا شِئْتَ فَآخِرُكَ الْمَوْتُ وَإِذَا صَاحَ الْعُقَابُ قَالَ فِي الْبَعْدِ مِنَ النَّاسِ الرَّاحَةُ وَإِذَا صَاحَ الْقُنْبَرُ قَالَ إِلَهَى أَلْعَنُ مَبْغِضَى آلِ مُحَمَّدٍ وَإِذَا صَاحَ الْخُطَّافُ قَرَأَ : « الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » إِلَى آخِرِهَا فَيَقُولُ : « وَلَا الضَّالِّينَ » ويمد بها صوته كما يمد الفارئ" . قال قتادة والشعبي : إنما هذا الأمر فى الطير خاصة ، لقوله : « عَلَّمَنَا

مَنْطِقَ الطَّيْرِ » والنملة طائر إذ قد يوجد له أجنحة . قال الشعبي : وكذلك كانت هذه النملة ذات جناحين . وقالت فرقة : بل كان في جميع الحيوان ، وإنما ذكر الطير لأنه كان جنداً من جند سليمان يحتاجه في التظليل عن الشمس وفي البعث في الأمور فخص بالذكر لكثرة مداخلته ؛ ولأن أمر سائر الحيوان نادر وغير متردد ترداد أمر الطير . وقال أبو جعفر النحاس : والمنطق قد يقع لما يفهم بغير كلام ، والله جل وعز أعلم بما أراد . قال ابن العربي : من قال إنه لا يعلم إلا منطق الطير فنقصان عظيم ، وقد آتفق الناس على أنه كان يفهم كلام من لا يتكلم ويخلق له فيه القول من النبات ، فكان كل نبت يقول له : أنا شجر كذا ، أنفع من كذا وأضر من كذا ؛ فما ظنك بالحيوان .

قوله تعالى : وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ

فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ ﴾ « حُشِرَ » جُمِعَ والحشر الجمع ومنه قوله عز وجل : « وَحُشِرْنَا هُمْ فَلَمْ نَفْعِدْ مِنْهُمْ أَحَدًا » ^(١) واختلف الناس في مقدار جند سليمان عليه السلام ؛ فيقال : كان معسكره مائة فرسخ في مائة : خمسة وعشرون للجن ، وخمسة وعشرون للإنس ، وخمسة وعشرون للطير ، وخمسة وعشرون للوحش ، وكان له ألف بيت من فوارير على الخشب فيها ثلاثمائة منكوبة وسبعمائة سيرية . ابن عطية : واختلف في معسكره ومقدار جنده اختلافاً شديداً غير أن الصحيح أن ملكه كان عظيماً ملاً الأرض ، وأنقادت له المعمورة كلها . ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ معناه يُرَدُّ أولهم إلى آخرهم وَيُكَفَّونَ . قال قتادة : كان لكل صنف وزعة في رتبته ومواضعهم من الكرسي ومن الأرض إذا مشوا فيها . يقال : وزعته أوزعه وزعاً أى كففته . والوازع في الحرب الموكل بالصفوف يزع من تقدم منهم . روى محمد بن إسحق عن أسماء بنت أبي بكر قالت : لما وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بذي طوى — تبنى

يوم الفتح — قال أبو خفاة وقد كُفَّ بصره يومئذ لأبنته : أظهرى بنى على أبى قُبَيْس .
 قالت : فاشرفت به عليه فقال : ما ترين ؟ قالت : أرى سوادا مجتمعا . قال تلك الخيل .
 قالت وأرى رجلا من السواد مقبلا ومدبرا . قال : ذلك الوازع يمنعها أن تنتشر . وذكر
 تمام الخبر . ومن هذا قوله عليه السلام : ” ماروى الشيطان يوما هو فيه أصغر ولا أدر
 ولا أحقر ولا أغيط منه في يوم عرفة وما ذاك إلا لما رأى من أنزل الرحمة وتجاوز الله عن
 الذنوب العظيم إلا ما رأى يوم بدر “ قيل : وما رأى يا رسول الله ؟ قال : ” أما أنه رأى
 جبريل يزع الملائكة “ أخرجه الموطأ . ومن هذا المعنى قول النابغة :

على حين عاتبت المشيب على الصبا * وقت المأصح والشيب وازع

آخر :

ولما تلاقينا جرت من جفوننا * دموع وزعنا غرهبها بالأصابع

آخر :

ولا يزع النفس اللجوج عن الهوى * من الناس إلا وافر العقل كامله

وقيل : هو من التوزيع بمعنى التفريق . والقوم أوزاع أى طوائف . وفي القصة : إن
 الشياطين نسجت له بساطا فرسحا في فرسخ ذهبا في إبريسم ، وكان يوضع له كرسي من ذهب
 وحوله ثلاثة آلاف كرسي من ذهب وفضة فيقعد الأنبياء على كراسي الذهب ، والعلماء على
 كراسي الفضة .

الثانية — في الآية دليل على اتخاذ الإمام والحكام وزعة يكفون الناس ويمنعونهم
 من تناول بعضهم على بعض ؛ إذ لا يمكن الحكام ذلك بأنفسهم . وقال ابن عون : سمعت
 الحسن يقول وهو في مجلس قضائه لما رأى ما يصنع الناس قال : والله ما يصلح هؤلاء الناس
 إلا وزعة . وقال الحسن أيضا : لا بد للناس من وازع ؛ أى من سلطان يكفهم . وذكر
 ابن القاسم قال حدثنا مالك أن عثمان بن عفان كان يقول : ما يزع الإمام أكثر مما يزع القرآن ؛
 أى من الناس . قال ابن القاسم : قلت لمالك ما يزع ؟ قال : يكف . قال القاضي أبو بكر
 ابن العربي : وقد جهل قوم المراد بهذا الكلام ، فظنوا أن المعنى فيه أن قدرة السلطان تردع

الناس أكثر مما تردعهم حدود القرآن وهذا جهل بالله وحكمته . قال : فإن الله ما وضع الحدود إلا مصلحة عامة كافة قائمة لقوام الخلق ، لا زيادة عليها ، ولا نقصان معها ، ولا بصاح سواها ، ولكن الظلمة خاسوا بها ، وقصروا عنها ، وأتوا ما أتوا بغير نية ، ولم يقصدوا وجه الله في القضاء بها ، فلم يرتدع الخلق بها ، ولو حكموا بالعدل ، وأخلصوا النية ، لاستقامت الأمور ، وصلح الجمهور .

قوله تعالى : **حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمُنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾**

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : **(حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ)** قال قتادة : ذكر لنا أنه واد بأرض الشام . وقال كعب : هو بالطائف . **(قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأَيُّهَا النَّمْلُ)** قال الشعبي : كان للنملة جناحان فصارت من الطير ، فلذلك علم منطقها ولولا ذلك لما علمه . وقد مضى هذا ويأتي . وقرأ سليمان التيمي بمكة : « نَمْلَةٌ » و « النَّمْلُ » بفتح النون وضم الميم . وعنه أيضا ضمهما جميعا . وسميت النملة نملة لتعملها وهو كثرة حركتها وقلة قرارها . قال كعب : مرّ سليمان عليه السلام بوادي السدير من أودية الطائف ، فأتى على وادي النمل ، فقامت نملة تمشي وهي عرجاء تتكاوس مثل الذئب في العظم ، فنادت : « يَأَيُّهَا النَّمْلُ » الآية . الزنجشري : سمع سليمان كلامها من ثلاثة أميال ، وكانت تمشي وهي عرجاء تتكاوس ، وقيل : كان اسمها طاخية . وقال السهيلي : ذكروا اسم النملة المسكّمة لسليمان عليه السلام ، وقالوا اسمها حرميا ، ولا أدرى كيف يتصور للنملة اسم علم والنمل لا يسمى بعضهم بعضا ، ولا الآدميون يسمونهم تسمية

واحدة منهم باسم عَلم، لأنه لا يتميز للآدميين بعضهم من بعض، ولا هم أيضا واقعون تحت ملكة بنى آدم كالخيل والكلاب ونحوها، فإن العلمية فيما كان كذلك موجودة عند العرب. فإن قلت: إن العلمية موجودة في الأجناس كثعلبة وأسامة وجعار وقثام في الضبع ونحو هذا كثير، فليس أسم الثعلب من هذا؛ لأنهم زعموا أنه اسم علم للثعلب واحدة معينة من بين سائر الثعلب، وثعلبة ونحوه لا يختص بواحد من الجنس، بل كل واحد رأته من ذلك الجنس فهو ثعلبة، وكذلك أسامة وأبن آوى وأبن عرس وما أشبه ذلك. فإن صح ما قالوه فله وجه، وهو أن نكون هذه الثعلبة الناطقة قد سميت بهذا الاسم في التوراة أو في الزبور أو في بعض الصحف سماها الله تعالى بهذا الاسم، وعرفها به الأنبياء قبل سليمان أو بعضهم. وخصت بالتسمية لنطقها وإيمانها فهذا وجه. ومعنى قولنا بإيمانها أنها قالت للنمل: ﴿لَا يَخِطُّمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فقولها: «وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» التفاتة مؤمن. أى من عدل سليمان وفضله وفضل جنوده لا يخبطون ثعلبة فما يؤمها إلا بالآ لا يشعروا. وقد قيل: إن تبسم سليمان سرور بهذه الكلمة منها؛ ولذلك أكد التبسم بقوله: «ضَاحِكًا» إذ قد يكون التبسم من غير ضحك ولا رضا، ألا تراهم يقولون تبسم تبسم الغضبان وتبسم تبسم المستهزئين. وتبسم الضحك إنما هو عن سرور، ولا يُسرّ نبى بأمر دنيا؛ وإنما سرّ بما كان من أمر الآخرة والدين. وقولها: «وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» إشارة إلى الدين والعدل والرأفة. ونظير قول الثعلبة في جند سليمان: «وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» قول الله تعالى في جند محمد صلى الله عليه وسلم: «فَتَضَيِّقُكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَةٌ يُبَيِّرُ عِلْمٌ»^(١). التفاتنا إلى أنهم لا يقصدون هدر مؤمن. إلا أن المثني على جند سليمان هي الثعلبة بإذن الله تعالى، والمثني على جند محمد صلى الله عليه وسلم هو الله عز وجل بنفسه؛ لما لجنود محمد صلى الله عليه وسلم من الفضل على جند غيره من الأنبياء؛ كما لمحمد صلى الله عليه وسلم فضل على جميع النبيين صلى الله عليهم وسلم أجمعين. وقرأ شهر بن حوشب: «مَسْكَنَكُمْ» يسكنون السنين على الأفراد. وفي مصحف أبي: «مَسَاكِنُ لَا يَخِطُّمَنَّكُمْ». وقرأ سليمان التيمي: «مَسَاكِنُكُمْ لَا يَخِطُّمَنَّكُمْ» ذكره النحاس؛ أى لا يكسر نكم بوطئهم عليكم وهم لا يعلمون بكم

قال المهدوي : وأفهم الله تعالى النملة هذا لتكون معجزة لسليمان . وقال وهب : أمر الله تعالى الريح ألا يتكلم أحد بشيء إلا طرحته في سمع سليمان ؛ بسبب أن الشياطين أرادت كيدته . وقد قيل : إن هذا الوادي كان ببلاد اليمن وأنها كانت نملة صغيرة مثل النمل المعتاد قاله الكلبي . وقال نوف الشامي وشقيق بن سلمة : كان نمل ذلك الوادي كهيئة الذئاب في العظم . وقال بريدة الأسلمي : كهيئة النعاج . قال محمد بن علي الترمذي : فإن كان على هذه الحلقة فلها صوت ، وإنما آفتقد صوت النمل لصغر خلقها ، وإلا فالأصوات في الطيور والبهائم كائنة ، وذلك منطقهم ، وفي تلك المناطق معاني التسبيح وغير ذلك ، وهو قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا لَيْسَ حُجَّتُهُ بِجَدِّهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ^(١) » .

قلت : وقوله « لَا يَحِطُّمَنَّكُمْ » يدل على صحة قول الكلبي ؛ إذ لو كانت كهيئة الذئاب والنعاج لما حطمت باوطء ؛ والله أعلم . وقال : « أَدْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ » بغاء على خطاب الآدميين لأن النمل هاهنا أجرى مجرى الآدميين حين نطق كما ينطق الآدميون . قال أبو إسحق الثعلبي : ورأيت في بعض الكتب أن سليمان قال لها لم حذرت النمل ؟ أخفت ظاهي ؟ أما علمت أني نبي ؟ فلم قلت « يَحِطُّمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ » فقالت النملة : أما سمعت قولي : « وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » مع أني لم أرد حطم النفوس ، وإنما أردت حطم القلوب خشية أن يتمن مثل ما أعطيت ، أو يفتتن بالدنيا ، ويشغلن بالنظر إلى ملكك عن التسبيح والذكر . فقال لها سليمان : عطيني . فقالت النملة : أما علمت لم سمي أبوك داود ؟ قال : لا . قالت : لأنه داوى جراحة فؤاده ؛ هل علمت لم سمي سليمان ؟ قال : لا . قالت : لأنك سليم الناحية على ما أوتيته بسلامة صدرك ، وإن لك أن تلحق بأبيك ^(٢) . ثم قالت : أنتدري لم سخر الله لك الريح ؟ قال : لا . قالت : أخبرك أن الدنيا كلها ريح . ^(٣) فَتَبَسَّمَ صَاحِبُهَا مِنْ قَوْلِهَا) متعجبا ثم مضت مسرعة إلى قومها ، فقالت : هل عندكم من شيء نهديه إلى

(١) راجع ج ١٠ ص ٢٦٦ فابعد . (٢) العبارة في « قصص الأنبياء » للثعلبي : « قالت لأنك

سليم ركنت إلى ما أوتيت بسلامة صدرك ، وحق لك أن تلحق بأبيك دارد .

نبي الله ؟ قالوا : وما قدر ما نهدي له ! والله ما عندنا إلا نبقة واحدة . قالت : حسنة ؛ آيتوني بها . فأتوها بها فحملتها بفيها فانطلقت تجرها ، فأمر الله الريح فحملتها ، وأقبلت تشق الأنس والجن والعلماء والأنبياء على البساط ، حتى وقعت بين يديه ، ثم وضعت تلك النبقة من فيها في كفه ، وأنشأت تقول :

ألم ترنا نُهْدِي إلى الله مَالَهُ * وإن كان عنه ذاغنى فهو قابله
ولو كان يُهْدَى للجليل بقدره * لقصر عنه البحر يوماً وساحله
ولكننا نُهْدِي إلى من نُحِبُّه * فيرضى به عنا ويشكر فاعله
وما ذاك إلا من كريم فعاله * وإلا فما في ملكنا ما يشاكلة

فقال لها : بارك الله فيكم ؛ فهم بتلك الدعوة أشكر خلق الله وأكثر خلق الله . وقال ابن عباس : نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل أربع من الدواب : الهدهد والضرد والنملة والنحلة ؛ نخرجه أبو داود وصححه أبو محمد عبد الحق وروى من حديث أبي هريرة . وقد مضى في « الأعراف »^(١) . فالنملة أثنت على سليمان وأخبرت بأحسن ما تقدر عليه بأنهم لا يشعرون إن حطموكم ، ولا يفعلون ذلك عن عمد منهم ، فنفت عنهم الجور ؛ ولذلك نهى عن قتلها ، وعن قتل الهدهد ؛ لأنه كان دليلاً سليمان على الماء ورسوله إلى بلقيس . وقال عكرمة : إنما صرف الله شر سليمان عن الهدهد لأنه كان باراً بوالديه . والضرد يقال له الصوام . وروى عن أبي هريرة قال : أول من صام الضرد ولما نخرج إبراهيم عليه السلام من الشام إلى الحرم في بناء البيت كانت السكينة معه والضرد ، فكان الضرد دليلاً على الموضع والسكينة مقداره ، فلما صار إلى البقعة وقعت السكينة على موضع البيت ونادت وقالت : آبن يا إبراهيم على مقدار ظلي . وقد تقدم في « الأعراف »^(٢) سبب النهي عن قتل الضفدع وفي « النحل »^(٣) النهي عن قتل النحل . والحمد لله .

(١) راجع ج ٧ ص ٢٧٠ .

(٢) السكينة : سحابة كافي القصة . وفي حديث علي رضي الله عنه إن السكينة ريح سريعة الممر . وليس بواضح .

(٣) راجع ج ١٠ ص ١٣٤ .

الثانية — قرأ الحسن : « لَا يَحْطَمَنَّكُمْ » وعنه أيضا « لَا يَحْطَمَنَّكُمْ » وعنه أيضا وعن أبي رجا : « لَا يَحْطَمَنَّكُمْ » والْحَطْمُ الكسر . حطمته حَطًّا أى كسرتة وَتَحَطَّم ؛ والتَّحْطِيمُ التَّكْسِيرُ ، « وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » يجوز أن يكون حالا من سليمان وجنوده ، والعامل في الحال « يَحْطَمَنَّكُمْ » . أو حالا من النملة والعامل « قَالَتْ » : أى قالت ذلك في حال غفلة الجنود ؛ كقولك : قمت والناس غافلون . أو حالا من النمل أيضا والعامل « قَالَتْ » على أن المعنى : والنمل لا يشعرون أن سليمان يفهم مقالتها . وفيه بعد وسيأتى .

الثالثة — روى مسلم من حديث أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " أن نملة قرصت نبيا من الأنبياء فأمر بقرية النمل فأحرقت فأوحى الله تعالى إليه أفي أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح " وفي طريق آخر : " فهلا نملة واحدة " . قال علماءنا : يقال إن هذا النبي هو موسى عليه السلام ، وإنه قال : يا رب تعذب أهل قرية بمعاصيهم وفيهم الطائع . فكأنه أحب أن يريه ذلك من عنده ، فسأط عليه الحز حتى ألجأ إلى شجرة مستروحا إلى ظلها ، وعندها قرية النمل ، فغلبه النوم ، فلما وجد لذة النوم لدغته النملة فأضجرتة ، فدلكتها فقدمه فأهلكته ، وأحرق تلك الشجرة التي عندها مساكنهم ، فأراه الله العبرة في ذلك آية : لما لدغتك نملة فكيف أصبت الباقيين بعقوبتها ! يريد أن ينبهه أن العقوبة من الله تعالى تعم فتصير رحمة على المطيع وطهارة وبركة ، وشرا ونقمة على العاصي . وعلى هذا فليس في الحديث ما يدل على كراهة ولا حظير في قتل النمل ؛ فإن من آذاك حل لك دفعه عن نفسك ، ولا أحد من خلقه أعظم حرمة من المؤمن ، وقد أبيع لك دفعه عنك بقتل وضرب على المقدار ، فكيف بالهوام والدواب التي قد سخرت لك وسانت عليها ، فإذا آذاك أبيع لك قتله . وروى عن إبراهيم : ما آذاك من النمل فاقتله . وقوله : " ألا نملة واحدة " دليل على أن الذي يؤذى يؤذى ويقتل ، وكلما كان القتل أنفع أو دفع ضرر فلا بأس به عند العلماء . وأطلق له نملة ولم يخص تلك النملة التي لدغت من غيرها ؛ لأنه ليس المراد القصاص ؛ لأنه لو أراد لقال ألا نملة التي لدغت ، ولكن قال : ألا نملة مكان نملة ؛ فعم البريء

والجاني بذلك ، ليعلم أنه أراد أن ينبيه لمسلئله ربّه في عذاب أهل قرية وفيهم المطيع والعاصي .
وقد قيل : إن هذا النبيّ كانت العقوبة للحيوان بالتحريق جائزة في شرعه ؛ فلذلك إنما عاتبه الله تعالى في إحراق الكثير من النمل لا في أصل الإحراق . ألا ترى قوله : ” فهلا نملة واحدة “ أي هلا حرقت نملة واحدة . وهذا بخلاف شرعنا ، فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم قد نهى عن التعذيب بالنار . وقال : ” لا يعذب بالنار إلا الله “ وكذلك أيضا كان قتل النمل مباحا في شريعة ذلك النبيّ ؛ فإن الله لم يعتبه على أصل قتل النمل . وأما شرعنا فقد جاء من حديث ابن عباس وأبي هريرة النهى عن ذلك . وقد كره مالك قتل النمل إلا أن يضر ولا يقدر على دفعه إلا بالقتل . وقد قيل : إن هذا النبيّ إنما عاتبه الله حيث آنتقم لنفسه بإهلاك جمع آذاه واحد ، وكان الأولى الصبر والصفح ؛ لكن وقع للنبيّ أن هذا النوع مؤذ لبني آدم ، وحرمة بني آدم أعظم من حرمة غيره من الحيوان غير الناطق ، فلو أنفرد له هذا النظر ولم ينضم إليه التشفى الطبعي لم يعاتب . والله أعلم . لكن لما أنضاف إليه التشفى الذي دلّ عليه سياق الحديث عوتب عليه .

الرابعة — قوله : ” أفى أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح “ مقتضى هذا أنه تسبيح بمقال ونطق ، كما أخبر الله عن النمل أن لها منطقا وفهمه سليمان عليه السلام — وهذا معجزة له — وتبسم من قولها . وهذا يدلّ دلالة واضحة أن للنمل نطقا وقولا ، لكن لا يسمعه كل أحد ، بل من شاء الله تعالى ممن خرق له العادة من نبيّ أو وليّ . ولا ننكر هذا من حيث أنا لا نسمع ذلك ؛ فإنه لا يلزم من عدم الإدراك عدم المسدرك في نفسه . ثم إن الإنسان يجد في نفسه قولا وكلاما ولا يسمع منه إلا إذا نطق بلسانه . وقد خرق الله العادة لنبيينا محمد صلى الله عليه وسلم فأسمعه كلام النفس من قوم تحدّثوا مع أنفسهم وأخبرهم بما في نفوسهم ، كما قد نقل منه الكثير من أئمتنا في كتب معجزات النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ وكذلك وقع لكثير ممن أكرمه الله تعالى من الأولياء مثل ذلك في غير ما قضية . وإياه عنى النبيّ صلى الله عليه وسلم بقوله : ” إن في أمتي محدّثين وإن عمر منهم “ . وقد مضى هذا المعنى

في [تسبيح] الجماد في «سبحان»^(٢) وأنه تسبيح لسان ومقال لا تسبيح دلالة حال .
والحمد لله .

الخامسة — قوله تعالى : « فَتَبَسَّمْ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا » وقرأ ابن السميعة : « ضحكا »
بغير ألف ، وهو منصوب على المصدر بفعل محذوف يدل عليه تبسم ، كأنه قال ضحك ضحكا ،
هذا مذهب سيديوه . وهو عند غير سيديوه منصوب بنفس : « تَبَسَّمْ » لأنه في معنى ضحك .
ومن قرأ : « ضَاحِكًا » فهو منصوب على الحال من الضمير في « تَبَسَّمْ » . والمعنى تبسم
مقدار الضحك ؛ لأن الضحك يستغرق التبسم ، والتبسم دون الضحك وهو أوله . يقال :
تَبَسَّمَ (بالفتح) يَتَبَسَّمُ تَبَسُّمًا فهو تَبَسَّمٌ وتَبَسَّمَ ، والتَبَسُّمُ الثغر مثل المجلس من جالس يجلس
ورجل مبسّم وتَبَسَّامٌ كثير التبسم ، فالتبسم ابتداء الضحك . والضحك عبارة عن الابتداء
والإتهاء ، إلا أن الضحك يقتضي مزيدا على التبسم ، فإذا زاد ولم يضبط الإنسان نفسه قيل
فهقه . والتبسم ضحك الأنبياء عليهم السلام في غالب أمرهم . وفي الصحيح عن جابر بن سمرة
وقيل له : أكنت تجالس النبي صلى الله عليه وسلم ؛ قال : نعم كثيرا ؛ كان لا يقوم من مصلاه
الذي يصلي فيه الصبح — أو الغداة — حتى تطلع الشمس فإذا طلعت قام ، وكانوا يتحدّثون
ويأخذون في أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسم . وفيه عن سعد قال : كان رجل من المشركين
قد أحرق المسلمين ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « أرم فذاك أبي وأمي » قال فزعت له^(٣)
بسهم لبس فيه نصلي فأصبت جنبه فسقط فانكشفت عورته ، فضحك رسول الله صلى الله
عليه وسلم حتى نظرت إلى نواجذه . فكان عليه السلام في أكثر أحواله يتبسم . وكان أيضا
يضحك في أحوال أخر ضحكا أعلى من التبسم وأقل من الاستغراق الذي تبدو فيه اللّهوات .
وكان في النادر عند إفراط تعجبه ربما ضحك حتى بدت نواجذه . وقد كره العلماء منه الكثرة ؛
كما قال لقمان لأبيه : يا بني إياك وكثرة الضحك فإنه يميت القلب . وقد روى مرفوعا من

(١) زيادة بقتضيا السياق . (٢) راجع ج ١٠ ص ٢٦٦ فابدد .

(٣) « أحرق المسلمين » أي أثنى فيهم ، وعمل فيهم نحو عمل النار . « هاشم مسلم » .

حديث أبي ذر وغيره . وضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجره حين رمى سعدا الرجل فأصابه ، إنما كان سرورا بإصابته لا بانكشاف عورته ؛ فإنه المنزّه عن ذلك صلى الله عليه وسلم .

السادسة — لا اختلاف عند العلماء أن الحيوانات كلها لها أفهام وعقول . وقد قال الشافعي : الحمام أعقل الطير . قال ابن عطية : والنمل حيوان فطن قوى شمام جدا يتحرر ويتخذ القرى ويشق الحب بقطعتين لثلا ينبت ، ويشق الكزبرة بأربع قطع ؛ لأنها تنبت إذا قسمت شفتين ، ويأكل في عامه نصف ما جمع ويستبقى سائر عذّة . قال ابن العربي : وهذه خواص العلوم عندنا ، وقد أدركتها النمل بخلق الله ذلك لها ؛ قال الأستاذ أبوالمظفر شاهنور الإسفرايني : ولا يبعد أن تدرك البهائم حدوث العالم وحدث المخلوقات ؛ ووحدانية الإله ، ولكننا لا نفهم عنها ولا تفهم عنا ، أما أنا نطلبها وهي تفر منا فبحكم الجنسية .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ ﴾ (١) «أن» مصدرية . و«أوزعني» أي ألهمني ذلك . وأصله من وزع فكأنه قال : كفى عما يسهط . وقال محمد بن إسحق : يزعم أهل الكتاب أن أم سليمان هي امرأة أوريا التي آمنحت الله بها داود ، أو أنه بعد موت زوجها تزوجها داود فولدت له سليمان عليه السلام . وسبق لي لهذا مزيد بيان في سورة «ص» (١) إن شاء الله تعالى .

﴿ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ أي مع عبادك ، عن ابن زيد . وقيل : المعنى في جملة عبادك الصالحين .

قوله تعالى : وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٤٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤١﴾ فَكَتَّ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِط بِهِءَ وَجِئْتُكَ

مِنْ سَبِيلٍ بَنِيَّ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَغْوَاهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾

فيه ثمانية عشرة مسألة :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ ﴾ ذكر شيئا آخر مما جرى له في مسيره الذي كان فيه من النمل ما تقدم . وتفقد تطلب ما غاب عنك من شيء . والطير اسم جامع والواحد طائر ، والمراد بالطير هنا جنس الطير وجماعتها . وكانت تصحبه في سفره وتظله بأجنحتها . وأختلف الناس في معنى تفقده للطير ؛ فقالت فرقة : ذلك بحسب ما تقتضيه العناية بأمور الملك ، والتهمم بكل جزء منها ؛ وهذا ظاهر الآية . وقالت فرقة : بل تفقد الطير لأن الشمس دخلت من موضع الهدهد حين غاب ؛ فكان ذلك سبب تفقد الطير ؛ ليتبين من أين دخلت الشمس . وقال عبد الله بن سلام : إنما طلب الهدهد لأنه احتاج إلى معرفة الماء على كم هو من وجه الأرض ؛ لأنه كان نزل في مفازة عديم فيها الماء ، وأن الهدهد كان يرى باطن الأرض وظاهرها ؛ فكان يخبر سليمان بموضع الماء ، ثم كانت الجن تخرجه في ساعة يسيرة ؛ تسليخ عنه وجه الأرض كما تسليخ الشاة ؛ قاله ابن عباس فيما روى عن ابن سلام . قال أبو مجلز قال ابن عباس لعبد الله بن سلام : أريد أن أسألك عن ثلاث مسائل . قال : أتسألني وأنت تقرأ القرآن ؟ قال . نعم ثلاث مرات . قال : لم تفقد سليمان الهدهد دون

سائر الطير؟ قال : أحتاج إلى الماء ولم يعرف عمقه — أو قال مسافته — وكان الهدهد يعرف ذلك دون سائر الطير فتفقدته . وقال في كتاب النقاش : كان الهدهد مهندساً . وروى أن نافع بن الأزرق سمع ابن عباس يذكر شأن الهدهد فقال له : قف يا وقاف كيف يرى الهدهد باطن الأرض وهو لا يرى الفسخ حين يقع فيه ؟ ! فقال له ابن عباس : إذا جاء القدر عمى البصر . وقال مجاهد : قيل لابن عباس كيف تفقد الهدهد من الطير ؟ فقال : نزل منزلاً ولم يدر ما بعد الماء ، وكان الهدهد مهتدياً إليه ، فأراد أن يسأله . قال مجاهد : فقلت كيف يهتدى والصبحي يضع له الحبال فيصيده ؟ ! فقال : إذا جاء القدر عمى البصر . قال ابن العربي : ولا يقدر على هذا الجواب إلا عالم القرآن .

قلت : هذا الجواب قد قاله الهدهد لسليمان كما تقدم . وأنشدوا :

إذا أراد الله أمراً بأمري * وكان ذا عقلٍ ورأيٍ ونظرٍ
وحيلةٍ يعمها في دفع ما * يأتي به مكروه أسباب القدر
غطى عليه سمعه وعقله * وسله من ذهنه سل الشعر
حتى إذا أنفذ فيه حكمه * رد عليه عقله ليعتبر

قال الكلبي : لم يكن له في مسيره إلا هدهد واحد . والله أعلم .

الثانية — في هذه الآية دليل على تفقد الإمام أحوال رعيته ، والمحافظة عليهم . فانظر إلى الهدهد مع صغره كيف لم يخف على سليمان حاله ، فكيف بعظام الملك . ويرحم الله عمر فإنه كان على سيرته ، قال : لو أن سحابة على شاطئ الفرات أخذها الذئب ^(١) يسأل عنها عمر . فما ظنك بوالٍ تذهب على يديه البلدان ، وتضيع الرعية ويضيع الرعيان . وفي الصحيح عن عبد الله بن عباس أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام ، حتى إذا كان ^(٢) يسرع لقيه أمراء الأجناد : أبو عبيدة وأصحابه فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام . الحديث ، قال علماؤنا : كان هذا الخروج من عمر بعد ما فتح بيت المقدس سنة سبع عشرة على ما ذكره خليفة بن خياط .

(١) في ك : لسئل . (٢) مرغ (بسكون الراء وفتحها) : قرية بوادي تبوك من طريق الشام .

وكان يتفقد أحوال رعيته وأحوال أمرائه بنفسه، فقد دل القرآن والسنة ويدنا ما يجب على الإمام من تفقد أحوال رعيته، ومباشرة ذلك بنفسه، والسفر إلى ذلك وإن طال .
ورحم الله ابن المبارك حيث يقول :

وهل أفسد الدين إلا الملوكة * وأحبارُ سوءٍ ورهبانها^(١)

الثالثة — قوله تعالى : « مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدُودَ » أى ما للهدود لا أراه؛ فهو من القاب الذى لا يعرف معناه . وهو كقولك : ما لى أراك كثيرًا . أى مالك . والهدود طير معروف وهدودته صوته . قال ابن عطية : إنما مقصد الكلام الهدود غاب لكنه أخذ الملازم عن مغيبه وهو أن لا يراه ، فاستفهم على جهة التوقيف على اللازم وهذا ضرب من الإيجاز . والاستفهام الذى فى قوله : « مَا لِيَ » ناب مناب الألف التى تحتاجها أم . وقيل : إنما قال : « مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدُودَ » ؛ لأنه اعتبر حال نفسه، إذ علم أنه أوتى الملك العظيم، وسخر له الخلق، فقد لزمه حق الشكر بإقامة الطاعة وإدامة العدل، فلما فقد نعمة الهدود توقع أن يكون قصر فى حق الشكر، فلأجله سُلِّمَها بفعل يتفقد نفسه؛ فقال : « مَا لِيَ » . قال ابن العربى : وهذا يفعله شيوخ الصوفية إذا فقدوا ما لهم، تفقدوا أعمالهم؛ هذا فى الآداب، فكيف بنا اليوم ونحن نقصر فى الفرائض ! . وقرأ ابن كثير وابن محيصن وعاصم والنكسائى وهشام وأيوب : « مَا لِيَ » بفتح الياء وكذلك فى « يس » « وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنِي » . وأسكنها حمزة ويعقوب . وقرأ الباقون المدنيون وأبو عمرو : بفتح التى فى « يس » وإسكان هذه . قال أبو عمرو : لأن هذه التى فى « التمل » استفهام ، والأخرى آتفاء . واختار أبو حاتم وأبو عبيد الإسكان « فَقَالَ مَا لِيَ » . وقال أبو جعفر النحاس : زعم قوم أنهم أرادوا أن يفرقوا بين ما كان مبتدأ، وبين ما كان معطوفا على ما قبله، وهذا ليس بشيء؛ وإنما هى ياء النفس، من العرب من يفتحها ومنهم من يسكنها، فقرأوا بالفتحة وبالغتين؛ واللغة الفصيحة فى ياء النفس أن تكون مفتوحة؛ لأنها اسم وهى على حرف واحد، وكان الاختيار ألا تسكن فيجحف الاسم . (أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ) بمعنى بل .

(١) فى ك : « ورهبانا » . (٢) فى أحكام القرآن لابن العربى : « إذا فقدوا آمالهم ... الخ » .

(٣) راجع ج ١٥ ص ١٧ فابعد .

الرابعة - قوله تعالى : ﴿لَاَعْدَبْنَهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَاَذْبَحْنَهُ﴾ دليل على أن الحد على قدر الذنب لا على قدر الجسد، أما أنه يرفق بالمحدود في الزمان والصفة . روى عن ابن عباس ومجاهد وابن جريح أن تعذيبه للطير كان بأن ينتف ريشه . قال ابن جريح : ريشه أجمع . وقال يزيد بن رومان : جناحه . فعل سليمان هذا بالهدهد لإغلاظا على العصاة ، وعقابا على إخلاله بنوئته ورتبته ؛ وكأن الله أباح له ذلك ، كما أباح ذبح البهائم والطير للأكل وغيره من المنافع . والله أعلم . وفي « نوادر الأصول » قال : حدثنا سليمان بن حميد أبو الربيع الإيادي ، قال حدثنا عون بن عمارة ، عن الحسين الجعفي ، عن الزبير بن الحرث ، عن عكرمة ، قال : إنما صرف الله شمس سليمان عن الهدهد لأنه كان بارا بوالديه . وسيأتي . وقيل : تعذيبه أن يجعل مع أضداده . وعن بعضهم : أضيق السجون معاشرة الأضداد . وقيل : لألزمه خدمة أقرانه . وقيل : إيداعه القفص . وقيل : بأن يجعله للشمس بعد نطفه . وقيل : بتبعيده عن خدمتي ، والمسوك يؤذون بالهجران الجسد بتفريق إلفه . وهو مؤكد بالنون الثقيلة ، وهي لازمة هي أو الخفيفة . قال أبو حاتم : ولو قرئت « لَاَعْدَبْنَهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَاَذْبَحْنَهُ » جاز . ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِي سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ أي بحجة بينة . وليست اللام في « لَيَأْتِيَنِي » لام القسم لأنه لا يقسم سليمان على فعل الهدهد ؛ ولكن لما جاء في أثر قوله : « لَاَعْدَبْنَهُ » وهو مما جاز به القسم أجراه مجراه . وقرأ ابن كثير وحده : « لَيَأْتِيَنِي » بنونين .

الخامسة - قوله تعالى : ﴿فَكَتَّ غَيْرَ بِعِيدٍ﴾ أي الهدهد . والجمهور من القراء على ضم الكاف ، وقرأ عاصم وحده بفتحها . ومعناه في القراءتين أقام . قال سيديويه : مَكَتْ يَمْكُتُ مَكُونًا كما قالوا قَعَدَ يَقْعُدُ قَعُودًا . قال : وَمَكَتْ مِثْلَ ظَرْفٍ . قال غيره : والفتح أحسن لقوله تعالى : « مَا كَشَيْنَ » إذ هو من مكث ؛ يقال : مَكَتْ يَمْكُتُ فهو ما كَتْ ؛ وَمَكَتْ يَمْكُتُ مِثْلَ عَظْمٍ يَعْظُمُ فهو مَكَيْتٌ ؛ مِثْلَ عَظِيمٍ . وَمَكَتْ يَمْكُتُ فهو ما كَتْ ؛ مِثْلَ حَمُضٍ يَحْمُضُ فهو حامض . والضمير في « مَكَتْ » يحتمل أن يكون لسليمان ؛ والمعنى : بقي سليمان بعد التفقد والوعيد غير طويل أي غير وقت طويل . ويحتمل أن يكون للهدهد وهو الأكثر . بخاء : ﴿فَقَالَ أَحْطَتْ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ وهي :

(١) في ك : بآبويه . (٢) في ك : الجند : بتفريق إلفه . (٣) راجع ج ١٠ ص ٣٤٦ .

السادسة — أى علمت ما لم تعلمه من الأمر فكان فى هذا رد على من قال : إن الأنبياء تعلم الغيب . وحكى الفراء « أَحَطَّ » يدغم التاء فى الطاء . وحكى « أَحَتْ » بقلب الطاء تاء وتدغم .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبِيلٍ يَنْبِئُ يَقِينٍ ﴾ أعلم سليمان ما لم يكن يعلمه ، ودفع عن نفسه ما توعدده من العذاب والذبح . وقرأ الجمهور : « سَبِيلٌ » بالصرف . وابن كثير وأبو عمرو : « سَبَأً » بفتح الهمزة وترك الصرف ؛ فالأول على أنه أسم رجل نسب إليه قوم ، وعليه قول الشاعر :

الواردون وتيم فى ذرى سبيل * قد عَضَّ أعناقهم جلدُ الجواميس

وأنكر الزجاج أن يكون أسم رجل ، وقال : « سبأ » أسم مدينة تعرف بمأرب باليمن بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام .

قلت : [وقع فى عيون المعانى للغزنوى ثلاثة أميال . قتادة والسدى بعث إليه اثنا عشر نبيا]^(١)
وأُنشد للناطقة الجمعدى :

من سبأ الحاضرين مأرب إذ * يَبْنُونَ مِنْ دُونِ سَبِيلِهِ الْعَرِمَا

قال : فمن لم يصرف قال إنه أسم مدينة ، ومن صرف وهو الأكثر فلائنه أسم البلد فيكون مذكرا سمى به مذكر . وقيل : أسم امرأة سميت بها المدينة . والصحيح أنه أسم رجل ، كذلك فى كتاب الترمذى من حديث فروة بن مُسَيِّك المرادى عن النبى صلى الله عليه وسلم : وسيأتى إن شاء الله تعالى . قال ابن عطية : وخفى هذا الحديث على الزجاج فخطب عشواء . وزعم الفراء أن الرؤاسى سأل أبا عمرو بن العلاء عن سبيل فقال : ما أدري ما هو . قال النحاس : وتأول الفراء على أبى عمرو أنه منعه من الصرف لأنه مجهول ، وأنه إذا لم يعرف الشيء لم ينصرف . وقال النحاس : وأبو عمرو أجل من أن يقول مثل هذا ، وليس فى حكاية الرؤاسى عنه دليل أنه إنما منعه من الصرف لأنه لم يعرفه ، وإنما قال لا أعرفه ، ولو سئل نحوى عن أسم فقال لا أعرفه لم يكن فى هذا دليل على أنه يمنع من الصرف ، بل الحق على غير هذا ، والواجب إذا لم يعرفه أن يصرفه ؛ لأن أصل الأسماء الصرف ؛ وإنما يمنع الشيء

من الصرف لعلامة داخلية عليه ، فالأصل ثابت بيقين فلا يزول بما لا يعرف . وذ كر كلاما كثيرا عن النحاة وقال في آخره : والقول في «سبيل» ما جاء التوقيف فيه أنه في الأصل أسم رجل ، فإن صرفته فلانه قد صار اسما للحي ، وإن لم تصرفه جعلته اسما للقبيلة مثل ثمود إلا أن الاختيار عند سيديوه الصرف وحجته في ذلك قاطعة ، لأن هذا الاسم لما كان يقع له التذكير والتأنيث كان التذكير أولى ، لأنه الأصل والأخف .

الذامنة — وفي الآية دليل على أن الصغير يقول للكبير والمتعلم للعالم عندي ما ليس عندك إذا تحقق ذلك وتيقنه . هذا عمر بن الخطاب مع جلالته رضى الله عنه وعلمه لم يكن عنده علم بالاستئذان . وكان علم التيمم عند عمار وغيره ، وغاب عن عمر وابن مسعود حتى قالوا : لا يتيمم الجنب . وكان حكم الإذن في أن تنفر الحائض عند ابن عباس ولم يعلمه عمر ولا زيد بن ثابت . وكان غسل رأس المحرم معلوما عند ابن عباس وخفي عن المسور بن مخرمة . ومثله كثير فلا يطول به .

التاسعة — قوله تعالى : ﴿ إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ ﴾ لما قال الهدد : « جِئْتُكَ مِنْ سَبِيلٍ نَبِيًّا يَقِينٍ » قال سليمان : وما ذلك الخبر ؟ قال : « إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ » . يعنى بلقيس بنت شراحيل تملك أهل سبيل . ويقال : كيف خفي على سليمان مكانها وكانت المسافة بين محطه وبين بلدها قريبة ، وهى من مسيرة ثلاث بين صنعاء ومأرب ؟ والجواب أن الله تعالى أخفى ذلك عنه لمصلحة ، كما أخفى على يعقوب مكان يوسف ، ويروى أن أحد أبويها كان من الجن . قال ابن العربى : وهذا أمر تنكره الملاحذه ، ويقولون : الجن لا يأكلون ولا يلدون ، كذبوا لعنهم الله أجمعين ، ذلك صحيح ونكاحهم جائز عقلا فإن صح نقلا فيها ونعمت .

قلت : نخرج أبو داود من حديث عبد الله بن مسعود أنه قال : قدم وفد من الجن على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : يا محمد أنه أمنتك أن يستنجوا بعظم أروثة أو جمجمة فإن الله جاعل لنا فيها رزقا . وفي صحيح مسلم : فقال « لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحما وكل بعرة علف لدوابكم » فقال رسول الله صلى الله

(١) قال محققه : أنكره جمع من نحول العلماء ، كما وردى ، وهو الحق لأنه لا يمكن الزواج بين جنسين متباينين .

عليه وسلم : " فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم الجَن " وفي البخارى من حديث أبي هريرة قال فقلت : ما بال العَظْم والزوثة ؟ فقال : " هما من طعام الجن وإنه أتانى وفدُ جن نصيبين ونِعَم الجنُ فسألونى الزاد فدعوت الله تعالى ألا يمروا بعظم ولا روثة إلا وجدوا عليها طعاما " وهذا كله نص فى أنهم يطعمون . وأما نكاحهم فقد تقدمت الإشارة إليه فى « سبحان » عند قوله : « وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ » . وروى وهيب بن جرير ابن حازم عن الخليل بن أحمد عن عثمان بن حاضر قال : كانت أم بلقيس من الجن يقال لها بلعمة بنت شيصان . وسيأتى لهذا مزيد بيان إن شاء الله تعالى .

العاشرة — روى البخارى من حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بلغه أن أهل فارس قد ملكوا بنت كسرى قال : " لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة " قال القاضى أبو بكر بن العربى : هذا نص فى أن المرأة لا تكون خليفة ولا خلاف فيه ؛ ونقل عن محمد بن جرير الطبرى أنه يجوز أن تكون المرأة قاضية ، ولم يصح ذلك عنه ، ولعله نقل عنه كما نقل عن أبي حنيفة أنها إنما تقضى فيما تشهد فيه وليس بأن تكون قاضية على الإطلاق ؛ ولا بأن يكتب لها مسطور بأن فالانة مقدمة على الحكم ، وإنما سبيل ذلك التحكيم^(٢) والاستتابة فى القضية الواحدة ، وهذا هو الظن بأبي حنيفة وابن جرير . وقد روى عن عمر أنه قدم امرأة على حبة السوق . ولم يصح فلا تفتوا إليه ، وإنما هو من دسائس^(٣) المبتدعة فى الأحاديث . وقد تناظر فى هذه المسئلة القاضى أبو بكر بن الطيب المالى الأشعرى مع أبى الفرج بن طرار شيخ الشافعية ، فقال أبو الفرج : الدليل على أن المرأة يجوز أن تحكم أن الغرض من الأحكام تنفيذ القاضى لها ، وسماع البينة عليها ، والفصل بين الخصوم فيها ، وذلك ممكن من المرأة كما مكانه من الرجل . فأعرض عليه القاضى أبو بكر ونقض كلامه بالإمامة الكبرى ؛ فإن الغرض منه حفظ الثغور ، وتدير الأمور وحماية البيضة ، وقبض الخراج ورده على مستحقه ، وذلك لا يتأتى من المرأة كأتانیه من الرجل . قال ابن العربى : وليس

(١) راجع ج ١٠ ص ٢٨٩ . (٢) فى ب و ك : كسبيل التحكيم . (٣) فى ك : من دسائس .

كلام الشيخين في هذه المسئلة بشيء ؛ فإن المرأة لا يتأتى منها أن تبرز إلى المجلس ، ولا تخالط الرجال ، ولا تفاوضهم مفاوضة النظر للنظر ؛ لأنها إن كانت فتاة حرم النظر إليها وكلامها ، وإن كانت برزة^(١) لم يجمعها والرجال مجلس واحد تزدهم فيه معهم ، وتكون مناظرة لهم ؛ وإن يفلح قط من تصور هذا ولا من آعقده .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ مبالغة ؛ أى مما تحتاجه المملكة . وقيل : المعنى أوتيت من كل شيء في زمانها شيئاً لحذف المفعول ؛ لأن الكلام دل عليه . ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ أى سرير ؛ ووصفه بالعظم في الهيئة ورتبة السلطان . قيل : كان من ذهب تجلس عليه . وقيل : العرش هنا الملك ؛ والأول أصح ؛ لقوله تعالى : « أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا » . الزمخشري : فإن قلت كيف سوى الهدهد بين عرش بلقيس وعرش الله في الوصف بالعظيم ؟ قلت : بين الوصفين بون عظيم ؛ لأن وصف عرشها بالعظيم تعظيم له بالإضافة إلى عروش أبناء جنسها من الملوك ، ووصف عرش الله بالعظيم تعظيم له بالنسبة إلى ما خلق من السموات والأرض . قال ابن عباس : كان طول عرشها ثمانين ذراعاً ، وعرضه أربعين ذراعاً ، وارتفاعه في السماء ثلاثين ذراعاً ، مكال بالدر والياقوت الأحمر ، والزبرجد الأخضر . قتادة : وقوائمه لؤلؤ وجوهر ، وكان مُسْتَرّاً بالديباج والحرير ، عليه سبعة مغاليق . مقاتل : كان ثمانين ذراعاً [في ثمانين^(٢) ذراعاً] ، وارتفاعه من الأرض ثمانون ذراعاً ، وهو مكال بالجواهر . ابن إسحق : وكان يخدمها النساء ، وكان معها لخدمتها ستمائة امرأة . قال ابن عطية : واللازم من الآية أنها امرأة ملكت على مدائن اليمن ، ذات ملك عظيم ، وسرير عظيم ، وكانت كافرة من قوم كفار .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَجَدُوهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ قيل : كانت هذه الأمة ممن يعبد الشمس ؛ لأنهم كانوا زنادقة فيما يروى . وقيل : كانوا مجوساً يعبدون الأنوار . وروى عن نافع أن الوقف على « عرش » . قال المهدوى :

(١) البرزة هنا : الكهلة التي تحتجب أحجاب الشواب ؛ وهى مع ذلك عفيفة عاقلة تجلس للناس وتحدثهم .

(٢) من ب و ك .

فعظيم على هذا متعلق بما بعده ، وكان ينبغي على هذا أن يكون عظيم أن وجدتها ؛ أى وجودى إياها كآفة . وقال ابن الأنبارى : « وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ » وقف حسن ، ولا يجوز أن يقف على « عرش » ويتدئ « عَظِيمٌ وَجَدَتْهَا » إلا على من فتح ؛ لأن عظيمًا نعت لعرش فلو كان متعلقًا بوجدتها لقلت عظيمة وجدتها ؛ وهذا محال من كل وجه . وقد حدثني أبو بكر محمد بن الحسين بن شهر يار ، قال : حدثنا أبو عبد الله الحسين بن الأسود العجلي ، عن بعض أهل العلم أنه قال : الوقف على « عرش » والابتداء « عظيم » على معنى عظيم عبادتهم الشمس والقمر . قال : وقد سمعت من يؤيد هذا المذهب ، ويحتج بأن عرشها أحقر وأدق شأنًا من أن يصفه الله بالعظيم . قال ابن الأنبارى : والاختيار عندى ما ذكرته أولاً ؛ لأنه ليس على إضمار عبادة الشمس والقمر دليل . وغير منكر أن يصف الهدهد عرشها بالعظيم إذ رآه متناهى الطول والعرض ؛ وجره على إعراب « عرش » دليل على أنه نعت . (وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ) أى ما هم فيه من الكفر . (فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ) أى عن طريق التوحيد . وبين بهذا أن ما ليس بسبيل التوحيد فليس بسبيل ينتفع به على التحقيق . (فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ) إلى الله وتوحيده .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : (أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ) قرأ أبو عمرو ونافع وعاصم وحمة : « أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ » بتشديد « أَلَّا » قال ابن الأنبارى : « فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ » غير تام لمن شدد « أَلَّا » لأن المعنى : وزين لهم الشيطان ألا يسجدوا . قال النحاس : هى « أن » دخلت عليها « لا » و « أن » فى موضع نصب ؛ قال الأخفش : بـ « زين » أى وزين لهم لئلا يسجدوا لله . وقال الكسائى : بـ « فصدهم » أى فصدهم ألا يسجدوا . وهو فى الوجهين مفعول له . وقال اليزيدى وعلى بن سليمان : « أن » بدل من « أعمالهم » فى موضع نصب . وقال أبو عمرو : و « أن » فى موضع خفض على البدل من السبيل . وقيل : العامل فيها « لَا يَهْتَدُونَ » أى فهم لا يهتدون أن يسجدوا لله ؛ أى لا يعلمون أن ذلك واجب عليهم . وعلى هذا القول « لا » زائدة ؛ كقوله : « مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ » (٢) أى ما منعك أن تسجد . وعلى هذه القراءة

(١) فى بـ وك : أى عظيم وجودى أنها كآفة . (٢) راجع ج ٧ ص ١٦٩ فابعد .

فليس بموضع سجدة ؛ لأن ذلك خبر عنهم بترك السجود ، إما بالتزيين ، أو بالصدء ، أو بمنع
الاعتداء . وقرأ الزهرى والكسائى وغيرهما : « ^(١) أَلَّا تَسْجُدُوا لِلَّهِ » بمعنى ألا ياهؤلاء آسجدوا ؛
لأن « يا » ينادى بها الأسماء دون الأفعال . وأنشد سيبويه :

يا لعنةُ اللهِ والأقوامِ كُلِّهِمْ * والصالحين على سِمعَانَ من جَارِ

قال سيبويه : (يا) لغیر اللعنة ، لأنه لو كان للعة لنصبها ، لأنه كان يصير منادى مضافا ، ولكن
تقديره ياهؤلاء لعنة الله والأقوام على سِمعَانَ . وحكى بعضهم سمعا عن العرب : ألا يا أرحموا
ألا يا أصدقوا . يريدون ألا ياقوم أرحموا اصدقوا ، فعلى هذه القراءة « آسجدوا » فى موضع
جزم بالأمر والوقف على « أَلَّا يَا » ثم تبتدىء فتقول : « آسجدوا » . قال الكسائى : ما كنت أسمع
الاشياخ يقرءونها إلا بالتخفيف على نية الأمر . وفى قراءة عبد الله : « أَلَّا هَلْ تَسْجُدُونَ لِلَّهِ »
بالتاء والنون . وفى قراءة أبى « أَلَّا تَسْجُدُونَ لِلَّهِ » فهاتان القراءةان حجة لمن خفف . الزجاج :
وقراءة التخفيف تقتضى وجوب السجود دون التشديد . وأختار أبو حاتم وأبو عبيدة
قراءة التشديد . وقال : التخفيف وجه حسن إلا أن فيه أنقطاع الخبر من أمر سبأ ، ثم رجع
بعد إلى ذكرهم ، والقراءة بالتشديد خبر يتبع بعضه بعضا لا أنقطاع فى وسطه . ونحوه قال
النحاس . قال : قراءة التخفيف بعيدة ؛ لأن الكلام يكون معترضا ، وقراءة التشديد يكون
الكلام بها متسقا ، وأيضا فإن السواد على غير هذه القراءة ؛ لأنه قد حذف منها ألفان ،
وإنما يختصر مثل هذا بحذف ألف واحدة نحو يعيسى بن مريم . أبى الأنبارى : وسقطت
ألف « آسجدوا » كما تسقط مع هؤلاء إذا ظهر ، ولما سقطت ألف « يا » وانصبت بها ألف
« آسجدوا » سقطت ، فعد سقوطها دلالة على الاختصار وإيثارا لما يحنف وتقل ألفاظه . وقال
الجوهرى فى آخر كتابه : قال بعضهم : إن « يا » فى هذا الموضع إنما هو للتنبيه كأنه قال :
ألا آسجدوا لله ، فلما أدخل عليه « يا » للتنبيه سقطت الألف التى فى « آسجدوا » لأنها

(١) الأومى : « لا » بالتخفيف على أنها للاستفتاح و « يا » حرف نداء ، والمنادى محذوف ؛ أى ألا ياقوم
اسجدوا وسقطت ألف الوصل فى « اسجدوا » وكتبت الواو متصلة بالسين على خلاف القياس .

(٢) وفى ب : تعطى .

الف وصل، وذهبت الألف التي في « يا » لأجتماع الساكنين؛ لأنها والسين ساكنتان .
قال ذو الرمة :

أَلَا يَا أَسْلَمِي يَا دَارِمِي عَلَى الْبَيْلَى * وَلَا زَالَ مُهَلًّا بِجَرَعَتِكَ الْقَطْرُ

وقال الجرجاني : هو كلام معترض من الهدهد أو سليمان أو من الله . أى ألا يسجدوا ؛
كقوله تعالى : « قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ » قيل : إنه أمر أى ليغفروا .
وتنظم على هذا كتابة المصحف ؛ أى ايس ها هنا نداء . قال ابن عطية : قيل هو من كلام
الهدهد إلى قوله « العظيم » وهو قول ابن زيد وابن إسحق ؛ ويعترض بأنه غير مخاطب فكيف
يتكلم فى معنى شرع . ويحتمل أن يكون من قول سليمان لما أخبره الهدهد عن القوم .
ويحتمل أن يكون من [قول^(١)] الله تعالى فهو اعتراض بين الكلامين وهو الثابت مع التأمل ،
وقراءة التشديد في « أَلَا » تعطى أن الكلام للهدهد ، وقراءة التخفيف تمنعه ، والتخفيف
يقتضى الأمر بالسجود لله عز وجل للأمر على ما بيناه . وقال الرغشري : فإن قلت أسجدة
التلاوة واجبة في القراءتين جميعا أم في إحداهما ؟ قلت هى واجبة فيهما جميعا ؛ لأن مواضع
السجدة إما أمر^(٢) بيا ، أو مدح لمن أتى بها ، أو ذم [لمن^(٣)] تركها ، وإحدى القراءتين أمر
بالسجود والأخرى ذم للترك .

قلت : وقد أخبر الله عن الكفار بأنهم لا يسجدون كما في « الأنشقاق » وسجد النبي صلى
الله عليه وسلم فيها ، كما ثبت في البخارى وغيره فكذلك « النمل » . والله أعلم . الرغشري :
وما ذكره الزجاج من وجوب السجدة مع التخفيف دون التشديد فغير مرجوع إليه .
(الَّذِي يُخْرِجُ الْحَبَّ) حَبَّ السماء تطرها ، وحَبَّ الأرض كنوزها ونباتها . وقال قتادة :
الحَبَّ السر . النحاس : وهذا أولى . أى ما غاب فى السموات والأرض ، ويدل عليه
« مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ » . وقرأ عكرمة ومالك بن دينار : « الحب » بفتح الباء من غير همز .
قال المهدوى : وهو التخفيف القياسى ؛ وذكر من يترك الهمز فى الوقف . وقال النحاس :

(١) راجع ج ١٦ ص ١٦٠ فابعد . (٢) من ك . (٣) راجع ج ١٩ ص ٢٧٢ فابعد .

وحكى أبو حاتم أن عكرمة قرأ : « الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَا » بألف غير مهموزة ، وزعم أن هذا لا يجوز في العربية ، وأعتل بأنه إن خفف الهمزة ألقي حركتها على الباء فقال : « الْخَبَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » وأنه إن حوّل الهمزة قال : الْخَبَى بِإِسْكَانِ الْبَاءِ وبعدها ياء . قال النحاس : وسمعت علي بن سليمان يقول سمعت محمد بن يزيد يقول : كان أبو حاتم دون أصحابه في النحو ولم يالحق بهم إلا أنه إذا خرج من بلده لم يلق أعلم منه . وحكى سيدييه عن العرب أنها تبدل من الهمزة ألفا إذا كان قبلها ساكن وكانت مفتوحة ، وتبدل منها واوا إذا كان قبلها ساكن وكانت مضمومة ، وتبدل منها ياء إذا كان قبلها ساكن وكانت مكسورة ، فتقول : هذا الْوَتُوْ وعجبت من الوثني ورأيت الْوَنَاءَ وهذا من وثئت يده ، وكذلك هذا الْخَبُوْ وعجبت من الْخَبَى ، ورأيت الْخَبَا ، وإنما فعل هذا لأن الهمزة خفيفة فأبدل منها هذه الحروف . وحكى سيدييه عن قوم من بني تميم وبني أسد أنهم يقولون : هذا الْخَبُوْ يضمنون الساكن إذا كانت الهمزة مضمومة ، ويثبتون الهمزة ويكسرون الساكن إذا كانت الهمزة مكسورة ، ويفتحون الساكن إذا كانت الهمزة مفتوحة . وحكى سيدييه أيضا أنهم يكسرون وإن كانت الهمزة مضمومة ، إلا أن هذا عن بني تميم ، فيقولون : الرَّدَى (٢) وزعم أنهم لم يضمنوا الدال لأنهم كرهوا ضمة قبلها كسرة ، لأنه ليس في الكلام فَعَلٌ . وهذه كلها لغات داخلة على اللغة التي قرأ بها الجماعة ، وفي قراءة عبد الله « الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَا مِنَ السَّمَوَاتِ » و « من » و « في » يتعاقبان ، تقول العرب : لَأُستخرجنَّ العلمَ فيكم يريد منكم ، قاله الفراء . (وَيَعْلَمُ مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ) قراءة العامة فيهما بياء [الغائب] ، وهذه القراءة تعطى أن الآية من كلام الهدد ، وأن الله تعالى خصه من المعرفة بتوحيده ووجوب السجود له ، وإنكار سجودهم للشمس ، وإضافته للشيطان ، وتزيينه لهم ، ما خص به غيره من الطيور وسائر الحيوان ، من المعارف اللطيفة التي لا تكاد العقول الراجحة تهتدي لها . وقرأ الجحدري وعيسى بن عمر وحفص والكسائي : « تُخْفُونَ » و « تُعْلِنُونَ » بالناء على الخطاب ، وهذه القراءة تعطى أن الآية

(١) في اللسان : الوثني : الضرب حتى يرهص اللحم ويصل الضرب إلى العظم من غير كسر .

(٢) الرد بمعنى الصاحب . (٣) في ب و ك .

من خطاب الله عز وجل لأمة محمد صلى الله عليه وسلم . (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)
قرأ ابن محيصن « العَظِيمُ » : رفعا نعتا لله . الباقيون بالخفض نعتا للعرش . وخص بالذكور لأنه
أعظم المخلوقات وما عداه في ضمنه وقبضته .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : (سَنَنْظُرُ) من النظر الذي هو التأمل والتصفح .
(أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ) في مقاتل . و « كنت » بمعنى أنت . وقال :
« سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ » ولم يقل سننظر في أمرك ؛ لأن الهدهد لما صرح بفخر العلم في قوله :
« أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ » صرح له سليمان بقوله : سننظر أصدقت أم كذبت ، فكان ذلك
[كفاء] لما قاله .

الخامسة عشرة — في قوله : « أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ » دليل على أن الإمام
يجب عليه أن يقبل عذر رعيته ، ويدرك العقوبة عنهم في ظاهر أحوالهم بباطن أَعذارهم ؛
لأن سليمان لم يعاقب الهدهد حين اعتذر إليه . وإنما صار صدق الهدهد عذرا لأنه أخبر
بما يقتضي الجهاد ، وكان سليمان عليه السلام حبيب إليه الجهاد . وفي الصحيح : « ليس
أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل » . وقد قبل عمر
عذر النعمان بن عدى ولم يعاقبه . ولكن للإمام أن يمتحن ذلك إذا تعاق به حكم من أحكام
الشريعة . كما فعل سليمان ؛ فإنه لما قال الهدهد : « إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرَةً تَمْلِكُهُمْ وَأَوَيَّتْ
مِنْ كُلِّ نَبِيٍّ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ » لم يستفزه الطمع ، ولا استجزه حب الزيادة في الملك إلى
أن يعرض له حتى قال : « وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ » فغاضه حينئذ
ما سمع ، وطلب الانتهاء إلى ما أخبر ، وتحصيل علم ما غاب عنه من ذلك ، فقال : « سَنَنْظُرُ
أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ » ونحو منه ما رواه الصحيح عن المسور بن مخرمة ، حين
استشار عمر الناس في إملاص المرأة وهي التي يضرب بطنها فتلقى جنينها ؛ فقال المغيرة
ابن شعبة : شهدت النبي صلى الله عليه وسلم قضى فيه بغرة عبد أو أمة . قال فقال عمر : آيتني
بمن يشهد معك ؛ قال : فشهد له محمد بن مسلمة وفي رواية فقال : لا تبرح حتى تأتي بالخروج

من ذلك ؛ فخرجت فوجدت محمد بن مسلمة بغتت به فشهد . ونحوه حديث أبي موسى في الاستئذان وغيره .

السادسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ أَذْهَبَ بِكُنَّيْ هَذَا فَأَلْقَهُ إِلَيْهِمْ ﴾ قال الزجاج : فيها خمسة أوجه « فَأَلْقَهُ إِلَيْهِمْ » بإثبات الياء في اللفظ . وبحذف الياء وإثبات الكسرة دالة عليها « فَأَلْقَهُ إِلَيْهِمْ » . وبضم الهاء وإثبات الواو على الأصل « فَأَلْقَهُ إِلَيْهِمْ » . وبحذف الواو وإثبات الضمة « فَأَلْقَهُ إِلَيْهِمْ » . واللغة الخامسة قرأ بها حمزة بإسكان الهاء « فَأَلْقَهُ إِلَيْهِمْ » . قال النحاس : وهذا عند النحويين لا يجوز إلا على حينة بعيدة تكون : يقدر الوقف ؛ وسمعت على بن سايان يقول : لا تلفت إلى هذه العلة ، ولو حاز أن يصل وهو ينوي الوقف لحاز أن يحذف الإعراب من الأسماء . وقال : « إِلَيْهِمْ » على لفظ الجمع ولم يقل إليها ؛ لأنه قال : « وَجَدْنَهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ » فكأنه قال : فألقه إلى الذين هذا دينهم ؛ أهتاما منه بأمر الدين ، واشتغالا به عن غيره ، وبني الخطاب في الكتاب على لفظ الجمع لذلك . وروى في قصص هذه الآية أن الهدهد وصل فألقى دون هذه الملكة حُجَبَ جدران ؛ فعمد إلى كوة كانت بلقيس صنعتها لتدخل منها الشمس عند طلوعها لمعنى عبادتها إياها ، فدخل منها ورمى الكتاب على بلقيس وهي — فيما يروى — نائمة ؛ فلما انتهت وجدته فراءها ، وظنت أنه قد دخل عليها أحد ، ثم قامت فوجدت حالها كما عهدت ، فنظرت إلى الكوة تهمة بأمر الشمس ، فرأت الهدهد فعلمت . وقال وهب وابن زيد : كانت لها كوة مستقبلة لمطلع الشمس ، فإذا طلعت سجدت ، فسدها الهدهد بجناحه ، فأرتفعت الشمس ولم تعلم ، فلما استبطات الشمس قامت تنظر فرمى الصبيحفة إليها ، فلما رأت الخاتم أرتعدت وخضعت ، لأن ملك سايان عليه السلام كان في خاتمه ؛ فقرأته فجمعت الملائكة من قومها فخطبهم بما يأتي بعد . وقال مقاتل : حمل الهدهد الكتاب بمنقاره ، وطار حتى وقف على رأس المرأة وحولها الجنود والعساكر ، ففرق ساعة والناس ينظرون إليه ، فرفعت المرأة رأسها فألقى الكتاب في حجرها .

السابعة عشرة — في هذه الآية دليل على إرسال الكتب إلى المشركين وتبليغهم الدعوة، ودعائهم إلى الإسلام . وقد كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى كسرى وقبصر وإلى كل جبار، كما تقدم في « آل عمران »^(١) :

الثامنة عشرة — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ ﴾ أمره بالتولي حسن أدب ليتنجى حسب ما يتأدب به مع الملوك . بمعنى : وكن قريباً حتى ترى مراجعتهم ؛ قاله وهب بن منبه . وقال ابن زيد : أمره بالتولي بمعنى الرجوع إليه ؛ أى ألقه وأرجع . قال وقوله : « فَأَنْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ » في معنى التقديم على قوله : « ثُمَّ تَوَلَّى » وأنساق رتبة الكلام أظهر ؛ أى ألقه ثم تول ، وفي خلال ذلك فأنظر أى أنتظر . وقيل : فأعلم ؛ كقوله : « يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ »^(٢) أى أعلم ماذا يرجعون أى يجيئون وماذا يردون من القول . وقيل : « فَأَنْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ » [يتراجعون] بينهم من الكلام .^(٣)

قوله تعالى : قَالَتْ يَأْيُهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَىٰ وَاتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ يَأْيُهَا الْمَلَأُ ﴾ في الكلام حذف ؛ والمعنى : فذهب فألقاه إليهم فسمعها وهى تقول : « يَأْيُهَا الْمَلَأُ » ثم وصفت الكتاب بالكريم إما لأنه من عند عظيم فى نفسها ونفوسهم فعظمته لإجلال لسايمان عليه السلام ؛ وهذا قول ابن زيد . وإما أنها أشارت إلى أنه مطبوع عليه بالخاتم ، فكرامة الكتاب ختمه ؛ وروى ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل : لأنه بدأ فيه بـ « بسم الله الرحمن الرحيم » وقد قال صلى الله عليه وسلم : « كل كلام لا يبدأ فيه بسم الله الرحمن الرحيم فهو أجذم » . وقيل : لأنه بدأ

فيه بنفسه ، ولا يفعل ذلك إلا الجلة . وفي حديث ابن عمر أنه كتب إلى عبد الملك بن مروان يبايعه . من عبد الله لعبد الملك بن مروان أمير المؤمنين ؛ إني أقولك بالسمع والطاعة ما استطعت ، وإن بنيت قد أقزوا لك بذلك . وقيل : توهمت أنه كتب جاء من السماء إذ كان الموصل طيرا . وقيل : « كَرِيمٌ » حسن ؛ كقوله : « وَمَقَامٌ كَرِيمٌ ^(١) » أى مجلس حسن . وقيل : وصفته بذلك ؛ لما تضمن من لين القول والموعظة في الدعاء إلى عبادة الله عز وجل ، وحسن الاستعطاف والاستلطاف من غير أن يتضمن سباً ولا لعناً ، ولا ما يغير النفس ، ومن غير كلام نازل ولا مستغلق ؛ على عادة الرسل في الدعاء إلى الله عز وجل ؛ ألا ترى إلى قول الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم : « أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ^(٢) » وقوله لموسى وهرون : « فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ^(٣) » . وكلها وجوه حسنة وهذا أحسنها . وقد روى أنه لم يكتب بسم الله الرحمن الرحيم أحد قبل سليمان . وفي قراءة [عبد الله ^(٤)] « وَإِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ » بزيادة واو .

الثانية — الوصف بالكريم في الكتاب غاية الوصف ؛ ألا ترى قوله تعالى : « إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ^(٥) » وأهل الزمان يصفون الكتاب بالخطير والأثير والمبرور ؛ فإن كان لملك قالوا : العزيز وأسقطوا الكريم غفلة ، وهو أفضلها خصلة . فأما الوصف بالعزيز فقد وصف به القرآن في قوله تعالى : « وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ^(٥) . لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ^(٥) » فهذه عزته وليست لأحد إلا له ؛ فاجتنبوها في كتبكم ، وأجعلوا بدلها العالی ؛ توفية لحق الولاية ، وحياطة للديانة ؛ قاله القاضي أبو بكر بن العربي .

الثالثة — كان رسم المتقدمين إذا كتبوا أن يبدءوا بأنفسهم من فلان إلى فلان ، وبذلك جاءت الآثار . وروى الربيع عن أنس قال : ما كان أحد أعظم حرمة من النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان أصحابه إذا كتبوا بدءوا بأنفسهم . وقال ابن سيرين قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن أهل فارس إذا كتبوا بدءوا بعظائمهم فلا يبدأ الرجل إلا بنفسه »

(١) راجع ج ١٦ ص ١٢٨ . (٢) راجع ج ١٠ ص ٢٠٠ . (٣) راجع ج ١١ ص ١٩٩ .

(٤) في الأصول : « وفي قراءة أبي » وهو مخالف لما عليه كتب التفسير ، فالمراد عن أبي أنه قرأ : « أن من سليمان وإن

بسم الله الرحمن الرحيم » بفتح الهمزة وتخفيف النون وحذف الهاء . (٥) راجع ج ١٧ ص ٢٢٣ و ص ٣٦٦ .

قال أبو الليث في كتاب « البستان » له : ولو بدأ بالمكتوب إليه لحاز ؛ لأن الأمة قد آجتمعت عليه وفعلوه لمصلحة رأوا في ذلك ، أو نسخ ما كان من قبل ؛ فالأحسن في زماننا هذا أن يبدأ بالمكتوب إليه ، ثم بنفسه ؛ لأن البداية بنفسه تعد منه استخفافا بالمكتوب [إليه] ^(١) وتكبرا عليه ؛ إلا أن يكتب إلى عهد من عبيده ، أو غلام من غلمانه .

الرابعة — وإذا ورد على إنسان كتاب بالتحية أو نحوها ينبغي أن يرد الجواب ؛ لأن الكتاب من الغائب كالسلام من الحاضر . وروى عن ابن عباس أنه كان يرى رد الكتاب واجبا كما يرى رد السلام . والله أعلم .

الخامسة — اتفقوا على كتب « بسم الله الرحمن الرحيم » في أول الكتب والرسائل ، وعلى ختمها ؛ لأنه أبعد من الريبة ، وعلى هذا جرى الرسم ، وبه جاء الأثر عن عمر بن الخطاب أنه قال : أيما كتاب لم يكن مختوما فهو أغلف . وفي الحديث : « كرم الكتاب ختمه » . وقال بعض الأدباء ؛ هو ابن المقفع : من كتب إلى أخيه كتابا ولم يختمه فقد استخف به ؛ لأن الختم ختم . وقال أنس : لما أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يكتب إلى العجم ف قيل له : إنهم لا يقبلون إلا كتابا عليه ختم ؛ فأصطنع خاتما ونقش على فصره (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ^(٢) وكأني أنظر إلى ويبصه وبياضه في كفه .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ « وَإِنَّهُ » بالكسر فيهما أى وإن الكلام ، أو إن مبتدأ الكلام « بسم الله الرحمن الرحيم » . وأجاز الفراء ^(٣) « أَنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَأَنَّهُ » بفتحهما جميعا على أن يكونا في موضع رفع بدل من الكتاب ؛ بمعنى ألقى إلى أنه من سليمان . وأجاز أن يكونا في موضع نصب على حذف الخافض ؛ أى لأنه من سليمان ولأنه ؛ كأنها عللت كرمه بكونه من سليمان وتصديره بسم الله . وقرأ الأشهب العنقبلى ومحمد بن السَّمِيع : « أَلَّا تَعْلَمُوا » بالغين المعجمة ؛ وروى عن وهب بن منبه ؛ من غلا يغلو إذا تجاوز وتكبر . وهى راجعة إلى معنى قراءة الجماعة . ﴿ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ أى متقادين طائعين مؤمنين .

(١) من ك . (٢) الوبيص : البريق واللعان . (٣) فى ك : بدل من الكلام .

قوله تعالى : قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُون (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةً أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي) الملاء أشرف القوم وقد مضى في سورة « البقرة » القول فيه . قال ابن عباس : كان معها ألف قيل . وقيل : اثنا عشر ألف قيل مع كل قيل مائة ألف . والقيل الملك دون الملك الأعظم . فأخذت في حسن الأدب مع قومها ، ومشاورتهم في أمرها ، وأعلمتهم أن ذلك مطرد عندها في كل أمر يعرض ، بقولها : (مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُون) فكيف في هذه النازلة الكبرى . فراجعها الملا بما يقر عينها ، من إعلامهم بإياها بالقوة والبأس ، ثم سلموا الأمر إلى نظرها ، وهذه محاورة حسنة من الجميع . قال قتادة : ذكر لنا أنه كان لها ثمانمائة وثلاثة عشر رجلا هم أهل مشورتها ، كل رجل منهم على عشرة آلاف .

الثانية — في هذه الآية دليل على صحة المشاورة . وقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : (وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ) في « آل عمران » إما استعانة بالآراء ، وإما مداراة للأولياء . وقد مدح الله تعالى الفضلاء بقوله : (وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنِهِمْ) . والمشاورة من الأمر القديم وخاصة في الحرب ، فهذه بلقيس امرأة جاهلية كانت تعبد الشمس : (قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُون) لتختبر عزمهم على مقاومة عدوهم ، وحزمهم فيما يقسم أمرهم ، وإمضائهم على الطاعة لها ، بما لها بأنهم إن لم يبيذلوا أنفسهم وأموالهم ودماءهم دونها لم يكن لها طاقة بمقاومة عدوها ، وإن لم يجتمع أمرهم وحزمهم وجِدْهم كان ذلك عوناً لعدوهم عليهم ، وإن لم تختبر ما عندهم ، وتعلم قدر عزمهم لم تكن على بصيرة

من أمرهم ، وربما كان في استبدادها برأيها وهن في طاعتها ، ودخيلة في تقدير أمرهم ، وكان في مشاورتهم وأخذ رأيهم عون على ما تريده من قوة شوكتهم ، وشدة مدافعتهم ؛ ألا ترى إلى قولهم في جوابهم : ﴿ نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ . قال ابن عباس : كان من قوة أحدهم أنه يركض فرسه حتى إذا احتدّ ضم نخذه فخبسه بقوته .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ سلموا الأمر إلى نظرها مع ما أظهروا لها من القوة والبأس والشدة ، فلما فعلوا ذلك أخبرت عند ذلك بفعل الملوك بالقرى التي يتغلبون عليها . وفي هذا الكلام خوف على قومها ، وحيلة واستعظام لأمر سليمان عليه السلام . ﴿ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ قيل : هو من قول بلقيس تأكيداً للمعنى الذي أرادته . وقال ابن عباس : هو من قول الله عز وجل معرفاً لمحمد صلى الله عليه وسلم وأمنته بذلك ونخبها به . وقال وهب : لما قرأت عليهم الكتاب لم تعرف اسم الله ، فقالت : ما هذا ؟ ! فقال بعض القوم : ما نظن هذا إلا عفريتاً عظيماً من الجن يقتدر به هذا الملك على ما يريد به ؛ فسكتوه . وقال الآخر : أراهم ثلاثة من العفاريت ؛ فسكتوه ؛ فقال شاب قد علم : يا سيدة الملوك ! إن سليمان ملك قد أعطاه ملك السماء ملكاً عظيماً فهو لا يتكلم بكلمة إلا بدأ فيها بتسمية إلهه ، والله اسم ملك السماء ، والرحمن الرحيم نعوته ؛ فعندها قالت : « أَفْتُونِي فِي أَمْرِي » فقالوا : « نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ » في القتال « وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ » ^(١) [قوة] في الحرب واللقاء « وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ » ردوا أمرهم إليها لما جربوا على رأيها من البركة « فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ » فـ « فَقَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً » أهانوا شرفاءها لتستقيم لهم الأمور ، فصديق الله قولها . « وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ » قال ابن الأنباري : « وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً » هذا وقف تام ؛ فقال الله عز وجل تحقيقاً لقولها : « وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ » وشبهه به في سورة « الأعراف » ^(٢) « قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ . يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ » ثم الكلام ، فقال فرعون : « فَمَاذَا تَأْمُرُونَ » . وقال ابن شجرة : هو قول بلقيس ، فالوقف « وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ » أي وكذلك يفعل سليمان إذا دخل بلادنا .

قوله تعالى : وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ) هذا من حسن نظرها وتدبيرها ؛ أى لى أجب هذا الرجل بهدية ، وأعطيه فيها نفاس من الأموال ، وأغرب عليه بأموال المملكة : فإن كان ملكا دنياويا أرضاه المال وعملنا معه بحسب ذلك ، وإن كان نبيا لم يرضه المال ولا زمتنا فى أمر الدين ، فينبغى لنا أن نؤمن به ونتبعه على دينه ، فبعثت إليه بهدية عظيمة أكثر الناس فى تفصيلها ، فقال سعيد بن جبیر عن ابن عباس : أرسلت إليه بلينة من ذهب ، فرأت الرسل الحيطان من ذهب فصغر عندهم ما جاءوا به . وقال مجاهد : أرسلت إليه بمائتى غلام ومائتى جارية . وروى عن ابن عباس : بأثنتى عشرة وصيفة مذكرين قد ألبستهم زى العلمان ، وأثنى عشر غلاما . وثنتين قد ألبستهم زى النساء ، وعلى يد الوصائف أطباق مسك وعنبر ، وبأثنتى عشرة نجبية تحمل لبن الذهب ، ونخريتين إحداهما غير مثقوبة ، والأخرى مثقوبة ثقبا معوجا ، وبقدح لاشىء فيه ، وبعضا كان يتوارثها ملوك حمير ، وأنفذت الهدية مع جماعة من قومها . وقيل : كان الرسول واحدا ولكن كان فى صحبته أتباع وخدم . وقيل : أرسلت رجلا من أشراف قومها يقال له المنذر بن عمرو ، وضمت إليه رجلا ذوى رأى وعقل ، والهدية مائة وصيف ومائة وصيفة ، قد خولف بينهم فى اللباس ، وقالت للعلان : إذا كلمكم سليمان فكلّموه بكلام فيه تأنيث يشبه كلام النساء ، وقالت للجوارى : كلّمنه بكلام فيه غلط يشبه كلام الرجال ؛ فيقال : إن الهدهد جاء وأخبر سليمان بذلك كله . وقيل : إن الله أخبر سليمان بذلك ، فأمر سليمان عليه السلام أن يبسط من موضعه إلى تسع فراسخ بلينات الذهب والفضة ، ثم قال : أى الدواب رأيتم أحسن فى البر والبحر ؟ قالوا : يا نبى الله رأينا فى بحر كذا دواب منقطة مختلفة ألوانها ، لها أجنحة وأعراف ونواصى ؛ فأمر بها فجاءت فشدت على يمين الميدان وعلى يساره ، وعلى لينات الذهب والفضة ، وألقوا لها علوفاتها ؛ ثم قال : للجن على بأولادكم ؛ فأقامهم — أحسن ما يكون من الشباب — عن يمين

المبدان ويساره . ثم قعد سليمان عليه السلام على كرسيه في مجلسه ، ووضع له أربعة آلاف كرمى من ذهب عن يمينه ومثلها عن يساره ، وأجلس عليها الأنبياء والعلماء ، وأمر الشياطين والجن والإنس أن يصطفوا صفوفا فراسخ ، وأمر السباع والوحوش والهوام والطيور فأصطفوا فراسخ عن يمينه وشماله ، فلما دنا القوم من الميدان ونظروا إلى ملك سليمان ، ورأوا الدواب التي لم تر أعينهم أحسن منها تروث على لبنات الذهب والفضة ، تقاصرت إليهم أنفسهم ، ورموا ما معهم من الهدايا . وفي بعض الروايات : إن سليمان لما أمرهم بفرش الميدان بلبنات الذهب والفضة أمرهم أن يتركوا على طريقهم موضعا على قدر موضع بساط من الأرض غير مفروش ، فلما مروا به خافوا أن يهتموا بذلك فطرحوا ما معهم في ذلك المكان ، فلما رأوا الشياطين رأوا منظرا هائلا فظيعا ففرعوا وخافوا ، فقالت لهم الشياطين : جُوزُوا لا بأس عليكم ، فكانوا يمشون على كُرْدُوس كُرْدُوس من الجن والإنس والبهائم والطيور والسباع والوحوش حتى وقفوا بين يدي سليمان ، فنظر إليهم سليمان نظرا حسنا بوجه طلق ، وكانت قالت لرسولها : إن نظركم إليك نظر مغضب فأعلم أنه ملك فلا يهولك منظره فأنا أعز منه ، وإن رأيت الرجل بشا لطيفا فأعلم أنه نبي مرسل فتفهم قوله ورد الجواب ، فأخبر الهدد سليمان بذلك على ما تقدم . وكانت عمدت إلى حُقَّة من ذهب فجعلت فيها دُرَّة يتيمة غير مثقوبة ، وخرزة معوجة الثقب ، وكتبت كتابا مع رسولها تقول فيه : إن كنت نبيا فيزيين الوصفاء والوصائف ، وأخبر بما في الحُقَّة وعرفني رأس العصا من أسفلها ، وأنقب الدُرَّة ثقباً مستويا ، وأدخل خيط الخرزة ، وأملأ القدح ماء من ندى ليس من الأرض ولا من السماء ، فلما وصل الرسول ووقف بين يدي سليمان أعطاه كتاب الملكة فنظر فيه ، وقال : أين الحُقَّة ؟ فاتى بها فحركها ، فأخبره جبريل بما فيها ، ثم أخبرهم سليمان . فقال له الرسول : صدقت ، فأنقب الدُرَّة ، وأدخل الخيط في الخرزة ، فسأل سليمان الجن والإنس عن ثقبها فعجزوا ، فقال للشياطين : ما الرأي فيها ؟ فقالوا : ترسل إلى الأرضة ، بجأت الأرضة فأخذت شعرة في فيها حتى خرجت من الجانب الآخر ، فقال لها سليمان : ما حاجتك ؟ قالت : تصير رزقي في الشجرة ؛

فقال لها : لك ذلك . ثم قال سليمان : من لهذه الخمرزة يسلكها الخيط ؟ فقالت دودة بيضاء : أنا لها يا نبي الله ؛ فأخذت الدودة الخيط في فيها ودخلت الثقب حتى خرجت من الجانب الآخر ؛ فقال لها سليمان : ما حاجتك ؟ قالت تجعل رزقي في الفواكه ؛ قال : ذلك لك . ثم ميزين الغلمان [والحواري^(١)] . قال السدي : أمرهم بالوضوء ، بفعل الرجل يحذر الماء على اليد والرجل حذرا ، وجعل الحواري يصبين من اليد اليسرى على اليد اليمنى ، ومن اليمنى على اليسرى ، فميز بينهم بهذا . وقيل : كانت الحارية تأخذ الماء من الآنية بإحدى يديها ، ثم تتحمله على الأخرى ، ثم تضرب به على الوجه ، والغلام كان يأخذ الماء من الآنية يضرب به في الوجه ، والحارية تصب على بطن ساعدها ، والغلام على ظهر الساعد ، والحارية تصب الماء صبا ، والغلام يحذر على يديه ؛ فميز بينهم بهذا . وروى يعلى بن مسلم عن سعيد بن جبير قال : أرسلت بلقيس بمائتي وصيفة ووصيف ، وقالت : إن كان نبياً فسيعلم الذكور من الإناث ؛ فأمرهم فنوضئوا ؛ فن أوضأ منهم فبدأ بمرفقه قبل كفه قال هو من الإناث ، ومن بدأ بكفه قبل مرفقه قال هو من الذكور ؛ ثم أرسل العصا إلى الهواء فقال : أي الرأسين سبق إلى الأرض فهو أصلها ، وأمر بالخليل فأجريت حتى عرقت وملاً القدح من عرقها ، ثم رد سليمان الهدية ؛ فروى أنه لما صرف الهدية إليها وأخبرها رسولها بما شاهد ؛ قالت لقومها : هذا أمر من السماء^(٢) .

الثانية — كان النبي صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية ويثبت عليها ولا يقبل الصدقة ، وكذلك كان سليمان عليه السلام وسائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين . وإنما جعلت بلقيس قبول الهدية أوردتها علامة على ما في نفسها ؛ على ما ذكرناه من كون سليمان ملكاً أو نبياً ؛ لأنه قال لها في كتابه : « أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ » وهذا لا تقبل فيه فدية ، ولا يؤخذ عنه هدية ، وليس هذا من الباب الذي تقرر في الشريعة عن قبول الهدية بسبيل ، وإنما هي رشوة وبيع الحق بالباطل ، وهي الرشوة التي لا تحل . وأما الهدية المطلقة للمتجيب والتواصل فإنها جائزة من كل أحد وعلى كل حال ، وهذا ما لم يكن ممن مشرك .

(١) الزيادة من « قصص الأنبياء » للنسائي . (٢) في ز : قال لها هذا أمر من السماء .

الثالثة - فإن كانت من مشرك ففي الحديث "نُهِيتُ عَنْ زَبْدِ الْمُشْرِكِينَ" يعني رِفْدَهُمْ وَعَطَايَاهُمْ. وروى عنه عليه السلام أنه قبلها كما في حديث مالك عن ثور بن زيد الدبلي وغيره ، فقال جماعة من العلماء بالنسخ فيهما ، وقال آخرون : ليس فيها ناسخ ولا منسوخ ، والمعنى فيها : أنه كان لا يقبل هدية من يطعم بالظهور عليه وأخذ بلده ودخوله في الإسلام ، وبهذه الصفة كانت حالة سليمان عليه السلام ، فمن مثل هذا نهى أن تقبل هديته حملا على الكف عنه ؛ وهذا أحسن تأويل للعلماء في هذا ؛ فإنه جمع بين الأحاديث . وقيل غير هذا .

الرابعة - الهدية مندوب إليها ، وهي مما تورث المودة وتذهب العداوة ؛ روى مالك عن عطاء بن عبد الله الخراساني قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "تَصَاحَفُوا يَذْهَبِ الْغِلُّ وَتَهَادَوْا تَحَابُّوا وَتَذْهَبِ السَّخِيمَةُ". وروى معاوية بن الحكم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "تهادوا فإنه يضعف الود ويذهب بغوائل الصدر". وقال الدارقطني : تفرد به ابن جبير عن أبيه عن مالك ، ولم يكن بالرضي ، ولا يصح عن مالك ولا عن الزهري . وعن ابن شهاب قال : بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "تهادوا بينكم فإن الهدية تُذهب السَّخِيمَةَ" قال ابن وهب : سألت يونس عن السَّخِيمَةِ ما هي فقال : الغل . وهذا الحديث وصله الواقسي عثمان عن الزهري وهو ضعيف . وعلى الجملة : فقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقبل الهدية ، وفيه الأسوة الحسنة . ومن فضل الهدية مع اتباع السنة أنها تزيل حزازات النفوس ، وتكسب المهدي والمهدي إليه رنة في اللقاء والجلوس . ولقد أحسن من قال :

هدايا الناس بعضهم لبعض * تُؤَلَّدُ فِي قُلُوبِهِمُ الْوِصَالُ

وترزعُ في الضمير هَوَى وَوُدًّا * وَتُكْسِبُهُمْ إِذَا حَضَرُوا جَمَالًا

آخر :

إن الهدايا لها حظُّ إذا وَرَدَتْ * أَعْطَى مِنَ الْإِبْنِ عِنْدَ الْإِلَادِ الْحَدَبُ

الخامسة - روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "جلسواؤكم شركاؤكم في الهدية" واختلف في معناه ؛ فقيل : هو مجرول على ظاهره . وقيل : يشاركهم على وجه

الكرم والمروءة ، فإن لم يفعل فلا يجبر عليه . وقال أبو يوسف : ذلك في الفواكه ونحوها .
وقال بعضهم : هم شركاؤه في السرور لا في الهدية . والخبر محمول في أمثال أصحاب الصفة
والخواتم والزبائط ؛ أما إذا كان فقيها من الفقهاء آختص بها فلا شركة فيها لأصحابه ، فإن
أشركهم فذلك كرم وجود منه .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ فَنَاطِرَةٌ ﴾ أي منتظرة ﴿ يَمَّ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ قال قتادة :
يرحمها الله أن كانت لعاقلة في إسلامها وشركها ؛ قد علمت أن الهدية تقع موقعا من الناس .
وسقطت الألف في « يَم » للفرق بين « ما » الخبرية . وقد يجوز إثباتها ؛ قال :

على ما قام يشتمنى لثيم * نكزير تمرغ في رماد

قوله تعالى : فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنُ قَالَ أُمِدُّونِي بِمَالٍ فَمَا آتَدِنِيَ اللَّهُ
خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ
بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾
قَالَ يَأْتُوكَ الْمُلَكُوا أَتَيْكَ بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾
قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي
عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ
قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ
رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ
فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانُ قَالَ أُمِدُّونِي بِمَالٍ ﴾ أي جاء الرسول سليمان بالهدية قال :
« أُمِدُّونِي بِمَالٍ » . قرأ حمزة ويعقوب والأعمش : بنون واحدة مشددة وياء ثابتة بعدها .

(١) هو حسان بن المنذر يهجو بني عائذ بن عمرو بن مخزوم وقيله :

وإن تصلح فإنك عائذي * وصلح العائذي إلى فساد

الباقون بنونين وهو اختيار أبي عبيد ؛ لأنها في كل المصاحف بنونين . وقد روى إسحق عن نافع أنه كان يقرأ : « أَتُمِدُّونَ » بنون واحدة مخففة بمدّها ياء في اللفظ . قال ابن الأنباري : فهذه القراءة يجب فيها إثبات الياء عند الوقف ، ليصح لها موافقة هجاء المصحف . والأصل في النون التشديد ، تخفف التشديد من ذا الموضع كما خفف من : أشهد أنك عالم ؛ وأصله : أنك عالم . وعلى هذا المعنى بنى الذي قرأ : « يُسَاقُونَ فِيهِمْ »^(١) ، « أَتَحَاجُونَ فِي اللَّهِ »^(٢) . وقد قالت العرب : الرجال يضربون ويقصدون ، وأصله يضربون ويقصدون : لأنه إدغام يضربون ويقصدون قال الشاعر :

ترهبين والجيد منك لليلي * والحشا والبغام والعينان^(٣)

والأصل ترهبنى تخفف . ومعنى « أَتُمِدُّونِي » أتريدونى مالا إلى ما تشاهدونه من أموال . قوله تعالى : ﴿ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ ﴾ أى فما أعطانى من الإسلام والملك والنبوة خير مما أعطاكم ، فلا أفرح بالمال . و « آتَانِ » وقعت في كل المصاحف بغير ياء . وقرأ أبو عمرو ونافع وحفص : « آتَانِي اللَّهُ » بياء مفتوحة ؛ فإذا وقفوا حذفوا . وأما يعقوب فإنه يشبها في الوقف ويحذف في الوصل لالتقاء الساكنين . الباقون بغير ياء في الحاليين . ﴿ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيَتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ لأنكم أهل مفارقة ومكاثرة في الدنيا .

قوله تعالى : ﴿ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ ﴾ أى قال سليمان للنذر بن عمرو أمير الوفد ؛ أرجع إليهم بهديتهم . ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا ﴾ لام قسم والنون لها لازمة . قال النحاس : وسمعت أبا الحسن بن كيسان يقول : هى لام توكيد وكذا كان عنده أن اللامات كلها ثلاث لا غير ؛ لام توكيد ، ولام أمر ، ولام خفض ؛ وهذا قول الخدّاق من النحويين ؛ لأنهم يردون الشيء إلى أصله : وهذا لا يتبها إلا لمن درب في العربية . ومعنى « لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا » أى لا طاقة لهم عليها . ﴿ وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا ﴾ أى من أرضهم ﴿ أَدِلَّةٌ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ . وقيل : « مِنْهَا » أى من قرية سبأ . وقد سبق ذكر القرية في قوله : « إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا

(١) راجع ج ١٠ ص ٩٨ . (٢) راجع ج ٧ ص ٢٨ فما بعد . (٣) بغام الغلبة : صورتها .

قَرْيَةً أَقْسَدُوهَا . « أَذِلَّةٌ » قَدْ سُلِبُوا مَلِكُهُمْ وَعَزَّهَم . « وَهُمْ صَاغِرُونَ » أى مهانون
 أذلاء من الصغر وهو الذل إن لم يسلموا ؛ فرجع إليها رسولها فأخبرها ؛ فقالت : قد عرفت
 أنه ليس بملك ولا طاقة لنا بقتال نبي من أنبياء الله . ثم أمرت بعرشها فجعل في سبعة
 أبيات بعضها في جوف بعض ؛ في آخر قصر من سبعة قصور ؛ وغلقت الأبواب ، وجعلت
 الحرس عليه ، وتوجهت إليه في آثني عشر ألف قبيل^(١) من ملوك اليمن ، تحت كل قبيل
 مائة ألف . قال ابن عباس : وكان سليمان مهيبا لا يتبدأ بشيء حتى يكون هو الذى
 يسأل عنه ؛ فنظر ذات يوم رجلا قريبا منه ، فقال : ما هذا ؟ فقالوا : بلقيس يا نبي الله .
 فقال سليمان لجنوده - وقال وهب وغيره : للجن - (أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ)
 وقال عبد الله بن شداد : كانت بلقيس على فرسخ من سليمان لما قال : « أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا »
 وكانت خلفت عرشها بسبا ، وركلت به حنظلة . وقيل : لأنها لما بعثت بالهدية بعثت رسلا
 في جندها لتغاص^(٢) سليمان عليه السلام بالقتل قبل أن يتأهب سليمان لها إن كان طالب ملك ،
 فلما علم ذلك قال : « أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا » . قال ابن عباس : كان أمره بالإتيان بالعرش
 قبل أن يكتب الكتاب إليها ، ولم يكتب إليها حتى جاءه العرش . وقال ابن عطية : وظاهر
 الآيات أن هذه المقالة من سليمان عليه السلام بعد مجيء هديتها وردّه إياها ، وبعثه الهدهد
 بالكتاب ؛ وعلى هذا جمهور المتأولين . واختلفوا في فائدة استدعاء عرشها ؛ فقال قتادة :
 ذكر له بعظم وجودة ؛ فأراد أخذه قبل أن يعصمها وقومها الإسلام ويحمي أموالهم ؛ والإسلام
 على هذا الدين ؛ وهو قول ابن جريج . وقال ابن زيد : استدعاه ليرى القادرة التي هي من
 عند الله ، ويجعله دليلا على نبوته ؛ لأخذه من بيوتها دون جيش ولا حرب ؛ و « مسلمين »
 على هذا التأويل بمعنى مسلمين ؛ وهو قول ابن عباس . وقال ابن زيد أيضا : أراد أن يختبر
 عقلها ولهذا قال : (نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرُ أَتَنْهَدَى) . وقيل : خافت الجن أن يزوج بها
 سليمان عليه السلام فيولد له منها [ولد] ، فلا يزالون في السخرة والخدمة لنسل سليمان فقالت سليمان

(١) في ك : قند ، تحت كل قند . (٢) الرج : العبار . (٣) المغاضة : الأخذ على غرة .

(٤) في ب وك : على ثقافها : أى حذرها . (٥) من ك .

في عقلها خلل ؛ فأراد أن يمتحنها بعرشها . وقبل : [أراد^(١)] أن يختبر صدق الهدهد في قوله : « وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ » قاله الطبري . وعن قتادة : أحب أن يراه لما وصفه الهدهد . والقول الأول عليه أكثر العلماء ؛ لقوله تعالى : « قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ » . ولأنها لو أسلمت لحظر عليه ما لها فلا يؤتى به إلا بإذنها . روى أنه كان من فضة وذهب مرصعا بالياقوت الأحمر والجوهر ، وأنه كان في جوف سبعة أبيات عليه سبعة أغلاق .

قوله تعالى : (قَالَ عَفْرِيَّتٌ مِنَ الْجِنِّ) كذا قرأ الجمهور وقرأ أبو رجاء وعيسى الثقفي : « عَفْرِيَّةٌ » ورويت عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه . وفي الحديث ، « إن الله يغيض العفريّة النفريّة » . [النفريّة] إتياع لعفريّة . قال قتادة : هي الداهية قال النحاس : يقال للشديد إذا كان معه خبث ودهاء عِفْرٌ وعِفْرِيّةٌ وعِفْرِيّتٌ وعِفْأَرِيّةٌ . وقيل : « عفريت » أى رئيس . وقرأت فرقة : « قال عِفْرٌ » بكسر العين ؛ حكاه ابن عطية ؛ قال النحاس : من قال عفريّة جمعه على عفّارٍ ، ومن قال : عفريت كان له في الجمع ثلاثة أوجه ؛ إن شاء قال عفاريت ، وإن شاء قال عفّارٍ ؛ لأن التاء زائدة ؛ كما يقال : طواغيت في جمع طاغوت ، وإن شاء عوض من التاء ياء فقال عفّارى . والعفريت من الشياطين القوى المسارد . والتاء زائدة . وقد قالوا : تَعَفَّرَتِ الرجل إذا تخلق بخلق الأذية . وقال وهب بن منبه : اسم هذا العفريت كودن ؛ ذكره النحاس . وقيل : ذكوان ؛ ذكره السهيلي . وقال شعيب الجُبّائي : اسمه دعوان . وروى عن ابن عباس أنه صخر الجنى . ومن هذا الاسم قول ذى الرّمة :

كَأَنَّهُ كَوَكَبٌ فِي إِثْرِ عَفْرِيَةٍ * مُصَوَّبٌ^(٢) فِي سَوَادِ اللَّيْلِ مُنْقَضِبٌ
وَأُنْشَدَ الْكَسَائِيُّ^(٤) :

إِذَا قَالَ شَيْطَانُهُمُ الْعِفْرِيَّتُ • لَيْسَ لَكُمْ مُلْكٌ وَلَا تَنْبِيْتُ

(١) من ب . (٢) من ك . (٣) وفي ديوانه طبع أوربا « مسوم » بدل « مصوب » وهو

يعنى معلم منتضب والبيت في وصف نور وحشى ؛ كأن النور كوكب مصوب منتضب في إثر عفريّة في سواد الليل .

(٤) البيت لرؤبة من قصيدة يندح بها مسلمة بن عبد الملك .

وفي الصحيح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” إن عفريتاً من الجن جعل يفتك على الباردة ليقطع على الصلاة وإن الله أمكنني منه فدعته ^(٢) “ وذكر الحديث .
وفي البخاري ” تفلت على الباردة “ مكان ” جعل يفتك “ . وفي ” الموطأ “ عن يحيى ابن سعيد أنه قال : أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرأى عفريتاً من الجن يطلبه بشعلة من نار ، كلما التفت رسول الله صلى الله عليه وسلم رآه ؛ فقال جبريل : أفلا أعلمك كلمات تقولن إذا قلتن طفت شعلته ونحرفيه ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” بلى “ فقال : ” أعوذ بالله الكريم وبكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن برؤلاً فاجر ^(٥) من شر ما ينزل من السماء وشر ما يعرج فيها [وشر ما ذرأ في الأرض ، وشر ما يخرج منها] ومن قن الليل والنهار ومن طوارق الليل والنهار إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن “ .

قوله تعالى : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ﴾) يعني في مجلسه الذي يحكم فيه .
﴿ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيَّ أَمِينٌ ﴾) أى قوى على حمله . « أَمِينٌ » على ما فيه . ابن عباس : أمين على فرج المرأة ؛ ذكره المهدوى . فقال سايان أريد أسرع من ذلك ؛ فـ ﴿ يَقَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾) أكثر المفسرين على أن الذى عنده علم من الكتاب آصف بن برخيا وهو من بنى إسرائيل ، وكان صديقاً يحفظ اسم الله الأعظم الذى إذا سئل به أعطى ، وإذا دعى به أجاب . وقالت عائشة رضى الله عنها قال النبي صلى الله عليه وسلم ” إن أسم الله الأعظم الذى دعا به آصف بن برخيا يا حي يا قيوم “ قيل : وهو بلسانهم ، أهيا شراهما ؛ وقال الزهرى : دعاء الذى عنده أسم الله الأعظم ؛ يا إلهنا وإله كل شئ إلهنا وإله لا إله إلا أنت آيتنى بعرشها ؛ فثمل بين يديه . وقال مجاهد : دعا فقال : يا إلهنا وإله كل شئ يا ذا الجلال والإكرام . قال السهيلي : الذى عنده علم من الكتاب هو آصف بن برخيا ابن خالة سايان ؛ وكان عنده أسم الله الأعظم من أسماء الله تعالى .

(١) الفتك : الأخذ في غفلة وخذية . (٢) فدعته : أى دفعته دفعا شديدا . وفي رواية ” فدعته “ بالذال المعجمة ومعناه خنفته . (٣) ” تفلت “ : أى تعرض لى فلة أى بغته . (٤) فى ك : أعوذ بوجه الله العظيم . (٥) من ب .

وقيل : هو سليمان نفسه ، ولا يصح في سياق الكلام مثل هذا التأويل . قال ابن عطية :
وقالت فرقة هو سليمان عليه السلام ، والمخاطبة في هذا التأويل للعفريت لما قال :
« أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ » كأن سليمان استبطأ ذلك فقال له على جهة تحقيره :
« أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ » وأستدل قائلو هذه المقالة بقول سليمان :
« هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي » .

قلت : ما ذكره ابن عطية قاله النحاس في معاني القرآن له ، وهو قول حسن إن شاء
الله تعالى . قال بحر : هو ملك بيده كتاب المقادير ، أرسله الله عند قول العفريت . قال
السَّهَيْلِي : وذكر محمد بن الحسن المقرئ أنه ضَبَّة بن أذ ، وهذا لا يصح البتة لأن ضَبَّة
هو ابن أذ بن طابخة ، وأسمه عمرو بن إلياس بن مضر بن زار بن معد : ومعد كان في مدة
بختنصر ، وذلك بعد عهد سليمان بدهر طويل ، فإذا لم يكن معد في عهد سليمان ، فكيف
ضَبَّة بن أذ وهو بعده بخمسة آباء ؟ ! وهذا بين لمن تأمله . ابن هليعة : هو الخضر عليه
السلام . وقال ابن زيد : الذي عنده علم من الكتاب رجل صالح كان في جزيرة من جزائر
البحر ، خرج ذلك اليوم ينظر من ساكن الأرض ، وهل يعبد الله أم لا ؟ فوجد سليمان ،
فدعا باسم من أسماء الله تعالى بغيء بالعرش . وقول سابع : إنه رجل من بني إسرائيل
أسمه يَمْلِيخا كان يعلم اسم الله الأعظم ، ذكره القشيري . وقال ابن أبي بزة : الرجل الذي
كان عنده علم من الكتاب اسمه أسطوم وكان عابدا في بني إسرائيل ، ذكره الغزنوي .
وقال محمد بن المنكدر : إنما هو سليمان عليه السلام ، أما إن الناس يرون أنه كان معه اسم
وإيس ذلك كذلك ، إنما كان رجل من بني إسرائيل عالم آتاه الله علما وفقها قال : « أَنَا
آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ » قال : هات . قال : أنت نبي الله ابن نبي الله فإن
دعوت الله جاءك به ، فدعا الله سليمان فجاءه الله بالعرش . وقول ثامن : إنه جبريل عليه
السلام ، قاله النخعي ، وروى عن ابن عباس . وعلم الكتاب على هذا علمه يكتب الله المنزل ،
أو بما في اللوح المحفوظ . وقيل : علم كتاب سليمان إلى بلقيس . قال ابن عطية : والذي

عليه الجمهور من الناس أنه رجل صالح من بنى إسرائيل اسمه آصف بن برخيا ؛ روى أنه صلى ركعتين ، ثم قال لسليمان : يا نبي الله أمدد بصرك فمَدَّ بصره نحو اليمن فإذا بالعرش ، فما ردَّ سليمان بصره إلا وهو عنده . قال مجاهد : هو إدامة النظر حتى يرتد طرفه خاسئا حسيرا . وقيل : أراد مقدار ما يفتح عينه ثم يطرف ، وهو كما تقول : آفعل كذا في لحظة مين ؛ وهذا أشبه ؛ لأنه إن كان الفعل من سليمان فهو معجزة ، وإن كان من آصف أو من غيره من أولياء الله فهي كرامة ، وكرامة الولي معجزة النبي . قال القشيري : وقد أنكر كرامات الأولياء من قال إن الذي عنده علم من الكتاب هو سليمان ، قال للعفريت : «أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ» . وعند هؤلاء ما فعل العفريت فليس من المعجزات ولا من الكرامات ، فإن الجن يقدرُون على مثل هذا . ولا يقطع جوهر في حال واحدة مكانين ، بل يتصور ذلك بأن يعدم الله الجوهر في أقصى الشرق ثم يعيده في الحالة الثانية ، وهي الحالة التي بعد العدم في أقصى الغرب . أو يعدم الأماكن المتوسطة ثم يعيدها . قال القشيري : ورواه وهب عن مالك . وقد قيل : بل جرى به في الهواء ؛ قاله مجاهد . وكان بين سليمان والعرش كما بين الكوفة والحيرة . وقال مالك : كانت باليمن وسليمان عليه السلام بالشام . وفي التفاسير أنخرق بعرش بلقيس مكانه الذي هو فيه ثم نبع بين يدي سليمان ؛ قال عبد الله بن شداد : وظهر العرش من نفق تحت الأرض ؛ فالله أعلم أي ذلك كان .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ ﴾ أي ثابتا عنده . ﴿ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي ﴾ أي هذا النصر والتمكين من فضل ربى . ﴿ لِيَبْلُوَنِي ﴾ قال الأخفش : المعنى لينظر ﴿ أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ . وقال غيره : معنى « لِيَبْلُوَنِي » ليتعبدنى ؛ وهو مجاز . والأصل في الابتلاء الاختبار أي ليختبرنى أشكر نعمته أم أكفرها ﴿ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ أي لا يرجع نفع ذلك إلا إلى نفسه ، حيث أستوجب بشكره تمام النعمة ودوامها والمزيد منها . والشكر قبل النعمة الموجودة ؛ وبه تنال النعمة المفقودة . ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ ﴾ أي عن الشكر ﴿ كَرِيمٌ ﴾ في التفضل .

(١) في ب و ك : قاله القشيري ورواه ابن وهب . (٢) في ك : المقصودة .

قوله تعالى : قَالَ نَكُرُّوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرُ أَتَنْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : (قَالَ نَكُرُّوا لَهَا عَرْشَهَا) أى غيروه . قيل : جعل أعلاه أسفله ، وأسفله أعلاه . وقيل : غير بزيادة أو نقصان . قال الفراء وغيره : إنما أمر بتكبيره لأن الشياطين قالوا له : إن فى عقلها شيئا فأراد أن يمتحنها . وقيل : خافت الجن أن يتزوج بها سليمان فيولد له منها ولد فيبقون مسخرين لآل سليمان أبدا ، فقالوا لسليمان : إنها ضعيفة العقل ، ورجلها كرجل الحمار ؛ فقال : « نَكُرُّوا لَهَا عَرْشَهَا » لنعرف عقابها . وكان لسليمان ناصح من الجن ، فقال كيف لى أن أرى قدميها من غير أن أسألها كشفها ؟ فقال : أنا أجعل فى هذا القصر ماء ، وأجعل فوق الماء زجاجا ، تظن أنه ماء فترفع ثوبها فتري قدميها ؛ فهذا هو الصرح الذى أخبر الله تعالى عنه .

قوله تعالى : (فَلَمَّا جَاءَتْ) يريد بلقيس ، (قِيلَ) لها (أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ) شبهته به لأنها خلفته تحت الأغلاق ، فلم تقتر بذلك ولم تنكر ، فعلم سليمان كمال عقابها . قال عكرمة : كانت حكيمة فقالت : « كَأَنَّهُ هُوَ » . وقال مقاتل : عرفته ولكن شبهت عليهم كما شبهوا عليها ؛ ولو قيل لها : أهدأ عرشك لقات نعم هو ؛ وقاله الحسن بن الفضل أيضا . وقيل : أراد سليمان أن يظهر لها أن الجن مسخرون له ، وكذلك الشياطين لتعرف أنها نبوة وتؤمن به . وقد قيل هذا فى مقابلة تعميتها الأمر فى باب العلمان والحوارى . (وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا) قيل : هو من قول بلقيس ؛ أى أوتينا العلم بصحة نبوة سليمان من قبل هذه الآية فى العرش (وَكُنَّا مُسْلِمِينَ) منقادين لأمره . وقيل : هو من قول سليمان أى أوتينا العلم

بقدره الله على ما يشاء من قبل هذه المرة . وقيل : « وَأَوْثَقْنَا الْعِلْمَ » بإسلامها ومجيئها طائفة من قبل مجيئها . وقيل : هو من كلام قوم سليمان . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ الوقف على « مِنْ دُونِ اللَّهِ » حسن ؛ والمعنى : منعها من أن تعبد الله ما كانت تعبد من الشمس والقمر فـ « ما » في موضع رفع . النحاس ؛ أى صدها عبادتها من دون الله وعبادتها إياها عن أن تعلم ما علمناه [عن أن تسلم^(١)] . ويجوز أن يكون « ما » في موضع نصب ، ويكون التقدير : وصدها سليمان عما كانت تعبد من دون الله ؛ أى حال بينها وبينه . ويجوز أن يكون المعنى : وصدها الله ؛ أى منعها الله عن عبادتها غيره فحذفت « عن » وتعدى الفعل . نظيره : « وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ^(٢) » أى من قومه . وأنشد سيبويه :

وَنَبِئْتُ عَبْدَ اللَّهِ بِالْحَوْ أَصْبَحْتُ * كِرَامًا مَوَالِيهَا لَيْثًا صَمِيمُهَا

وزعم أن المعنى عنده نبئت عن عبد الله . (إِنَّمَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ) قرأ سعيد بن جبيرة : « أنها » بفتح الهمزة ، وهى في موضع نصب بمعنى لأنها . ويجوز أن يكون بدلا من « ما » فيكون في موضع رفع إن كانت « ما » فاعلة الصد . والكسر على الاستئناف .

قوله تعالى : قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ^٣ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُحَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ^٤ مِنْ قَوَارِيرَ^٥ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ﴾ التقدير عند سيبويه : أدخلى إلى الصرح فحذف إلى وعدى الفعل . وأبو العباس يغلطه في هذا ؛ قال : لأن دخل يدل على مدخول . وكان الصرح صحنًا من زجاج تحته ماء وفيه الحيتان ، عمله ليرىها ملكا أعظم من ملكها ؛ قاله مجاهد .

(١) الزيادة من إعراب القرآن للنحاس (٢) راجع ج ٧ ص ٢٩٣ فابعد .

(٣) البيت للفرزدق ، وأراد يعبد الله القبيلة ، وهى عبد الله بن دارم .

وقال قتادة : كان من قوارير خلفه ماء « حَسْبَتْهُ لُحَّةٌ » أى ماء . وقيل : الصرح القصر ، عن أبي عبيدة . كما قال^(١) :

* تَحْسِبُ أَعْلَامَهُنَّ الصُّرُوحَا *

وقيل : الصُّرُوحُ الصُّحُنْ ، كما يقال : هذه صُرُوحُ الدار وقاعتها ، بمعنى . وحكى أبو عبيدة في الغريب المصنف أن الصُّرُوحَ كل بناء عال مرتفع من الأرض ، وأن المرد الطويل . النحاس : أصل هذا أنه يقال لكل بناء عمل عملا واحدا صرح ، من قولهم : لبن صريح إذا لم يشبه ماء ، ومن قولهم : صرَّح بالأمر ، ومنه : عربى صريح . وقيل : عمله ليختبر قول الجن فيها إن أمها من الجن ، ورجلها رجل حمار ، قاله وهب بن منبه . فلما رأت اللجة فزعت وظنت أنه قصد بها الغرق : وتعجبت من كون كرسيه على الماء ، ورأت ما هالها ، ولم يكن^(٢) لها بد من أمثال الأمر . (وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا) فإذا هى أحسن الناس ساقا ، سليمة مما قالت الجن ، غير أنها كانت كثيرة الشعر ، فلما بلغت هذا الحد ، قال لها سليمان بعد أن صرف بصره عنها : « إِنَّهُ صَرَحَ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ » والمرد المحكوك الملس ، ومنه الأمرد . وتمرد الرجل إذا أبطأ خروج لحيته بعد إدراكه ، قاله الفراء . ومنه الشجرة المرداء التى لا ورق عليها . ورملة مرداء إذا كانت لا تثبت . والمرد أيضا المطوَّل ، ومنه قيل للخصن مارد . أبو صالح : طويل على هيئة النخلة . ابن شجرة : واسع فى طوله وعرضه . قال :

غدوت صباحا باكرا فوجدتهم * قبيل الضحا فى السابرى المرد

أى الدروع الواسعة . وعند ذلك استسلمت بلقيس وأذعنت وأسلمت وأقرت على نفسها بالظلم ، على ما يأتى . ولما رأى سليمان عليه السلام قدمها قال لنا صحه من الشياطين : كيف لى أن أقلع هذا الشعر من غير مضرة بالحسد ؟ فدلّه على عمل النورة ، فكانت النورة والحمامات من يومئذ . فيروى أن سليمان تزوجها عند ذلك وأسكنها الشام ، قاله الضحاك .

(١) البيت لأبي ذؤيب وهو بنماه .

على طرق كنعور الطبا * . تحسب أعلامهن الصرروحا

يقول : هذه الطرق كنعور الطبا فى بيانها . (٢) من ب وزو طوك .

وقال سعيد بن عبد العزيز في كتاب النقاش : تزوجها وردّها إلى ملكها باليمن ، وكان يأتيها على الريح كل شهر مرة ، فولدت له غلاما سماه داود مات في زمانه . وفي بعض الأخبار أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ” كانت بلقيس من أحسن نساء العالمين ساقين وهي من أزواج سليمان عليه السلام في الجنة “ فقالت عائشة : هي أحسن ساقين مني ؟ فقال عليه السلام : ” أنت أحسن ساقين منها في الجنة “ ذكره القشيري . وذكر الثعلبي عن أبي موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” أول من آتخذ الحمامات سليمان بن داود فلما ألصق ظهره إلى الجدار فسه حُرّها قال أواه من عذاب الله “ . ثم أحبها حبا شديدا وأقرها على ملكها باليمن ، وأمر الجن فبنوا لها ثلاثة حصون لم ير الناس مثلها آرتفاعا : سَلْحُون وَيَنْوَن وَعُمْدَان ، ثم كان سليمان يزورها في كل شهر مرة ، ويقم عندها ثلاثة أيام . وحكى الشعبي أن ناسا من حمير حفروا مقبرة الملوك ، فوجدوا فيها قبر معقودا فيه امرأة عليها حُلّ منسوجة بالذهب ، وعند رأسها لوح رخام فيه مكتوب :

يَا أَيُّهَا الْأَقْوَامُ عُوجُوا مَعَا * وَأَرْبَعُوا فِي مَقْبَرِي الْعِيسَا
لَتَعْلَمُوا أَنِّي تِلْكَ الَّتِي * قَدْ كُنْتُ أُدْعَى الدَّهْرَ بَلْقِيسَا
شَيْدْتُ قَعْرَ الْمُلْكِ فِي حِمِيرٍ * قَوْمِي وَقَدْ مَا كَانَ مَانُوسَا
وَكُنْتُ فِي مُلْكِي وَتَنْدِيرِهِ * أَرْغَمُ فِي اللَّهِ الْمَعَاطِيسَا
بَنِي سُلَيْمَانَ النَّبِيِّ الَّذِي * قَدْ كَانَ لِلتَّوْرَةِ دَرِيْسَا
وَسَخَّرَ الرِّيحُ لَهُ مَرْكَبَا * تَهَبُّ أَحْيَانَا رَوَامِيسَا
مَعَ ابْنِ دَاوُدَ النَّبِيِّ الَّذِي * قَدَّسَهُ الرَّحْمَنُ تَقْدِيسَا

وقال محمد بن إسحق ووهب بن منبه : لم يتزوجها سليمان ، وإنما قال لها : آخترى زوجا ، فقالت : مثلي لا ينكح وقد كان لي من الملك ما كان . فقال : لا بد في الإسلام من ذلك . فأخترت ذا تبع ملك همدان ، فزوجه إياها وردّها إلى اليمن ، وأمر زوبعة أمير جن اليمن أن يطيعه ، فبني له المصانع ، ولم يزل أميرا حتى مات سليمان . وقال قوم : لم يرد فيه خبر صحيح

لا في أنه تزوجها ولا في أنه زوجها . وهي بلقيس بنت السرح بن الهداهد بن شراحيل بن أدد
 ابن حدر بن السرح بن الحرس بن قيس بن صيفي بن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن
 عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح . وكان جدها الهداهد ملكا عظيم الشأن قد ولد له
 أربعون ولدا كلهم ملوك ، وكان ملك أرض اليمن كلها ، وكان أبوها السرح يقول للملوك
 الأطراف : ليس أحد منكم كفؤا لي ، وأبي أن يتزوج منهم ، فزوجوه امرأة من الجن
 يقال لها ريحانة بنت السكن ، فولدت له بلقيس وهي بلقيس ، ولم يكن له ولد غيرها . وقال
 أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم : " كان أحد أبوي بلقيس جنيا " فأت أبوها ،
 وأختلف عليها قومها فرقتين ، وملكوا أمرهم رجلا فسأت سيرته ، حتى فجر بنساء رعيته ،
 فأدركت بلقيس الغيرة ، فعرضت عليه نفسها فتزوجها ، فسقته الخمر حتى حزت رأسه ، ونصبته
 على باب دارها فملكوها . وقال أبو بكر : ذكرت بلقيس عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال :
 " لا يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة " ^(١) . ويقال : إن سبب تزوج أيها من الجن أنه كان وزيرا
 لملك عات يغتصب نساء الرعية ، وكان الوزير غيورا فلم يتزوج ، فصحب مرة في الطريق رجلا
 لا يعرفه ، فقال هل لك من زوجة ؟ فقال : لا أتزوج أبدا ، فإن ملك بلدنا يغتصب النساء
 من أزواجهن ، فقال لئن تزوجت أبتني لا يغتصبها أبدا . قال : بل يغتصبها . قال : إنا قوم
 من الجن لا يقدر علينا ؛ فتزوج أخته فولدت له بلقيس ؛ ثم ماتت الأم وأبتنت بلقيس قصرا
 في الصحراء ، فتحدث أبوها بحديثها غلطا ، فمضى للملك خبرها فقال له : يا فلان تكون عندك هذه
 البنت الجميلة وأنت لا تأتيني بها ، وأنت تعلم حبي للنساء ! ثم أمر بحبسها ، فأرسلت بلقيس إليه
 إني بين يديك ؛ فتجهز للسير إلى قصرها ، فلما هم بالدخول بمن معه أخرجت إليه الجوارى
 من بنات الجن مثل صورة الشمس ، وقلن له ألا تستحي ؟ ! تقول لك سيدتنا أتدخل
 بهؤلاء الرجال معك على أهلك ! فأذن لهم بالانصراف ودخل وحده ، وأغلقت عليه الباب
 وقتلته بالنعال ، وقطعت رأسه ورمته به إلى عسكره ، فأمروها عليهم ؛ فلم تزل كذلك إلى أن

(١) في ك : تزوج . (٢) الحديث مروى في البخاري والنسائي والترمذي من طريق أبي بكر
 في آية كسرى ؛ وذلك أنه لما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم أن فارسا ملكوا آية كسرى لما هلك قال صلى الله عليه وسلم :
 " ولن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة " .

بلغ الهدهد خبرها سليمان عليه السلام . وذلك أن سليمان لما نزل في بعض منازلها قال الهدهد : إن سليمان قد اشتغل بالنزول ، فأرتفع نحو السماء فأبصر طول الدنيا وعرضها ، فأبصر الدنيا يمينا وشمالا ، فرأى بستانا بلقيس فيه هدهد ، وكان اسم ذلك الهدهد عفير ، فقال عفير اليمن لعفور سليمان : من أين أقبلت ؟ وأين تريد ؟ قال : أقبلت من الشام مع صاحبي سليمان ابن داود . قال : ومن سليمان ؟ قال : ملك الجن والإنس والشیاطین والطیر والوحش والريح وكل ما بين السماء والأرض . فمن أين أنت ؟ قال : من هذه البلاد ، ملكها امرأة يقال لها بلقيس ، تحت يدها اثنا عشر ألف ^(١) قیل ، تحت يد كل قیل مائة ألف مقاتل من سوى النساء والذراري ، فانطلق معه ونظر إلى بلقيس وملكها ، ورجع إلى سليمان وقت العصر ، وكان سليمان قد فقدته وقت الصلاة فلم يحسده ، وكانوا على غير ماء . قال ابن عباس في رواية : وقعت عليه نفحة من الشمس . فقال لوزير الطير : هذا موضع من ؟ قال : يا نبي الله هذا موضع الهدهد . قال : وأين ذهب ؟ قال : لا أدري أصلح الله الملك . فغضب سليمان وقال : «لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا» الآية . ثم دعا بالعقاب سيد الطير وأصرمها وأشدها بأسا فقال : ما تريد يا نبي الله ؟ فقال : على الهدهد الساعة . فرفع العقاب نفسه دون السماء حتى لزم بالهواء ، فنظر إلى الدنيا كالقصعة بين يدي أحدكم ، فإذا هو بالهدهد مقبلا من نحن اليمن ، فأنفذ نحوه وأنشبه فيه مخالبه . فقال له الهدهد : أسألك بالله الذي أقدرك وقواك على إلا رحمتي . فقال له : الويل لك ، وثكلتك أمك ! إن نبي الله سليمان حلف أن يعذبك أو يذبحك . ثم أتى به فاستقبلته النسور وسائر عساكر الطير . وقالوا الويل لك ، لقد توعدك نبي الله . فقال : وما قدرى وما أنا ! أما أستثنى ؟ قالوا : بلى ! إنه قال : «أُولَئِكَ يَدْنِي سُلْطَانٌ مُبِينٌ» ثم دخل على سليمان فرفع رأسه ، وأرغى ذنبه وجناحيه تواضعا لسليمان عليه السلام . فقال له سليمان : أين كنت عن خدمتك ومكانك ؟ لأعذبك عذابا شديدا أو لأذبحك . فقال له الهدهد : يا نبي الله ! أذكر وقوفك بين يدي الله بمنزلة وقوفى بين يديك . فأقشعر جلد سليمان وأرتعد وعفا عنه . وقال عكرمة : إنما صرف الله سليمان عن ذبح الهدهد أنه

(١) في بطونك : فائد تحت يد كل قائد .

كان بازا بوالديه ؛ ينقل الطعام إليهما فيزقهما . ثم قال له سليمان : ما الذى أبطأ بك ؟ فقال الهدهد ما أخبر الله عن بلقيس وعرشها وقومها حسبما تقدم بيانه . قال الماوردى : والقول بأن أم بلقيس جنية مستنكر من العقول لتباين الجنس ، واختلاف الطبعين ، وتغارق الحسنيين ؛ لأن الآدمى جسمانى والجن روحانى ، وخلق الله الآدمى من صلصال كالفخار ، وخلق الجن من نار ، ويمنع الأمتراج مع هذا التباين ، ويستحيل التناسل مع هذا الاختلاف^(١) .

قلت : قد مضى القول فى هذا ، والعقل لا يحيله مع ما جاء من الخبر فى ذلك ، وإذا نظر فى أصل الخلق فأصله الماء على ما تقدم بيانه ، ولا بعد فى ذلك ؛ والله أعلم . وفى التزويل « وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ »^(٢) وقد تقدم . وقال تعالى : « لَمْ يَطْمِئِنَّ لِلنَّاسِ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ » على ما يأتى فى « الرحمن » .

قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ أى بالشرك الذى كانت عليه ؛ قاله ابن شجرة . وقال سفيان : أى بالظن الذى توهمته فى سليمان ؛ لأنها لما أمرت بدخول الصرح حسبته لحظة ، وأن سليمان يريد تغريقها فيه . فلما بان لها أنه صرح ممرد من قوارير علمت أنها ظلمت نفسها بذلك الظن . وكمرت « إن » لأنها مبتدأة بعد القول . ومن العرب من يفتحها فيعمل فيها القول . ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . إذا سكنت « مع » فهى حرف جاء لمعنى بلا اختلاف بين النحويين . وإذا فتحتها ففيها قولان : أحدهما - أنه بمعنى الظرف أسم . والآخر - أنه حرف خافض مبنى على الفتح ؛ قاله النحاس :

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَتَقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا أَطِيعْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَاعُواكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾

(١) فى ز « الحسين » . (٢) قال محققه : هذا هو الحق وما يحيله العلم يحوله العقل .

(٣) راجع ج ١٠ ص ٢٨٨ . (٤) راجع ج ١٧ ص ١٨٠ .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ تقدم معناه .
 ﴿ فَإِذَا هُمْ قَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ قال مجاهد : أى مؤمن وكافر ؛ قال : والخصومة ما قصه الله تعالى فى قوله : « أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ ^(١) » إلى قوله : « كَافِرُونَ » . وقيل :
 تخاصمهم أن كل فرقة قالت : نحن على الحق دونكم .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ﴾ قال مجاهد : بالعذاب قبل الرحمة ؛ المعنى : لم تؤخرون الإيمان الذى يجب إليكم الثواب ، وتقدمون الكفر الذى يوجب العقاب ؛ فكان الكفار يقولون لفرط الإنكار : آيتنا بالعذاب . وقيل : أى لم تفعلون ما تستحقون به العقاب ؛ لا أنهم آتسوا تعجيل العذاب . ﴿ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ ﴾ أى هلا تتوبون إلى الله من الشرك . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ ﴾ لكى ترحموا ؛ وقد تقدم .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَطِيرُنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ ﴾ أى تشاء منا . والشؤم النحس . ولا شيء أضر بالرأى ولا أفسد للتدبير من اعتقاد الطيرة . ومن ظن أن خوار بقرة أو نعيق غراب يرد قضاء ، أو يدفع مقدورا فقد جهل . وقال الشاعر :

طيرة الدهر لا ترد قضاء * فاعذر الدهر لا تشبه بلوم
 أى يوم يخصه بسعود * والمنايا ينزلان فى كل يوم
 ليس يوم إلا وفيه سعود * ونحوس تجرى لقوم فقوم

وقد كانت العرب أكثر الناس طيرة ، وكانت إذا أرادت سفرا نفرت طائرا ، فإذا طار يمنة سارت وتيمنت ، وإن طار شمالا رجعت وتشاءمت ، فنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال : « أَقْرِئُوا الطير على مكائنها ^(٢) » على ما تقدم بيانه فى « المائدة » ^(٣) . ﴿ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أى مصائبكم . ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ أى تمتحنون . وقيل : تعذبون بذنوبكم .

(١) راجع ج ٧ ص ٢٤٠ . (٢) الوكعات (بضم الكاف وفتحها ومكونها) جمع وكعة (بالسكون)

وهى عش الطائر وركزه : ويروى : « على مكائنها » . (٣) راجع ج ٦ ص ٦٠ .

قوله تعالى : وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : (وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ) أى فى مدينة صالح وهى الحجر (تِسْعَةُ رَهْطٍ) أى تسعة رجال من أبناء أشرافهم . قال الضحاك : كان هؤلاء التسعة عظماء أهل المدينة ، وكانوا يفسدون فى الأرض ويأمرون بالفساد ، فجلسوا عند صخرة عظيمة فقلبها الله عليهم . وقال عطاء بن أبى رباح : بلغنى أنهم كانوا يقريضون الدنانير والدرهم ، وذلك من الفساد فى الأرض ، وقاله سعيد بن المسيب . وقيل : فسادهم أنهم يتبعون عورات الناس ولا يسترون عليهم . وقيل : غير هذا . واللازم من الآية ما قاله الضحاك وغيره أنهم كانوا من أوجه القوم وأقنابهم وأغنائهم ، وكانوا أهل كفر ومعاص جملة ، وجملة أمرهم أنهم يفسدون ولا يصلحون . والرهط أسم للجماعة ، فكأنهم كانوا رؤساء يتبع كل واحد منهم رهط . والجمع أرهاط وأراهِط . قال :

يا بؤس للحرب التى * وضعت أراهِط فاستراحوا

وهؤلاء المذكورون كانوا أصحاب قدار عافر الناقة ، ذكره ابن عطية .

قلت : وأختلف فى أسمائهم ، فقال الغزنوى : وأسمائهم قدار بن سالف ومصدع وأسلم ودسما وذهم وذعما وذعيم وقتال وصادق . ابن إسحق : رأسهم قدار بن سالف ومصدع ابن مهرج ، فأتبعهم سبعة ، هم بلع بن ميلع ودعير بن غنم وذؤاب بن مهرج وأربعة لم تعرف أسمائهم . وذكر الزمخشري أسمائهم عن وهب بن منبه : الهذيل بن عبد رب ، غنم بن غنم ، رباب بن مهرج ، مصدع بن مهرج ، عمير بن كردبة ، عاصم بن مخزومة ، سبيط بن صدقة ، سميان بن صفى ، قدار بن سالف ، وهم الذين سمعوا فى عقر الناقة ، وكانوا عتاة قوم صالح ، وكانوا من أبناء أشرافهم . السهيلي : ذكر النقاش التسعة الذين كانوا يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ، وسماهم بأسمائهم ، وذلك لا ينضبط برواية ، غير أنى أذكره على وجه الاجتهاد

والتخمين، ولكن نذكره على ما وجدناه في كتاب محمد بن حبيب، وهم: مصدع بن دهر. ويقال دهم، وقدار بن سالف، وهريم وصواب ورياب وداب ودعما وهرما ودعين بن عمير. قات: وقد ذكر الماوردي أسماءهم عن ابن عباس فقال: هم دعما ودعيم وهرما وهريم وداب وصواب ورياب ومسطح وقدار، وكانوا بأرض الحجاز وهي [أرض^(١)] الشام. قوله تعالى: ﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾ يجوز أن يكون « تَقَاسَمُوا » فعلا مستقبلا وهو أمر، أي قال بعضهم لبعض أحلفوا. ويجوز أن يكون ماضيا في معنى الحال كأنه قال: قالوا متقاسمين بالله، ودليل هذا التأويل قراءة عبد الله: « يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ. تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ » وليس فيها « قَالُوا ». « لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ » قراءة العامة بالنون فيهما واختاره أبو حاتم. وقرأ حمزة والكسائي: بالتاء فيهما، وضم التاء واللام على الخطأ أي أنهم تخاطبوا بذلك، واختاره أبو عبيد. وقرأ مجاهد وحيد بالياء فيهما، وضم الياء واللام على الخبر. والبيات مباغرة العدو ليلا. ومعنى « لِوَلِيِّهِ » أي لرهط صالح الذي له ولاية الدم. ﴿ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ ﴾ أي ما حضرنا، ولا ندري من قتله وقتل أهله. ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ في إنكارنا لقتله. والمهلك بمعنى الإهلاك، ويجوز أن يكون الموضع. وقرأ [عاصم] والسلمي: (بفتح الميم واللام) أي الهلاك، يقال: ضرب يضرب مضربا أي ضربا. وقرأ المفضل وأبو بكر: (بفتح الميم وجر اللام) فيكون اسم المكان كالمجلس لموضع الجلوس، ويجوز أن يكون مصدرا، كقوله تعالى: « إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ » أي رجوعكم.

قوله تعالى: وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرَنًا مَكَرًا رَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥١﴾ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٢﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٣﴾ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٤﴾

(١) من برك. (٢) « مهلك » بضم الميم وفتح اللام قراءة الجمهور. (٣) في الأصول:

« وقرأ حفص... الخ » وحفص يقرأ بفتح الميم وكسر اللام. (٤) راجع ج ٨ ص ٣٠٨.

﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا وَمَكْرَنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ مكرهم ما روى أن هؤلاء التسعة لما كان في صدر الثلاثة الأيام بعد عقر الناقة ، وقد أخبرهم صالح بجيء العذاب ، آتفقوا وتحالفوا على أن يأتوا دار صالح ليلًا ويقتلوه وأهله المختصين به ؛ قالوا : فإذا كان كاذبا في وعيده أوقعنا به ما يستحق ، وإن كان صادقا كما عجلناه قبلنا ، وشفينا نفوسنا ؛ قاله مجاهد وغيره . قال ابن عباس : أرسل الله تعالى الملائكة تلك الليلة ، فامتلات بهم دار صالح ، فأتى التسعة دار صالح شاهرين سيوفهم ، فقتلتهم الملائكة رضخا بالحجارة فيرون الحجارة ولا يرون من يرميها . وقال قتادة : خرجوا مسرعين إلى صالح ، فسلط عليهم ملك بيده صخرة فقتلهم . وقال السدي : نزلوا على جرف من الأرض ، فأنهار بهم فأهلكهم الله تحته . وقيل : آخفتوا في غار قريب من دار صالح ، فأنحدرت عليهم صخرة شذختهم جميعا ؛ فهذا ما كان من مكرهم . ومكر الله مجازاتهم على ذلك . ﴿فَأَنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أى بالصيحة التى أهلكتهم . وقد قيل : إن هلاك الكل كان بصيحة جبريل . والأظهر أن التسعة هلكوا بعذاب مفرد ؛ ثم هلك الباقون بالصيحة والدمدمة . وكان الأعمش والحسن وابن أبى إسحق وعاصم وحمة والكسائي يقرءون : « أَنَا » بالفتح ؛ وقال ابن الأنبارى : فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على « عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ » لأن « أَنَا دَمَرْنَاهُمْ » خبر كان . ويجوز أن تجعلها في موضع رفع على الإتيان للعاقبة . ويجوز أن تجعلها في موضع نصب من قول الفراء ، وخفض من قول الكسائي على معنى : بأنا دمرناهم ولأنا دمرناهم . ويجوز أن تجعلها في موضع نصب على الإتيان لموضع « كَيْفَ » فمن هذه المذاهب لا يحسن الوقف على « مَكْرِهِمْ » . وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو : « إِنَا دَمَرْنَاهُمْ » بكسر الألف على الاستئناف ؛ فعلى هذا المذهب يحسن الوقف على « مَكْرِهِمْ » . قال النحاس : ويجوز أن تنصب « عَاقِبَةُ » على خبر « كَانَ » ويكون « إِنَا » في موضع رفع على أنها اسم « كان » . ويجوز أن تكون في موضع رفع على إضمار مبتدأ تبينا للعاقبة ؛ والتقدير : هى إنا دمرناهم ؛ قال أبو حاتم : وفى حرف أبى « أَن دَمَرْنَاهُمْ » تصديقا لفتحها .

قوله تعالى : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ﴾ قراءة العامة بالنصب على الحال عند الغزاء والنحاس ؛ أى خالية عن أهلها خراباً ليس بها ساكن . وقال الكسائى وأبو عبيدة : « خَاوِيَةً » نصب على القطع ؛ مجازه : فتلك بيوتهم الخاوية ، فلما قطع منها الألف واللام نصب على الحال ؛ كقوله : « وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ^(١) » . وقرأ عيسى بن عمر ونصر بن عاصم والمجحدى : بالرفع على أنها خبر عن « تِلْكَ » و « بُيُوتُهُمْ » بدل من « تِلْكَ » . ويجوز أن تكون « بُيُوتُهُمْ » عطف بيان و « خَاوِيَةً » خبر عن « تِلْكَ » . ويجوز أن يكون رفع « خَاوِيَةً » على أنها خبر ابتداء محذوف ؛ أى هى خاوية ، أو بدل من « بُيُوتُهُمْ » لأن النكرة تبديل من المعرفة . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بصالح ﴿ وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ الله ويخافون عذابه . قيل : آمن بصالح قدر أربعة آلاف رجل . والباقون خرج بأبدانهم — فى قول مقاتل وغيره — نُحْرَجَ مثل الحمص ؛ وكان فى اليوم الأول أحمر ، ثم صار من الغد أصفر ، ثم صار فى الثالث أسود . وكان عقر الناقة يوم الأربعاء ، وهلاكهم يوم الأحد . قال مقاتل : فقمت تلك الحراجات ، وصاح جبريل بهم خلال ذلك صيحة فحمدوا ، وكان ذلك ضحوة . وخرج صالح بمن آمن معه إلى حضرموت ؛ فلما دخلها مات صالح ؛ فسميت حضرموت . قال الضحاك : ثم بنى الأربعة الآلاف مدينة يقال لها حاضورا ؛ على ما تقدم بيانه فى قصة أصحاب الرس .

قوله تعالى : وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَيْنَكُمُ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوْهُ آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ طَا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ أى وأرسلنا لوطا ، أو أذكر لوطا . « إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ » وهم أهل سدوم . وقال لقومه : ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ ﴾ الفعلة القبيحة الشنيعة . ﴿ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ أنها فاحشة ، وذلك أعظم لذنوبكم . وقيل : يأتى بعضكم بعضا وأنتم تنظرون إليه . وكانوا لا يستترون عتوا منهم وتمزدا . ﴿ أَتَنْتُمُ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ ﴾ أعاد ذكرها لنسرت قبحها وشنعتها . ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُجَاهِلُونَ ﴾ إما أمر التحريم أو العقوبة . واختيار الخليل وسيبويه تخفيف الهمزة الثانية من « أَتَنْتُمُ » فأما الخط فالسبيل فيه أن يكتب بالفتن على الوجوه كلها ؛ لأنها همزة مبتدأة دخلت عليها ألف الاستفهام .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْفُسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ أى عن أدبار الرجال . يقولون ذلك استهزاء منهم ؛ قاله مجاهد . وقال قتادة : عابوهم والله بغير عيب بأنهم يتطهرون من أعمال السوء . ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَايِرِينَ ﴾ وقرأ عاصم : « قَدَرْنَا » مخففا والمعنى واحد . يقال قدس قدرت الشيء قدرنا وقدرنا وقدرته . ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ أى من أنذر فلم يقبل الإنذار . وقد مضى بيان هذا في « الأعراف » و « هود » .

قوله تعالى : قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ^ق ۚ اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٥﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حُدَادٍ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۚ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٦﴾ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۚ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا كُنْتُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ﴾ قال الفراء قال أهل المعاني : قيل للوط « قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ » على هلا كههم . وخالف جماعة من العلماء الفراء في هذا وقالوا : هو مخاطبة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ؛ أى قل الحمد لله على هلاك كفار الأمم الخالية . قال النحاس : وهذا أولى ، لأن القرآن منزل على النبي صلى الله عليه وسلم ، وكل ما فيه فهو مخاطب به عليه السلام إلا ما لم يصح معناه إلا لغيره . وقيل : المعنى ؛ أى « قُلْ » يا محمد « الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى » يعنى أمته عليه السلام . قال الكلبي : اصطفاهم الله بمعرفته وطاعته . وقال ابن عباس وسفيان : هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتلو هذه الآيات الناطقة بالبراهين على وحدانيته وقدرته على كل شيء وحكمته ، وأن يستفتح بتحميده والسلام على أنبيائه والمصطفين من عباده . وفيه تعليم حسن ، وتوقيف على أدب جميل ، وبعث على التيمن بالذكرين والتسبرك بهما ، والاستظهار بمكانهما على قبول ما يلقى إلى السامعين ، وإصغائهم إليه ، وإزالة من قلوبهم المنزلة التي يبغيها المستمع . ولقد توارث العلماء والخطباء والوعاظ كابرا عن كابر هذا الأدب ، فحمدوا الله وصلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمام كل علم مفاد ، وقبل كل عظة وفي مفتتح كل خطبة ، وتبعهم المترسلون فأجروا عليه أوائل كتبهم في الفتوح والتماني ، وغير ذلك من الحوادث التي لها شأن .

قوله تعالى : « الَّذِينَ اصْطَفَى » آختر ؛ أى لرسالته وهم الأنبياء عليهم السلام ؛ دليله قوله تعالى : « وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ » . ﴿ اللَّهُ خَيْرٌ ﴾ وأجاز أبو حاتم « أَللَّهُ خَيْرٌ » بهمزتين . النحاس : ولا نعلم أحدا تابعه على ذلك ؛ لأن هذه المدة إنما جىء بها فرقابين الاستفهام والخبر ، وهذه ألف التوقيف ، و « خَيْرٌ » ههنا ليس بمعنى أفضل منك ، وإنما هو مثل قول الشاعر :
 أتتهجوه ولست له بكفء * فشركا لخيركما الفداء

فالمعنى فالذى فيه الشر منكما للذى فيه الخير الفداء . ولا يجوز أن يكون بمعنى من لأنك إذا قلت : فلان شر من فلان ففى كل واحد منهما شر . وقيل : المعنى ؛ الخير فى هذا

أم في هذا الذي تشركونه في العبادة ! وحكى سيبويه : السعادة أحب إليك أم الشقاء ؛ وهو يعلم أن السعادة أحب إليه . وقيل : هو على بابه من التفضيل ، والمعنى : الله خير أم ما تشركون ؛ أى أثوابه خير أم عقاب ما تشركون . وقيل : قال لهم ذلك ؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن في عبادة الأصنام خير لخطابهم الله عز وجل على اعتقادهم . وقيل : اللفظ لفظ الاستفهام ومعناه الخبر . وقرأ أبو عمرو وعاصم ويعقوب : « يُشْرِكُونَ » بياء على الخبر . الباقيون بالناء على الخطاب ، وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم ؛ فكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قرأ هذه [الآية] يقول : ” بل الله خير وأبقى وأجل وأكرم “ .

توله تعالى : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ قال أبو حاتم : تقديره ؛ آلهنكم خير أم من خلق السموات والأرض ؛ وقد تقدم . ومعناه : قدر على خلقهن . وقيل : المعنى ؛ أعبادة ما تعبدون من أوثانكم خير أم عبادة من خلق السموات والأرض ؟ فهو مردود على ما قبله من المعنى ؛ وفيه معنى التوبيخ لهم ، والتنبيه على قدرة الله عز وجل وعجز آلهتهم . ﴿ فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ الحديقة البستان الذى عليه حائط . والبهجة المنظر الحسن . قال الفراء : الحديقة الهستان المحظر عليه حائط ، وإن لم يكن عليه حائط فهو البستان وليس بحديقة . وقال قتادة وعكرمة : الحدائق النخل ذات بهجة ، والبهجة الزينة والحسن ؛ يبهج به من رآه . ﴿ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ﴾ « ما » للنفي ومعناه الحظر والمنع من فعل هذا ؛ أى ما كان للبشر ، ولا يتنبأ لهم ، ولا يقع تحت قدرتهم ، أن ينبتوا شجرها ؛ إذ هم عجزة عن مثلها ، لأن ذلك إخراج الشيء من العدم إلى الوجود .

قلت : وقد يستدل من هذا على منع تصوير شيء سواء كان له روح أم لم يكن ؛ وهو قول مجاهد . ويعضده قوله صلى الله عليه وسلم : ” قال الله عز وجل ومن أظلم ممن ذهب يخلق خلقا تكلف فليخلقوا ذرة أو ليخلقوا حبة أو ليخلقوا شعيرة “ رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة ؛ قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ” قال الله عز وجل “ فذكره ؛ فعم بالذم والتهديد والتفبيح كل من تعاطى تصوير شيء مما خلقه الله وضاهاه في التشبيه في خلقه

فما أنفرد به سبحانه من الخلق والاختراع وهذا واضح . وذهب الجمهور إلى أن تصوير ما ليس فيه روح يجوز هو والاكتساب به . وقد قال ابن عباس للذي سأله أن يصنع الصور : إن كنت لا بد فاعلا فاصنع الشجر وما لا نفس له خرجه مسلم أيضا . والمنع أولى والله أعلم لما ذكرنا . وسيأتي لهذا مزيد بيان في « سبأ » إن شاء الله تعالى ثم قال على جهة التوبيخ : ﴿ اَللّٰهُ مَعَ اللّٰهِ ﴾ أى هل معبود مع الله يعينه على ذلك . ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ ﴾ بالله غيره . وقيل : « يَعِدُونَ » عن الحق والقصد ؛ أى يكفرون . وقيل : « اَللّٰهُ » مرفوع به « مع » تقديره : أمع الله ويلكم إله . والوقف على « مع الله » حسن .

قوله تعالى : ﴿ اَمَّنْ جَعَلَ الْاَرْضَ قَرَارًا ﴾ أى مستقرا . ﴿ وَجَعَلَ خِلَالَهَا اَنْهَارًا ﴾ أى وسطها مثل : « وَجَعَلْنَا خِلَالَهَا نَهْرًا » . ﴿ وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيًا ﴾ يعنى جبالا ثوابت تمسكها وتمنعها من الحركة . ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ﴾ مانعا من قدرته لئلا يختلط الأجاج بالعذب . وقال ابن عباس : سلطانا من قدرته فلا هذا يغير ذاك ولا ذاك يغير هذا . والحجز المنع . ﴿ اَللّٰهُ مَعَ اللّٰهِ ﴾ أى إذا ثبت أنه لا يقدر على هذا غيره فلم يعبدون ما لا يضر ولا ينفع . ﴿ بَلْ اَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يعنى كأنهم يجهلون الله فلا يعلمون ما يجب له من الوجدانية .

قوله تعالى : اَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ اِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْاَرْضِ اُولَئِكَ مَعَ اللّٰهِ قَابِلًا مَا تَدْعُوْنَ ﴿ ٦٢ ﴾ اَمَّنْ يَهْدِيْكُمْ فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ اُولَئِكَ مَعَ اللّٰهِ تَعَالٰى اللّٰهُ عَمَّا يُشْرِكُوْنَ ﴿ ٦٣ ﴾ اَمَّنْ يَبْدُوْا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيْدُهُمْ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْاَرْضِ اُولَئِكَ مَعَ اللّٰهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهٰنَكُمْ اِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِيْنَ ﴿ ٦٤ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ قال ابن عباس : هو ذو الضرورة المجهود . وقال السدي : الذي لا حول له ولا قوة . وقال ذو النون : هو الذي قطع العلائق عما دون الله . وقال أبو جعفر وأبو عثمان النيسابوري : هو المفلس . وقال سهل ابن عبد الله : هو الذي إذا رفع يديه إلى الله داعياً لم يكن له وسيلة من طاعة قدمها . وجاء رجل إلى مالك بن دينار فقال : أنا أسألك بالله أن تدعولي فأنا مضطر ، قال : إذا فأسأله فإنه يجيب المضطر إذا دعاه . قال الشاعر :

وَأِنِّي لَأَدْعُو اللَّهَ وَالْأَمْرُ ضَيِّقٌ * عَلَى مَا يَنْفَكُ أَنْ يَتَفَرَّجَا
وَرُبَّ أَخٍ سُدَّتْ عَلَيْهِ وَجُوهُهُ * أَصَابَ لَهَا مَا دَعَا اللَّهَ مَخْرَجَا

الثانية — وفي مسند أبي داود الطيالسي عن أبي بكرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعاء المضطر : ” اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين وأصلح لي شأني كله لا إله إلا أنت “ .

الثالثة — ضمن الله تعالى إجابة المضطر إذا دعاه ، وأخبر بذلك عن نفسه ، والسبب في ذلك أن الضرورة إليه باللجوء ينشأ عن الإخلاص ، وقطع القلب عما سواه ، والإخلاص عنده سبحانه موقع وذمة ، وجد من مؤمن أو كافر ، طائع أو فاجر ، كما قال تعالى : « حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَّتْ بِكُمْ بَرِيحٌ طَيِّبَةٌ وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ^(١) » وقوله : « فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ^(٢) » فأجابهم عند ضرورتهم ووقوع إخلاصهم ، مع علمه أنهم يعودون إلى شركهم وكفرهم . وقال تعالى : « فَلَاذًا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ » فيجيب المضطر لموضع اضطرابه وإخلاصه . وفي الحديث : ” ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن دعوة المظلوم ودعوة المسافر ودعوة الوالد على ولده “ ذكره صاحب الشهاب ، وهو حديث صحيح . وفي صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لمعاذ لما وجهه إلى أرض اليمن ” وأتق دعوة المظلوم فليس بينها وبين الله شهاب “

(٢) راجع ص ٣٦٢ من هذا الجزء .

(١) راجع ج ٨ ص ٣٢٤ فابعد .

وفي كتاب الشهاب : ” آتقوا دعوة المظلوم فإنها تحمل على الغمام فيقول الله تبارك وتعالى وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين “ وهو صحيح أيضا . وخرج الآجري من حديث أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم : ” فلاني لا أردّها ولو كانت من فم كافر “ فيجيب المظلوم لموضع إخلاصه بضرورته بمقتضى كرمه ، وإجابة لإخلاصه وإن كان كافرا ، وكذلك إن كان فاجرا في دينه ؛ فتجور الفاجر وكفر الكافر لا يعود منه نقص ولا وهن على مملكة سيده ، فلا يمنعه ما قضى للمضطر من إجابته . وفسر إجابة دعوة المظلوم بالنصرة على ظالمه بما شاء سبحانه من قهر له ، أو اقتصاص منه ، أو تسليط ظالم آخر عليه يقهره كما قال عز وجل : « وَكَذَلِكَ نُؤْتِي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا » وأكد سرعة إجابتها بقوله : ” تُحْمَلُ عَلَى الْغَمَامِ “ ومعناه والله أعلم أن الله عز وجل يوكل ملائكته بتلقي دعوة المظلوم وبحملها على الغمام ، فيمرجوا بها إلى السماء ، والسماء قبلة الدعاء ليراها الملائكة كلهم ، فيظهر منه معاونته المظلوم ، وشفاعة منهم له في إجابة دعوته ، رحمة له . وفي هذا تحذير من الظلم جملة ، لما فيه من سخط الله ومعصيته ومخالفة أمره ؛ حيث قال على لسان نبيه في صحيح مسلم وغيره : « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرّما فلا تظالموا » الحديث . فالمظلوم مضطّر ، ويقرب منه المسافر ؛ لأنه منقطع عن الأهل والوطن ، منفرد عن الصديق والحميم ، لا يسكن قلبه إلى مسعد ولا معين لغريبته ، فتصدق ضرورته إلى المولى ، فيخلص إليه في البلاء ، وهو الحبيب للمضطر إذا دعاه ، وكذلك دعوة الوالد على ولده ، لا تصدر منه مع ما يعلم من حنّته عليه وشفقته ، إلا عند تكامل عجزه عنه ، وصدق ضرورته ؛ وإيأسه عن برّ ولده ، مع وجود أذيته ، فيسرع الحق إلى إجابته .

قوله تعالى : ﴿ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ أي الضر . وقال الكلبي : الجور . ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾ أي سكاّنها يهلك قوما وينشئ آخرين . وفي كتاب النقاش : أي ويجعل أولادكم خلفا منكم . وقال الكلبي : خلفا من الكفار ينزلون أرضهم ، وطاعة الله بعد كفرهم . ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَنْ هُوَ يُنَادِيهِمْ ﴾ أي جهة التوبيخ ؛ كأنه قال أيع الله ويلكم إله ؛ فـ « إله » مرفوع بـ « مع » .

ويمحوز أن يكون مرفوعا بإضمار أ إله مع الله يفعل ذلك فتعبدوه . والوقف على « مع الله » حسن . ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ قرأ أبو عمرو وهشام ويعقوب : « يَذَكَّرُونَ » بالياء على الخبر ، كقوله : « بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » و « تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ » فأخبر فيما قبلها وبعدها ، واختاره أبو حاتم . الباقر بالتاء خطابا لقوله : « وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ » .

قوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ ﴾ أى يرشدكم الطريق ﴿ فِي ظُلُمَاتٍ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ إذا سافرتهم إلى البلاد التي تتوجهون إليها بالليل والنهار . وقيل : وجعل مفاوز البر التي لا أعلام لها ، ولجج البحار كأنها ظلمات ؛ لأنه ليس لها علم يهتدى به . ﴿ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيَّاحَ تُشْرَا^(١) بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ أى قدام المطر باتفاق أهل التأويل . ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ يفعل ذلك ويعينه عليه . ﴿ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ من دونه .

قوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ كانوا يقولون أنه الخالق الرازق فالزمهم الإعادة ؛ أى إذا قدر على الابتداء فمن ضرورته القدرة على الإعادة ، وهو أهون عليه . ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ يخلق ويرزق ويبدئ ويعيد : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ أى حجتكم أن لى شريكا ، أو حجتكم فى أنه صنع أحد شيئا من هذه الأشياء غير الله ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

قوله تعالى : قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٥٥﴾ بَلِ أَدْرَكَ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُمْ مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ . وعن بعضهم : أخفى غيبه على الخلق ، ولم يطلع عليه أحد لئلا يأمن أحد من عبده مكره . وقيل : نزلت فى المشركين حين سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن قيام الساعة . و « مَنْ » فى موضع رفع ؛ والمعنى : قل لا يعلم أحد الغيب إلا الله ؛ فإنه بدل من « مَنْ » قاله الزجاج . الفراء : وإنما رفع ما بعد « إلا » لأن ما قبلها جحد ، كقوله : ما ذهب أحد إلا أبوك ؛

(١) « تشرا » بالنون على قراءة نافع . وفيه سبع قراءات ؛ راجع ج ٧ ص ٨ ر ص ٢٢٢ .

والمعنى واحد . قال الزجاج : ومن نصب نصب على الاستثناء ؛ بمعنى في الكلام . قال النحاس : وسميته يحتاج بهذه الآية على من صدق منجماً ؛ وقال : أخاف أن يكفر بهذه الآية . قلت : وقد مضى هذا في « الأنعام » مستوفى . وقالت عائشة : من زعم أن محمداً يعلم ما في غد فقد أعظم على الله الفرية ؛ والله تعالى يقول : « قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ » نخرجه مسلم . وروى أنه دخل على الجحاج منجماً فأعتقله الجحاج ، ثم أخذ حصيات فعدهن ، ثم قال : كم في يدي من حصاة ؟ فحسب المنجم ثم قال : كذا ؛ فأصاب . ثم أعتقله فأخذ حصيات لم يعدن فقال : كم في يدي ؟ فحسب فأخطأ ثم حسب فأخطأ ؛ ثم قال : أيها الأمير أظنك لا تعرف عددها ؛ قال : لا . قال : فإني لا أصيب . قال : فما الفرق ؟ قال : إن ذلك أحصيته فخرج عن حد الغيب ، وهذا لم تحصه فهو غيب و « لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ » وقد مضى هذا في « آل عمران »^(٢) والحمد لله .

قوله تعالى : (بَلْ أَدْرَاكَ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ) هذه قراءة أكثر الناس منهم ناصم وشيبة ونافع ويحيى بن وثاب والأعمش وحزمة والكسائي . وقرأ أبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وحيد : « بَلْ أَدْرَكَ » من الإدراك . وقرأ عطاء بن يسار وأخوه سليمان بن يسار والأعمش : « بَلْ أَدْرَكَ » غير مهموز مشدداً . وقرأ ابن محيصن : « بَلْ أَدْرَكَ » على الاستفهام . وقرأ ابن عباس : « بَلَى » بإثبات الياء « أَدْرَكَ » بهمزة قطع والذال مشددة وألف بعدها ؛ قال النحاس : وإسناده إسناد صحيح ، هو من حديث شعبة يرفعه إلى ابن عباس . وزعم هرون القارئ أن قراءة أبي « بَلْ تَدَارَكَ عَلَيْهِمْ » [وحكى الثعلبي أنها في حرف أبي أم تدارك . والعرب تضع بَلْ موضع (أم) و(أم) موضع بل إذا كان في أول الكلام استفهام ؛ كقول الشاعر : فوالله لا أدري أسلمى تقولت * أم القول أم كل إلى حبيب

أى بل كل . قال النحاس^(٤)] : القراءة الأولى والأخيرة معناه واحد ؛ لأن أصل « أَدْرَكَ » تدارك ؛ أدغمت الذال في التاء وجيء بألف الوصل ؛ وفي معناه قولان : أحدهما

(١) راجع ج ٧ ص ١ ف بعد . (٢) راجع ج ٤ ص ١٧ . (٣) لم تذكر كتب التفسير الأخرى الأعمش في هذه القراءة . ولعل هذه رواية أخرى عنه غير الرواية المتقدمة . (٤) من ب .

أن المعنى بل تكامل علمهم في الآخرة ؛ لأنهم رأوا كل ما وعدوا به معاينة فتكامل علمهم به . والقول الآخر أن المعنى : بل تتابع علمهم اليوم في الآخرة ؛ فقالوا تكون وقالوا لا تكون . القراءة الثانية فيها [أيضاً ^(١)] قولان : أحدهما أن معناه كل في الآخرة ؛ وهو مثل الأول ؛ قال مجاهد : معناه يدرك علمهم في الآخرة ويعلمونها إذا عاينوها حين لا ينفعهم علمهم ؛ لأنهم كانوا في الدنيا مكذّبين . والقول الآخر أنه على معنى الإنكار ؛ وهو مذهب أبي إسحق ؛ واستدل على صحة هذا القول بأن بعده « بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ » أى لم يدرك علمهم علم الآخرة . وقيل : بل ضلّ وغاب علمهم في الآخرة فليس لهم فيها علم . والقراءة الثالثة : « بَلْ أَدْرَكَ » فهى بمعنى « بَلْ أَدَارَكَ » وقد يحىء افتعل وتفاعل بمعنى ؛ ولذلك صحّ ازدوجوا حين كان بمعنى تزوجوا . القراءة الرابعة : ليس فيها إلا قول واحد يكون فيه معنى الإنكار ؛ كما تقول : أنا قاتلتك ؟ ! فيكون المعنى لم يدرك ؛ وعليه ترجع قراءة ابن عباس ؛ قال ابن عباس : « بَلَى أَدْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ » أى لم يدرك . قال الفراء : وهو قول حسن كأنه وجهه إلى الاستهزاء بالمكذّبين بالبعث ، كقولك لرجل تكذبه : بَلَى لعمري قد أدركت السلف فانت تروى مالا أروى ! وأنت تكذبه . وقراءة سابعة : « بَلْ أَدْرَكَ » بفتح اللام ؛ عدل إلى الفتحة لخفتها . وقد حكى نحو ذلك عن قطرب فى « قَمَ اللَّيْلِ » فإنه عدل إلى الفتح . وكذلك و (بع الثوب) ونحوه . وذكر الزمخشري فى الكتاب : وقرئ « بَلْ أَدْرَكَ » بهزتين « بَلْ أَدْرَكَ » بألف بينهما « بَلَى أَدْرَكَ » « أَمْ تَدَارَكَ » « أَمْ أَدْرَكَ » فهذه ثلث عشرة قراءة ، ثم أخذ يعلل وجوه القراءات وقال : فإن قلت فما وجه قراءة « بَلْ أَدْرَكَ » على الاستفهام ؟ قلت : هو استفهام على وجه الإنكار لإدراك علمهم ، وكذلك من قرأ : « أَمْ أَدْرَكَ » و « أَمْ تَدَارَكَ » لأنها أم التى بمعنى بل والهمزة ، وأما من قرأ : « بَلَى أَدْرَكَ » على الاستفهام فعناه بلى يشعرون متى يبعثون ، ثم أنكر علمهم بكونها ، وإذا أنكر علمهم بكونها لم يحصل لهم شعور وقت كونها ؛ لأن العلم بوقت الكائن تابع للعلم بكون الكائن . « فِي الْآخِرَةِ » فى شأن الآخرة ومعناها . « بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا » أى فى الدنيا . « بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ » أى بقلوبهم واحد هم عموم . وقيل : عم ؛ وأصله عميون حذفوا الياء لانتفاء الساكنين ولم يجوز تحريكها لنقل الحركة فيها .

قوله تعالى : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا آيِنًا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني مشركي مكة . ﴿إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا آيِنًا لَمُخْرَجُونَ﴾ هكذا يقرأ نافع هنا وفي سورة : «العنكبوت» . وقرأ أبو عمرو باستفهامين إلا أنه خفف الهمزة . وقرأ عاصم وحمة أيضا باستفهامين إلا أنهما حققا الهمزتين ، وكل ما ذكرناه في السورتين جميعا واحد . وقرأ الكسائي وابن عامر ورؤيس ويعقوب : «إِذَا» بهمزتين «إِنَّا» بنونين على الخبر في هذه السورة ، وفي سورة : «العنكبوت» باستفهامين ؛ قال أبو جعفر النحاس : القراءة «إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا آيِنًا لَمُخْرَجُونَ» موافقة للخط حسنة ، وقد عارض فيها أبو حاتم فقال وهذا معنى كلامه : «إِذَا» ليس باستفهام و «آيِنًا» استفهام وفيه «إِن» فكيف يجوز أن يعمل ما في حيز الاستفهام فيما قبله ؟ ! وكيف يجوز أن يعمل ما بعد «إِن» فيما قبلها ؟ ! وكيف يجوز غدا إن زيدا خارج ؟ ! فإذا كان فيه استفهام كان أبعد ، وهذا إذا سئل عنه كان مشكلا لما ذكره . وقال أبو جعفر : وسمعت محمد ابن الوليد يقول : سألت أبا العباس عن آية من القرآن صعبة مشكلة ، وهي قول الله تعالى : «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُرِّقُمْ كُلُّ مُمَرِّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ» فقال : إن عمل في «إِذَا» «يُنْبِئُكُمْ» كان محالا ؛ لأنه لا ينبئهم ذلك الوقت ، وإن عمل فيه ما بعد «إِن» كان المعنى صحيحا وكان خطأ في العربية أن يعمل ما قبل «إِن» فيما بعدها ؛ وهذا سؤال بين رأيت أن يذكر في السورة التي هو فيها ؛ فأما أبو عبيد فقال إلى قراءة نافع ورد على من جمع بين استفهامين ، وأستدل بقوله تعالى : «أَفَلَنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ أُنْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ» وبقوله تعالى : «أَفَلَنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ» وهذا الرد على أبي عمرو وعاصم وحمة

(١) قال ابن عطية : (مدود الألف) ومثله في «البحر» و «روح المعاني» .

(٢) راجع ص ٣٤٠ من هذا الجزء . (٣) راجع ج ١٤ ص ٢٦٢ .

(٤) راجع ج ٤ ص ٢٢١ . (٥) راجع ج ١١ ص ٢٨٧ .

وطاحة والأعرج لا يلزم منه شيء، ولا يشبه ما جاء به من الآية شيئاً، والفرق بينهما أن الشرط وجوابه بمنزلة شيء واحد، ومعنى : « أَفَلَا يَمِتُّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ » أفلان مِتَّ خلدوا . ونظير هذا : أزيد منطلق، ولا يقال : أزيد منطلق، لأنها بمنزلة شيء واحد وليس كذلك الآية؛ لأن الثاني جملة قائمة بنفسها فيصلح فيها الاستفهام، والأول كلام يصلح فيه الاستفهام، فأما من حذف الاستفهام من الثاني وأثبتته في الأول فقرأ : « أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاءُنَا إِنَّا » فحذفه من الثاني، لأن في الكلام دليلاً عليه بمعنى الإنكار .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ وَعِدْنَا هَـٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَـٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾^(١) تقدم في سورة « المؤمنون » . وكانت الأنبياء يقربون أمر البعث مبالغة في التحذير، وكل ما هوآت فقريب .

قوله تعالى : قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَـٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى « قُلْ » لهؤلاء الكفار « سِيرُوا » في بلاد الشام والحجاز واليمن . ﴿ فَانظُرُوا ﴾ أى بقلوبكم وببصائركم ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ المكذبين لرسولهم . ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ أى على كفار مكة إن لم يؤمنوا ﴿ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ ﴾^(٢) في حرج ﴿ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ نزات في المستهزئين الذين أقسموا عقاب مكة وقد تقدم ذكرهم . وقرئ : « فِي ضَيْقٍ » بالكسر وقد مضى في آخر « النحل » . ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَـٰذَا الْوَعْدُ ﴾^(٢) أى وقت يحيثنا العذاب بتكذيبنا ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

(١) راجع ج ١٢ ص ١٤٥ .

(٢) راجع ج ١٠ ص ٥٨ ر ص ٢٠٣ .

قوله تعالى : قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفٌ لَكُمْ ﴾ أى أقرب لكم ودنا منكم ﴿ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ أى من العذاب ؛ قاله ابن عباس . وهو من ردفه إذا تبعه وجاء فى أثره ؛ وتكون اللام أدخلت لأن المعنى أقرب لكم ودنا لكم . أو تكون متعلقة بالمصدر . وقيل : معناه معكم . وقال ابن شجرة : تبعكم ؛ ومنه ردِف المرأة ؛ لأنه تبع لها من خلفها ؛ ومنه قول أبي ذؤيب :

عاد السوادُ بياضاً فى مَفَارِقِهِ * لا مَرَحَباً ببياض الشَّيْبِ إذ رَدِفَا

قال الجوهري : وَارْدَفَهُ أَمْرًا عَةً فى رَدِفِهِ ، مثل تبعه وأتبعه بمعنى ؛ قال نخيلة بن مالك بن نهد : إذا الجوزاء أَرْدَفَتِ الثَّريَّا * ظَنَنْتُ بآلِ فاطمة الظُّنُونَا

يعنى فاطمة بنت يذكر بن عترة أحد القاريطين . وقال الفراء : « رَدِفَ لَكُمْ » دنا لكم ولهذا قال : « لَكُمْ » . وقيل : رَدِفَهُ وَرَدِفَ لَهُ بمعنى فتراد اللام للتوكيد ؛ عن الفراء أيضا . كما تقول : نقدته ونقدت له ، وكنته ووزنته ، وكنْتُ له ووزنت له ؛ ونحو ذلك . « بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ » من العذاب فكان ذلك يوم بدر . وقيل : عذاب القبر . ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾ فى تأخير العقوبة وإدراك الرزق ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ فضله ونعمه .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ ﴾ أى تخفى صدورهم ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ يظهرون من الأمور . وقرأ ابن محيصن وحيد : « مَا تُكِنُّ » من كُنْتُ الشيء إذا سترته هنا . وفى « القصص » تقديره : مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ عَلَيْهِ ؛ وكأن الضمير الذى فى الصدور كالجسم السائر . ومن قرأ : « تُكِنُّ » فهو المعروف ؛ يقال : أكننت الشيء إذا أخفيته فى نفسك .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ قال الحسن : الغائبة هنا القيامة . وقيل : ما غاب عنهم من عذاب السماء والأرض ؛ حكاه النقاش . وقال ابن شجرة : الغائبة هنا جميع ما أخفى الله تعالى عن خلقه وغيبه عنهم ، وهذا عام . وإنما دخلت الهاء في « غَائِبَةٍ » إشارة إلى الجمع ؛ أي . ما من خصلة غائبة عن الخلق إلا والله عالم بها قد أثبتنا في أم الكتاب عنده ، فكيف يخفى عليه ما يسر هؤلاء وما يعلمونه . وقيل : أي كل شيء هو مثبت في أم الكتاب يخرج له للأجل المؤجل له ؛ فالذي يستعجلونه من العذاب له أجل مضروب لا يتأخر عنه ولا يتقدم عليه . والكتاب اللوح المحفوظ أثبت الله فيه ما أراد ليعلم بذلك من يشاء من ملائكته .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَنْقُضُ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۖ وَإِنَّهُمْ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ۖ ﴾ (٧٧) ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۖ ﴾ (٧٨) ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ۖ ﴾ (٧٩) ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ۖ ﴾ (٨٠) ﴿ وَمَا أَنْتَ بِإِلَهِ الْعُزْمَىٰ عَنِ ضَلَالَتِهِمْ ۖ إِنَّ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِعَآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْمِعُونَ ۖ ﴾ (٨١)

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَنْقُضُ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ وذلك أنهم اختلفوا في كثير من الأشياء حتى لعن بعضهم بعضا فزلت . والمعنى : إن هذا القرآن يبين لهم ما اختلفوا فيه لو أخذوا به ، وذلك ما حترفوه من التوراة والإنجيل ، وما سقط من كتبهم من الأحكام . ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ يعني القرآن ﴿ لَهُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ خص المؤمنين لأنهم المنتفعون به . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ ﴾ أي يقضي بين بني إسرائيل فيما اختلفوا فيه في الآخرة ، فيجازى المحق والمبطل . وقيل : يقضي بينهم في الدنيا فيظهر ما حترفوه . ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ المنيع الغالب الذي لا يرد أمره ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ الذي لا يخفى عليه شيء .

قوله تعالى : ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ أى فَوَضَّ إِلَيْهِ أَمْرَكَ وَأَعْتَمَدَ عَلَيْهِ ، فإنه ناصرٌ .
 ﴿ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ أى الظاهر . وقيل : المظهر لمن تدبر وجه الصواب . ﴿ إِنَّكَ
 لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾ يعنى الكفار لتركهم التدبر ، فهم كالموتى لا حسَّ لهم ولا عقل . وقيل :
 هذا فيمن علم أنه لا يؤمن . ﴿ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ ﴾ يعنى الكفار الذين هم بمنزلة الصم
 عن قبول المواعظ ، فإذا دعوا إلى الخير أعرضوا وولوا كأنهم لا يسمعون ، نظيره : « صم بكم عمى »
 كما تقدم . وقرأ ابن محيصن وحيد وابن كثير وابن أبي إسحق وعباس عن أبي عمرو : « وَلَا يُسْمِعُ »
 بفتح الياء والميم « الصُّمَّ » رفعا على الفاعل . الباقيون « تُسْمِعُ » مضارع أسمع « الصُّمَّ » نصبا .
 مسألة — وقد أحتجت عائشة رضى الله عنها فى إنكارها أن النبى صلى الله عليه وسلم
 أسمع موتى بدر بهذه الآية ، فنظرت فى الأمر بقياس عقلى ووقفت مع هذه الآية . وقد صح
 عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما أنتم بِأَسْمِعَ مِنْهُمْ » قال ابن عطية : فيشبه أن قصة
 بدر خرق عادة لمحمد صلى الله عليه وسلم فى أن ردَّ الله إليهم إدراكا سمعوا به مقالته ولولا
 إخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم بسماعهم لحملنا نداء إياهم على معنى التوبيخ لمن بقى من
 الكفرة ، وعلى معنى شفاء صدور المؤمنين .

قلت : روى البخارى رضى الله عنه ، حدثنى عبد الله بن محمد سمع رَوْحَ بن عُبَادَةَ قال
 حدثنا سعيد بن أبى عَرُوبَةَ عن قتادة قال : ذكر لنا أنس بن مالك عن أبى طلحة أن نبى
 الله صلى الله عليه وسلم أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلا من صناديد قريش فقتلوا فى طَوِيِّ
 من أطواء بدر خَبِيثٌ نُحِيتٌ ، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال ، فلما كان
 ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشده عليها رحلها ثم مشى وتبعه أصحابه ، قالوا : ما نرى ينطلق
 إلا لبعض حاجته ، حتى قام على شفير الرِّكِيِّ ، بفعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم يا فلان بن
 فلان يا فلان بن فلان أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله ، فإننا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا
 فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ، قال فقال عمر : يا رسول الله ! ما تكلم من أجساد لا أرواح
 لها ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم « والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم » قال
 قتادة : أحياهم الله حتى أسمعهم قوله تو بينا وتصغيرا ونقمة وحسرة وندما . نخرجه مسلم

أيضا . قال البخارى : حدثنا عثمان قال حدثنا عبدة عن هشام عن أبيه عن ابن عمر قال : وقف النبي صلى الله عليه وسلم على قليب بدر فقال : " هل وجدتم ما وعد ربكم حقا " ثم قال : " إنهم الآن ليعلمون أن الذى كنت أقول لهم هو الحق " ثم قرأت ^(١) « إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى » حتى قرأت الآية . وقد عورضت هذه الآية بقصة بدر وبالسلام على القبور ، وبما روى فى ذلك من أن الأرواح تكون على شفير القبور فى أوقات ، وبأن الميت يسمع قرع النعال إذا أنصرفوا عنه ، إلى غير ذلك ؛ فلو لم يسمع الميت لم يُسلم عليه . وهذا واضح وقد بيناه فى كتاب « التذكرة » . قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ﴾ أى كفرهم ؛ أى ليس فى وسعك خلق الإيمان فى قلوبهم . وقرأ حمزة : « وَمَا أَنْتَ تَهْدِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ » كقوله : « أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمَى ^(٢) » . الباقون : « بِهَادِي الْعُمَى » وهى اختيار أبى عبيد وأبى حاتم ^(٣) وفى « الروم » مثله . وكلهم وقف على « بهادى » بالياء فى هذه السورة وبغير ياء فى « الروم » أتباعا للصحف ، إلا يعقوب فإنه وقف فيها جميعا بالياء . وأجاز الفراء وأبو حاتم : « وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى » وهى الأصل . وفى حرف عبد الله « وَمَا أَنْ تَهْدِي الْعُمَى » . ﴿ إِنْ تُسْمِعُ ﴾ أى ما تسمع . ﴿ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ﴾ قال ابن عباس : أى إلا من خلقته للسعادة فهم مخلصون فى التوحيد .

قوله تعالى : وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِغَيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَخْشِرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِغَيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ قَالَ أَكَذَّبْتُم بِغَيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عَلَيَّا أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْصَلِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنَا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾

(١) أى عائشة رضى الله عنها . (٢) راجع ج ٨ ص ٢٤٦ . (٣) راجع ج ١٤ ص ٤٦ .

قوله تعالى : (وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ)^(١) اختلف في معنى وقع القول وفي الدابة ؛ فقبل : معنى « وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ » وجب الغضب عليهم ؛ قاله قتادة . وقال مجاهد : أى حق القول عليهم بأنهم لا يؤمنون . وقال ابن عمر وأبو سعيد الخدرى رضى الله عنهما : إذا لم يأمرؤا بالمعروف وينهوا عن المنكر وجب السخط عليهم . وقال عبد الله بن مسعود : وقع القول يكون بموت العلماء ، وذهاب العلم ، ورفع القرآن . قال عبد الله : أكثروا تلاوة القرآن قبل أن يرفع ، قالوا هذه المصاحف ترفع فكيف بما في صدور الرجال ؟ قال : يُسرَى عليه ليلا فيصبحون منه قفرا ، ويزنون لا إله إلا الله ، ويقعون في قول الجاهلية وأشعارهم ؛ وذلك حين يقع القول عليهم .

قلت : أسنده أبو بكر البزار قال حدثنا عبد الله بن يوسف النخعي قال حدثنا عبد المجيد ابن عبد العزيز عن موسى بن عبيدة عن صفوان بن سليم عن ابن لعبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن أبيه أنه قال : أكثروا من زيارة هذا البيت من قبل أن يُرفع وينسى الناس مكانه ؛ وأكثروا تلاوة القرآن من قبل أن يُرفع ؛ قالوا : يا أبا عبد الرحمن هذه المصاحف ترفع فكيف بما في صدور الرجال ؟ قال : فيصبحون فيقولون كما نتكلم بكلام ونقول قولا فيرجعون إلى شعر الجاهلية وأحاديث الجاهلية ، وذلك حين يقع القول عليهم . وقيل : القول هو قوله تعالى : « وَلَكِنَّ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ^(٢) » فوقع القول وجوب العقاب على هؤلاء ، فإذا صاروا إلى حد لا تقبل توبتهم ولا يولد لهم ولد مؤمن فحينئذ تقوم القيامة ؛ ذكره القشيري . وقول سادس : قالت حفصة بنت سيرين سألت أبا العالية عن قول الله تعالى : « وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ » فقال : أوحى الله إلى نوح « إِنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ^(٣) » وكأنما كان على وجهى غطاء فكشف . قال النحاس : وهذا من حسن الجواب ؛ لأن الناس ممتحنون ومؤخرون لأن فيهم . مؤمنين وصالحين ، ومن قد علم الله عز وجل أنه سيؤمن ويتوب ؛ فلهذا أمهلوا وأمرنا بأخذ الجزية ؛ فإذا زال هذا وجب القول عليهم ، فصاروا كقوم نوح حين قال الله تعالى : « إِنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ » .

قلت : وجميع الأقوال عند التأمل ترجع إلى معنى واحد . والدليل عليه آخر الآية « إِنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ » وقرئ : « أَنْ » : بفتح الهمزة وسياق . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها [لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً] [طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض] ” وقد مضى . واختلف في تعيين هذه الدابة وصفتها ومن أين تخرج اختلافًا كثيرًا ؛ قد ذكرناه في كتاب « التذكرة » ونذكره هنا إن شاء الله تعالى مستوفى . فأقول الأقوال أنه فصیل نافقة صالح وهو أصحها — والله أعلم — لما ذكره أبو داود الطيالسي في مسنده عن حذيفة قال : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدابة فقال : ” لها ثلاث خرجات من الدهر فتخرج في أقصى البادية ولا يدخل ذكرها القرية — يعني مكة — ثم تكن زمانًا طويلاً ثم تخرج خرجة أخرى دون ذلك فيفشو ذكرها في البادية ويدخل ذكرها القرية ” يعني مكة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” ثم بينا الناس في أعظم المساجد على الله حرمة خيرها وأكرمها على الله المسجد الحرام لم يرعهم إلا وهي ترغو بين الركن والمقام تنفض عن رأسها التراب فأرفض الناس منها شتى ومما وثبت عصابة من المؤمنين وعرفوا أنهم لن يعجزوا الله فبدأت بهم فجأت وجوههم حتى جعلتها كأنها الكوكب الدرّي ووّأت في الأرض لا يدركها طالب ولا ينجو منها هارب حتى إن الرجل ليتعوذ منها بالصلاة فتأتيه من خلفه فتقول يا فلان الآن تصلي فتقبل عليه فتسعه في وجهه ثم تنطلق ويشترك الناس في الأموال ويتطاعون في الأمصار يُعرف المؤمن من الكافر حتى إن المؤمن يقول يا كافر أقض حقّي ” وموضع الدليل من هذا الحديث أنه الفصل قوله : ” وهي ترغو ” والراء إنما هو الإبل ؛ وذلك أن الفصل لما قتلت النافقة هرب فأنتح له حجر فدخل في جوفه ثم أنطبق عليه ، فهو فيه حتى يخرج بإذن الله عز وجل . وروى أنها دابة مرغبة شعراء ، ذات قوائم طولها ستون ذراعاً ، ويقال إنها الجساسة ؛ وهو قول عبد الله بن عمر . وروى عن ابن عمر أنها على خلقة الآدميين ؛ وهي في السحاب وقوائمها في الأرض . وروى أنها جمعت من خلق

كل حيوان . وذكر الماوردي والثعلبي رأسها رأس ثور ، وعينها عين خنزير ، وأذنها أذن فيل ، وقرنها قرن أيل ، وعنقها عنق نعامة ، وصدرها صدر أسد ، ولونها لون نمر ، وخاصرتها خاصرة هرة ، وذنبها ذنب كبش ، وقوائمها قوائم بعير بين كل مفصل ومفصل اثنا عشر ذراعا — الزمخشري : بذراع آدم عليه السلام — ويخرج معها عصا موسى وخاتم سليمان ، فتتكت في وجه المسلم بعصا موسى نكتة بيضاء فيبيض وجهه ، وتتكت في وجه الكافر بخاتم سليمان عليه السلام فيسود وجهه ؛ قاله ابن الزبير رضي الله عنهما . وفي كتاب النقاش عن ابن عباس رضي الله عنهما : إن الدابة الثعبان المشرف على جدار الكعبة التي آفتلعتها العقاب حين أرادت قريش بناء الكعبة . وحكى الماوردي عن محمد بن كعب عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه سئل عن الدابة فقال : أما والله ما لها ذنب وإن لها للحية . قال الماوردي : وفي هذا القول منه إشارة إلى أنها من الإنس وإن لم يصرح به .

قلت : ولهذا — والله أعلم — قال بعض المتأخرين من المفسرين : إن الأقرب أن تكون هذه الدابة إنسانا متكلمنا يناظر أهل البدع والكفر ويجادلهم لينقطعوا ، فيهلك من هلك عن بدنة : ويحيى من حي عن بدنة . قال شيخنا الإمام أبو العباس أحمد بن عمر القرطبي في كتاب المفهم له : وإنما كان عند هذا القائل الأقرب لقوله تعالى : « تُكَلِّمُهُمْ » وعلى هذا فلا يكون في هذه الدابة آية خاصة خارقة للمادة ، ولا يكون من العشر الآيات المذكورة في الحديث ؛ لأن وجود المناظرين والمحتجين على أهل البدع كثير ، فلا آية خاصة بها فلا ينبغي أن تذكر مع العشر ، وترتفع خصوصية وجودها إذا وقع القول ، ثم فيه العدول عن تسمية هذا الإنسان المناظر الفاضل العالم الذي على أهل الأرض أن يسموه بالإنسان أو بالعالم أو بالإمام إلى أن يسمى بدابة ؛ وهذا خروج عن عادة الفصحاء ، وعن تعظيم العلماء ، وليس ذلك دأب العقلاء ؛ فالأولى ما قاله أهل التفسير ، والله أعلم بحقائق الأمور .

قلت — قد رفع الإشكال في هذه الدابة ما ذكرناه من حديث حذيفة فليعتمد عليه . وأختلف من أى موضع تخرج ، فقال عبد الله بن عمر : تخرج من جبل الصفا بمكة ؛ يتصدع فتخرج منه . قال عبد الله بن عمرو نحوه وقال : لو شئت أن أضع قدمي على موضع خروجها

لفعلت . وروى في خبر عن النبي صلى الله عليه وسلم : ” إن الأرض تنشق عن الدابة وعيسى عليه السلام يطوف بالبيت ومعه المسلمون من ناحية المسمى وأنها تخرج من الصفا فتسم بين عيني المؤمن هو مؤمن سمة كأنها كوكب دُزى وتسم بين عيني الكافر نكتة سوداء كافر “ وذكر في الخبر أنها ذات وبر وریش ؛ ذكره المهدوى . وعن ابن عباس أنها تخرج من شعب فتمس رأسها السحاب ورجلاها في الأرض لم تخرجا ، وتخرج ومعها عصا موسى وخاتم سليمان عليهما السلام . وعن حذيفة : تخرج ثلاث خرجات ؛ خرجة في بعض البوادي ثم تكمن ، وخرجة في القرى يتقاتل فيها الأمراء حتى تكثر الدماء ، وخرجة من أعظم المساجد وأكرمها وأشرفها وأفضلها . الزحشرى : تخرج من بين الركن حذاء دار بنى مخزوم عن يمين الخارج من المسجد ؛ فقوم يربون ، وقوم يقفون نظارة . وروى عن قتادة أنها تخرج في تهامة . وروى أنها تخرج من مسجد الكوفة من حيث فارتور نوح عليه السلام . وقيل : من أرض الطائف ؛ قال أبو قبيل : ضرب عبد الله بن عمرو أرض الطائف برجله وقال : من هنا تخرج الدابة التي تكلم الناس . وقيل : من بعض أودية تهامة ؛ قاله ابن عباس . وقيل : من صخرة من شعب أجياد ؛ قاله عبد الله بن عمرو . وقيل : من بحر سدوم ؛ قاله وهب بن منبه . ذكر هذه الأقوال الثلاثة الأخيرة المأوردي في كتابه . وذكر البغوي أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز قال : حدثنا علي بن الجعد عن فضيل بن مرزوق الرقاشي الأغسر — وسئل عنه يحيى بن معين فقال ثقة — عن عطية العوفي عن ابن عمر قال تخرج الدابة من صدع في الكعبة بكري الفرس ثلاثة أيام لا يخرج ثلثها .

قلت : فهذه أقوال الصحابة والتابعين في خروج الدابة وصفتها ، وهي ترد قول من قال من المفسرين : إن الدابة إنما هي إنسان متكلم يناظر أهل البدع والكفر . وقد روى أبو أمامة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ” تخرج الدابة فتسم الناس على خراطيمهم “ ذكره المأوردي . « تَكَلَّمُوهُمْ » بضم التاء وشد اللام المكسورة — من الكلام — قراءة العامة ؛ يدل عليه قراءة أبي « تَنْبَهُهُمْ » . وقال السدي : تكلمهم ببطلان الأديان سوى

دين الإسلام . وقيل : تكلمهم بما يسوءهم . وقيل : تكلمهم بلسان ذلق فنقول بصوت يسمعه من قُرب وبعد « إِنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ » أى بخروجي ؛ لأن خروجها من الآيات . وتقول : ألا لعنة الله على الظالمين . وقرأ أبو زرعة وابن عباس والحسن وأبو رجاء : « تَكَلِّمُهُمْ » بفتح التاء من الكلم وهو الجرح ؛ قال عكرمة : أى تَسْمُهُمْ . وقال أبو الجوزاء : سألت ابن عباس عن هذه الآية « تَكَلِّمُهُمْ » أو « تَكَلِّمُهُمْ » ؟ فقال : هى والله تَكَلِّمُهُمْ وَتَكَلِّمُهُمْ ؛ تَكَلَّمَ الْمُؤْمِنُ وَتَكَلَّمَ الْكَافِرُ وَالْفَاجِرُ أَى تَجَرَّحَهُ . وقال أبو حاتم : « تَكَلِّمُهُمْ » كما تقول تُجَرِّحُهُمْ ؛ يذهب إلى أنه تكثير من « تَكَلِّمُهُمْ » . ﴿ إِنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ وقرأ الكوفيون وابن أبى إسحق ويحيى : « أن » بالفتح . وقرأ أهل الحرمين وأهل الشام وأهل البصرة : « إن » بكسر الهمزة . قال النحاس : فى المفتوحة قولان وكذا المكسورة ؛ قال الأخفش : المعنى بأن وكذا قرأ ابن مسعود « بَأَنَّ » وقال أبو عبيدة : موضعها نصب بوقوع الفعل عليها ؛ أى تخبرهم أن الناس . وقرأ الكسائى والفرأ : « إِنَّ النَّاسَ » بالكسر على الاستئناف . وقال الأخفش : هى بمعنى تقول إن الناس ؛ يعنى الكفار . « بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ » يعنى بالقرآن وبمحمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك حين لا يقبل الله من كافر إيماناً ولم يبق إلا مؤمنون وكافرون فى علم الله قبل خروجها ؛ والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا ﴾ أى زمرة وجماعة . ﴿ مِمَّنْ يَكْذِبُ بِآيَاتِنَا ﴾ يعنى بالقرآن وبأعلامنا الدالة على الحق . ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أى يُدْفَعُونَ ويساقون إلى موضع الحساب . قال الشماخ :

وَكَمْ وَزَعْنَا مِنْ نَحْمِيسَ جَحْفِلٍ * وَكَمْ حَبَوْنَا مِنْ رَيْسٍ مِسْحَلٍ

وقال قتادة : « يُوزَعُونَ » أى يُرَدُّ أَوَّلُهُمْ عَلَى آخِرِهِمْ . ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ ﴾ أى قال الله ﴿ أَكْذَبْتُمْ بِآيَاتِنَا ﴾ التى أنزلتها على رسلى ، وبالآيات التى أقمتها دلالة على توحيدى . ﴿ وَلَمْ يُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا ﴾ أى ببطلانها حتى تعرضوا عنها ، بل كذبتم جاهلين غير مستدئين . ﴿ أَمَّا ذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ تقرير وتوبيخ أى ماذا كنتم تعملون حين لم تبحثوا عنها ولم تفكروا

ما فيها . (وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا) أى وجب العذاب عليهم بظلمهم أى بشركهم .
(فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ) أى ليس لهم عذر ولا حجة . وقيل : يختم على أفواههم فلا ينطقون ؛ قاله
أكثر المفسرين .

قوله تعالى : (أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ) أى يستقرون فينامون . (وَالنَّهَارَ
مُبْصِرًا) أى يبصر فيه لسمى الرزق . (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) بالله . ذكر
الدلالة على إلهيته وقدرته أى الم يعلموا كمال قدرتنا فيؤمنوا .

قوله تعالى : وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ
فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهُ دَاحِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ
تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ
إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِّنْ
فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ
هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾

قوله تعالى : (وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ) أى وأذ كر يوم أو ذكركم يوم ينفخ في الصور .
ومذهب الفراء أن المعنى : وذاكم يوم ينفخ في الصور ؛ وأجاز فيه الخفاف . والصحيح
في الصور أنه قرن من نور ينفخ فيه إسرافيل . قال مجاهد : كهيئة البوق . وقيل : هو
البوق بلغة أهل اليمن . وقد مضى في « الأنعام » بيانه وما للعلماء في ذلك . (فَفَزِعَ مَنْ
فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ) قال أبوهريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم :
« إن الله لما فرغ من خلق السموات خلق الصور فأعطاه إسرافيل فهو واضعه على فيه
شاخص ببصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر بالنفخة » قالت : يا رسول الله ما الصور ؟ قال :

« قَرْنِ وَاللّٰهُ عَظِيمٌ وَالَّذِي بَعَثْنِي بِالْحَقِّ إِنْ عَظُمَ دَارَةٌ فِيهِ كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فَيَنْفَخُ فِيهِ ثَلَاثَ نَفَخَاتٍ النَّفْخَةُ الْأُولَى نَفْخَةُ الْفَرْعِ وَالثَّانِيَةُ نَفْخَةُ الصَّعَقِ وَالثَّلَاثَةُ نَفْخَةُ الْبَعْثِ وَالْقِيَامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » وذكر الحديث . ذكره علي بن معبد والطبري والثعلبي وغيرهم ، وصححه ابن العربي . وقد ذكرته في كتاب « التذكرة » وتكلمنا عليه هناك ، وأن الصحيح في النفخ في الصور أنهما نفختان لا ثلاث ، وأن نفخة الفرع إنما تكون راجعة إلى نفخة الصعق لأن الأمرين لازمان لهما ؛ أي فزعوا فزعاً ماتوا منه ؛ أو إلى نفخة البعث وهو اختيار القشيري وغيره ؛ فإنه قال في كلامه على هذه الآية : والمراد النفخة الثانية أي يحيون فزعين يقولون : « مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقِدَاتِنَا^(١) » ؛ ويعاينون من الأمر ما يهولهم ويفزعهم ؛ وهذا النفخ كصوت البوق لتجتمع الخلق في أرض الجزاء . [قاله قتادة^(٢)] وقال الماوردي : « وَيَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ . » هو يوم النشور من القبور ، قال وفي هذا الفرع قولان : أحدهما أنه الإسراع والإجابة إلى النداء من قولهم : فزعت إليك في كذا إذا أسرعت إلى ندائك في معونتك . والقول الثاني : إن الفرع هنا هو الفرع المعهود من الخوف والحزن ؛ لأنهم أزعجوا من قبورهم [فزعوا^(٣)] وخافوا . وهذا أشبه القولين .

قلت : والسنة الثابتة من حديث أبي هريرة وحديث عبد الله بن عمر ويدل على أنهما نفختان لا ثلاث ؛ نخرجهما مسلم وقد ذكرناهما في كتاب « التذكرة » وهو الصحيح إن شاء الله تعالى أنهما نفختان ؛ قال الله تعالى ، « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ » فاستثنى هنا كما استثنى في نفخة الفرع فدل على أنهما واحدة . وقد روى ابن المبارك عن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بين النفختين أربعون سنة الأولى يميت الله بها كل حي والآخرة يحيي الله بها كل ميت » فإن قيل : فإن قوله تعالى : « يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ^(٢) » إلى أن قال : « فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ » وهذا يقتضي بظاهره أنها ثلاث . قيل له : ليس كذلك ، وإنما المراد بالزجرة النفخة الثانية التي يكون عنها خروج الخلق من قبورهم ؛ كذلك قال ابن عباس ومجاهد

(١) راجع ج ١٤ ص ٣٨ فابعد . (٢) من ك . راجع ج ١٩ ص ١٨٨ فابعد .

وعطاء وآبن زيد وغيرهم . قال مجاهد : هما صيحتان أما الأولى فتعني كل شيء بإذن الله ، وأما الأخرى فتعني كل شيء بإذن الله . وقال عطاء : « الرَّاجِفَةُ » القيامة و « الرَّادِفَةُ » البعث . وقال آبن زيد : « الرَّاجِفَةُ » الموت و « الرَّادِفَةُ » الساعة . والله أعلم . « إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ » ثم اختلف في هذا المستثنى من هم . ففي حديث أبي هريرة أنهم الشهداء عند ربهم يرزقون إنما يصل الفزع إلى الأحياء ؛ وهو قول سعيد بن جبير أنهم الشهداء متقلدو السيوف حول العرش . وقال القشيري : الأنبياء داخلون في جملتهم ؛ لأن لهم الشهادة مع النبوة وقيل : الملائكة . قال الحسن : استثنى طوائف من الملائكة يموتون بين النفتين . قال مقاتل : يعني جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت . وقيل : الحور العين . وقيل : هم المؤمنون ؛ لأن الله تعالى قال عقيبت هذا : « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ » . وقال بعض علمائنا : والصحيح أنه لم يرد في تعيينهم خبر صحيح والكل محتمل .

قلت : خفي عليه حديث أبي هريرة وقد صححه القاضي أبو بكر بن العربي فليقول عليه ؛ لأنه نص في التعيين وغيره اجتهد . والله أعلم . وقيل : غير هذا على ما يأتي في « الزمر »^(١) . وقوله : « فَفَزَعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ » ماض و « يُنْفَخُ » مستقبل فيقال : كيف عطف ماض على مستقبل ؟ فزعم الفراء أن هذا محمول على المعنى ؛ لأن المعنى : إذا نفخ في الصور ففزع . « إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ » نصب على الاستثناء . (وَكُلُّ أُنْفُوسٍ دَاخِرِينَ) قرأ أبو عمرو وعاصم والكسائي ونافع وآبن عامر وآبن كثير : « أُنْفُوسٌ » جعلوه فعلا مستقبلا . وقرأ الأعمش ويحيى وحزمة وحفص عن عاصم : « وَكُلُّ أُنْفُوسٍ » مقصورا على الفعل الماضي ، وكذلك قرأه آبن مسعود . وعن قتادة « وَكُلُّ أُنْفُوسٍ دَاخِرِينَ » . قال النحاس : وفي كتابي عن أبي إسحق في القراءات [من قرأ] : « وَكُلُّ أُنْفُوسٍ » وحده على لفظ « كُلٌّ » ومن قرأ : « أُنْفُوسٌ » جمع على معناها ، وهذا القول غلط قبيح ؛ لأنه إذا قال : « وَكُلُّ أُنْفُوسٍ » فلم يوحد وإنما جمع ،

(١) راجع ج ١٥ ص ٢٧٧ فابعد . (٢) الزيادة من « إعراب القرآن » للنحاس .

ولو وحّد لقال : « أَنَاهُ » ولكن من قال : « أَتَوُّهُ » جمع على المعنى وجاء به ماضيا لأنه رده إلى « فَنَفِزَع » ومن قرأ : « وَكُلُّ أَتَوُّهُ » حمله على المعنى أيضا وقال : « أَتَوُّهُ » لأنها جملة منقطعة من الأول . قال ابن نصر : قد حكى عن أبي إسحق رحمه الله ما لم يقله ، ونص أبي إسحق : « وَكُلُّ أَتَوُّهُ دَاخِرِينَ » وبقرا : « أَتَوُّهُ » فمن وحّد فاللفظ « كُلٌّ » ومن جمع فلمعناها . يريد ما أتى في القرآن أو غيره من توحيد خبر « كُلٌّ » فعلى اللفظ أو جمع فعلى المعنى ؛ فلم يأخذ أبو جعفر هذا المعنى . قال المهدوى : ومن قرأ « وَكُلُّ أَتَوُّهُ دَاخِرِينَ » فهو فعل من الإتيان وحمل على معنى « كل » دون لفظها ، ومن قرأ : « وَكُلُّ أَتَوُّهُ دَاخِرِينَ » فهو اسم الفاعل من أتى . يدل ذلك قوله تعالى : ﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ^(١) » . ومن قرأ : « وَكُلُّ أَنَاهُ » حمله على لفظ « كُلٌّ » دون معناها وحمل « دَاخِرِينَ » على المعنى ؛ ومعناه صاغرين ؛ عن ابن عباس وقتادة . وقد مضى في « النحل ^(٢) » .

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ قال ابن عباس : أى قائمة وهى تسير سيرا حثيثا . قال القتبي : وذلك أن الجبال تُجَمَّع وتُسَيَّر ، فهى فى رؤية العين كالقائمة وهى تسير ؛ وكذلك كل شىء عظيم وجمع كثير يقصر عنه النظر ، لكثرتة وبعد ما بين أطرافه ، وهو فى حساب الناظر كالواقف وهو يسير . قال النابغة فى وصف جيش :
بَارِعَنَ مِثْلَ الطُّودِ تَحْسَبُ أَنَّهُمْ * وَقُوفٌ لِحَاجِ وَالرَّكَّابُ تَهْمِلُجُ

قال القشيري . وهذا يوم القيامة ؛ أى هى لكثرتها كأنها جامدة ؛ أى واقفة فى مرأى العين وإن كانت فى أنفسها تسير سيرا السحاب ، والسحاب المتراكم يظن أنها واقفة وهى تسير ؛ أى تمر مر السحاب حتى لا يبقى منها شىء ، فقال الله تعالى : « وَسَيَّرَتِ الْجِبَالَ فَكَانَتْ سَرَابًا ^(٣) » ويقال : إن الله تعالى وصف الجبال بصفات مختلفة ترجع كلها إلى تفريغ الأرض منها ؛ وإبراز ما كانت تواريه ؛ فأول الصفات الأندكاك وذلك قبل الزلزلة ؛ ثم تصير كالعهن المنفوش ؛ وذلك إذا صارت السماء كالمهل ، وقد جمع الله بينهما فقال : « يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ »

(٢) راجع ج ١٠ ص ١١١ .

(١) راجع ج ١١ ص ١٥٥ فابعد .

(٣) راجع ج ١٩ ص ١٧٣ فابعد .

وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ^(١) . والحالة الثالثة أن تصير كالهباء وذلك أن نتقطع بعد أن كانت كالعنه . والحالة الرابعة أن تنسف لأنها مع الأحوال المتقدمة قارة في مواضعها والأرض تحتها غير بارزة فتنسف عنها لتبرز ، فإذا نسفت فبإرسال الرياح عليها . والحالة الخامسة أن الرياح ترفعها على وجه الأرض فتظهرها شعاعا في الهواء كأنها غبار ، فمن نظر إليها من بعد حسبها لتكاثفها أجسادا جامدة ، وهي بالحقيقة مازة إلا أن مرورها من وراء الرياح كأنها مندكة متفتتة . والحالة السادسة أن تكون سرايا فمن نظر إلى مواضعها لم يجد فيها شيئا منها كالسراب . قال مقاتل : تقع على الأرض فتسوى بها . ثم قيل هذا مثل . قال الماوردي : وفيهما ضرب له ثلاثة أقوال^(٢) : أحدها أنه مثلٌ ضربه الله تعالى للدينيا يظن الناظر إليها أنها واقفة كالجبال ، وهي آخذة بحظها من الزوال كالسحاب ؛ قاله سهل بن عبد الله . الثاني : أنه مثلٌ ضربه الله للإيمان تحسبه ثابتا في القلب وعمله صاعد إلى السماء . الثالث : أنه مثل ضربه الله للنفس عند خروج الروح والروح تسير إلى العرش . (صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ) أي هذا من فعل الله ، و [ما] هو فعل منه فهو متقن . و « ترى » من رؤية العين ولو كانت من رؤية القلب لتعدت إلى مفعولين . والأصل ترأى فألقيت حركة الهمزة على الراء فتحتزكت الراء وحذفت الهمزة ، وهذا سبيل تخفيف الهمزة إذا كان قبلها ساكن ، إلا أن التخفيف لازم لترى . وأهل الكوفة يقرءون : « تَحَسَّبَهَا » بفتح السين وهو القياس ؛ لأنه من حَسَبَ يحسب إلا أنه قد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم خلافها أنه قرأ بالكسر في المستقبل ، فتكون على فِعِل يفعل مثل نِعِم ينعم وَيَتَسَبَّبُ ويحكي يَتَسَبَّبُ من السالم^(٣) ، لا يعرف في كلام العرب غير هذه الأحرف . « وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ » تقديره مرًا مثل مر السحاب ، فأقيمت الصفة مقام الموصوف والمضاف مقام المضاف إليه ؛ فالجبال تُزال من أماكنها من على وجه الأرض ؛ وتُجمع وتُسِير كما تُسِير السحاب ، ثم تُكسَّر فتعود إلى الأرض كما قال : « وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا »^(٤) . « صُنِعَ اللَّهُ » عند الخليل وسيبويه منصوب على أنه مصدر ؛ لأنه لما قال عز وجل : « وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ » دل على أنه قد صنع ذلك صنعا . ويجوز النصب على الإغراء ؛ أي أنظروا صنع الله . فيوقف

(١) راجع ج ١٨ ص ٢٨٤ . (٢) في ك : أفايل .

(٣) كذا في الأصول ، وفي اللسان : نعم ينعم من السالم . وهو الصواب . (٤) راجع ج ١٧ ص ١٩٦ .

على هذا على « السَّحَابِ » ولا يوقف عليه على التقدير الأول . ويجوز رفعه على تقدير ذلك صنع الله . « الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ » أى أحكمه ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : « رحم الله من عمل عملاً فاتقنه » . وقال قتادة : معناه أحسن كل شيء . والإتقان الإحكام ؛ يقال : رجل تَقَنَ أى حاذق بالأشياء . وقال الزهري : أصله من آبن تَقَنَ ، وهو رجل من عاد لم يكن يسقط له سهم فضرب به المثل ؛ يقال : أَرَمَى من آبن تَقَنَ ثم يقال لكل حاذق بالأشياء تقن . (١) إِنَّهُ خَيْرٌ مِمَّا تَفْعَلُونَ (١) [والباقون تفعلون] بالتاء على الخطاب قراءة الجمهور . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وهشام بالياء .

قوله تعالى : (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا) قال ابن مسعود وابن عباس رضى الله عنهما : الحسنة لا إله إلا الله . وقال أبو معشر : كان إبراهيم يحلف بالله الذى لا إله إلا هو ولا يستثنى أن الحسنة لا إله إلا الله محمد رسول الله . وقال على بن الحسين بن على رضى الله عنهم : غزا رجل فكان إذا خلا بمكان قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ؛ فبينما هو فى أرض الروم فى أرض جلفاء وبردى رفع صوته فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ؛ فخرج عليه رجل على فرس عليه ثياب بيض فقال له : والذى نفسى بيده إنها الكلمة التى قال الله تعالى : « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا » . وروى أبو ذر قال : قلت يا رسول الله أوصنى . قال : « أتق الله وإذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تحمها » قال قلت : يا رسول الله أمن الحسنات لا إله إلا الله ؟ قال : « من أفضل الحسنات » وفى رواية قال : « نعم هى أحسن الحسنات » ذكره البيهقي . وقال قتادة : « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ » بالإخلاص والتوحيد . وقيل : أداء الفرائض كلها . قلت : إذا أتى بلا إله إلا الله على حقيقتها وما يجب لها — على ما تقدم بيانه فى سورة (٢) إبراهيم — فقد أتى بالتوحيد والإخلاص والفرائض . « فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا » قال ابن عباس : أى وصل إليه الخير منها ؛ وقاله مجاهد . وقيل : فله الجزء الجليل وهو الجنة . وليس « خير » للتفضيل . قال عكرمة وابن جريج : أما أن يكون له خير منها يعنى من الإيمان فلا ؛ فإنه ليس شئ خيراً ممن قال لا إله إلا الله ولكن له منها خير . وقيل : « فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا » للتفضيل أى ثواب الله خير من عمل العبد وقوله وذكره ، وكذلك رضوان الله خير للعبد من فعل العبد ؛

(١) من له . (٢) راجع ج ٩ ص ٣٥٨ لما بعد .

قاله ابن عباس . وقيل : يرجع هذا إلى الإضعاف فإن الله تعالى يعطيه بالواحدة عشرا ، وبالإيمان في مدة يسيرة الثواب الأبدى ؛ قاله محمد بن كعب وعبد الرحمن بن زيد . (وَمِنْ فَرْعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ) قرأ عاصم وحزة والكسائي « فَرْعٌ يَوْمَئِذٍ » بالإضافة . قال أبو عبيد : وهذا أعجب إلى لأنه أعم التأويلين أن يكون الأمن من جميع فروع ذلك اليوم ، وإذا قال : « مِنْ فَرْعٍ يَوْمَئِذٍ » صار كأنه فرع دون فرع دون فرع . قال القشيري : وقرئ : « مِنْ فَرْعٍ » بالتنوين ثم قيل يعنى به فرعا واحدا كما قال : « لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ^(١) » . وقيل : غنى الكثرة لأنه مصدر والمصدر صالح للكثرة .

قلت : فعلى هذا تكون القراءة ثان بمعنى . قال المهدوى : ومن قرأ : « مِنْ فَرْعٍ يَوْمَئِذٍ » بالتنوين أنتصب « يَوْمَئِذٍ » بالمصدر الذى هو « فَرْعٌ » . ويجوز أن يكون صفة لفرع ويكون متعلقا بمحذوف ؛ لأن المصادر يخبر عنها بأسماء الزمان وتوصف بها ، ويجوز أن يتعلق باسم الفاعل الذى هو « آمِنُونَ » . والإضافة على الاتساع في الظروف . ومن حذف التنوين وفتح الميم بناء لأنه ظرف زمان ، وليس الإعراب في ظرف الزمان متمكنا ، فلما أضيف إلى غير متمكن ولا معرب بنى . وأنشد سيبويه :

صلى حينَ أَلْهَى النَّاسَ جُلُّ أُمُورِهِمْ * فَنَدَلًا زُرَيْقُ الْمَالِ نَدَلَ الثَّعَالِبِ^(٢)

قوله تعالى : (وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ) أى بالشرك ؛ قاله ابن عباس والبخي وأبو هريرة ومجاهد وقيس بن سعد والحسن ، وهو إجماع من أهل التأويل في أن الحسنه لا إله إلا الله ، وأن السيئة الشرك في هذه الآية . (فَكُتِبَتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ) قال ابن عباس : ألقيت . وقال الضحاك : طرحت ؛ يقال كُتِبَ الإناء أى قلبته على وجهه ، واللازم منه أكب ؛ وقيلما يأتى هذا في كلام العرب . (هَلْ تُجْزَوْنَ) أى يقال لهم هل تجزون . ثم يجوز أن يكون من قول الله ، ويجوز أن يكون من قول الملائكة . (إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) أى إلا جزاء أعمالكم .

(١) راجع ج ١١ ص ٣٤٥ فابعد .

(٢) زريق : أسم قبيلة وهو منادى . والندل هنا الأخذ بالدين . والندل أيضا المرعة في السير . « ندل الثعالب » : يقال في المثل : (هو أكسب من ثعلب) لأنه يندخل نفسه ، ويأتى على ما يعدو عليه من الحيوان إذا أمكنه . والبيت في وصف تجار وقيل لصوص ، وقوله :

يمرون بالدهنا خفاغا عياهم * ويرجمن من دارين بجر الخعاب

قوله تعالى : **إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا**
وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ **وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ**
فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَلِئِمَّا يَهْتَدَىٰ لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ
الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ **وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيَرِيكُمْ ءَايَتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ**
بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

قوله تعالى : **(إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا)** يعنى مكة التى
عظم الله حرمتها ؛ أى جعلها حراما آمنا ؛ لا يسفك فيها دم ، ولا يظلم فيها أحد ، ولا يصاد فيها
صيد ، ولا يعصد فيها شجر ؛ على ما تقدم بيانه فى غير موضع . وقرأ ابن عباس : « **الَّتِي**
حَرَّمَهَا » نعنا للبلدة . وقراءة الجماعة « **الَّذِي** » وهو فى موضع نصب نعت لـ « **رب** »
ولو كان بالالف واللام لقات المحرمها ؛ فإن كانت نعنا للبلدة قلت المحرمها هو ؛ لا بد من
إظهار المضمرة مع الألف واللام ؛ لأن الفعل جرى على غير من هو له ؛ فإن قلت الذى حرّمها
لم تحتج أن تقول هو . **(وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ)** خلقا وملكا . **(وَأَمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ)**
أى من المتقادين لأمره ، الموحدين له . **(وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ)** أى وأمرت أن أتلى القرآن ،
أى أقرأه . **(فَمَنْ أَهْتَدَىٰ)** فله ثواب هدايته . **(وَمَنْ ضَلَّ)** فليس على إلا البلاغ ؛
نسختها آية القتال . قال النحاس . « **وَأَنْ أَتْلُوا** » نصب بأن . قال الفراء : وفى إحدى
القراءتين « **وَأَنْ أَتَلَّ** » وزعم أنه فى موضع جزم بالأمر فلذلك حذف منه الواو ، قال
النحاس : ولا نعرف أحدا قرأ هذه القراءة ، وهى مخالفة لجميع المصاحف .

قوله تعالى : **(وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ)** أى على نعمه وعلى ما هدانا . **(سَيَرِيكُمْ ءَايَتِهِ)** أى
فى أنفسكم وفى غيركم كما قال : « **سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ** » ^(١) . **(فَتَعْرِفُونَهَا)**
أى دلائل قدرته ووحدايته فى أنفسكم وفى السموات وفى الأرض ؛ نظيره قوله تعالى :
« **وَفِي الْأَرْضِ ءَايَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ . وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ** » ^(٢) . **(وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)**

قرأ أهل المدينة وأهل الشام وحفص عن عاصم بالناء على الخطاب ؛ لقوله : « سِيرُكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا » فيكون الكلام على نسق واحد . الباقيون بالياء على أن يرد إلى ما قبله « فَمَنْ آهَتَدَى » فأخبر عن تلك الآية . كملت السورة والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

سورة القصص

مكية كلها في قول الحسن ومكرمة وعطاء . وقال ابن عباس وقتادة إلا آية نزلت بين مكة والمدينة . وقال ابن سلام : بالجحفة في وقت هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة . وهي قوله عز وجل : « إِنَّ الَّذِي قَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ » . وقال مقاتل : فيها من المدني « الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ » إلى قوله : « لَا تَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ » . وهي ثمان وثمانون آية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : طَسَمَ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ مِنْهُمِ طَآئِفَةً مِنْهُمْ يذِبحُ آبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَرَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ قوله تعالى : (طَسَمَ) تقدم الكلام فيه . (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ) « تِلْكَ » في موضع رفع بمعنى هذه تلك و « آيَاتُ » بدل منها . ويجوز أن يكون في موضع نصب بـ « نَتْلُو » و « آيَاتُ » بدل منها أيضا ؛ وتنصبها كما تقول : زيدا ضربت . و « الْمُبِينِ »

أى المبين بركنته وخيره ، والمبين الحق من الباطل ، والحلال من الحرام ، وقصص الأنبياء ، ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم . ويقال : بان الشيء وأبان^(١) . (تَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبِيلٍ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) ذكر قصة موسى عليه السلام وفرعون وقارون ، واحتج على مشركي قريش ، وبين أن قرابة قارون من موسى لم تنفعه مع كفره ، وكذلك قرابة قريش لمحمد ، وبين أن فرعون علا في الأرض وتجبر ، فكان ذلك من كفره ، فليجتنب العلو في الأرض ، وكذلك التعزز بكثرة المال ، وهما من سيرة فرعون وقارون . « تَتْلُو عَلَيْكَ » أى اقرأ عليك جبريل بأمرنا « مِنْ نَبِيلٍ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ » أى من خبرهما و « من » للتبويض و « مِنْ نَبِيلٍ » مفعول « تَتْلُو » أى تتلو عليك بعض خبرهما ، كقوله تعالى : « تُنَبِّئُ بِالذَّهْنِ »^(٢) . ومعنى : « بِالْحَقِّ » أى بالصدق الذى لا ريب فيه ولا كذب . « لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » أى يصدقون بالقرآن ويعلمون أنه من عند الله ، فأما من لم يؤمن فلا يعتقد أنه حق .

قوله تعالى : (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ) أى استكبر وتجبر ، قاله ابن عباس والسدى . وقال قتادة : علا فى نفسه عن عبادة ربه بكفره وأدعى الربوبية . وقيل : بملكه وسلطانه فصار عاليا على من تحت يده . « فِي الْأَرْضِ » أى أرض مصر . (وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا) أى فرقا وأصنافا فى الخدمة . قال الأعشى :

وبلدة يرهب الجواب دجلتها * حتى تراه عليها يبتغي الشيعا

(يَسْتَضِيعُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ) أى من بنى إسرائيل . (يَذَّجُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) تقدم القول فى هذا فى « البقرة » عند قوله : « يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ » الآية ، وذلك لأن الكهنة قالوا له : إن مولودا يولد فى بنى إسرائيل يذهب ملكك على يديه ، أو قال المنجمون له ذلك ، أو رأى رؤيا فعبرت كذلك . قال

(١) فى الأصول : « أفصح » وهو تحريف . والتصويب من كتب اللغة .

(٢) راجع ج ١٢ ص ١١٤ . (٣) راجع ج ١ ص ٣٨٤ فابعد .

الزجاج: العجب من حقه لم يدر أن الكاهن إن صدق فالقتل لا ينفع، وإن كذب فلا معنى للقتل. وقيل: جعلهم شيعا فاستسخر كل قوم من بني إسرائيل في شغل مفرد. «إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ» أى فى الأرض بالعمل والمعاصى والتجبر.

قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أى نتفضل عليهم وننعم. وهذه حكاية مضت. ﴿وَنَجْعَلُهمْ أَئِمَّةً﴾ قال ابن عباس: قادة فى الخير. مجاهد: دعاة إلى الخير. قتادة: ولاية وملوكا؛ دليله قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْكُمْ مُلُوكًا﴾^(١).

قلت: وهذا أعم فإن الملك إمام يؤتم به ويقتهدى به. ﴿وَنَجْعَلُهمْ الْوَارِثِينَ﴾ لملك فرعون؛ يرثون ملكه، ويسكنون مساكن القبط. وهذا معنى قوله تعالى: «وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا»^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَنُمَكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أى نجعلهم مقتدرين على الأرض وأهلها حتى يُستولى عليها؛ يعنى أرض الشام ومصر. ﴿وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا﴾ أى ونريد أن نرى فرعون. وقرأ الأعمش ويحيى وحزرة والكسائى وخلف: «وَرَى» بالياء على أنه فعل ثلاثى من رأى «فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا» رفعا لأنه الفاعل. الباقون «نُرِىَ» بضم النون وكسر الراء على أنه فعل رباعى من أرى يُرى، وهى على نسق الكلام؛ لأن قبله «وَنُرِيدُ» وبعده «وَنُمَكِّنْ». «فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا» نصبا بوقوع الفعل. وأجاز الفراء «وَرِىَ فِرْعَوْنَ» بضم الياء وكسر الراء وفتح الياء بمعنى ويرى الله فرعون ﴿مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ وذلك أنهم أخبروا أن هلاكهم على يدى رجل من بني إسرائيل فكانوا على وجل ﴿مِنْهُمْ﴾ فأراهم الله «مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ». قال قتادة: كان حازيا لفرعون — والحازى المنجم — قال إنه سيولد فى هذه السنة مولود يذهب بملكك؛ فأمر فرعون بقتل الولدان فى تلك السنة. وقد تقدّم.

(١) راجع ج ٦ ص ١٢٢ فما بعد. (٢) راجع ج ٧ ص ٢٧٢.

قوله تعالى : وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ^طفَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ
فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ
الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْتَقَطَهُ ^طءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ
فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ
قُرَّتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ
لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾

قوله تعالى : (وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ) قد تقدم معنى الوحي ومحامله .
وآختلف في هذا الوحي إلى أم موسى ؛ فقالت فرقة : كان قولاً في منامها . وقال فتادة :
كان إلهاماً . وقالت فرقة : كان بملاك يمثل لها . قال مقاتل : أتاها جبريل بذلك ، فعلى هذا
هو وحي إلهام لا إلهام . وأجمع الكل على أنها لم تكن نبيه ، وإنما إرسال الملك إليها على نحو
تكليم الملك للأقرع والأبرص والأعمى في الحديث المشهور ؛ خرج البخاري ومسلم ، وقد ذكرناه
في سورة « براءة » ^(١) . وغير ذلك مما روى من تكليم الملائكة للناس من غير نبوة ، وقد سلمت
على عمران بن حصين فلم يكن بذلك نبياً . وأسمها أيارخا وقيل أيارخت فيما ذكر السهيلي . وقال
الثعلبي : وأسم أم موسى لوحا بنت هاند بن لاوى بن يعقوب . « أَنْ أَرْضِعِيهِ » وقرأ عمر
ابن عبد العزيز : « أَنْ أَرْضِعِيهِ » بكسر النون وألف وصل ؛ حذف همزة أرضع تخفيفاً ثم كسر
النون لالتقاء الساكنين . قال مجاهد : وكان الوحي بالرضاع قبل الولادة . وقال غيره بعدها .
قال السدي : لما ولدت أم موسى موسى أمرت أن ترضعه عقيب الولادة وتصنع به بما في الآية ؛
لأن الخوف كان عقيب الولادة . وقال ابن جريج : أمرت بإرضاعه أربعة أشهر في بستان ،
فإذا خافت أن يصيح — لأن لبنها لا يكفيه — صنعت به هذا . والأول أظهر إلا أن
الآخر يعضده قوله : « فَلَمَّاذَا خِفَتْ عَلَيْهِ » و « إِذَا » لما يستقبل من الزمان ؛ فيروى أنها

(١) راجع ج ٨ ص ١٨٨ فما بعد (٢) وقيل في اسمها أيضا : بوخايد . وقيل : بوخايل ، وقيل غير ذلك .

أَتَخَذَتْ لَهُ تَابُوتًا مِنْ بَرْدَى وَقِيْرَتِهِ بِالْقَارِ مِنْ دَاخِلِهِ ، وَوَضَعَتْ فِيهِ مُوسَى وَأَلْقَتْهُ فِي نِيلِ مِصْرَ .
 وَقَدْ مَضَى خَبْرُهُ فِي « طه » . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : إِنْ بَنَى إِسْرَائِيلُ لِمَا كَثُرُوا بِمِصْرَ اسْتَطَالُوا
 عَلَى النَّاسِ ، وَعَمَلُوا بِالْمَعَاصِي ؛ فَسَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْقَبْطَ ، وَسَامُوهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ، إِلَى أَنْ نَجَّاهُمْ اللَّهُ
 عَلَى يَدِ مُوسَى . قَالَ وَهْبٌ : بَلَغَنِي أَنَّ فِرْعَوْنَ ذَبَحَ فِي طَلَبِ مُوسَى سَبْعِينَ أَلْفَ وَلِيدٍ . وَيُقَالُ :
 تَسْمَعُونَ أَلْفًا . وَيُرْوَى أَنَّهَا حِينَ اقْتَرَبَتْ وَضَرَبَهَا الطَّلَقُ ، وَكَانَتْ بَعْضُ الْقَوَائِلِ الْمُوَكَّلَاتِ بِجِبَالِي
 بَنَى إِسْرَائِيلَ مَصَافِيَةً لَهَا ؛ فَقَالَتْ : لِيَنْفَعَنِي حُبُّكَ الْيَوْمَ ؛ فَعَابَلَتْهَا فَلَمَّا وَقَعَ إِلَى الْأَرْضِ هَالِهَا
 نَوْرٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، وَارْتَمَشَ كُلُّ مَفْصِلٍ مِنْهَا ، وَدَخَلَ حَبَّةَ قَلْبِهَا ، ثُمَّ قَالَتْ : مَا جِئْتُكَ إِلَّا لِأَقْتُلَ
 مَوْلُودَكَ وَأَخْبِرَ فِرْعَوْنَ ، وَلَكِنِّي وَجَدْتُ لِابْنِكَ حُبًّا مَا وَجَدْتُ مِثْلَهُ قَطْ ، فَأَحْفَظِيهِ ؛ فَلَمَّا
 خَرَجَتْ جَاءَ عِيُونَ فِرْعَوْنَ فَلَفَفْتَهُ فِي خِرْقَةٍ وَوَضَعْتَهُ فِي تَنْوَرٍ مَسْجُورٍ نَارًا لَمْ تَعْلَمْ مَا تَصْنَعُ لِمَا طَاشَ
 عَقْلُهَا ، فَطَلَبُوا فَلَمْ يَلْقَوْا شَيْئًا ، فَخَرَجُوا وَهِيَ لَا تَدْرِي مَكَانَهُ ، فَسَمِعَتْ بِكَاءِهِ مِنَ التَّنَوُّرِ ، وَقَدْ
 جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ النَّارَ بَرْدًا وَسَلَامًا .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَخَافِ فِيهِ ﴾ فِيهِ وَجْهَانِ : أَحَدُهُمَا — لَا تَخَافِ عَلَيْهِ الْغُرُقُ ؛ قَالَه
 ابْنُ زَيْدٍ . الثَّانِي — لَا تَخَافِ عَلَيْهِ الضَّيْعَةُ ؛ قَالَه يَحْيَى بْنُ سَلَامٍ . ﴿ وَلَا تَحْزَنْ فِيهِ ﴾ فِيهِ أَيْضًا
 وَجْهَانِ : أَحَدُهُمَا — لَا تَحْزَنْ لِفِرَاقِهِ ؛ قَالَه ابْنُ زَيْدٍ . الثَّانِي — لَا تَحْزَنْ أَنْ يَقْتُلَ ؛ قَالَه
 يَحْيَى بْنُ سَلَامٍ . فَقِيلَ : إِنَّهَا جَعَلَتْهُ فِي تَابُوتٍ طَوْلُهُ خَمْسَةُ أَشْبَارٍ وَعَرْضُهُ خَمْسَةُ أَشْبَارٍ ،
 وَجَعَلَتْ الْمِفْتَاحَ مَعَ التَّابُوتِ وَطَرَحَتْهُ فِي الْإِيمِ بَعْدَ أَنْ أَرْضَعَتْهُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ . وَقَالَ آخَرُونَ :
 ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ . وَقَالَ آخَرُونَ ثَمَانِيَةَ أَشْهُرٍ ؛ فِي حِكَايَةِ الْكَلْبِيِّ . وَحَكَى أَنَّهُ لَمَّا فَرَّغَ النُّجَّارُ
 مِنْ صِنْعَةِ التَّابُوتِ نَمَّ إِلَى فِرْعَوْنَ بِخَبْرِهِ ، فَبَعَثَ مَعَهُ مَنْ يَأْخُذُهُ ، فَطَمَسَ اللَّهُ عَيْنَيْهِ وَقَلْبَهُ
 فَلَمْ يَعْرِفِ الطَّرِيقَ ، فَأَيَقُنَ أَنَّهُ الْمَوْلُودُ الَّذِي يَخَافُ مِنْهُ فِرْعَوْنُ ، فَأَمِنَ مِنْ ذَلِكَ الْوَقْتِ ؛ وَهُوَ
 مُؤْمِنٌ آلَ فِرْعَوْنَ ؛ ذَكَرَهُ الْمَاورِدِيُّ . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : فَلَمَّا تَوَارَى عَنْهَا نَدَمَهَا الشَّيْطَانُ
 وَقَالَتْ فِي نَفْسِهَا : لَوْ ذَبَحَ عِنْدِي فَكَفَفْتُهُ وَوَارَيْتُهُ لَكَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ إِمْلَاقَائِهِ فِي الْبَحْرِ ؛

فقال الله تعالى : ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاءَ لُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أى إلى أهل مصر . حكى الأصمعي قال : سمعت جارية أعرابية تنشد وتقول :

استغفر الله لذنبى كله * قبلتُ إنساناً بغير حِلِّه
مثل الغزال ناعماً في دَلِّه * فانتصف الليل ولم أصله

فقلت : قاتلك الله ما أفصحك ! فقالت : أو يعدّ هذا فصاحة مع قوله تعالى : « وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ » الآية ؛ فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين .

قوله تعالى : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ لما كان التقاطهم إياه يؤدى إلى كونه لهم عدواً وحزناً ؛ فاللام في « ليكون » لام العاقبة ولام الصيرورة ؛ لأنهم إنما أخذوه ليكون لهم قرة عين ، فكان عاقبة ذلك أن كان لهم عدواً وحزناً ، فذكر الحال بالمآل ؛ كما قال الشاعر :

وللنسايا تُربى كلُّ مُرضِعةٍ * ودورنا لخراب الدهر نبيها

وقال آخر :

فللموت تَعْدُو الوالداتُ سَخَاءَها * كما لخواب الدهر تُبْنِي المساكنُ

أى فعاقبة البناء الخراب وإن كان في الحال مفروحاً به . والالتقاط وجود الشيء من غير طلب ولا إرادة ، والعرب تقول لما وجدته من غير طلب ولا إرادة : التقطه التقاطاً . ولقيت فلانا ألتقاطاً . قال الراجز^(١) :

* وَمَنْهَلٍ وَرَدَّتْهُ أَلْتَقَاطًا *

ومنه اللقطة . وقد مضى بيان ذلك من الأحكام في سورة « يوسف »^(٢) بما فيه كفاية . وقرأ الأعمش ويحيى والمفضل وحمزة والكسائي وخلف : « وَحَزَنًا » بضم الحاء وسكون الزاى . والباقون بفتحهما وأخناره أبو عبيد . وأبو حاتم قال التفخيم فيه . وهما لغتان مثل العدم^(٣)

(١) هو نقادة الأسدي ، كما في اللسان مادة « لقط » . (٢) راجع ج ٩ ص ١٣٤ فما بعد .

(٣) التفخيم في اصطلاح القراء : الفتح .

والعُذْم، والسَّقَم والسَّقَم، والرَّشَد والرُّشْد . (إِنْ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ) وكان وزيره من القبط .
(وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ) أى عاصين مشركين آثمين .

قوله تعالى : (وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ) يروى أن آسية امرأة فرعون رأت التابوت يعوم في البحر ، فأمرت بسوقه إليها وفتحه ، فرأت فيه صبيا صغيرا فرحمته وأحبته ، فقالت لفرعون : « قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ » أى هو قرة عين لي ولك فـ « قُرَّةُ » خبر ابتداء مضمر ؛ قاله الكسائي . وقال النحاس : وفيه وجه آخر بعيد ذكره أبو إسحق ؛ [قال] : يكون رفعا بالابتداء والخبر « لَا تَقْتُلُوهُ » وإنما بعد لأنه يصير المعنى أنه معروف بأنه قرة عين^(١) . وجوازه أن يكون المعنى : إذا كان قرة عين لي ولك فلا تقتلوه . وقيل : تم الكلام عند قوله : « وَلَكَ » . النحاس : والدليل على هذا أن في قراءة عبد الله ابن مسعود « وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ لَا تَقْتُلُوهُ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ » . ويجوز النصب بمعنى لا تقتلوا قرة عين لي ولك . وقالت : « لَا تَقْتُلُوهُ » ولم تقل لا تقتله فهي مخاطبة فرعون كما يخاطب الجبارون ؛ وكما يخبرون عن أنفسهم . وقيل : قالت « لَا تَقْتُلُوهُ » فإن الله أتى به من أرض أخرى وليس من بنى إسرائيل . (عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا) فنصيب منه خيرا (أَوْ يَنْتَهِزَهُ وَلَدًا) وكانت لا تلد ، فاستوهبت موسى من فرعون فوهبه لها ، وكان فرعون لما رأى الرؤيا وقصها على كهنته وعلمائه — على ما تقدم — قالوا له إن غلاما من بنى إسرائيل يفسد ملكك ؛ فأخذ بنى إسرائيل بذبح الأطفال ، فرأى أنه يقطع نسلهم ، فعاد يذبح عاما ويستحي عاما ، فولد هرون في عام الاستحياء ، وولد موسى في عام الذبح .

قوله تعالى : (وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) هذا ابتداء كلام من الله تعالى ؛ أى وهم لا يشعرون أن هلاكهم بسببه . وقيل : هو من كلام المرأة ؛ أى وبنو إسرائيل لا يدرون أنا التقطناه ، ولا يشعرون إلا أنه ولدنا . واختلف المتأولون في الوقت الذي قالت فيه امرأة فرعون « قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ » فقالت فرقة : كان ذلك عند التقاطه التابوت لما أشعرت فرعون به ؛

(١) الزيادة من « إعراب القرآن » للنحاس . (٢) في ك : لى رله .

ولما أعلمته سبق إلى فهمه أنه من بني إسرائيل، وأن ذلك قصد به ليتخلص من الذبح فقال :
 على بالذباحين ، فقالت امرأته ما ذا كر ؛ فقال فرعون : أما لي فلا . قال النبي صلى الله عليه
 وسلم : " لو قال فرعون نعم لآمن بموسى ولكان فترة عين له " وقال السدي : بل ربته
 حتى درج ، فرأى فرعون فيه شهامة وظنه من بني إسرائيل وأخذه في يده ، فمّد موسى يده
 وبتف لحية فرعون ، فهم حينئذ بذبحه ، وحينئذ خاطبته بهذا ، وجربته له في الياقوتة والجمرة ،
 فاحترق لسانه وعلق العقدة على ما تقدم في « طه » . قال الفراء : سمعت محمد بن مروان^(٢)
 الذي يقال له السدي يذكر عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أنه قال : إنما قالت
 « قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا » ثم قالت : « تَقْتُلُوهُ » قال الفراء : وهو لحن ؛ قال ابن الأنباري :
 وإنما حكم عليه باللعن ؛ لأنه لو كان كذلك لكان تقتلونه بالنون ؛ لأن الفعل المستقبل مرفوع
 حتى يدخل عليه الناصب أو الجازم ، فالنون فيه علامة الرفع . قال الفراء : ويقويك على رده
 قراءة عبد الله بن مسعود « وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ لَا تَقْتُلُوهُ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ » بتقديم
 « لَا تَقْتُلُوهُ » .

قوله تعالى : وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَرَّغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ
 لَوْ لَا أَنَّ رَبَّنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ
 قُصِّيه ۖ فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ
 مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُمْ
 نَصِيبٌ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَى تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَلِنَعْلَمَ
 أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ
 وَاسْتَوَى ؕ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾

(١) في ك : إلى نومه . (٢) راجع ج ١١ ص ١٩٢ فابعد .

قوله تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك وأبو عمران الجوني وأبو عبيدة : « فَارِغًا » أى خاليا من ذكر كل شيء فى الدنيا إلا من ذكر موسى . وقال الحسن أيضا وابن إسحق وابن زيد : « فَارِغًا » من الوحي إذ أوحى إليها حين أمرت أن تلقيه فى البحر « لَا تَخَافِ وَلَا تَحْزَنِ » والعهد الذى عهده إليها أن يردّه ويحييه من المرسلين ؛ فقال لها الشيطان : يا أم موسى كرهت أن يقتل فرعون موسى فغزقتيه أنت ! ثم بلغها أن ولدها وقع فى يد فرعون فأنساها عظم البلاء ما كان من عهد الله إليها . وقال أبو عبيدة : « فَارِغًا » من الغم والحزن لعلمها أنه لم يفرق ؛ وقاله الأخفش أيضا . وقال العلاء بن زياد : « فَارِغًا » نافرا . الكسائى : ناسيا ذاهلا . وقيل : والها ؛ رواه سعيد بن جبير . ابن القاسم عن مالك : هو ذهاب العقل ؛ والمعنى أنها حين سمعت بوقوعه فى يد فرعون طار عقلها من فرط الجزع والدهش ، ونحوه قوله تعالى : « وَأَفْنَدَتْهُمْ هَوَاءٌ » أى جُوف لا عقول لها كما تقدّم فى سورة « إبراهيم » . وذلك أن القلوب مراكز العقول ؛ ألا ترى إلى قوله تعالى : « فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا » ^(٢) ويدل عليه قراءة من قرأ : « فَرِغًا » . النحاس : أصح هذه الأقوال الأول ، والذين قالوه أعلم بكتاب الله عز وجل ؛ فإذا كان فارغا من كل شيء إلا من ذكر موسى فهو فارغ من الوحي . وقول أبي عبيدة فارغا من الغم غلط قبيح ؛ لأن بعده « إِنَّ كَادَتْ لَتُبْدَى بِهِ أَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا » . روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كادت تقول والابناء ! وقرأ فضالة ابن عبيد الأنصارى رضى الله عنه ومحمد بن السَّمِيعِ وأبو العالية وابن محيصن : « فَرِغًا » بالفاء والعين المهملة من الفرع ؛ أى خائفة عليه أن يقتل . ابن عباس : « قَرِغًا » بالقاف والراء والعين المهملتين ، وهى راجعة إلى قراءة الجماعة « فَارِغًا » ولذلك قيل للرأس الذى لا شعر عليه : أقرع ؛ لفراغه من الشعر . وحكى قطرب أن بعض أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قرأ : « فَرِغًا » بالفاء والراء والعين المعجمة من غير ألف ، وهو كقولك : هدرأ وباطلا ؛ يقال :

(٢) راجع ج ١٢ ص ٧٦ فابعد .

(١) راجع ج ٩ ص ٣٧٧ فابعد .

دماؤهم بينهم فَرَّغَ أى هدر؛ والمعنى بطل قلبها وذهب وبقيت لا قلب لها من شدة ما ورد عليها. وفي قوله تعالى: «وَأَصْبَحَ» وجهان: أحدهما - أنها ألقته ليلاً فأصبح فؤادها في النهار فارغاً. الثاني - أنها ألقته نهاراً ومعنى: «أَصْبَحَ» أى صار؛ كما قال الشاعر:

مضى الخلفاء بالأمر الرشيد * وأصبحت المدينة للوليد

(إِنْ كَادَتْ) أى إنها كادت؛ فلما حذفت الكاية سكنت النون. فهى «إِنْ» المخففة ولذلك دخلت اللام فى (لَتُبْدَى بِهِ) أى لتظهر أمره؛ من بدا يبدو إذا ظهر. قال ابن عباس: أى تصبح عند إلفائه: وإبناه. السدى: كادت تقول لما حُملت لإرضاعه وحضائه هو أبى. وقيل: إنه لما شَبَّ سمعت الناس يقولون موسى بن فرعون؛ فشق عليها وضاق صدرها، وكادت تقول هو أبى. وقيل: الهاء فى «به» عائدة إلى الوحي تقديره: إن كانت لتبدي بالوحي الذى أوحيناه إليها أن نرده عليها. والأول أظهر. قال ابن مسعود: كادت تقول أنا أمه. وقال الفراء: إن كادت لتبدي بإسمه لضيق صدرها. (لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا) قال قتادة: بالإيمان. السدى: بالعصمة. وقيل: بالصبر. والربط على القلب: إلهام الصبر. (لَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) أى من المصدقين بوعد الله حين قال لها: «إِنَّا رَأَوُوهُ إِلَيْنِكَ». وقال: «لَتُبْدَى بِهِ» ولم يقل: لتبديه؛ لأن حروف الصفات قد تزداد فى الكلام؛ تقول: أخذت الحبل وبالحبل. وقيل: أى لتبدي القول به.

قوله تعالى: (وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ) أى قالت أم موسى لأخت موسى: أتبعى أثره حتى تعلمى خبره. وأسمها مريم بنت عمران؛ وافق أسمها أسم مريم أم عيسى عليه السلام؛ ذكره السهيلي والتعلي. وذكر الماوردى عن الضحاك: أن أسمها كلثمة. وقال السهيلي: كلثوم؛ جاء ذلك فى حديث رواه الزبير بن بكار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لخديجة: «أشعرت أن الله زوجنى معك فى الجنة مريم بنت عمران وكلثوم أخت موسى وآسية امرأة فرعون» فقالت: الله أخبرك بهذا؟ فقال: «نعم» فقالت: بالرءاء والبنين. (فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ) أى بعد؛ قاله مجاهد. ومنه الأجنبي.

قال الشاعر^(١) :

فَلَا تَحْرِمَنِي نَائِلًا عَنْ جَنَابِي * فَإِنِّي أَمْرٌ وَسَطَ الْقِيَابِ غَرِيبُ

وأصله عن مكان جنب . وقال ابن عباس : « عَنْ جُنُبٍ » أى عن جانب . وقرأ النعمان ابن سالم : « عن جانب » أى عن ناحية . وقيل : عن شوق ؛ وحكى أبو عمرو بن العلاء أنها لغة للذمام ؛ يقولون : جنبت إليك أى اشتقت . وقيل : « عَنْ جُنُبٍ » أى عن مجانبية لها منه فلم يعرفوا أنها أمه بسبيل . وقال قتادة : جعلت تنظر إليه بناحية [كأنها]^(٢) لا تريده ، وكان يقرأ : « عَنْ جُنُبٍ » بفتح الجيم وإسكان النون . (وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) أنها أخته لأنها كانت تمشي على ساحل البحر حتى رأتهم قد أخذوه .

قوله تعالى : (وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ) أى منعناه من الارتضاع من قبل ؛ أى من قبل مجيء أمه وأخته . و « الْمَرَاضِعَ » جمع مُرَضِع . ومن قال مراضيع . فهو جمع مرضاع ، ومفعال يكون للتكثير ، ولا تدخل الهاء فيه فرقا بين المؤنث والمذكر لأنه ليس بجائر على الفعل ، ولكن من قال مرضاعة جاء بالهاء للبالغ ؛ كما يقال مطرابة . قال ابن عباس : لا يؤتى بمرضع فيقبلها . وهذا تحريم منع لا تحريم شرع ؛ قال أمرؤ القيس :
جَالَتْ لِتَصْرَعَنِي فَقُلْتُ لَهَا أَقْصِرِي * إِنِّي أَمْرٌ صَرَعِي عَلَيْكَ حَرَامُ^(٣)

أى ممتنع . فلما رأت أخته ذلك قالت : (هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ) الآية . فقالوا لها عند قولها : (وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ) وما يدريك ؟ لعلك تعرفين أهله ؟ فقالت : لا ؛ ولكنهم يحرسون على مسرة الملك ، ويرغبون في ظئره . وقال السدى وابن جرير : قيل لها لما قالت : « وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ » قد عرفت أهل هذا الصبي فدلينا عليهم ؛ فقالت : أردت وهم لللك ناصحون . فدلتهم على أم موسى ، فأطلقت إليها بأمرهم فجاءت بها ، والصبي على يد فرعون يعلله شفقة عليه ، وهو يبكي يطلب الرضاع ، فدفعه إليها ؛ فلما وجد الصبي

(١) هو علقمة بن عبدة ، قاله يخاطب به الحرث بن جبلة يمدحه ، وكان قد أمر أخاه شأسا — وأراد بالنائل إطلاق أخيه شأس من سجنه — فأطلق له أخاه شأسا ومن أسر معه من بنى تميم . (٢) الزيادة من كتب التفسير . (٣) جالت فلفت . يقول : ذهبت الناقة بقلعها ونشاطها لتصرعنى فلم يقدر على ذلك لخدق بالركوب ومعرفة به .

ريح أمه قبل ثديها . وقال ابن زيد . استرابوها حين قالت ذلك فقالت : وهم للملك ناصحون . وقيل : إنها لما قالت : « هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ » وكانوا يبالبغون في طلب مرضعة يقبل ثديها فقالوا : من هي ؟ فقالت : أمي ؛ فقيل : لها لبن ؟ قالت : نعم ! لبن هرون — وكان ولد في سنة لا يقتل فيها الصبيان — فقالوا صدقت والله . « وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ » أى فيهم شفقة ونصح ؛ فروى أنه قيل لأم موسى حين آرتضع منها : كيف آرتضع منك ولم يرتضع من غيرك ؟ فقالت : إني امرأة طيبة الريح طيبة اللبن ، لا أكاد أوتى بصبي إلا آرتضع مني . قال أبو عمران الجوني : وكان فرعون يعطى أم موسى كل يوم ديناراً . قال الزمخشري : فإن قلت كيف حل لها أن تأخذ الأجر على إرضاع ولدها ؟ قلت : ما كانت تأخذه على أنه أجر على الرضاع ، ولكنه مال حربى تأخذه على وجه الاستباحة .

قوله تعالى : ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ ﴾ أى رددناه وقد عطف الله قلب العدو عليه ، ووفينا لها بالوعد . ﴿ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا ﴾ أى بولدها . ﴿ وَلَا تَحْزَنَ ﴾ أى بفراق ولدها . ﴿ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أى لتعلم وقوعه فإنها كانت عالمة بأن رده إليها سيكون . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يعنى أكثر آل فرعون لا يعلمون ؛ أى كانوا في غفلة عن التقدير وسر القضاء وقيل : أى أكثر الناس لا يعلمون أن وعد الله في كل ما وعد حق .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ قد مضى الكلام في الأشد^(٢) في « الأنعام » . وقول ربعة ومالك أنه الحلم أولى ما قيل فيه ؛ لقوله تعالى : « حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ » فإن ذلك أول الأشد ، وأقصاه أربع وثلاثون سنة ؛ وهو قول سفيان الثوري . و « استوى » قال ابن عباس : بلغ أربعين سنة . والحكم : الحكمة قبل النبوة . وقيل : الفقه في الدين . وقد مضى بيانها في « البقرة »^(٣) وغيرها . والعلم الفهم في قول السدى . وقيل : النبوة . وقال مجاهد : الفقه . محمد بن إسحق : أى العلم بما في دينه ودين آبائه ؛ وكان له تسعة من بنى إسرائيل يسمعون منه ، ويقتدون به ، ويحتمون إليه ، وكان هذا قبل النبوة .

(١) كذا في لوز . وهو الأشبه . وفي أ : سوء القضاء . (٢) راجع ج ٧ ص ١٣٤ فابعد .

(٣) راجع ج ٥ ص ٣٤ . (٤) راجع ج ٢ ص ١٣١ .

(وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) أى كما جزينا أم موسى لما آستسلمت لأمر الله ، وألقت ولدها فى البحر ، وصدقت بوعده الله ، فرددنا ولدها إليها بالتحف والطرف وهى آمنة ، ثم وهبنا له العقل والحكمة والنبوة ؛ وكذلك نجزي كل محسن .

قوله تعالى : **وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ ۖ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغْنَتْهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾** قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَن أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي آسْتَنْصَرُهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ۚ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَن أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسَىٰ أُتْرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : (وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا) قيل : لما عرف موسى عليه السلام ما هو عليه من الحق فى دينه ، حاب ما عليه قوم فرعون ؛ وفشا ذلك منه فأخافوه تخافهم ، فكان لا يدخل مدينة فرعون إلا خائفا مستخفيا . وقال السدى : كان موسى فى وقت هذه القصة على رسم التعلق بفرعون ، وكان يركب مراكبه ، حتى كان يدعى موسى ابن فرعون ؛ فركب فرعون يوما وسار إلى مدينة من مدائن مصر يقال لها منف — قال مقاتل على رأس فرسخين من مصر — ثم علم موسى بركوب فرعون ، فركب بعمده ولحق بتلك القرية فى وقت

وقال الأصمعي : نَكَرَهُ ؛ أى ضربه ودفعه . الكسائي : نَهَزَهُ مثل نَكَرَهُ وَوَكَّرَهُ ، أى ضربه ودفعه . وَلَهَدَهُ لَهْدًا أى دفعه لذلّه فهو ملهود ؛ وكذلك لَهَدَهُ ؛ قال طَرْفَةُ يذمّ رجلا :

بطيء عن الدّاعى مريع إلى الخنا * ذُلُولٌ بِأَجْجَاعِ الرِّجَالِ مُلْهَدٌ^(١)

أى مُدْفَعٌ وإِنما شَدَّدَ للكثرة . وقالت عائشة رضى الله عنها : فلهَدَنِي — تعنى النّبي صلى الله عليه وسلم — لَهْدَةً أوجعني ؛ نخرجه مسلم . ففعل موسى عليه السلام ذلك وهو لا يريد قتله ، إِنما قصد دفعه فكانت فيه نفسه ، وهو معنى : « فَقَضَى عَلَيْهِ » . وكل شيء أتيت عليه وفرغت منه [فَقَدْ] قضيت عليه . قال^(٢) :

* قَدْ عَضَّه فَقَضَى عَلَيْهِ الْأَشْجَعُ *

(قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ) أى من إغوانه . قال الحسن : لم يكن يحلّ قتل الكافر يومئذ في تلك الحال ؛ لأنها كانت حال كفّ عن القتال . (إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ) خبر بعد خبر . (قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَهُ) ندم موسى عليه السلام على ذلك الوكر الذى كان فيه ذهاب النفس ، فحملته ندمه على الخضوع لربه والاستغفار من ذنبه . قال قتادة : عرف والله المخرج فاستغفر ؛ ثم لم يزل صلى الله عليه وسلم يعدد ذلك على نفسه ، مع علمه بأنه قد غفر له ، حتى أنه في القيامة يقول : إني قتلت نفسا لم أومر بقتلها . وإِنما عدده على نفسه ذنبا . وقال : « ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي » من أجل أنه لا ينبغي لنبي أن يقتل حتى يؤمر ، وأيضاً فإن الأنبياء يشفقون مما لا يشفق منه غيرهم . قال النقاش^(٣) : لم يقتله عن عمد مريدا للقتل ، وإِنما وكّره وكرة يريد بها دفع ظلمه . قال وقد قيل : إن هذا كان قبل النبوة . وقال كعب : كان إذ ذاك آبن أثنتى عشرة سنة ، وكان قتله مع ذلك خطأ ؛ فإن الوكرة واللكرة في الغالب لا تقتل . وروى مسلم عن سالم بن عبد الله أنه قال : يا أهل العراق ! ما أسألكم عن الصغيرة ، وأركبكم للكبيرة ! سمعت أبي عبد الله بن عمر يقول سمعت

(١) ويروى : « عن الجلى » . والذلّول ضدّ الصعب . ويروى : « ذليل » . وأججاع جمع (جمع) وهو ظهر الكف إذا جمعت أصابعك وضممتها . (٢) من ك . (٣) هو جرير . والأشجع يريد به الشجاع من الحيات . وصدر البيت * أيفائشون وقد رأوا حفاتهم * (٤) في ك : النحاس .

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الفتنة تجيء من هاهنا — وأوما بيده نحو المشرق — من حيث يطاع قرنا الشيطان وأتم بعضهم يضرب رقاب بعض وإنما قتل موسى الذى قتل من آل فرعون خطأ فقال الله عز وجل : « وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَقَتَلْنَاكَ فُتُونًا » . »

قوله تعالى : (قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَن أَكُونَ ظَاهِرًا لِلْمُجْرِمِينَ) فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : « قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ » أى من المعرفة والحكم والتوحيد « فَلَن أَكُونَ ظَاهِرًا لِلْمُجْرِمِينَ » أى عوناً للكافرين . قال القشيري : ولم يقل بما أنعمت على من المغفرة ؛ لأن هذا قبل الوحي ، وما كان عالماً بأن الله غفر له ذلك القتل . وقال الماوردي : « إِنَّمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ » فيه وجهان : أحدهما — من المغفرة ؛ وكذلك ذكر المهدوى والشعبي . قال المهدوى : « إِنَّمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ » من المغفرة فلم تعاقبنى . الوجه الثانى — من الهداية .

قلت : [قوله] ^(٢) « فَغَفَرْلَهُ » يدل على المغفرة ؛ والله أعلم . قال الزمخشري قوله تعالى : « إِنَّمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ » يجوز أن يكون قسماً جوابه محذوف تقديره ؛ أقسم بإنعامك على بالمغفرة لأتوبن « فَلَن أَكُونَ ظَاهِرًا لِلْمُجْرِمِينَ » . وأن يكون استعطافاً كأنه قال : رب أعصمنى بحق ما أنعمت على من المغفرة فلن أكون إن عصمتنى ظاهراً للمجرمين . وأراد بمظاهرة المجرمين إما صحبة فرعون وأنظامه فى جهنمه ، وتكثير سواده ، حيث كان يركب بركوبه كالولد مع الوالد ، وكان يسمى ابن فرعون ؛ وإما بمظاهرة من أدت مظاهرته إلى الحرم والإثم ، كمظاهرة الإسرائيليين المؤذية إلى القتل الذى لم يحل له قتله . وقيل : أراد إني وإن أسأت فى هذا القتل الذى لم أومر به فلا أترك نصرة المسلمين على المجرمين ، فعلى هذا كان الإسرائيليين . وثمنا ونصرة المؤمنين واجبة فى جميع الشرائع . وقيل فى بعض الروايات : إن ذلك الإسرائيليين كان كافراً ، وإنما قيل له إنه من شيعته لأنه كان إسرائيلياً ولم يرد الموافقة فى الدين ، فعلى هذا ندم لأنه أعان كافراً على كفره ، فقال : لا أكون بعدها ظاهراً للكافرين . وقيل : ليس هذا خبراً بل هو دعاء ؛ أى فلا أكون بعد هذا ظاهراً ؛ أى فلا تجعلنى يا رب ظاهراً للمجرمين . وقال الفراء :

(١) فى ك : فلن أعين بعدها مجرماً . (٢) من ك . (٣) فى ك : المؤمنين .

المعنى ؛ اللهم فلن أكون ظهيرا للمجرمين ؛ وزعم أن قوله هذا هو قول ابن عباس . قال النحاس : وأن يكون بمعنى الخبر أولى وأشبه بنسق الكلام ؛ كما يقال : لا أعصيك لأنك أنعمت عليّ ؛ وهذا قول ابن عباس على الحقيقة لا ما حكاه الفراء ؛ لأن ابن عباس قال : لم يستثن فأبتلى من ثاني يوم ؛ والاستثناء لا يكون في الدعاء ، لا يقال : اللهم أغفر لي إن شئت ؛ وأعجب الأشياء أن الفراء روى عن ابن عباس هذا ثم حكى عنه قوله .

قلت : قد مضى هذا المعنى ملخصا مبينا في سورة « النمل » ^(٢) وأنه خبر لا دعاء . وعن ابن عباس : لم يستثن فأبتلى به مرة أخرى ؛ يعني لم يقل فلن أكون إن شاء الله . وهذا نحو قوله : « وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا » ^(٣) .

الثانية — قال سلمة بن نُبَيْط : بعث عبد الرحمن بن مسلم إلى الضحاك بعتاء أهل بخارى وقال : أعطهم ؛ فقال : أعفني ؛ فلم يزل يستعفيه حتى أعفاه . فقيل له ما عليك أن تعطيهم وأنت لا ترزؤهم شيئا؟ وقال : لا أحب أن أعين الظلمة على شيء من أمرهم . وقال عبيد الله بن الوليد الوصافي قلت لعطاء بن أبي رباح : إن لي أخا يأخذ بقلمه ، وإنما يحسب ما يدخل ويخرج ، وله عيال ولو ترك ذلك لاحتاج وأدان ؟ فقال : من الرأس ؟ قلت : خالد بن عبد الله القسري ؛ قال : أما تقرأ ما قال العبد الصالح : « رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَاهِرًا لِلْمُجْرِمِينَ » قال ابن عباس : فلم يستثن فأبتلى به ثانية فأعانه الله ، فلا يعينهم أخوك فإن الله يعينه — قال عطاء : فلا يحل لأحد أن يعين ظالما ولا يكتب له ولا يصحبه ، وأنه إن فعل شيئا من ذلك فقد صار معينا للظالمين . وفي الحديث : ” ينادى مناد يوم القيامة أين الظلمة وأشباه الظلمة وأعوان الظلمة حتى من لاق لهم دواة أو برى لهم قلما فيجمعون في تابوت من حديد فيرمى به في جهنم “ . ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ” من مشى مع مظلوم ليعينه على مظلمته ثبت الله قدميه على الصراط يوم القيامة يوم تزل فيه الأقدام ومن مشى مع ظالم ليعينه على ظلمه أزل الله قدميه على الصراط يوم تدحض فيه الأقدام “ . وفي الحديث : ” من مشى مع ظالم فقد أجرم “ فالمشي مع الظالم لا يكون جرما

(١) في ك : كأنه قال . (٢) راجع ص ١٦٠ من هذا الجزء فابعد .

(٣) راجع ج ٩ ص ١٠٧ فابعد . (٤) في الأصول : عبد الله والتصويب من التاج والتذهيب .

إلا إذا مشى معه ليعينه ، لأنه أرتكب نهى الله تعالى في قوله سبحانه وتعالى : « وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ^(١) » .

قوله تعالى : « فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا ^(٢) » قد تقدم في « طه » وغيرها أن الأنبياء صلوات الله عليهم يخافون ؛ ردًا على من قال غير ذلك ، وأن الخوف لا ينافي المعرفة بالله ولا التوكل عليه ؛ فقليل : أصبح خائفًا من قتل النفس أن يؤخذ بها . وقيل : خائفًا من قومه أن يسلموه . وقيل : خائفًا من الله تعالى . « يَتَرَقَّبُ ^(٣) » قال سعيد بن جبير : يتلفت من الخوف . وقيل : ينتظر الطلب ؛ وينتظر ما يتحدث به الناس . وقال قتادة : « يَتَرَقَّبُ » أى يتربص الطلب . وقيل : نخرج يستخبر الخبر ولم يكن أحد علم بقتل القبطى غير الإسرائيلى . و « أَصْبَحَ » يحتمل أن يكون بمعنى صار ؛ أى لما قتل صار خائفًا . ويحتمل أن يكون دخل في الصباح ؛ أى في صباح اليوم الذى يل يومه . و « خَائِفًا » منصوب على أنه خبر « أصبح » ، وإن شئت على الحال ، ويكون الظرف في موضع الخبر . « فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ^(٤) » أى فإذا صاحبه الإسرائيلى الذى خلّصه بالأمس يقاتل قبطيا آخر أراد أن يسخره . والاستصراخ الاستغاثة . وهو من الصراخ ؛ وذلك لأن المستغيث يصرخ ويصوت في طلب الغوث . قال ^(٥) :

كُنَّا إِذَا مَا أَتَانَا صَارِخٌ فِزِعٌ • كَانَ الصُّرَاخُ لَهُ قَرَعَ الظَّنَّ يَلْب

قيل : كان هذا الإسرائيلى المستنصر السامرى استسخره طباخ فرعون في حمل الحطب إلى المطبخ ؛ ذكره القشيري . و « الَّذِي » رفع بالابتداء و « يَسْتَصْرِخُهُ » في موضع الخبر . ويجوز أن يكون في موضع نصب على الحال . وأمس لليوم الذى قبل يومك ، وهو مبنى على الكسر لالتقاء الساكنين ، فإذا دخله الألف واللام أو الإضافة تمكن فأعرب بالرفع والفتح عند أكثر النحويين . ومنهم من يبيّنه وفيه الألف واللام . وحكى سيبويه وغيره أن

(١) راجع ج ٦ ص ٣٧ .

(٢) راجع ج ١١ ص ٢٠٢ .

(٣) هوسلانة بن جندل . والظايب (جمع ظنوب) : وهو حرف العظم اليابس من الساق . والمراد سرعة الإجابة .

من العرب من يجرى أمس مجرى ما لا ينصرف في موضع الرفع خاصة، وربما أضطر الشاعر ففعل هذا في الخفض والنصب ؛ قال الشاعر :

• لقد رأيتُ عجباً مذَّ أمس •

نخفض بمذ ما مضى واللغة الجيدة الرفع ؛ فأجرى أمس في الخفض مجراه في الرفع على اللغة الثانية . (قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ) والغوى الخائب ؛ أى لأنك تشاذ من لا تطيقه . وقيل : مضى بين الضلالة ؛ قتلت بسبك أمس رجلاً ، وتدعوني اليوم لآخر . والغوى فاعل من أغوى يغوى ، وهو بمعنى مغى ؛ وهو كالوجيع والألم بمعنى الموضع والمؤلم . وقيل : الغوى بمعنى الغاوى . أى إنك لغوى في قتال من لا تطيق دفع شره عنك . وقال الحسن : إنما قال للقبلى : « إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ » في استسغار هذا الإسرائيلي وهم أن يبطش به . يقال : بَطَشَ يَبْطِشُ وَيَبْطِشُ وَالضَمُّ أَقْبَسُ لَأنه فعل لا يتعدى . (قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي) قال ابن جبير . أراد موسى أن يبطش بالقبلى فتوهم الإسرائيلي أنه يريد به ؛ لأنه أغلظ له في القول ؛ فقال : « أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ » فسمع القبلى الكلام فأنشاه . وقيل : أراد أن يبطش الإسرائيلي بالقبلى فهناه موسى نخاف منه ؛ فقال : « أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ » . (إِنْ تُرِيدُ) أى ما تريد . (إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ) أى قتلاً ؛ قال عكرمة والشعبي : لا يكون الإنسان جباراً حتى يقتل نفسه بغير حق . (وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ) أى من الذين يصلحون بين الناس .

قوله تعالى : وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَمْوَسَّى إِنَّ الْأَمْلَأَ يَأْتُمِرُونَ بِكَ لَيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِلَىٰ لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ ﴾ قال أكثر أهل التفسير : هذا الرجل هو حزقييل بن صبوراً مؤمن آل فرعون ، وكان ابن عم فرعون ؛ ذكره الثعلبي . وقيل : طالوت ؛ ذكره السهيلي . وقال المهدوي عن قتادة : شمعون مؤمن آل فرعون . وقيل : شمعان ؛ قال الدارقطني : لا يعرف شمعان بالشين المعجمة إلا مؤمن آل فرعون . وروى أن فرعون أمر بقتل موسى فسبق ذلك الرجل بالخبر ؛ فـ ﴿ قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ ﴾ أى يتشاورون فى قتلك بالقبطى الذى قتلته بالأمس . وقيل : يأمر بعضهم بعضاً . قال الأزهري : آتَمَر القوم وتآمروا أى أمر بعضهم بعضاً ؛ نظيره قوله : « وَأَتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ »^(١) . وقال الثوري بن توب :

أرى الناس قد أحدثوا شيمة * وفى كل حادثة يؤتمروا

﴿ فَأَخْرَجَ إِيَّيْكَ مِنَ النَّاصِحِينَ . نَخْرَجُ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ أى ينتظر الطلب . ﴿ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ . وقيل : الجبار الذى يفعل ما يريد من الضرب والقتل بظلم ، لا ينظر فى العواقب ، ولا يدفع بالتى هى أحسن . وقيل : المتعظم الذى لا يتواضع لأمر الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ لما خرج موسى عليه السلام فاتراً بنفسه منفرداً خائفاً ، لا شيء معه من زاد ولا راحلة ولا حذاء نحو مدين ، للنسب الذى بينه وبينهم ؛ لأن مدين من ولد إبراهيم ، وموسى من ولد يعقوب بن إسحق بن إبراهيم ؛ ورأى حاله وعدم معرفته بالطريق ، وخلوه من زاد وغيره ، أسند أمره إلى الله تعالى بقوله : « عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ » وهذه حالة المضطر .

قلت : روى أنه كان يتقوت ورق الشجر ، وما وصل حتى سقط خُف قدميه . قال أبو مالك : وكان فرعون وجهه فى طلبه وقال لهم : أطلبوه فى ثنيات الطريق ، فإن موسى لا يعرف الطريق . فجاءه ملك راكباً فرساً ومعه عزة ، فقال لموسى : آتبعنى فآتبعه فهدها إلى الطريق ، فيقال : إنه أعطاه العزة فكانت عصاه . ويروى أن عصاه إنما أخذها لرعي الغنم من مدين . وهو أكثر وأصح . قال مقاتل والسدي : إن الله بعث إليه جبريل ؛ فأنه أهل . وبين مدين ومصر ثمانية أيام ؛ قاله ابن جبير والناس . وكان ملك مدين لغير فرعون .

قوله تعالى : وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ
 وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى
 يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ
 فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٥﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا
 تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا
 فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ
 الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَبَاطُتْ أَتَسْتَحْجِرُهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَعْجَرْتَ
 الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَي هَاتَيْنِ
 عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حُجْجٌ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ
 أَنْ أُشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ
 بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَيَّ مَا نَقُولُ
 وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

فيه أربع وعشرون مسألة :

الأولى — قوله تعالى : (وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ) مشى موسى عليه السلام حتى ورد
 ماء مدين أى بلغها . ووروده الماء معناه بلغه لأنه دخل فيه . ولفظة الورد قد تكون
 بمعنى الدخول في المورد ، وقد تكون بمعنى الاطلاع عليه والبلوغ إليه وإن لم يدخل .
 فورد موسى هذا الماء كان بالوصول إليه ، ومنه قول زهير :

فَلَمَّا وَرَدَنَ الْمَاءَ زُرْقًا حَمَامُهُ * وَضَمَنَ عِصَى الْحَاضِرِ الْمُتَخَيَّمِ^(١)

وقد تقدمت هذه المعاني في قوله : « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا »^(١) . ومدين لا تنصرف إذ هي بلدة معروفة .

قال الشاعر^(٢) :

رُهبَانُ مَدِينٍ لَوْ رَأَوْكَ تَنَزَّلُوا * وَالْعَصْمُ مِنْ شَعَفِ الْجِبَالِ الْقَادِرِ

وقيل : قبيلة من ولد مدين بن إبراهيم ؛ وقد مضى القول فيه في « الأعراف »^(٣) . والأمة : الجمع الكثير . و (يَسْقُونَ) معناه ماشيتهم . و (مِنْ دُونِهِمْ) معناه ناحية إلى الجهة التي جاء منها ، فوصل إلى المرأتين قبل وصوله إلى الأئمة ، ووجدهما تذودان ومعناه تمنعان وتحبسان ، ومنه قوله عليه السلام : « فَلْيُذَادَنَّ رَجَالٌ عَنْ حَوْضِي » وفي بعض المصاحف : « أَمْرَاتَيْنِ حَابِسَتَيْنِ تَذُودَانِ » يقال : ذاد يذود إذا [حبس]^(٥) . وذدت الشيء حبسته ؛ قال الشاعر^(٦) :

أَيَّتْ عَلَى بَابِ الْقَوَافِي كَأَمَّا * أَذُودُهَا سِرْبًا مِنَ الْوَحْشِ نُزَا^(٧)

أى أحبس وأمنع . وقيل : « تَذُودَانِ » تطردان ؛ قال :

لَقَدْ سَلَبْتُ عَصَاكَ بَنُو تَمِيمٍ * فَمَا تَذِرِي بَأَى عَصَا تَذُودُ

أى تطرد وتكف وتمنع . أبى سلام : تمنعان غنمهما لئلا تختلط بغنم الناس ؛ فحذف المفعول : إما إيهاما على المخاطب ، وإما استغناء بعلمه . قال أبى عباس : تذودان غنمهما عن الماء خوفا من السقاة الأقوياء . قتادة : تذودان الناس عن غنمهما ؛ قال النحاس : والأول أولى ؛ لأن بعده « قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّءَاءُ » ولو كانتا تذودان عن غنمهما الناس لم تخبرا عن سبب تأخير سقيهما حتى يصدر الرءاء . فلما رأى موسى عليه السلام ذلك منهما « قَالَ مَا خَطْبُكُمَا » أى شأنكما ؛ قال رؤبة .

* يَا عَجَبًا مَا خَطْبُهُ وَخَطْبِي *

(١) راجع ج ١١ ص ١٣١ فما بعد . (٢) هجرير . والعصم (جمع الأعصم) : وهو من الغنم الذى فى ذراعه بياض ، وقيل : فى ذراعيه ، والفادر : المسن منها . وقيل : العظيم . ويرى : « من شعف العقول » . وقيل : يا أمة طلحة ما لقينا مثلكم * فى المنجدين ولا بفور الغائر

(٣) راجع ج ٧ ص ٢٤٧ . (٤) فليذادن ، أى ليطردن . ويرى : « فلا تذادن » أى لا تفعلوا فعلا يوجب طردكم عنه ، قال ابن الأثير : والأولى أشبه . (٥) فى الأصول : « إذا ذهب » وهو تحريف . (٦) هو سويد بن كراع يذكر تنقيحه شعره . (٧) هجرير يهجو الفزدق .

أبن عطية : وكان استعمال السؤال بالخطب إنما هو في مصاب ، أو مضطهد ، أو من يشفق عليه ، أو يأتي بمنكر من الأمر ، فكأنه بالجملة في شر ، فأخبرناه بخبرهما ، وأن أباهما شيخ كبير ، فالمنى : لا يستطيع لضعفه أن يباشر أمر غنمه ، وأنهما لضعفهما وقلة طاقتهما لا تقدران على مزاحمة الأقوياء ، وأن عادتهما التأتى حتى يُصدر الناس عن الماء ويحلى ، وحينئذ تردان . وقرأ ابن عامر وأبو عمرو : « يَصْدَر » من صَدَرَ ، وهو ضد وَرَدَ أى يرجع الرعاء . والباقون « يَصْدِر » بضم الياء من أصدر ، أى حتى يصدرُوا مواشيهم من وِردهم . والرعاء جمع راع ؛ مثل تاجر وتجار ، وصاحب وصحاب . قالت فرقة : كانت الآبار مكشوفة ، وكان زحم الناس يمنعهما ، فلما أراد موسى أن يسقى لهما زحم الناس وغلبهم على الماء حتى سقى ، فمن هذا الغلب الذى كان منه وصفته إحداهما بالقوة . وقالت فرقة : إنهما كانتا لتبعان فُضالتهم في الصحاريح ، فإن وجدتا في الحوض بقية كان ذلك سقيهما ، وإن لم يكن فيه بقية عطشت غنمهما ، فرق لهما موسى ، فعمد إلى بئر كانت مغطاة والناس يسقون من غيرها ، وكان حجرا لا يرفعه إلا سبعة ، قاله ابن زيد . ابن جريج : عشرة . ابن عباس : ثلاثون . الزجاج : أربعون ، فرفعه . وسقى للرأتين ، فمن رفع الصخرة وصفته بالقوة . وقيل : إن بئرهم كانت واحدة ، وأنه رفع عنها الحجر بعد انفصال السقاة ، إذا كانت عادة المرأتين شرب الفضلات . روى عمرو بن ميمون عن عمر بن الخطاب أنه قال : لما استقى الرعاة غطوا على البئر صخرة لا يقلعها إلا عشرة رجال ، بقاء موسى فاقتلعها وأستقى ذنوبا واحدا لم تحتج إلى غيره فسقى لهما .

الثانية — إن قيل كيف ساغ لنبي الله الذى هو شبيب صلى الله عليه وسلم أن يرضى لأبنتيه بسقى الماشية ؟ قيل له : ليس ذلك بمحذور والدين لا ياباه ، وأما المروءة فالناس مختلفون في ذلك ، والعادة متباينة فيه ، وأحوال العرب فيه خلاف أحوال العجم ، ومذهب أهل البدو غير مذهب الحضرة ، خصوصا إذا كانت الحالة حالة ضرورة .

الثالثة — قوله تعالى : (ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ) إلى ظل مَمَرَةٍ (١) ، قاله ابن مسعود . وتعرض لسؤال ما يطعمه بقوله : (إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ) وكان لم يذق طعاما

(١) السمرة : شجرة صغيرة الورق ، قصيرة الشوك ، لها برمة صفراء ، يأكلها الناس .

سبعة أيام، وقد لصق بطنه بظهره، فعرض بالدعاء ولم يصرح بسؤال؛ هكذا روى جميع المفسرين أنه طاب في هذا الكلام ما يأكله؛ فالخير يكون بمعنى الطعام كما في هذه الآية، ويكون بمعنى المال كما قال: «إِنْ تَرَكَ خَيْرًا» وقوله: «وَأِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ»^(٢) ويكون بمعنى القوة كما قال: «أَهْمُ خَيْرًا مِّمَّ قَوْمٌ تَبِعَ» ويكون بمعنى العبادة كقوله: «وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فَعَلِ الْخَيْرَاتِ» قال ابن عباس: وكان قد بلغ به الجوع، وأخضر لونه من أكل البقل في بطنه، وإنه لأكرم الخلق على الله. ويروى أنه لم يصل إلى مدين حتى سقط باطن قدميه. وفي هذا معبرو إشعار بهوان الدنيا على الله. وقال أبو بكر بن طاهر في قوله: «إِنِّي لِمَا أُنْزِلَتْ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ»^(٥) أى لما أنزلت من فضلك وغناك فقير إلى أن تغنني بك عن سواك. قلت: ما ذكره أهل التفسير أولى؛ فإن الله تعالى إنما أغناه بواسطة شعيب.

الرابعة — قوله تعالى: «بِخَاءَتِهِ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى أَسْتَحْيَاءٍ» في هذا الكلام اختصار يدل عليه هذا الظاهر؛ قدره [ابن] إسحق: فذهبتا إلى أيهما سريعتين، وكانت عادتهما الإبطاء في السقي، فحدثاه بما كان من الرجل الذي سقى لهما، فأمر الكبرى من بنتيه — وقيل الصغرى — أن تدعوه له، «بِخَاءَتُ» على ما في هذه الآية. قال عمرو بن ميمون: ولم تكن سلفعا من النساء، خزانة ولا جعة. وقيل: جاءت سارة وجهها بكم درعها؛ قاله عمر بن الخطاب. وروى أن اسم إحداهما ليا والأخرى صفوريا أبتا يثرون، ويثرون هو شعيب عليه السلام. وقيل: ابن أنى شعيب، وأن شعيبا كان قد مات. وأكثر الناس على أنهما أبتا شعيب عليه السلام، وهو ظاهر القرآن، قال الله تعالى: «وَأِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا» كذا في سورة «الأعراف»^(٨) وفي سورة الشعراء: «كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ». إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ: «قَالَ قَتَادَةُ: بعث الله تعالى شعيبا إلى أصحاب الأيكة وأصحاب مدين. وقد مضى في «الأعراف» الخلاف في أسم أبيه. فروى أن موسى عليه السلام لما جاءته بالرسالة قام يتبعها، وكان بين موسى وبين أبيها ثلاثة أميال، فهبت ريح فضمت قميصها فوصفت عجيزتها، فتخرج موسى من النظر

(١) راجع ج ٢ ص ٢٥٧ فابعد. (٢) راجع ج ٢٠ ص ١٦٢ فابعد.

(٣) راجع ج ١٦ ص ١٤٤. (٤) راجع ج ١١ ص ٣٠٤ فابعد.

(٥) في ك: أبديت. (٦) في الأصول: أبو إسحق والنصيب عن تفسير ابن عطية والطبري.

(٧) السلفع من النساء: الجريفة على الرجال. (٨) راجع ج ٧ ص ٢٤٧ فابعد.

إليها فقال: أرجعي [خلفي] وأرشديني إلى الطريق بصوتك . وقيل: إن موسى قال ابتداء: كوني ورائي فإني رجل عبراني لا أنظر في أدبار النساء ، ودلّيني على الطريق يمينا أو يسارا ؛ فذلك سبب وصفها [له] بالأمانة ؛ قاله ابن عباس . فوصل موسى إلى داعيه فقص عليه أمره من أوله إلى آخره فأنسه بقوله : ﴿ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ وكانت مدين خارجة عن مملكة فرعون . وقرب إليه طعاما فقال موسى : لا أكل ؛ إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بملء الأرض ذهبا ؛ فقال شعيب : ليس هذا عوض السقي ، ولكن عادتى وعادة آبائي قرى الضيف ، وإطعام الطعام ؛ فحينئذ أكل موسى .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْذِنْهُ ﴾ دليل على أن الإجارة كانت عندهم مشروعة معلومة ، وكذلك كانت في كل ملة ، وهى من ضرورة الخليفة ، ومصاحبة الخلطة بين الناس ؛ خلافا للأصم حيث كان عن سماعها أصم .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ ﴾ الآية . فيه عرض الولي بنته على الرجل ؛ وهذه سنة قائمة ؛ عرض صالح مدين أبنته على صالح بن إسرائيل ، وعرض عمر ابن الخطاب أبنته حفصة على أبي بكر وعثمان ، وعرضت الموهوبة نفسها على النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فمن الحسن عرض الرجل وليته ، والمرأة نفسها على الرجل الصالح ، اقتداء بالسلف الصالح . قال ابن عمر : لما تأيمت حفصة قال عمر لعثمان : إن شئت أنكحك حفصة بنت عمر ؛ الحديث انفرد بإخراجه البخارى .

السابعة — وفي هذه الآية دليل على أن النكاح إلى الولي لا حظ للمرأة فيه ؛ لأن صالح مدين تولاه ، وبه قال فقهاء الأمصار . وخالف في ذلك أبو حنيفة . وقد مضى .

الثامنة — هذه الآية تدل على أن للأب أن يزوجه أبنته البكر البالغ من غير استئثار ، وبه قال مالك وأحنيف بهذه الآية ، وهو ظاهر قوى في الباب ، واحتجاجة بها يدل على أنه كان يعول على الإسرائيليات ؛ كما تقدم . وبقول مالك في هذه المسألة قال الشافعى وكثير من العلماء . وقال أبو حنيفة : إذا بلغت الصغيرة فلا يزوجه أحد إلا برضاها ؛ لأنها بلغت (١) من بوطرك .

حدّ التكليف ؛ فأما إذا كانت صغيرة فإنه يزوجهها بغير رضاها لأنه لا إذن لها ولا رضا ؛ بغير خلاف .

التاسعة — استدل أصحاب الشافعي بقوله : « إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنِكَحَكَ » على أن النكاح موقوف على لفظ التزويج والإنكاح . وبه قال ربيعة وأبو نور وأبو عبيد^(١) وداود ومالك على اختلاف عنه . وقال علماؤنا في المشهور : ينعقد النكاح بكل لفظ . وقال أبو حنيفة : ينعقد بكل لفظ يقتضى التمليك على التأبيد ؛ أما الشافعية فلا حجة لهم في الآية لأنه شرع من قبلنا وهم لا يرونه حجة في شيء في المشهور عندهم . وأما أبو حنيفة وأصحابه والثوري والحسن ابن حي فقالوا : ينعقد النكاح بلفظ الهبة وغيره إذا كان قد أشهد عليه ؛ لأن الطلاق يقع بالصريح والكتابة ، قالوا : فكذلك النكاح . قالوا : والذي خص به النبي صلى الله عليه وسلم تمرى البضع من العوض لا النكاح بلفظ الهبة ، وتابعهم ابن القاسم فقال : إن وهب آبنته وهو يريد إنكاحها فلا أحفظ عن مالك فيه شيئا ، وهو عندى جائز كالبيع . قال أبو عمر : الصحيح أنه لا ينعقد نكاح بلفظ الهبة ، كما لا ينعقد بلفظ النكاح هبة شيء من الأموال . وأيضا فإن النكاح مفتقر إلى التصريح لتقع الشهادة عليه ، وهو ضد الطلاق فكيف يقاس عليه ! وقد أجمعوا أن النكاح لا ينعقد بقوله : أبحت لك وأحللت^(٢) لك فكذلك الهبة . وقال صلى الله عليه وسلم : « استحلتم فروجهن بكلمة الله » يعنى القرآن ، وليس في القرآن عقد النكاح بلفظ الهبة ، وإنما فيه التزويج والنكاح ، وفي إجازة النكاح بلفظ الهبة إبطال بعض خصوصية النبي صلى الله عليه وسلم .

العاشرة — قوله تعالى : (إِحْدَى أَبْنَتَيْ هَاتَيْنِ) يدلّ على أنه عرض لا عقد ؛ لأنه لو كان عقدا لعين المعقود عليها له ؛ لأن العلماء وإن كانوا قد اختلفوا في جواز البيع إذا قال : بعتك أحد عبدى هذين بثمن كذا ؛ فإنهم اتفقوا على أن ذلك لا يجوز في النكاح ؛ لأنه خيار وشيء من الخيار لا يلصق بالنكاح .

الحادية عشرة — قال مكى : في هذه الآية خصائص في النكاح ؛ منها أنه لم يعين الزوجة ولا حدّ أول الأمد ، وجعل المهر إجارة ، ودخل ولم ينقد شيئا .

(١) في طوك : أبو عبيدة . (٢) من ب وطوك .

قلت : فهذه أربع مسائل تضمنتها المسألة الحادية عشرة .

الأولى — من الأربع مسائل [التعيين^(١)] ، قال علماؤنا : أما التعيين فيشبه أنه كان في ثاني حال المرافضة ، وإنما عرض الأمر مجملا ، وعين بعد ذلك . وقد قيل : إنه زوجه صفوريا وهي الصغرى . يروى عن أبي ذر قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” إن سئلت أى الأجلين قضى موسى فقل خيرهما وأوفاهما وإن سئلت أى المرأتين تزوج فقل الصغرى وهي التي جاءت خلفه وهي التي قالت : « يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ » . قيل : إن الحكمة في تزويجه الصغرى منه قبل الكبرى وإن كانت الكبرى أحوج إلى الرجال أنه توقع أن يميل إليها لأنه رآها في رسالته ، وماشاها في إقباله إلى أبيها معها ، فلو عرض عليه الكبرى ربما أظهر له الاختيار وهو يضمن غيره . وقيل غير هذا ؛ والله أعلم . وفي بعض الأخبار أنه تزوج بالكبرى ؛ حكاه القشيري .

الثانية — وأما ذكر أول المدة فليس في الآية ما يقتضى إسقاطه بل هو مسكوت عنه ؛ فإما رسماه ، وإلا فهو من أول وقت العقد .

الثالثة — وأما النكاح بالإجارة فظاهر من الآية ، وهو أمر قد فتره شرعنا ، وجرى في حديث الذى لم يكن عنده إلا شيء من القرآن ؛ رواه الأئمة ؛ وفي بعض طرقه : فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” ماتحفظ من القرآن ” فقال : سورة البقرة والتي تليها ؛ قال : ” فعلمها عشرين آية وهي أمرأتك ” . وأختلف العلماء في هذه المسألة على ثلاثة أقوال : فكرهه مالك ، ومنعه ابن القاسم ، وأجازه ابن حبيب ؛ وهو قول الشافعى وأصحابه ؛ قالوا : يجوز أن تكون منفعة الحز صداقا كالخياطة والبناء وتعليم القرآن . وقال أبو حنيفة : لا يصح ؛ وجوز أن يتزوجها بأن يخدمها عبده سنة ، أو يسكنها داره سنة ؛ لأن العبد والدار مال ، وليس خدمتها بنفسه مالا . وقال أبو الحسن الكرخى : إن عقد النكاح بالفظ الإجارة جائز ؛ لقوله تعالى : « فَأَتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ » . وقال أبو بكر الرازى : لا يصح لأن الإجارة عقد مؤقت ، وعقد النكاح مؤبد ، فهما متناقضان . وقال ابن القاسم : ينفسخ قبل البناء ويثبت بعده .

(١) من ك . (٢) واجعه ص ١٢٠ فما بعد .

وقال أصبغ : إن نقد معه شيئاً ففيه اختلاف ، وإن لم ينقد فهو أشد ، فإن ترك مضى على كل حال بدليل قصة شعيب ، قاله مالك وأبن المَوَاز وأشهب . وعَوَّل على هذه الآية جماعة من المتأخرين والمتقدمين في هذه النازلة ؛ قال ابن خُوَيزِمَنَدَاد . تضمنت هذه الآية النكاح على الإجارة والعقد صحيح ، ويكره أن تجعل الإجارة مهراً ، وينبغي أن يكون المهر مالا كما قال عز وجل : « أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ ^(١) » . هذا قول أصحابنا جميعا .

الرابعة — وأما قوله : ودخل ولم ينقد فقد اختلف الناس في هذا ؛ هل دخل حين عقد أم حين سافر ؟ فإن كان حين عقد فإذا نقد ؟ وقد منع علماؤنا من الدخول حتى ينقد ولو ربع دينار ؛ قاله ابن القاسم . فإن دخل قبل أن ينقد مضى ، لأن المتأخرين من أصحابنا قالوا : تعجيل الصداق أو شيء منه مستحب . على أنه إن كان الصداق رعية الغنم فقد نقد الشروع في الخدمة ؛ وإن كان دخل حين سافر فطول الانتظار في النكاح جائز وإن كان مدى العمر بغير شرط . [وأما إن كان بشرط ^(٢)] فلا يجوز إلا أن يكون الغرض صحيحا مثل التأهب للبناء أو انتظار صلاحية الزوجة للدخول إن كانت صغيرة ؛ نص عليه علماؤنا .

الثانية عشرة — في هذه الآية اجتماع إجارة ونكاح ، وقد اختلف علماؤنا في ذلك على ثلاثة أقوال : الأول — قال في ثمانية أبي زيد : يكره ابتداء فإن وقع مضى . الثاني — قال مالك وأبن القاسم في المشهور : لا يجوز ويفسخ قبل الدخول وبعده ؛ لاختلاف مقاصدهما كسائر العقود المتباينة . الثالث — أجازته أشهب وأصبغ . قال ابن العربي : وهذا هو الصحيح وعليه تدل الآية ؛ وقد قال مالك النكاح أشبه شيء بالبيع ، فأى فرق بين إجارة وبيع أو بين بيع ونكاح .

فرع — وإن أصدقها تعليم شعر مباح صح ؛ قال المزني : وذلك مثل قول الشاعر :

يقول العبد فائدتي ومالي * وتقوى الله أفضل ما أستفادا ^(٣)

وإن أصدقها تعليم شعر فيه هجو أو فحش كان كما لو أصدقها نحرأ أو خنزيرا .

(١) راجع ج ٦ ص ٧٥ فابعد . (٢) من برك . (٣) في برك : المز .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حَجَّجٍ ﴾ جرى ذكر الخدمة مطلقا وقال مالك إنه جائز ويحمل على العرف ، فلا يحتاج في التسمية إلى الخدمة ، وهو ظاهر قصة موسى ، فإنه ذكر إجازة مطلقة . وقال أبو حنيفة والشافعي : لا يجوز حتى يسمى لأنه مجهول وقد ترجم البخاري : « باب من استأجر أجيرا فبين له الأجل ولم يبين له العمل » لقوله تعالى : « عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حَجَّجٍ » . قال المهلب : ليس كما ترجم ، لأن العمل عندهم كان معلوما من سقى وحرث ورعى وما شا كل أعمال البادية في مهنة أهلها ، فهذا متعارف وإن لم يبين له أشخاص الأعمال ولا مقاديرها ، مثل أن يقول له : إنك تحرث كذا من السنة ، وترعى كذا من السنة ، فهذا إنما هو على المعهود من خدمة البادية ، وإنما الذي لا يجوز عند الجميع أن تكون المدة مجهولة ، والعمل مجهول غير معهود لا يجوز حتى يعلم . قال ابن العربي : وقد ذكر أهل التفسير أنه عين له رعية الغنم ، ولم يرو من طريق صحيحة ، ولكن قالوا : إن صالح مدين لم يكن له عمل إلا رعية الغنم ، فكان ما علم من حاله قائما مقام التعيين للخدمة فيه .

الرابعة عشرة — أجمع العلماء على أنه جائز أن يستأجر الراعي شهورا معلومة ، بأجرة معلومة ، لرعاية غنم معدودة ، فإن كانت معدودة معينة ، ففيها تفصيل لعلمائنا ، قال ابن القاسم : لا يجوز حتى يشترط الخلف إن مات ، وهي رواية ضعيفة جدا ، وقد استأجر صالح مدين موسى على غنمه ، وقد رآها ولم يشترط خلفا ، وإن كانت مطلقة غير مسماة ولا معينة جازت عند علمائنا . وقال أبو حنيفة والشافعي : لا تجوز لجهالتها ، وعول علمائنا على العرف حسبا ذكرناه آنفا ، وأنه يعطى بقدر ما تحتمل قوته . وزاد بعض علمائنا أنه لا يجوز حتى يعلم المستأجر قدر قوته ، وهو صحيح فإن صالح مدين علم قدر قوة موسى برفع الحجر .

الخامسة عشرة — قال مالك : وليس على الراعي ضمان وهو مصدق فيما هلك أو سرق ، لأنه أمين كالوكيل . وقد ترجم البخاري : « باب إذا أبصر الراعي أو الوكيل شاة تموت أو شيئا يفسد فأصلح ما يخاف الفساد » وساق حديث كعب بن مالك عن أبيه أنه كانت

(١) فك : غير معلوم . (٢) فك : أو شاة .

لم غم ترعى بسلع^(١) ، فأبصرت جارية لنا بشاة من غنمنا موتاً فكسرت حجراً فذبحتها به ، فقال لهم : لا تأكلوا حتى أسأل النبي — أو أرسل إلى النبي صلى الله عليه وسلم من يسأله — وأنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم — أو أرسل إليه — فأمره بأكلها ؛ قال عبد الله : فيعجبني أنها أمة وأنها ذبحت . قال المهلب : فيه من الفقه تصديق الراعي والوكيل فيما آتمنا عليه حتى يظهر عليهما دليل الخيانة والكذب ؛ وهذا قول مالك وجماعة . وقال ابن القاسم : إذا خاف الموت على شاة فذبجها لم يضمن ويصدق إذا جاء بها مذبوحة . وقال غيره : يضمن حتى يبين ما قال .

السادسة عشرة — وأختلف ابن القاسم وأشهب إذا أنزى الراعي على إناث الماشية بغير إذن أربابها فهلكت ؛ فقال ابن القاسم : لا ضمان عليه ؛ لأن الإنزاء من إصلاح المال ونمائه . وقال أشهب : عليه الضمان ؛ وقول ابن القاسم أشبهه بدليل حديث كعب ، وأنه لا ضمان عليه فيما تلف عليه بأجهاده ، إن كان من أهل الصلاح ، ومن يعلم إشفاقه على المال ؛ وأما إن كان من أهل الفسوق والفساد وأراد صاحب المال أن يضمنه فعل ؛ لأنه لا يصدق أنه رأى بالشاة موتاً لما عرف من فسقه^(٢) .

السابعة عشرة — لم ينقل ما كانت أجرة موسى عليه السلام ؛ ولكن روى يحيى بن سلام أن صالح مدين جعل لموسى كل سخلة توضع خلاف لون أمها ، فأوحى الله إلى موسى أن ألق عصاك بينهن يلدن خلاف شبههن كلهن . وقال غير يحيى : بل جعل له كل بقاء تولد له ، فولدن له كلهن بقاء . وذكر القشيري أن شعيباً لما استأجر موسى قال له : أدخل بيت كذا وخذ عصا من العصى التي في البيت ، فأخرج موسى عصا ، وكان أخرجها آدم من الجنة ، وتوارثها الأنبياء حتى صارت إلى شعيب ، فأمره شعيب أن يلقها في البيت ويأخذ عصا أخرى ، فدخل وأخرج تلك العصا ؛ وكذلك سبع مرات كل ذلك لا تقع بيده غير تلك ، فعلم شعيب أن له شأناً ؛ فلما أصبح قال له : سق الأغنام إلى مفرق الطريق ، فخذ عن يمينك

(١) سلع : جبل بالمدينة . (٢) في ك : علم .

وليس بها عشب كثير ، ولا تأخذ من يسارك فإن بها عشباً كثيراً وتبيناً كبيراً لا يقبل المواشى ، فساق المواشى إلى مفرق الطريق ، فأخذت نحو اليسار ولم يقدر على ضبطها ، فنام موسى وخرج الثنن ، فقامت العصا وصارت شعبتها حديداً وحاربت الثنن حتى قتلتها ، وعادت إلى موسى عليه السلام ، فلما أنبه موسى رأى العصا مخضوبة بالدم ، والثنن مقتولاً ، فعاد إلى شعيب عشاء ، وكان شعيب ضريراً فمس الأغنام ، فإذا ، أثراً لحصب بادٍ عليها ، فسأله عن القصة فأخبره بها ، ففرح شعيب وقال : كل ما تلد هذه المواشى هذه السنة قالب لون — أى ذات لونين — فهولك ؛ فجاءت جميع السخال تلك السنة ذات لونين ، فعلم شعيب أن لموسى عند الله مكانة . وروى عيينة بن حصن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” أجز موسى نفسه بشيع بطنه وعفة فرجه “ فقال له شعيب لك منها — يعنى من نتاج غنمه — ما جاءت به قالب لون ليس فيها عزوز ولا فشوش ولا ككوش ولا ضبوب ولا نعول^(١) . قال الهروى : العزوز البكيفة ؛ مأخوذ من العزاز وهى الأرض الصلبة ، وقد تعززت الشاة . والفشوش التى ينفش لبنها من غير حلب وذلك لسعة الإحليل ، ومثله الفتوح والثور . ومن أمثالهم : (لَأَفْشَنَّكَ فَشَّ الْوَطْبِ) أى لا نخرجن غضبك وكبرك من رأسك . ويقال : فش السقاء إذا أخرج منه الريح . ومنه الحديث : ” إن الشيطان يَفْش بين ألتى أحدكم حتى يُجَيِّلَ إليه أنه أحدث “ أى ينفخ نفخاً ضعيفاً . والككوش : الصغيرة الضرع ، وهى الكبيشة أيضاً ؛ سميت بذلك لانكماش ضرعها وهو تقلصه ؛ ومنه يقال : رجل ككيش الإزار . والكشود مثل الكوش . والضبوب الضيقة ثقب الإحليل . والضَّبُّ الحلب بشدة العصر . والنعول الشاة التى لها زيادة حلمة وهى الثعل . والثعل زيادة السن ، وتلك الزيادة هى [الرأول^(٢)] . ورجل أثل . والثعل [ضيق^(٣)] مخرج اللبن . قال الهروى : وتفسير قالب لون فى الحديث أنها جاءت على غير ألوان أمهاتها .

(١) فى ب وط وك ولأصوب مكتبة . ولم نجد له معنى . (٢) الزيادة من اللسان ، وفى الأصول : « هى الثعل » ولعله تحريف ؛ إذ أن عبارة اللسان « وتلك السن الزائدة يقال لها الرأول » . (٣) زيادة يقتضيا المعنى . فى ب عبارة لم نجد لها وجهها ؛ هى : الصوب التى ضرعها مثل الموزتين .

الثامنة عشرة — الإجارة بالعوض المجهول لا تجوز ؛ فإن ولادة الغنم غير معلومة ، وإن من البلاد الخصب ما يعلم ولاد الغنم فيها قطعا وعدتها وسلامة سخالها كديار مصر وغيرها ، بيد أن ذلك لا يجوز في شرعنا ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن الغر ، ونهى عن المضامين والملاقيح . والمضامين ما في بطون الإناث ، والملاقيح ما في أصلاب الفحول وعلى خلاف ذلك قال الشاعر :

* مَلْقُوحَةٌ فِي بَطْنِ نَابٍ حَامِلٍ *

وقد مضى في سورة « الحجر »^(١) بيانه . على أن راشد بن معمر أجاز الإجارة على الغنم بالثلث والرابع . وقال ابن سيرين وعطاء : ينسج الثوب بنصيب منه ؛ وبه قال أحمد .

التاسعة عشرة — الكفاءة في النكاح معتبرة ؛ وأختلف العلماء هل في الدين والمال والحسب ، أوفى بعض ذلك . والصحيح جواز نكاح الموالى للعربيات والقرشيات ؛ لقوله تعالى : « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ »^(٢) . وقد جاء موسى إلى صالح مدين غريبا طريدا خائفا وحيدا جائعا عريانا فأنكحه آبنته لما تحقق [من دينه]^(٣) ورأى من حاله ، وأعرض عما سوى ذلك . وقد تقدمت هذه المسألة مستوعبة والحمد لله .

الموفية عشرين — قال بعضهم : هذا الذي جرى من شعيب لم يكن ذكرا لصداق المرأة ، وإنما كان اشتراطا لنفسه على ما يفعله الأعراب ؛ فإنها تشتط صداق بناتها ، وتقول : لى كذا في خاصة نفسى ، وترك المهر مفوضا ؛ ونكاح التفويض جائز . قال ابن العربي : هذا الذى تفعله الأعراب هو حلوان وزيادة على المهر ، وهو حرام لا يليق بالأنبياء ؛ فأما إذا اشترط الولى شيئا لنفسه ، فقد اختلف العلماء فيما يخرججه الزوج من يده ولا يدخل في يد المرأة على قولين : أحدهما — أنه جائز . والآخر — لا يجوز . والذي يصح عندى التقسيم ؛ فإن المرأة لا تخلو أن تكون بكرا أو ثيبا ؛ فإن كانت ثيبا جاز ؛ لأن نكاحها

(١) راجع ج ١٠ ص ١٧ فـأ بعد . (٢) راجع ج ١٦ ص ٣٤٠ فـأ بعد .

(٣) الزيادة من « أحكام القرآن لابن العربي » .

بيدها ، وإنما يكون للولي مباشرة العقد ، ولا يتمتع أخذ العوض عليه كما يأخذه الوكيل على عقد البيع . وإن كانت بكراً كان العقد بيده ، وكأنه عوض في النكاح لغير الزوج وذلك باطل ؛ فإن وقع فسخ قبل البناء ، وثبت بعده على مشهور الرواية . والحمد لله .

الحادية والعشرون — لما ذكر الشرط وأعقبه بالطوع في العشر نخرج كل واحد منهما على حكمه ، ولم يلحق الآخر بالأول ، ولا أشترك الفرض والطوع ؛ ولذلك يكتب في العقود الشروط المتفق عليها ، ثم يقال وتطوع بكذا ، فيجوز الشرط على سبيله ، والطوع على حكمه ، وأنفصل الواجب من التطوع . وقيل : ومن لفظ شعيب حسن في لفظ العقود في النكاح أنكحه إياها أولى من أنكحها إياه على ما يأتي بيانه في « الأحراب »^(١) . وجعل شعيب الثمانية الأعوام شرطاً ، ووكل العاشرة إلى المروءة .

الثانية والعشرون — قوله تعالى : ﴿ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُمْ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ﴾^(٢) لما فرغ كلام شعيب فزده موسى عليه السلام وكرر معناه على جهة التوثيق في أن الشرط إنما وقع في ثمان حجج . و « أَيَّمَا » استفهام منصوب بـ « قَضَيْتُمْ » و « الْأَجَلَيْنِ » مخفوض بإضافة « أَى » إليهما و « ما » صلة للتأكيد وفيه معنى الشرط وجوابه « فَلَا عُدْوَانَ » وأن « عدوان » منصوب بـ « لا » . وقال ابن كيسان : « ما » في موضع خفض بإضافة « أَى » إليها وهى نكرة و « الْأَجَلَيْنِ » بدل منها . وكذلك في قوله : « فِيمَا رَحِمَةٍ مِنَ اللَّهِ »^(٣) أى رحمة بدل من ما ؛ قال مكى : وكان يتلطف في ألا يجعل شيئاً زائداً في القرآن ، ويخرج له وجهاً يخرج منه الزيادة . وقرأ الحسن : « أَيَّمَا » بسكون الياء . وقرأ ابن مسعود : « أَى الْأَجَلَيْنِ مَا قَضَيْتُمْ » . وقرأ الجمهور : « عُدْوَانَ » بضم العين . وأبو حيوة بكسرها ؛ والمعنى : لا تبعة على ولا طلب في الزيادة عليه . والعدوان التجاوز في غير الواجب ، والمجج السنون . قال الشاعر^(٤) :

لمن الديار بقنة الحجر * أقوين من حجج ومن دهر

(١) راجع ج ١٤ ص ٢٠٢ فابعد . (٢) راجع ج ٤ ص ٢٤٨ .

(٣) هو زهير بن أبي سلمى . ويرى : ومن شهر .

الواحدة حجة بكسر الحاء . (وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ) قيل : هو من قول موسى . وقيل : هو من قول والد المرأة . فاكفى الصالحان صلوات الله عليهما في الإشهاد عليهما بالله ولم يشهدا أحدا من الخلق ، وقد اختلف العلماء في وجوب الإشهاد في النكاح ؛ وهي :

الثالثة والعشرون — على قولين : أحدهما أنه لا ينعقد إلا بشاهدين . وبه قال أبو حنيفة والشافعي . وقال مالك : إنه ينعقد دون شهود ؛ لأنه عقد معاوضة فلا يشترط فيه الإشهاد ، وإنما يشترط فيه الإعلان والتصريح ، وفرق ما بين النكاح والسفاح الدُّف . وقد مضت هذه المسألة في « البقرة »^(١) مستوفاة . وفي البخاري عن أبي هريرة : أن رجلا من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أنت يُسلفه ألف دينار فقال آيتني بالشهداء أشهدهم ، فقال كفى بالله شهيدا ؛ فقال آيتني بكفيل ؛ فقال كفى بالله كفिला . قال صدقت فدفعها إليه ؛ وذكر الحديث .

قوله تعالى : فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾
فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ) قال سعيد بن جبیر : سألتني رجل من النصارى أى الأجلين قضى موسى . فقلت : لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله — يعنى ابن عباس — فقدمت عليه فسألته ؛ فقال : قضى أكلهما وأوفاهما . فأعلمت النصارى فقال : صدق والله هذا العالم . وروى عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل في ذلك جبريل فأخبره أنه قضى عشر سنين . وحكى الطبرى عن مجاهد أنه قضى عشرا وعشرا بعدها ؛ [رواه الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس]^(٢) قال ابن عطية : وهذا ضعيف .

(١) راجع ج ٣ ص ٧٩ فما بعد . (٢) من ب .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ﴾ قيل : فيه دليل على أن الرجل يذهب بأهله حيث شاء ، لما له عليها من فضل القوامية وزيادة الدرجة إلا أن يلتزم لها أمرا فالأؤمنون عند شروطهم ، وأحق الشروط أن يوفى به ما استحلتم به الفروج .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ آتَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ﴾ الآية . تقدم القول في ذلك في « طه » .^(١) والخذوة بكسر الجيم قراءة العامة ، وضمتها حمزة ويحيى ، وفتحها عاصم والسلمي وزر بن حبيش . قال الجوهري : الخذوة والخذوة والخذوة الجمرة الملتبهة والجمع جدًا وجذا . قال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ ﴾ أى قطعة من الجمر ، قال : وهى بلغة جميع العرب . وقال أبو عبيدة : والخذوة مثل الخدمة وهى القطعة الغليظة من الخشب كان فى طرفها نار أو لم يكن . قال ابن مقبل :

بَاتَتْ حَوَاطِبُ لَيْلَى يَلْتَمِسْنَ لَهَا * جَزَلَ الْخِذَا غَيْرَ خَوَارٍ وَلَا دَعِيرٍ^(٢)

وقال :

وَأَلْقَى عَلَى قَيْسٍ مِنَ النَّارِ جَذْوَةً * شَدِيدًا عَلَيْهَا حَمِيهَا وَلَهِيهَا^(٣)

قوله تعالى : فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يُمُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا ﴾ يعنى الشجرة قدم ضميرها عليها . ﴿ نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ ﴾ « من » الأولى والثانية لابتداء الغاية ، أى أناه النداء من شاطئ الوادى من قبل الشجرة . و « مِنَ الشَّجَرَةِ » بدل من قوله : « مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ » بدل الاشتمال ؛ لأن الشجرة كانت نابتة على الشاطئ ، وشاطئ الوادى وشطه جانبه ، والجمع شُطآن وشواطئ ، ذكره القشيري . وقال الجوهري : ويقال شاطئ الأودية ولا يجمع . وشاطأت الرجل إذا مشيت على شاطئ

(١) راجع ج ١١ ص ١٧١ . (٢) الخوارها العود الذى ينقصف والدعر الذى إذا وضع على النار

لم يستوقد ودخن . (٣) وپروي : * شديدا عليها حرها وانها بها *

ومشى هو على شاطئ آخر . (الْأَيْمَنِ) أى عن يمين موسى . وقيل : عن يمين الجبل .
 (فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ) وقرأ الأشهب العقيلي : « فِي الْبُقْعَةِ » بفتح الباء . وقولهم يقاع يدل على
 بُقْعَةٍ ؛ كما يقال جَفْنَةٌ وَجِفَانٌ . ومن قال بُقْعَةٌ قال بُقْعٌ مثل غُرْفَةٍ وَغُرْفٌ . (مِنَ الشَّجَرَةِ)
 أى من ناحية الشجرة . قيل : كانت شجرة العَلِيقِ . وقيل : سَمْرَةٌ وقيل : عَوْسَجٌ . ومنها كانت
 عصاه ؛ ذكره الزمخشري . وقيل : عُتَابٌ ، والعَوْسَجُ إذا عَظُمَ يقال له الْفَرْقَدُ . وفي الحديث :
 إنه من شجر اليهود فإذا نزل عيسى وقتل اليهود الذين مع الدجال فلا يختفى أحد منهم خلف
 شجرة إلا نطقت وقالت يا مسلم هذا يهودى ورأى تعال فأقتله إلا الْفَرْقَدَ فإنه من شجر اليهود
 فلا ينطق . نخرجه مسلم . قال المهدوى : وكلم الله تعالى موسى عليه السلام من فوق عرشه
 وأسمعه كلامه من الشجرة على ما شاء . ولا يجوز أن يوصف الله تعالى بالانتقال والزوال
 وشبه ذلك من صفات المخلوقين . قال أبو المعالى : وأهل المعانى وأهل الحق يقولون من
 كلمه الله تعالى وخصه بالرتبة العليا والغاية القصوى ، فيدرك كلامه القديم المتقدس عن مشابهة
 الحروف والأصوات والعبارات والنغمات وضروب اللغات ، كما أن من خصه الله بمنازل
 الكرامات وأكل عليه نعمته ، ورزقه رؤيته يرى الله سبحانه منزها عن مماثلة الأجسام
 وأحكام الحوادث ، ولا مثل له سبحانه في ذاته وصفاته ، وأجمعت الأمة على أن الرب
 تعالى خصص موسى عليه السلام وغيره من المصطفين من الملائكة بكلامه . قال الأستاذ
 أبو إسحق : آتفق أهل الحق على أن الله تعالى خلق في موسى عليه السلام معنى من المعانى
 أدرك به كلامه كان اختصاصه في سماعه ، وأنه قادر على مثله في جميع خلقه . واختلفوا
 في نبينا عليه السلام هل سمع ليلة الإسراء كلام الله ، وهل سمع جبريل كلامه على قولين ؛
 وطريق أحدهما النقل المقطوع به وذلك مفقود ، وآتفقوا على أن سماع الخلق له عند قراءة
 القرآن على معنى أنهم سمعوا العبارة التي عرفوا بها معناه دون سماعه له في عينه . وقال عبد الله
 ابن سعد بن كلاب : إن موسى عليه السلام فهم كلام الله القديم من أصوات مخلوقة أثبتها
 الله تعالى في بعض الأجسام . قال أبو المعالى : وهذا مردود ؛ بل يجب اختصاص موسى

عليه السلام بإدراك كلام الله تعالى خرقا للعادة، ولو لم يُقَلَّ ذلك لم يكن لموسى عليه السلام اختصاص بتكليم الله إياه . والرب تعالى أسمع كلامه العزيز، وخلق له علما ضروريا، حتى علم أن ماسمعه كلام الله، وأن الذي كلمه وناداه هو الله رب العالمين . وقد ورد في الأقساميص أن موسى عليه السلام قال : سمعت كلام ربي بجميع جوارحي، ولم أسمع من جهة واحدة من جهاتي . وقد مضى هذا المعنى في « البقرة » مستوفى . (أَنْ يَا مُوسَى) « أَنْ » في موضع نصب بحذف حرف الجر أي بـ « أَنْ يَا مُوسَى » . (إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) نفى لربوبية غيره سبحانه . وصار بهذا الكلام من أصفياء الله عز وجل لا من رسله ؛ لأنه لا يصير رسولا إلا بعد أمره بالرسالة، والأمر بها إنما كان بعد هذا الكلام .

قوله تعالى : وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْوَسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : (وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ) عطف على « أَنْ يَا مُوسَى » وتقدم الكلام في هذا في « التمل » و « طه » . و (مُدْبِرًا) نصب على الحال وكذلك موضع قوله : (وَلَمْ يُعَقِّبْ) نصب على الحال أيضا . (يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ) قال وهب : قيل له أرجع إلى حيث كنت . فرجع فلَفْ دُرَاعَتَهُ على يده، فقال له الملك : أرايت إن أراد الله أن يصيبك بما تحاذر أينفعك لَفْكَ يدك ؟ قال : لا ولكني ضعيف خلقت من ضعف . وكشف يده فأدخلها في فم الحية فعادت عصا . (إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ) أي مما تحاذر .

قوله تعالى : أَسْأَلُكَ يَدَكَ فِي جَنِّبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمُمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذُنُوكَ بِرَهْطَانٍ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا

(١) راجع ج ١ ص ٣٠٤ . (٢) في ب : يعزير . (٣) راجع ص ١٥٦ فابعد من هذا الجزء . (٤) راجع ج ١١ ص ١٨٥ . (٥) الدراة : ضرب من الباب التي تلبس . وقيل : جبة مشقوفة المقدم . (٦) في ب : ضعيف .

فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَنْحِي هَرُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلَهُ مَعِيَ
رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنُنْشِدُ عُصْدَكَ بِأَخِيكَ
وَنَجْعَلُ لَكَ سُلْطٰنًا فَلَا يَصْلُونَ إِلَيْكََا بِأَيِّتِنَا أَنْتُمْ وَمَنْ أَتَّبَعُكُمْ
الْغٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ أَسْأَلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ﴾ الآية ؛ تقدم القول فيه . ﴿ وَأَضْمَمْتُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ
مِنَ الرَّهْبِ ﴾ « من » متعلقة بـ « مَوَّلَى » أى وتلى مدبرا من الرهب . وقرأ حفص والسلمي
وعيسى بن عمرو وابن أبي إسحق : « مِنَ الرَّهْبِ » بفتح الراء وإسكان الهاء . وقرأ ابن عامر
والكوفيون إلا حفص بضم الراء وجرم الهاء . الباقر بفتح الراء والهاء . وأختره أبو عبيد
وأبو حاتم ؛ لقوله تعالى : « وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ^(١) » وكلها لغات وهو بمعنى الخوف .
والمعنى إذا هَالَكَ أَمْرُ يَدِكَ وشعاعها فأدخلها في جيبك وأرددها إليه تعد كما كانت . وقيل :
أمره الله أن يضم يده إلى صدره فيذهب عنه خوف الحية . عن مجاهد وغيره ورواه الضحاك
عن ابن عباس ؛ قال فقال ابن عباس : ليس من أحد يدخله رعب بعد موسى عليه السلام ،
ثم يدخل يده فيضعها على صدره إلا ذهب عنه الرعب . ويحكى عن عمر بن عبد العزيز
رحمه الله : أن كاتباً كان يكتب بين يديه ، فانفلتت منه فلتة ريح فحجل وانكسر ، فقام وضرب
بقلمه الأرض . فقال له عمر : خذ قلمك وأضمم إليك جناحك ، وليفرخ روعك فإنى ما سمعتها
من أحد أكثر مما سمعتها من نفسى . وقيل : المعنى أضمم يدك إلى صدرك ليذهب الله
ما في صدرك من الخوف . وكان موسى يرتعد خوفاً إما من آل فرعون وإما من الثعبان .
وضم الجناح هو السكون ؛ كقوله تعالى : « وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِّ ^(٢) مِنَ الرَّحْمَةِ » يريد
الرفق . وكذلك قوله : « وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ ^(٣) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » أى أرفق بهم . وقال
الفراء : أراد بالجناح عصاه . وقال بعض أهل المعانى : الرهب الظم بلغة حمير وبني حنيفة .
قال مقاتل : سألتني أعرابية شيئاً وأنا آكل فلات الكف وأومأت إليها فقالت : ها هنا

(١) راجع ج ١١ ص ٣٣٦ فابعد . (٢) راجع ١٠ ص ٢٤٣ فابعد .

(٣) راجع ص ١٤٣ من هذا الجزء .

في رهي . تريد في كُتْمِي . وقال الأصمعي : سمعت أعرابيا يقول لآخر أعطني رهبك . فسأله عن الرهب فقال : الكُتْم ؛ فعلى هذا يكون معناه أضمت إليك يدك وأخرجها من الكُتْم ؛ لأنه تناول العصا ويده في كفه وقوله : « أَسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ » يدل على أنها اليد اليمنى ؛ لأن الجيب على اليسار . ذكره القشيري .

قلت : وما فسروه من ضم اليد إلى الصدر يدل على أن الجيب موضعه الصدر .^(١) وقد مضى في سورة « النور » بيانه . الزمخشري : ومن بدع التفاسير أن الرهب الكُتْم بلغة حمير وأنهم يقولون أعطني مما في رهبك ، وليت شعري كيف صحته في اللغة ! وهل سمع من الأثبات الثقات الذين ترتضى عربيتهم ، ثم ليت شعري كيف موقعه في الآية ، وكيف تطبيقه المفصل كسائر كلمات التنزيل ؛ على أن موسى صلوات الله عليه ما كان عليه ليلة المناجاة إلا زُرْمَانِقَةً^(٢) من صوف لاكمين لها . قال القشيري : وقوله : « وَأَضْمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ » يريد اليدين إن قلنا أراد الأمن من فزع الثعبان . وقيل : « وَأَضْمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ » أى شمر واستعد لتحمل أعباء الرسالة .

قلت : فعلى هذا قيل « إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ » أى من المرسلين ؛ لقوله تعالى : « إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلِينَ »^(٣) . قال ابن بحر : فصار على هذا التأويل رسولا بهذا القول . وقيل : إنما صار رسولا بقوله : « فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأِهِ » والبرهانان اليد والعصا . وقرأ ابن كثير : بتشديد النون وخففها الباقون . وروى أبو عمارة عن أبي الفضل عن أبي بكر عن ابن كثير ، « فَذَانِيكَ » بالتشديد والياء . وعن أبي عمرو أيضا قال لغة هذيل : « فَذَانِيكَ » بالتخفيف والياء . ولغة قريش « فَذَانِكَ » كما قرأ أبو عمرو وابن كثير . وفي تعليقه خمسة أقوال : قيل شدد النون عوضا من الألف الساقطة في ذانك الذى هو تشنية ذا المرفوع ، وهو رفع بالابتداء ، وألف ذا محذوفة لدخول ألف التشنية عليها ، ولم يانفت إلى النقاء الساكنين ؛ لأن أصله فذانك فحذف الألف الأولى عوضا من النون الشديدة . وقيل :

(١) راجع ج ١٢ ص ٢٣١ . (٢) الزرمانقة : جبة من صوف ، وهي عجيبة معربة .

(٣) راجع ص ١٥٦ من هذا الجزء .

التشديد للتأكيد كما أدخلوا اللام في ذلك . مكى : وقيل إن من شدد إنما بناء على لغة من قال في الواحد ذلك ، فلما بنى أثبت اللام بعد نون التثنية ، ثم أدغم اللام في النون على حكم إدغام الثانى فى الأول ، والأصل أن يدغم الأول أبداً فى الثانى ، إلا أن يمنع من ذلك صلة فيدغم الثانى فى الأول ، والعلّة التى منعت فى هذا أن يدغم الأول فى الثانى أنه لو فعل ذلك لصار فى موضع النون التى تدلّ على التثنية لام مشددة فيتغير لفظ التثنية فأدغم الثانى فى الأول لذلك ؛ فصار نونا مشددة . وقد قيل : إنه لما تنافى ذلك أثبت اللام قبل النون ثم أدغم الأول فى الثانى على أصول الإدغام فصار نونا مشددة . وقيل : شددت فرقاً بينها وبين الظاهر التى تسقط الإضافة نونه ؛ لأنّ ذان لا يضاف . وقيل : للفرق بين الاسم المتمكن وبينها . وكذلك العلة فى تشديد النون فى « اللذان » و « هذان » . قال أبو عمرو : إنما اختص أبو عمرو هذا الحرف بالتشديد دون كل تثنية من جنسه لقلّة حروفه فقرأه بالثقل . ومن قرأ : « قَدَانِيكَ » بياء مع تخفيف النون فأصل عنده « قَدَانِيكَ » بالتشديد فأبدل من النون الثانية بياء كراهية التضعيف ، كما قالوا : لا أملاه فى لا أَمَلُهُ فأبدلوا اللام الثانية ألفاً . ومن قرأ بياء بعد النون الشديدة فوجهه أنه أشبع كسرة النون فتولدت عنها الياء . قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا ﴾ يعنى معينا مشتق من أردأته أى أعتته . والردء العون . قال الشاعر :

ألم تر أن أضرم كان ردئى * وخير الناس فى قلّ ومال

النحاس : وقد أردأه ورداه أى أعانه ؛ وترك همزه تخفيفاً . وبه قرأ نافع : وهو بمعنى المهموز . قال المهدوى : ويجوز أن يكون ترك الهمز من قولهم أردى على المسألة أى زاد عليها ، وكأن المعنى أرسله معى زيادة فى تصديق . قاله مسلم بن جندب . وأنشد قول الشاعر :

وأسمر خطيباً كأن كعبه * نوى القسب قد أردى ذراعاً على العشر

كذا أنشد الماوردى هذا البيت : قد أردى . وأنشده الغزنوى والجوهري فى الصحاح قد أرمى^(١) ؛ قال : والقسب الصلب ، والقسب تمر يابس يتفتت فى الفم صلب النواة . قال

(١) أرمى وأرمى لئان .

يصف رمحا : وأسمر . البيت . قال الجوهرى : ردؤ الشيء يردؤ رداة فهو ردئ
 أى فاسد، وأردأته أفسدته ، وأردأته أيضا بمعنى أعتبه ؛ تقول : أردأته بنفسى أى كنت له
 رداء وهو العون . قال الله تعالى : « فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي » . قال النحاس :
 وقد حكى رداة : رداء وجمع رداء أرداء . وقرأ عاصم وحمة : « يُصَدِّقُنِي » بالرفع . وجرم
 الباقر ، وهو اختيار أبى حاتم على جواب الدعاء . وأختار الرفع أبو عبيد على الحال من الهاء
 فى « أَرْسِلْهُ » أى أرسله رداء مصدقا حالة التصديق ؛ كقوله : « أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ
 السَّمَاءِ تَكُونُ^(١) » أى كائنة ؛ حال صرف إلى الاستقبال . ويجوز أن يكون صفة لقوله :
 « رِدْءًا » . (إِنِّى أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ) إذا لم يكن لى وزير ولا معين ؛ لأنهم لا يكادون
 يفقهون عنى ، فـ (يَقَالَ) الله جل وعز له : (سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ) أى نقويك به ؛
 وهذا تمثيل ؛ لأن قوة اليد بالعضد . قال طرفة :

بَنِي لُبَيْنَى لَسْتُ بِبِيدٍ * إِلَّا يَدَا لَيْسَتْ لَهَا عَضُدٌ

ويقال فى دعاء الخير : شد الله عضدك . وفى ضده : فت الله فى عضدك . (وَيَجْعَلُ لَكُمْ سُلْطَانًا)
 أى حجة وبرهانا . (فَلَا يَصْلُونَ إِلَيْنَا) بالأذى (بِآيَاتِنَا) أى تمتنعان منهم « بِآيَاتِنَا »
 فيجوز أن يوقف على « إِلَيْنَا » ويكون فى الكلام تقديم وتأخير . وقيل : التقدير
 « أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمْ الْغَالِبُونَ » بآياتنا . قاله الأخفش والطبرى . قال المهدوى : وفى هذا
 تقديم الصلة على الموصول ، إلا أن يقدر أنتما غالبان بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون .
 وعنى بالآيات سائر معجزاته .

قوله تعالى : فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا
 إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَى
 رَبِّى أَعْلَمُ بِمَنِ جَاءَ بِالْحُسْنَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ
 إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتْلُوا آيَاتِىَ الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ

مَنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْلَمُنْ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلْ لِي صَرْحًا أَعْلَى
 أَطْلِعْ إِلَيَّ إِلَهَ مُوسَى وَإِنِّي لَا أَظُنُّهُ مِنْ الْكَذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَأَسْتَكَبَرُ
 هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُم إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾
 فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾
 وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾
 وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾
 قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ ﴾ أى ظاهرات واضحات ﴿ قَالُوا
 مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى ﴾ مكذوب مخلق ﴿ وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ . وقيل : إن
 هذه الآيات ما احتج به موسى في إثبات التوحيد من الحجج العقلية . وقيل : هى معجزاته .
 قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَى ﴾ قراءة العامة بالواو . وقرا مجاهد وأبن كثير وأبن محيصن :
 « قَالَ » بلا واو ، وكذلك هو فى مصحف أهل مكة . ﴿ رَبِّى أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى ﴾
 أى بالرشاد . ﴿ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ ﴾ قرا الكوفيون إلا عاصما : « يكون » بالياء والباقون
 بالتاء . وقد تقدم هذا . ﴿ عَاقِبَةُ الدَّارِ ﴾ أى دار الجزاء . ﴿ إِنَّهُ ﴾ الهاء ضمير الأمر والشأن
 ﴿ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْعَلَّامُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ قال ابن عباس :
 كان بينهما وبين قوله : « أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى » أربعون سنة ، وكذب عدو الله بل علم أن له ثم رباً
 هو خالقه وخالق قومه . « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » . قال : ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ
 عَلَى الطِّينِ ﴾ أى أطبخ لى الآجر ، عن ابن عباس رضى الله عنه . وقال قتادة : هو أول
 من صنع الآجر وبني به . ولما أمر فرعون وزيره هامان ببناء الصرح جمع هامان العمال
 — قبل خمسين ألف بناء سوى الأتباع والأجراء — وأمر بطبخ الآجر والجص ، ونشر الخشب ،

وضرب المسامير ، فبنوا ورفعوا البناء وشيدوه بحيث لم يبلغه بليان منذ خلق الله السموات والأرض ، فكان الباني لا يقدر أن يقوم على رأسه ، حتى أراد الله أن يفتنهم فيه . فحكى السدى : أن فرعون صعد السطح ورمى بنشابة نحو السماء ، فرجعت متلطخة بدماء ، فقال قد قتلت إله موسى . فروى أن جبريل عليه السلام بعثه الله تعالى عند مقاتله ، فضرب الصرح بجناحه فقطعه ثلاث قطع ، قطعة على عسكر فرعون قتلت منهم ألف ألف ، وقطعة في البحر ، وقطعة في الغرب ، وهلك كل من عمل فيه شيئا . والله أعلم بصحة ذلك . (وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ) الظن هنا شك ، فكفر على الشك ؛ لانه قد رأى من البراهين ما لا يُحِيلُ^(١) على ذى فطرة .

قوله تعالى : (وَاسْتَكْبَرَ) أى تعظم (هُوَ وَجُنُودُهُ) أى عن الإيمان بموسى . (فِي الْأَرْضِ يَغْيِرُ الْحَقُّ) أى بالعدوان ، أى لم تكن له حجة تدفع ما جاء به موسى . (وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِنَّا لَا يُرْجَعُونَ) أى توهموا أنه لا معاد ولا بعث . وقرا نافع وابن محيصن وشيبة وحيد ويعقوب وحمة والكسائي : « لَا يُرْجَعُونَ » بفتح الياء وكسر الجيم على أنه مسمى الفاعل . الباقيون : « يُرْجَعُونَ » على الفعل المجهول . وهو اختيار أبي عبيد ، والأول اختيار أبي حاتم . (فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ) وكانوا ألفى ألف وستائة ألف . (فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ) أى طرحناهم في البحر المسالح . قال قتادة : بحر من وراء مصر يقال له إساف أغرقهم الله فيه . وقال وهب والسدى : المكان الذى أغرقهم الله فيه بناحية القلزم يقال له بطن مريّة ، وهو إلى اليوم غضبان . وقال مقاتل ، يعنى نهر النيل . وهذا ضعيف والمشهور الأول . (فَانْظُرْ) يا محمد (كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ) أى آخر أمرهم . (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً) أى جعلناهم زعماء يتبعون على الكفر ، فيكون عليهم وزرهم ووزر من أتبعهم حتى يكون عقابهم أكثر . وقيل : جعل الله الملا من قومه رؤساء السفلة منهم ، فهم يدعون إلى جهنم . وقيل : أئمة يأثم بهم ذوو العبر ويتعظ بهم أهل البصائر . (يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ) أى إلى عمل أهل

(١) لا يحيل : أى لا يشكل .

النار ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ . ﴿وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أى أمرنا العباد بلعنهم فمن ذكرهم لعنهم . وقيل : أى ألزمتهم اللعن أى البعد عن الخير . ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ أى من المهلكين المتقوتين . قاله ابن كيسان وأبو عبيدة . وقال ابن عباس : المشوهين الحلقة بسواد الوجوه وزرقة العيون . وقيل : من المبعدين . يقال : قبحه الله أى نحاه من كل خير ، وقبحه وقبحه إذا جعله قبيحا . وقال أبو عمرو : قبحت وجهه بالتخفيف معناه قبحت . قال الشاعر :

أَلَا قَبَحَ اللَّهُ الْبَرَّاجِمَ كُلَّهَا * وَقَبَحَ يَرْبُوعًا وَقَبَحَ دَارِمًا

وأنصب يوما على الحمل على موضع « فِي هَذِهِ الدُّنْيَا » وأستغنى عن حرف العطف فى قوله : « مِنَ الْمَقْبُوحِينَ » كما استغنى عنه فى قوله : « سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةً رَأَيْبَهُمْ كُلُّهُمْ ^(١) » . ويجوز أن يكون العامل فى « يوم » مضمرا يدل عليه قوله : « هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ » فيكون كقوله : « يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ ^(٢) » . ويجوز أن يكون العامل فى « يوم » قوله : « هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ » وإن كان الظرف متقدما . ويجوز أن يكون مفعولا على السعة ، كأنه قال : وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ولعنة يوم القيامة .

قوله تعالى : وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا

الْقُرُونِ الْأُولَى بِصَافِرٍ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعنى التوراة ؛ قاله قتادة . قال يحيى ابن سلام : هو أول كتاب — يعنى التوراة — نزلت فيه الفرائض والحدود والأحكام . وقيل : الكتاب هنا ست من المثانى السبع التى أنزلها الله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ؛ قاله ابن عباس ، ورواه مرفوعا . ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ قال أبو سعيد الخدرى قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ما أهلك الله قوما ولا قرنا ولا أمة ولا أهل قرية بمذاب من السماء ولا من الأرض منذ أنزل الله التوراة على موسى غير القرية التى مسخت قردة ألم تر إلى قوله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونِ الْأُولَى » »

أى من بعد قوم نوح وعاد وثمود . وقيل : أى من بعد ما أغرقنا فرعون وقومه وخسفنا بقارون . ﴿ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ ﴾ أى آتيناها الكتاب بصائر . أى لينبصروا ﴿ وَهَدًى ﴾ أى من الضلالة لمن عمل بها ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ لمن آمن بها . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أى ليدذكروا هذه النعمة فيقيموا على إيمانهم في الدنيا ، ويتقوا بشواهم في الآخرة .

قوله تعالى : وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ ﴾ أى ما كنت يا محمد ﴿ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ ﴾ أى بجانب الجبل الغربى قال الشاعر :

أعطاك من أعطى الهدى النبيا * نوراً يزين المنبر الغربيا

﴿ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ ﴾ إذ كلفناه أمرنا ونهينا ، وألزمناه عهدنا . وقيل : أى إذ قضينا إلى موسى أمرك وذكرناك بخير ذكر . وقال ابن عباس : « إِذْ قَضَيْنَا » أى أخبرنا أن أمة محمد خير الأمم . ﴿ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ أى من الحاضرين .

قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا ﴾ أى من بعد موسى ﴿ فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ﴾ حتى نسوا ذكر الله أى عهده وأمره . نظيره : « فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ » . وظاهر هذا يوجب أن يكون جرى لنبينا عليه السلام ذكر في ذلك الوقت ، وأن الله سيبعثه ، ولكن طال المدة ، وغلبت الفسوة ، فنسى القوم ذلك . وقيل : آتينا موسى الكتاب وأخذنا على قومه العهد ، ثم تطاول العهد فكفروا ، فأرسلنا محمداً مجدداً للدين وداعياً الخلق إليه : وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ أى مقياً ك مقام موسى وشعيب بينهم . قال العجاج :

* فبات حيث يدخل الثوى *

أى الضيف المقيم . وقوله : ﴿ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ أى تذكروهم بالوعد والوعيد . ﴿ وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ أى أرسلناك في أهل مكة ، وآتيناك كتاباً فيه هذه الأخبار : ولولا ذلك لما علمتها .

قوله تعالى : وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ
لِتُنْذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ أى كما لم تحضر جانب المكان الغربى إذ أرسل الله موسى إلى فرعون ، فكذا لم تحضر جانب الطور إذ نادينا موسى لما أتى الميقات مع السبعين . وروى عمرو بن دينار يرفعه قال : ” نودى يا أمة محمد أجبتم قبل أن تدعوني وأعطيتكم قبل أن تسألوني “ فذلك قوله : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ . وقال أبو هريرة — وفى رواية عن ابن عباس — إن الله قال : « يا أمة محمد قد أجبتم قبل أن تدعوني وأعطيتكم قبل أن تسألوني وغفرت لكم قبل أن تستغفرونى ورحمتكم قبل أن تسترحمنى » قال وهب : وذلك أن موسى لما ذكر الله له فضل محمد وأمنته قال : يارب أرنيهم . فقال الله : « إنك لن تدركهم وإن شئت ناديتهم فأسمعتك صوتهم » قال : بلى يارب . فقال الله تعالى : « يا أمة محمد فاجابوا من أصلاب آبائهم . فقال : « قد أجبتم قبل أن تدعوني » ومعنى الآية على هذا ما كنت بجانب الطور إذ كلمنا موسى فناديناه أمتك وأخبرناه بما كتبناه لك ولأمتك من الرحمة إلى آخر الدنيا . ﴿ وَلَكِنْ ﴾ فعلنا ذلك ﴿ رَحْمَةً ﴾ منا بكم . قال الأخفش : « رَحْمَةً » نصب على المصدر أى ولكن رحمتك رحمة . وقال الزجاج : هو مفعول من أجله أى فعل ذلك بك لأجل الرحمة . النحاس : أى لم تشهد قصص الأنبياء ، ولا نليت عليك ، ولكنا بعثناك وأوحيناها إليك للرحمة . وقال الكسائى : على خبر كان ، التقدير : ولكن كانت رحمة . قال : ويجوز الرفع بمعنى هى رحمة . الزجاج : الرفع بمعنى ولكن فعل ذلك رحمة . ﴿ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ يعنى العرب ، أى لم تشهد تلك الأخبار ، ولكن أوحيناها إليك رحمة بمن أرسلت إليهم لتنذرهم بها ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ .

قوله تعالى : وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُمْ مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَذِبٍ لَّكِنَّا كَافِرُونَ ﴿٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُمْ﴾ يريد قریشا . وقيل : اليهود . ﴿مُصِيبَةٌ﴾ أى عقوبة ونقمة ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من الكفر والمعاصي . وخص الأيدي بالذكر ، لأن الغالب من الكسب إنما يقع بها . وجواب «لَوْلَا» محذوف أى لولا أن يصيبهم عذاب بسبب معاصيهم المتقدمة ﴿فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا﴾ أى هلا ﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ لما بعثنا الرسل . وقيل : لعاجلناهم بالعقوبة . وبعث الرسل إزاحة لعذر الكفار كما تقدم فى «سبحان» وآخر «طه» . ﴿فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾ نصب على جواب التحضيض . ﴿وَنَكُونَ﴾ عطف عليه . ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من المصدقين . وقد احتج بهذه الآية من قال : إن العقل يوجب الإيمان والشكر ؛ لأنه قال : «بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ» وذلك موجب للعقاب إذ تقرّر الوجوب قبل بعثة الرسل ، وإنما يكون ذلك بالعقل . قال القشيري : والصحيح أن المحذوف لولا كذا لما احتج إلى تجديد الرسل . أى هؤلاء الكفار غير معذورين إذ بلغتهم الشرائع السابقة والدعاء إلى التوحيد ، ولكن تطاول العهد ، فلو عذبناهم فقد يقول قائل منهم طال العهد بالرسل ، ويظن أن ذلك عذر ولا عذر لهم بعد أن بلغهم خبر الرسل ، ولكن أكملنا إزاحة العذر ، وأكملنا البيان فبعثناك يا محمد إليهم . وقد حكم الله بأنه لا يعاقب عبدا إلا بعد إكمال البيان والحجة وبعثة الرسل .

قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم ﴿قَالُوا﴾ يعنى كفار مكة ﴿لَوْلَا﴾ أى هلا ﴿أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾ من العصا واليّد البيضاء ،

وأنزل عليه القرآن جملة واحدة كالطوراة، وكان بلغهم ذلك من أمر موسى قبل مجده؛ فقال الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سَاحِرٌ تَضَاهَرَا ﴾ (١) أى موسى ومحمد تعاونا على السحر . قال الكلبي : بعثت قريش إلى اليهود وسألوهم عن بعث محمد وشأنه فقالوا : إنا نجده في التوراة بنعته وصفته . فلما رجع الجواب إليهم « قَالُوا سَاحِرٌ تَضَاهَرَا » . وقال قوم : إن اليهود علموا المشركين ، وقالوا قولوا لمحمد لولا أوتيت مثل ما أوتى موسى ، فإنه أوتى التوراة دفعة واحدة . فهذا الاحتجاج وارد على اليهود ، أى أو لم يكفر هؤلاء اليهود بما أوتى موسى حين قالوا فى موسى وهرون هما ساحران و﴿ إِنَّا بِكُلِّ كَافِرٍ نَاجِسٍ ﴾ أى وإنا كافرون بكل واحد منهما . وقرأ الكوفيون : « سَحْرَانِ » بغير ألف ؛ أى الإنجيل والقرآن . وقيل : التوراة والفرقان ؛ قاله الفراء . وقيل : التوراة والإنجيل . قاله أبو رزين . الباقيون « سَاحِرَانِ » بألف . وفيه ثلاثة أقاويل : أحدها — موسى ومحمد عليهما السلام . وهذا قول مشركى العرب . وبه قال ابن عباس والحسن . الثانى — موسى وهرون . وهذا قول اليهود لهما فى ابتداء الرسالة . وبه قال سعيد بن جبير ومجاهد وابن زيد . فيكون الكلام احتجاجا عليهم . وهذا يدل على أن المحدثين فى قوله : « لَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ » لما جددنا بعثة الرسل ؛ لأن اليهود اعترفوا بالنبوات ولكنهم حذفوا وغيروا واستحقوا العقاب ، فقال : قد أكلنا إزاحة عذرهم ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم . الثالث — عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم . وهذا قول اليهود اليوم . وبه قال قتادة . وقيل : أو لم يكفر جميع اليهود بما أوتى موسى فى التوراة من ذكر المسيح ، وذكرا الإنجيل والقرآن ، فأروا موسى ومحمد ساحرين والكافرين سحرين . قوله تعالى : قُلْ فَأَتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا يُدْعُونَ إِلَّا أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾

(١) قراءة نافع : « ساحران تظاهرا » وعليها المصنف .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَأَتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَنْتَ هُمْ ﴾ أي قل يا محمد إذ كفرتم معاشرا للمشركين بهذين الكتابين « فَأَتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَنْتَ هُمْ » ليكون ذلك عذرا لكم في الكفر ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في أنهما سحران . أو فاتوا بكتاب هو أهدى من كتابي موسى ومحمد عليهما السلام . وهذا يقوى قراءة الكوفيين « سِحْرَانِ » . « أَنْتَ هُمْ » قال الفراء : بالرفع ؛ لأنه صفة للكتاب وكتاب نكرة . قال : وإذا جرمت — وهو الوجه — فعلى الشرط .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ ﴾ يا محمد أن يأتوا بكتاب من عند الله ﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّهُمْ لَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أي آراء قلوبهم وما يستحسنونه ويحببه لهم الشيطان ، وأنه لا حجة لهم . ﴿ وَمَنْ أَضَلِّ مِنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ يَفْرِقْ هُدًى مِنَ اللَّهِ ﴾ أي لا أحد أضل منه ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَأَقْدَمَ وَصَلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ ﴾ أي أتبعنا بعضه بعضا ، وبعضا رسولا بعد رسول . وقرأ الحسن : « وَصَلْنَا » مخففا . وقال أبو عبيدة والأخفش : معنى « وصلنا » أتممنا كصلتك الشيء . وقال ابن عينة والسدي : بينا . وقوله ابن عباس . وقال مجاهد : فصلنا . وكذلك كان يقرؤها . وقال ابن زيد : وصلنا لهم خبر الدنيا بخبر الآخرة حتى كأنهم في الآخرة في الدنيا . وقال أهل المعاني : وآلينا وتابعنا وأنزلنا القرآن تتبع بعضه بعضا : وعدا ووعيدا وقصصا وعبرا ونصائح ومواعظ إرادة أن يتذكروا فيفاجروا . وأصلها من وصل الحبال بعضها ببعض . قال الشاعر :

فقل لبني مروان ما بال ذمة * وحبل ضعيف ما يزال يوصل^(١)

وقال امرؤ القيس :

دريز تكذروني الوليد أمره * تنقلب كفيه بخيط موصل^(٢)

(١) رواية البحر وروح المعاني : ما بال ذمتي * بحبل ... الخ

(٢) دريز : مستدر في الصدر ؛ يصف سرعة جري فرسه . والكذروني : يدور الصبي في يده ويسمع له صوت ويسمى الحرارة . وأمره أحكم فله .

والضمير في « لهم » لقريش ؛ عن مجاهد . وقيل : هو لليهود . وقيل : هو لهم جميعا . والآية رد على من قال هلا أوتي مجد القرآن جملة واحدة . (لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) قال ابن عباس : يتذكرون مجدا فيؤمنوا به . وقيل : يتذكرون فيخافوا أن ينزل بهم ما نزل بمن قبلهم ؛ قاله علي بن عيسى . وقيل : لعلهم يتعظون بالقرآن عن عبادة الأصنام . حكاية النقاش .

قوله تعالى : الَّذِينَ آمَنُوا بِمَا نَزَّلْنَا بِهِ مِنَ الْقُرْآنِ فَهُمْ عَلَىٰ قَبِيلِهِ ۚ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَنَّا بِهِ ۚ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا ۚ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾

قوله تعالى : (الَّذِينَ آمَنُوا بِمَا نَزَّلْنَا بِهِ مِنَ الْقُرْآنِ فَهُمْ عَلَىٰ قَبِيلِهِ ۚ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ) أخبر أن قوما من أتوا الكتاب من بني إسرائيل من قبل القرآن يؤمنون بالقرآن ؛ كعبد الله بن سلام وسلمان . ويدخل فيه من أسلم من علماء النصارى ، وهم أربعون رجلا ، قدموا مع جعفر بن أبي طالب المدينة ، آثنان وثلاثون رجلا من الحبشة ، وثمانية نفر أقبلوا من الشام وكانوا أئمة النصارى : منهم بحيراء الراهب وأبرهة والأشرف وعامر وأيمن وإدريس ونافع . كذا سماهم الماوردي . وأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية والتي بعدها « أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا » قاله قتادة . وعنه أيضا : أنها نزلت في عبد الله بن سلام وتميم الداري والجارود العبدي وسلمان الفارسي ، أسلموا فنزلت فيهم هذه الآية . وعن رفاعة القرظي ^(١) : نزلت في عشرة أنا أحدهم . وقال عروة بن الزبير : نزلت في النجاشي وأصحابه ووجه باثنى عشر رجلا بفلسوا مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان أبو جهل وأصحابه قريبا منهم ، فأمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فلما قاموا من عنده تبعهم أبو جهل ومن معه ، فقال لهم : خيبكم الله من ركب ، وقبحكم من وفد ، لم تلبثوا أن صدقتموه ، وما رأينا رجلا أحق منكم ولا أجهل ؛ فقالوا : « سَلَامٌ عَلَيْكُمْ » لم نال أنفسنا رشدا « لَنَّا أَعْمَلْنَا وَلَكُم أَعْمَالُكُمْ » وقد تقدم هذا في « المسألة » ^(٢)

(١) في طريقه : رفاعة بن قرظة . وهو الأشبه . (٢) راجع ج ٦ ص ٢٥٥ فابعد .

عند قوله : « وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ » مستوفى . وقال أبو العالية : هؤلاء قوم آمنوا بحمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث وقد أدركه بعضهم . (مِنْ قَبْلِهِ) أى من قبل القرآن . وقيل : من قبل محمد عليه السلام (هُمْ بِهِ) أى بالقرآن أو بحمد عليه السلام (يُؤْمِنُونَ) . (وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبَّنَا) أى إذا قرئ عليهم القرآن قالوا صدقنا بما فيه (إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ) أى من قبل نزوله ، أو من قبل بعثة محمد عليه السلام (مُسْلِمِينَ) أى موحدين ، أو مؤمنين بأنه سيبعث محمد وينزل عليه القرآن .

قوله تعالى : أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرُهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَذَرُهُنَّ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ وَمِمَّا رَزَقْنَهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلِّمْ عَلَيْكُمْ لَا تَبْتَغِ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٥﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرُهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا) ثبت في صحيح مسلم عن أبي موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وأدرك النبي — صلى الله عليه وسلم — فأمن به وآتبعه وصدقه فله أجران وعبد مملوك أدى حق الله عز وجل وحق سيده فله أجران ورجل كانت له أمة فغذاها فأحسن غذاها ثم أذهبها فأحسن أذهبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران “ قال الشعبي للخراساني : خذ هذا الحديث بغير شيء ، فقد كان الرجل يرحل فيما دون هذا إلى المدينة ونخرجه البخاري أيضا . قال علماؤنا : لما كان كل واحد من هؤلاء مخاطبا بأمرين من جهتين استحق كل واحد منهم أجرين ؛ فالكتابي كان مخاطبا من جهة نبيه ، ثم أنه خوطب من جهة نبينا فأجابه وآتبعه فله أجر الملتين ، وكذلك العبد هو مأمور من جهة الله تعالى ومن جهة سيده ، ورب الأمة لما قام بما خوطب به من تربيته أمته وأذهبها فقد أحياء إحياء التربية ، ثم إنه لما أعتقها وتزوجها أحياء الحرية التي ألحقها فيه بمنصبه ، فقد قام

بما أمر فيها ، فأجر كل واحد منهما أجرين . ثم إن كل واحد من الأجرين مضاعف في نفسه ، الحسنة بعشر أمثالها فتضاعف الأجور . ولذلك قيل : إن العبد الذي يقوم بحق سيده وحق الله تعالى أفضل من الخبز ، وهو الذي ارتضاه أبو عمر بن عبد البر وغيره . وفي الصحيح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” للعبد المملوك المصلح أجران “ والذي نفس أبي هريرة بيده لولا الجهاد في سبيل الله والنجو برأى لأحببت أن أموت وأنا مملوك . قال سعيد بن المسيب : وبلغنا أن أبا هريرة لم يكن يحج حتى مات أمه لصحبتهما . وفي الصحيح أيضا عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” نعمًا للمملوك أن يتوفى يحسن عبادة الله وصحابة سيده نعمًا له “ .

الثانية - قوله تعالى : ﴿ يَمَّا صَبَرُوا ﴾ عام في صبرهم على ملتهم ، ثم على هذه وعلى الأذى الذي يلقونه من الكفار وغير ذلك .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿ وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾ أى يدفعون . درأت إذا دفعت ، والدرء الدفع . وفي الحديث ” أدرءوا الحدود بالشبهات “ . قيل : يدفعون بالاحتمال والكلام الحسن الأذى . وقيل : يدفعون بالتوبة والاستغفار الذنوب ؛ وعلى الأقل فهو وصف لمكارم الأخلاق ؛ أى من قال لهم سوءا لا ينوه وقابلوه من القول الحسن بما يدفعه . فهذه آية مهادنة ، وهى من صدر الإسلام ، وهى مما نسختها آية السيف وبقى حكمها فيما دون الكفر يتعاطاه أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة . ومنه قوله عليه السلام لمعاذ ” وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن “ ومن الخلق الحسن دفع المكروه والأذى ، والصبر على الجفا بالإعراض عنه وابن الحديث .

الرابعة - قوله تعالى : ﴿ يَمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ أى عليهم بأنهم ينفقون من أموالهم في الطاعات وفي رسم الشرع ، وفي ذلك حض على الصدقات . وقد يكون الإنفاق من الأبدان بالصوم والصلاة ؛ ثم مدحهم أيضا على إعراضهم عن اللغو ؛ كما قال تعالى : « إِذَا مَرُّوا بِالْمَغْرُورِ كَرَامًا » (٢) أى إذا سمعوا ما قال لهم المشركون من الأذى والشتم أعرضوا

(١) في جوش « أدرءوا الحدود بالشبهات ما استطعتم » والله أعلم . (٢) راجع ص ٧٩ من هذا الجزء .

عنه ؛ أى لم يشتغلوا به ﴿ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أى مشاركة ؛ مثل قوله : « وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا »^(١) أى لنا ديننا ولكم دينكم . « سَلَامٌ عَلَيْكُمْ »^(٢) أى آمنا لكم منا فإننا لا نحاربكم ، ولا نسابكم ، وليس من التحية فى شيء . قال الزجاج : وهذا قبل الأمر بالقتال . ﴿ لَا تَبْتَغِ الْجَاهِلِينَ ﴾ أى لا نطلبهم للجدال والمراجعة والمشاقة . قوله تعالى : إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ^ج وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ قال الزجاج : أجمع المسلمون على أنها نزلت فى أبى طالب .

قلت : والصواب أن يقال أجمع جل المفسرين على أنها نزلت فى شأن أبى طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم ، وهونص [حديث] البخارى ومسلم ، وقد تقدم [الكلام فى] ذلك فى « براءة »^(٣) . وقال أبو روق قوله : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ إشارة إلى العباس . وقاله قتادة . ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ قال مجاهد : لمن قدر له أن يهتدى . وقيل : معنى « مَنْ أَحْبَبْتَ » أى من أحببت أن يهتدى . وقال جبير بن مطعم : لم يسمع أحد الوحي يلقى على النبي صلى الله عليه وسلم إلا أبا بكر الصديق فإنه سمع جبريل وهو يقول : يا محمد أفرا : « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » .

قوله تعالى : وَقَالُوا إِنْ تَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نَتَّخِظُ مِنْ أَرْضِنَا^ج أَوْلَ نُمْكَنَ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ فَمَرَّتْ كُلُّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَرَّ أَهْلُكُمَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرْتُ مَعِيشَتَهَا^ط فَتِلْكَ مَسْكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾

(١) راجع ص ٦٧ من هذا الجزء . (٢) فى ش : لا نحاوركم . وفى ج : لا نحاوركم . (٣) فى ج وش : (٤) من ش . (٥) راجع ج ٨ ص ٢٧٠ فابعد .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا إِنَّا نَتَّبِعُ الْهُدَى مَعَكَ نَتَخَفُ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ هذا قول مشركي مكة . قال ابن عباس : قائل ذلك من قريش الحرث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف القرشي قال للنبي صلى الله عليه وسلم : إنا لنعلم أن قولك حق ، ولكن يمنعنا أن نتبع الهدى معك ، ونؤمن بك ، مخافة أن يتخطفنا العرب من أرضنا — يعنى مكة — لاجتماعهم على خلافنا ، ولا طاقة لنا بهم . وكان هذا من تعللاتهم ، فأجاب الله تعالى عما أعتل به فقال : ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا ﴾ أى ذا أمن . وذلك أن العرب كانت فى الجاهلية يغير بعضهم على بعض ، ويقتل بعضهم بعضا ، وأهل مكة آمنون حيث كانوا بجمرة الحرم ، فأخبر أنه قد آمنهم بجمرة البيت ، ومنع عنهم عدوهم ، فلا يخافون أن تستحل العرب حرمة فى قتالهم . والتخطف الانتزاع بسرعة ، وقد تقدم . قال يحيى بن سلام يقول : كنتم آمنين فى حرى ، تأكلون رزق ، وتعبدون غيرى ، أفتخافون إذا عبدتمونى وآمنتم بى . ﴿ يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أى يجمع إليه ثمرات كل أرض و بلد ، عن ابن عباس وغيره . يقال : جى الماء فى الحوض أى جمعه . والجاهلية الحوض العظيم . وقرأ نافع : « تُجْبَى » بالتاء ، لأجل الثمرات . الباقيون بالياء ، لقوله : « كُلُّ شَيْءٍ » وأختره أبو عبيد . قال : لأنه حال بين الأسم المئوثة وبين فعله حائل ، وأيضا فإن الثمرات جمع ، وليس بتأنيث حقيقى . ﴿ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا ﴾ أى من عندنا . ﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى لا يعقلون ، أى هم غافلون عن الاستدلال ، وأن من رزقهم وأمّنهم فيما مضى حال كفرهم يرزقهم لو أسلموا ، ويمنع الكفار عنهم فى إسلامهم . و « رِزْقًا » نصب على المفعول من أجله . ويجوز نصبه على المصدر بالمعنى ؛ لأن معنى : « تُجْبَى » ترزق . وقرئ : « يُجْنَى » بالنون من الجنا ، وتعديته إلى كقولك يحنى إلى فيه ويحنى إلى الخافة^(١) .

قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ بين لمن توهم أنه لو آمن لقائلته العرب أن الخوف فى ترك الإيمان أكثر ، فكم من قوم كفروا ثم حل بهم البوار ، والبطر

(١) الخافة العيبة ومنه الحديث " المؤمن كمثل خافة الزرع " .

الطغيان بالنعمة ؛ قاله الزجاج « مَعِيشَتَهَا » أى فى معيشتها فلما حذف (فى) تعدى الفعل ؛
 قاله المازنى ^(١) . الزجاج كقوله : « وَأَخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا ^(٢) » . الفراء : هو منصوب
 على التفسير . قال كما تقول : أبطرت مالك وبطرتة . ونظيره عنده : « إِلَّا مِنْ سَفِهَ نَفْسِهِ ^(٣) »
 وكذا عنده . « فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا ^(٤) » ونصب المعارف على التفسير محال عند
 البصريين ؛ لأن معنى التفسير والتمييز أن يكون واحدا نكرة يدل على الجنس . وقيل :
 أنتصب بـ « بَطَرْتُ » ومعنى : « بَطَرْتُ » جهلت ؛ فالمعنى : جهات شكر معيشتها . « فَتِلْكَ
 مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا » أى لم تسكن بعد إهلاك أهلها إلا قليلا من المساكن
 وأكثرها خراب . والاستثناء يرجع إلى المساكن أى بعضها يسكن ؛ قاله الزجاج . وأعرض
 عليه ؛ ف قيل : لو كان الاستثناء يرجع إلى المساكن لقال إلا قليل ؛ لأنك تقول : القوم
 لم تضرب إلا قليل ؛ ترفع إذا كان المضروب قليلا ، وإذا نصبت كان القليل صفة للضرب ؛
 أى لم تضرب إلا ضربا قليلا ، فالمعنى إذا : فتلك مساكنهم لم يسكنها إلا المسافرون
 ومن مر بالطريق يوما أو بعض يوم ، أى لم تسكن من بعدهم إلا سكونا قليلا . وكذا قال
 ابن عباس : لم يسكنها إلا المسافر أو ماز الطريق يوما أو ساعة . « وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ »
 أى لما خلفوا بعد هلاكهم .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبِيعَ فِي أُمَمًا
 رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٤٩﴾
 وَمَا أَوْثَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى
 أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥٠﴾ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ
 مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥١﴾

قوله تعالى : « وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى » أى القرى الكافر [أهلها] . « حَتَّى يَبِيعَ
 فِي أُمَمًا » قرى بضم الهمزة وكسرهما لإتباع الجر يعنى مكة و « رَسُولًا » يعنى محمدا صلى الله

(١) فى ش : قاله الزجاج والمازنى . (٢) راجع ج ٧ ص ٢٩٢ فما بعد .

(٣) راجع ج ٢ ص ١٣٢ . (٤) راجع ج ٥ ص ٢٣ . (٥) من ش .

عليه وسلم . وقيل : « في أمها » يعنى في أعظمها « رسولاً » ينذرهم . وقال الحسن : في أوائلها .

قلت : ومكة أعظم القرى لحرمتها وأوطأ ، لقوله تعالى : « إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ »^(١) وخصت بالأعظم لبعثة الرسول فيها ؛ لأن الرسل تبعث إلى الأشراف وهم يسكنون المدائن وهي أم ما حولها . وقد مضى هذا المعنى في آخر سورة « يوسف »^(٢) . « يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا »^(٣) « يَتْلُوا » في موضع الصفة أى تاليا أى يخبرهم أن العذاب ينزل بهم إن لم يؤمنوا . « وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى » وسقطت النون للإضافة مثل « ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ »^(٤) . « إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ » أى لم أهلكهم إلا وقد استحقوا الإهلاك لإصرارهم على الكفر بعد الإعذار إليهم . وفى هذا بيان لعدله وتقديسه عن الظلم . أخبر تعالى أنه لا يهلكهم إلا إذا استحقوا الإهلاك بظلمهم ، ولا يهلكهم مع كونهم ظالمين إلا بعد تأكيد الحجّة والإلزام ببعثة الرسل ، ولا يجعل علمه بأحوالهم حجة عليهم . ونزه ذاته أن يهلكهم وهم غير ظالمين ، كما قال عز من قائل : « وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصَادِقُونَ » فنصّ في قوله « بِظُلْمٍ » على أنه لو أهلكهم وهم مصادقون لكان ذلك ظلماً لهم منه ، وأن حاله فى غناه وحكمته منافية للظلم ، دلّ على ذلك بحرف النفي مع لامة كما قال تعالى : « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ »^(٥) .

قوله تعالى : « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ » يا أهل مكة « فَمَتَّاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا » أى لتتمتعون بها مدة حياتكم ، أو مدة فى حياتكم ، فإما أن تزولوا عنها أو تزول عنكم . « وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى » أى أفضل وأدوم ، يريد الدار الآخرة وهى الجنة . « أَفَلَا تَعْقِلُونَ » أن الباقى أفضل من الفانى . قرأ أبو عمرو : « يَعْقِلُونَ » بالياء . الباقون بالناء على الخطاب وهو الاختيار لقوله تعالى : « وَمَا أُوتِيتُمْ » . قوله تعالى : « أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَا قِيَّةَ بِهِ » يعنى الجنة وما فيها من الثواب « كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » فأعطى منها بعض ما أراد . « ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ » أى فى النار . ونظيره قوله : « وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنْتُ

(١) راجع ج ٤ ص ١٣٧ فابعد .

(٢) راجع ج ٩ ص ٢٧٤ ، ١٤٤٦ .

(٣) راجع ج ٥ ص ٣٤٥ .

(٤) راجع ج ٢ ص ١٥٣ فابعد .

مِنَ الْمُحْضِرِينَ^(١) » قال ابن عباس : نزلت في حمزة بن عبد المطلب ، وفي أبي جهل بن هشام . وقال مجاهد : نزلت في النبي صلى الله عليه وسلم وأبي جهل . وقال محمد بن كعب . نزلت في حمزة وعلى ، وفي أبي جهل وعمارة بن الوليد . وقيل : في عمار والوليد بن المغيرة ؛ قاله السدي . قال الفشيري : والصحيح أنها نزلت في المؤمن والكافر على التعميم . الثعلبي : وبالجملة فإنها نزلت في كل كافر متع في الدنيا بالعافية والغنى وله في الآخرة النار ، وفي كل مؤمن صبر على بلاء الدنيا ثقة بوعده الله وله في الآخرة الجنة .

قوله تعالى : وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ) أى ينادى الله يوم القيامة هؤلاء المشركين (فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ) بزعمكم أنهم ينصرونكم ويشفعون لكم . (قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ) أى حقت عليهم كلمة العذاب وهم الرؤساء ؛ قاله الكلبي . وقال قتادة : هم الشياطين . (هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا) أى دعوناهم إلى الغي . فقيل لهم : أغويتموهم ؟ قالوا : (أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا) . يعنون أضلناهم كما ضلناهم . (تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ) أى تبرأ بعضنا من بعض ، والشياطين يتبرءون ممن أطاعهم ، والرؤساء يتبرءون ممن قبل منهم ؛ كما قال تعالى : « الْإِخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ »^(٢) .

قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ ﴾ أى للكفار ﴿ اذْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ﴾ أى استغيثوا بأهلتمكم التى عبدتموها فى الدنيا لتنصركم وتدفع عنكم . ﴿ فَدَعَوْهُمْ ﴾ أى استغاثوا بهم . ﴿ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ﴾ أى فلم يجيبوهم ولم ينتفعوا بهم . ﴿ وَرَأَوْا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴾ قال الزجاج : جواب « لو » محذوف ؛ والمعنى : لو أنهم كانوا يهتدون لأنجاهم الهدى ، ولما صاروا إلى العذاب . وقيل : أى لو أنهم كانوا يهتدون ما دعوهم . وقيل المعنى : ودوا حين رأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون فى الدنيا إذا رأوا العذاب يوم القيامة . ﴿ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أى يقول الله لهم ما كان جوابكم لمن أرسل إليكم من النبيين لما بلغوكم رسالاتى . ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ ﴾ أى خفيت عليهم الحجج ؛ قاله مجاهد ؛ لأن الله قد أعذر إليهم فى الدنيا فلا يكون لهم عذر ولا حجة يوم القيامة . و « الْأَنْبَاءُ » الأخبار ؛ سُمِّيَ حججهم أنباء لأنها أخبار يخبرونها . ﴿ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ أى لا يسأل بعضهم بعضاً عن الحجج ؛ لأن الله تعالى أدهض حججهم ؛ قاله الضحاك . وقال ابن عباس : « لَا يَتَسَاءَلُونَ » أى لا ينطقون بحجة . وقيل : « لَا يَتَسَاءَلُونَ » فى تلك الساعة ، ولا يدرون ما يجيبون به من هول تلك الساعة ، ثم يجيبون بعد ذلك كما أخبر عن قولهم : « وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ ^(١) . وقال مجاهد : لا يتساءلون بالأنساب . وقيل : لا يسأل بعضهم بعضاً أن يحمل من ذنوبه شيئاً ؛ حكاه ابن عيسى . قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ تَابَ ﴾ أى من الشريك ﴿ وَآمَنَ ﴾ أى صدق ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ أدى الفرائض وأكثر من النوافل ﴿ فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴾ أى من الفائزين بالسعادة . وعسى من الله واجبة .

قوله تعالى : وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ هذا متصل بذكر الشركاء الذين عبدوهم وأختاروهم للشفاعة ؛ أى الاختيار إلى الله تعالى فى الشفعاء لا إلى المشركين . وقيل : هو جواب الوليد بن المغيرة حين قال : « لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرِيَيْنِ عَظِيمٍ »^(١) يعنى نفسه زعم ، وعروة بن مسعود الثقفى من الطائف . وقيل : هو جواب اليهود إذ قالوا لو كان الرسول إلى محمد غير جبريل لآمنّا به . قال ابن عباس : والمعنى ؛ وربك يخلق ما يشاء من خلقه ويختار منهم من يشاء لطاعته . وقال يحيى بن سلام : والمعنى ؛ وربك يخلق ما يشاء من خلقه ويختار من يشاء لنبوته . وحكى النقاش : أن المعنى وربك يخلق ما يشاء من خلقه يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم ، ويختار الأنصار لدينه .

قالت : وفى كتاب البزار مرفوعا صحيحا عن جابر^{رض} إن الله تعالى اختار أصحابى على العالمين سوى النبيين والمرسلين واختار لى من أصحابى أربعة — يعنى أبا بكر وعمر وعثمان وعليه — فجعلهم أصحابى وفى أصحابى كلهم خير وأختار أمتى على سائر الأمم وأختار لى من أمتى أربعة قرون^٢ . وذكر سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن وهب بن منبه عن أبيه فى قوله عز وجل : « وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ » قال : من النعم الضأن ، ومن الطير الحمام . والوقف التام « وَيَخْتَارُ » . وقال على بن سليمان : هذا وقف التمام ولا يجوز أن تكون « ما » فى موضع نصب بـ « وَيَخْتَارُ » لأنها لو كانت فى موضع نصب لم يعد عليها شيء . قال وفى هذا رد على القدريّة . قال النحاس : التمام « وَيَخْتَارُ » أى ويختار الرسل . ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ أى ليس يرسل من أختاروه هم . قال أبو إسحق : « وَيَخْتَارُ » هذا الوقف التمام المختار ، ويجوز أن تكون « ما » فى موضع نصب بـ « يَخْتَارُ » ويكون المعنى ويختار الذى كان لهم فيه الخيرة . قال القشيري : الصحيح الأول لإطباقيهم [على] الوقف على قوله « وَيَخْتَارُ » . قال المهدي : وهو أشبه بمذهب أهل السنة و« ما » من قوله : « مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ » نفى عام لجميع الأشياء أن يكون للعبد فيها شيء سوى اكتسابه بقدرة الله عز وجل . الزمخشري : « مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ » بيان لقوله : « وَيَخْتَارُ » ؛ لأن معناه يختار ما يشاء ؛ ولهذا لم يدخل العاطف ، والمعنى ؛ إن الخيرة لله تعالى فى أفعاله وهو أعلم بوجوه الحكمة فيها أى ليس لأحد

(١) راجع ج ١٦ ص ٨٢ فما بعد .

من خلقه أن يختار عليه . وأجاز الزجاج وغيره أن تكون « ما » منصوبة بـ « يَخْتَارُ » . وأنكر الطبري أن تكون « ما » نافية ؛ لئلا يكون المعنى لأنهم لم تكن لهم الخيرة فيما مضى وهي لهم فيما يستقبل ، ولأنه لم يتقدم كلام بنفى . قال المهدوي : ولا يلزم ذلك ؛ لأن « ما » تنفى الحال والاستقبال كليهما ولذلك عملت عملها ؛ ولأن الآي كانت تنزل على النبي صلى الله عليه وسلم على ما يسأل عنه ، وعلى ما هم مصررون عليه من الأعمال وإن لم يكن ذلك في النص . وتقدير الآية عند الطبري : ويختار لولايته الخيرة من خلقه ؛ لأن المشركين كانوا يختارون خيار أموالهم فيجعلونها لأهلهم ، فقال الله تبارك وتعالى : « وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ » للهداية من خلقه من سبقت له السعادة في علمه ، كما اختار المشركون خيار أموالهم لأهلهم ، فـ « ما » على هذا لمن يعقل وهي بمعنى الذي و « الخيرة » رفع بالابتداء و « لهم » الخبر والجملة خبر « كان » . وشبهه بقولك : كان زيد أبوه منطلق وفيه ضعف ؛ إذ ليس في الكلام عائد يعود على أسم كان إلا أن يقدر فيه حذف فيجوز على بعد . وقد روى معنى ما قاله الطبري عن ابن عباس . قال الثعلبي : و « ما » نفى أى ليس لهم الاختيار على الله . وهذا أصوب كقوله تعالى : « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ » ^(١) . قال محمود الوزاق :

توكل على الرحمن في كل حاجة * أردت فإن الله يقضى ويقدر

إذا ما يرد ذو العرش أمرا بعبده * يصبه وما للعبد ما يتخير ^(٢)

وقد يهلك الإنسان من وجه حذره * وينجو بحمد الله من حيث يحذر ^(٣)

وقال آخر :

العبد ذو صبحر والرب ذو قدر * والدهر ذو دول والرزق مقسوم

والخير أجمع فيما اختار خالقنا * وفي اختيار سواء اللوم والشوم

قال بعض العلماء : لا ينبغي لأحد أن يقدم على أمر من أمور الدنيا حتى يسأل الله الخيرة في ذلك ؛ بأن يصلي ركعتين صلاة الاستخارة ، يقرأ في الركعة الأولى بعد الفاتحة : « قُلْ يَٰ أَيُّهَا

(١) راجع ج ١٤ ص ١٨٦ فـ بعد . (٢) في جـ وط : وما للعبد لا يتخير . والنصيب من ش .

(٣) في ش : من وجه أمته . لعل صواب الشطر : وينجو بحمد الله من ليس يحذر . وهذا ما يفيد معنى التوكل .

الْكَافِرُونَ» وفي الركعة الثانية «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ». واختار بعض المشايخ أن يقرأ في الركعة الأولى: «وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ» الآية، وفي الركعة الثانية: «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ» وكل حسن. ثم يدعوا بهذا الدعاء بعد السلام، وهو ما رواه البخاري في صحيحه عن جابر بن عبد الله قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها، كما يعلمنا السورة من القرآن؛ يقول: «إِذَا هُمْ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ ثُمَّ لِيَقُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ وَأَنْتَ عَلَامُ الْغُيُوبِ اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي — أَوْ قَالَ فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ — فَأَقْضِهِ لِي وَيَسِّرْهُ لِي ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ اللَّهُمَّ وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي — أَوْ قَالَ فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ — فَأَصْرِفْهُ عَنِّي وَأَصْرِفْنِي عَنْهُ وَأَقْضِرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ ثُمَّ رَضْنِي بِهِ» قال: ويسمى حاجته. وروى عائشة عن أبي بكر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد أمرا قال: «اللَّهُمَّ خُذْ لِي وَأَخْذِي لِي». وروى أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «يَا أُنْسُ إِذَا هَمَمْتَ بِأَمْرٍ فَاسْتَخِرْ رَبَّكَ فِيهِ سَبْعَ مَرَّاتٍ ثُمَّ أَنْظِرْ إِلَى مَا يَسْبِقُ قَلْبَكَ فَإِنَّ الْخَيْرَ فِيهِ». قال العلماء: وينبغي له أن يفرغ قلبه من جميع الخواطر حتى لا يكون ماثلا إلى أمر من الأمور، فعند ذلك ما يسبق إلى قلبه يعمل عليه، فإن الخير فيه إن شاء الله. وإن عزم على سفر فيتوخي بسفره يوم الخميس أو يوم الاثنين آقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم نزه نفسه سبحانه بقوله الحق؛ فقال: «سُبْحَانَ اللَّهِ» أي تزيها. «وَتَعَالَى» أي تقدس وتمجد «عَمَّا يُشْرِكُونَ». وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ» يظهرون. وقرأ ابن محيصن وحيد: «تَكُنْ» بفتح التاء وضم الكاف. وقد تقدم هذا في «النمل». تمدح سبحانه بأنه عالم الغيب والشهادة لا يخفى عليه شيء «وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» تقدم معناه، وأنه المنفرد بالوحدانية، وأن جميع المحامد إنما تجب له، وأن لا حكم إلا له وإليه المصير.

قوله تعالى : قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ۚ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا ﴾ أى دائماً؛ ومنه قول طرفة .

لعمرك ما أمرى على بغمة * نهارى ولا ليلى على بسرمد^(١)

بين سبحانه أنه مهد أسباب المعيشة ليقوموا بشكر نعمه . ﴿ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ ﴾ أى بنور تطلبون فيه المعيشة . وقيل : بنهار تبصرون فيه معاشكم وتصلح فيه الثمار والنبات . ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ سماع فهم وقبول . ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ﴾ أى تستقرون فيه من النصب . ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ ما أتم فيه من الخطأ في عبادة غيره ؛ فإذا أقررتم بأنه لا يقدر على إيتاء الليل والنهار غيره فلم تشركون به . ﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ أى فيهما . وقيل : الضمير للزمان وهو الليل والنهار . ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أى لتطلبوا من رزقه فيه أى في النهار لحذف . ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

قوله تعالى : وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٩﴾ وَتَزَعَّنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٠﴾

(١) الغمة : الأمر الذى لا يهتدى له ؛ والمعنى ؛ لا التحير فى أمرى نهارى وأوتره لئلا يبطول على الليل

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ (١) أماد هذا الضمير لاختلاف الحالين ، ينادون مرة فيقال لهم : « أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ » فيدعون الأصنام فلا يستجيبون ، فتظهر حيرتهم (٢) ، ثم ينادون مرة أخرى فيسكتون . وهو توبيخ وزيادة خزي . والمناداة هنا ليست من الله ؟ لأن الله تعالى لا يكلم الكفار لقوله تعالى : « وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (٣) لكنه تعالى يأمر من يؤنبهم ويبكتهم ، ويقم الحجّة عليهم (٤) في مقام الحساب . وقيل : يحتمل أن يكون من الله ، وقوله : « وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ » حين يقال لهم : « آخَسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ » وقال : « شُرَكَائِيَ » لأنهم جعلوا لهم نصيبا من أموالهم .

قوله تعالى : ﴿ وَزَعَنَّا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾ أى نبيا ، عن مجاهد . وقيل : هم مدول الآخرة يشهدون على العباد بأعمالهم في الدنيا . والأقول أظهر ؛ لقوله تعالى : « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا » (٥) وشهد كل أمة رسولا الذى يشهد عليها . والشهيد الحاضر . أى أحضرنا رسولهم المبعوث إليهم . ﴿ فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ أى حجتكم . ﴿ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ ﴾ أى علموا صدق ما جاءت به الأنبياء . ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أى ذهب عنهم وبطل . ﴿ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أى يختلقونه من الكذب على الله تعالى من أن معه آلهة تعبد .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ قُلُوبَكُمْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ (٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (٧)

(١) فى جرط : فيظهر حيرتهم ، وفى ش : خزيهم . (٢) راجع ج ٢ ص ٢٢٤ .

(٣) فى جرط وش : الحجج . (٤) راجع ج ١٢ ص ١٥٣ . (٥) راجع ج ٥ ص ١٩٧ .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى ﴾ لما قال تعالى : « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا » بين أن قارون أوتيهما وأغتربهما ولم تعصمه من عذاب الله كما لم تعصم فرعون ، ولستم أيها المشركون بأكثر عددا ومالا من قارون وفرعون ، فلم ينفع فرعون جنوده وأمواله ، ولم ينفع قارون قرابته من موسى ولا كنوزه . قال النخعي وقتادة وغيرهما : كان ابن عم موسى لَحْأً ، وهو قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب ، وموسى بن عمران بن قاهث . وقال ابن إسحق : كان عم موسى لأب وأُم . وقيل : كان ابن خالته . ولم ينصرف للمعجزة والتعريف . وما كان على وزن فاعول أعجميا لا يحسن فيه الألف واللام لم ينصرف في المعرفة وأنصرف في النكرة ، فإن حسنت فيه الألف واللام أنصرف إن كان اسمًا لمذكر نحو طاوس وراقود . قال الزجاج : ولو كان قارون من قرنت الشيء لأنصرف . ﴿ فَبَنَى عَلَيْهِمْ ﴾ بغيه أنه زاد في طول ثوبه شبرا ، قاله شهر بن حوشب . وفي الحديث " لا ينظر الله إلى من جرّ إزاره بطرا " وقيل : بغيه كفره بالله عز وجل ، قاله الضحاك . وقيل : بغيه استخفافه بهم بكثرة ماله وولده ، قاله قتادة . وقيل : بغيه نسبته ما أتاه الله من الكنوز إلى نفسه بعلمه وحيلته ، قاله ابن بحر . وقيل : بغيه قوله إذا كانت النبوة لموسى والمذبح والتقربان في هرون فإلى ! فروى أنه لما جاوز بهم موسى البحر وصارت الرسالة لموسى والخبورة لهرون ، يقرب القربان ويكون رأسا فيهم ، وكان القربان لموسى بفعله موسى إلى أخيه ، وجد قارون في نفسه وحسدهما . فقال لموسى : الأمر لكما وليس لي شيء إلى متى أصبر . قال موسى ، هذا صنع الله . قال : والله لا أصدقك حتى تأتي بآية ، فأمر رؤساء بني إسرائيل أن يحيء كل واحد منهم بعصاه ، فخرمها وألقاها في القبة التي كان الوحي ينزل عليه فيها ، وكانوا يحرسون عصيتهم بالليل ، فأصبحوا وإذا بعصا هرون تهزولها ورق أخضر — وكانت من شجر اللوز — فقال قارون : ما هو بأعجب مما تصنع من السحر . ﴿ فَبَنَى عَلَيْهِمْ ﴾ من البنى وهو الظلم . وقال يحيى بن سلام وابن المسيب : كان قارون غنيا عاملا لفرعون على بني إسرائيل فتعدى عليهم وظلمهم وكان منهم . وقول سابع : روى عن ابن عباس قال : لما أمر الله

تعالى برجم الزاني عمد قارون إلى امرأة بنى^١ وأعطاهما مالا، وحملها على أن أدعت على موسى أنه زنى بها وأنه أحبلها؛ فعظم على موسى ذلك وأحلفها بالله الذي فلق البحر لبنى إسرائيل، وأنزل التوراة على موسى إلا صدقت . فتداركها الله فقالت : أشهد أنك برىء، وأن قارون أعطاني مالا، وحملتني على أن قلت ما قلت ، وأنت الصادق وقارون الكاذب . بفعل الله أمر قارون إلى موسى وأمر الأرض أن تطيعه . بجاءه وهو يقول للأرض : يا أرض خذيه ؛ [يا أرض خذيه ^(١)] وهى تأخذه شيئا فشيئا وهو يستغيث يا موسى ! إلى أن ساخ في الأرض هو وداره وجلساؤه الذين كانوا على مذهبه . وروى أن الله تعالى أوحى إلى موسى : استغاث بك عبادى فلم ترحمهم ، أما أنهم لو دعونى لوجدونى قريبا مجيبا . ابن جريج : بلغنا أنه يخسف بهم كل يوم قامة ، فلا يبلغون إلى أسفل الأرض إلى يوم القيامة . وذكر ابن أبي الدنيا فى كتاب الفرج : حدثنى إبراهيم بن راشد قال حدثنى داود بن مهران ، عن الوليد بن مسلم ، عن مروان ابن جناح ، عن يونس بن ميسرة بن حابس قال : لقي قارون يونس فى ظلمات البحر ، فنادى قارون يونس ، فقال : يا يونس تب إلى الله فإنك تجده عند أول قدم ترجع بها إليه . فقال يونس : ما منعك من التوبة . فقال : إن توبتى جعلت إلى ابن عمى فأبى أن يقبل منى . وفى الخبر : إذا وصل قارون إلى قرار الأرض السابعة نفخ إسرافيل فى الصور . والله أعلم . قال السدى : وكان اسم البغى سبرتا ، وبذل لها قارون ألفى درهم . فتادة : وكان قطع البحر مع موسى^(٢) وكان يسمى المنور من حسن صورته فى التوراة ، ولكن عدو الله نافق كما نافق السامرى .

قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ ﴾ قال عطاء : أصاب كثيرا من كنوز يوسف عليه السلام . وقال الوليد بن مروان : إنه كان يعمل الكيمياء . ﴿ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ ﴾ « إن » وأسمها وخبرها فى صلة « ما » و « ما » مفعولة « آتينا » . قال النحاس : وسمعت على بن سليمان يقول ما أقبح ما يقول الكوفيون فى الصلوات ؛ إنه لا يجوز أن تكون صلة الذى وأخواته « إن » وما عملت فيه ، وفى القرآن « مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ » . وهو جمع مفتاح بالكسر وهو ما يفتح

(١) من جروطوش .

(٢) فى جروطوش : مع بنى إسرائيل .

به . ومن قال مفتاح قال مفاتيح . ومن قال هي الخزائن فواحداهما مفتاح بالفتح . (لَتَنْوُءُ بِالْعُصْبَةِ) أحسن ما قيل فيه أن المعنى لتنيء العصبه أى تميلهم بثقلها ، فلما آنفتحت التاء دخلت الباء . كما قالوا هو يذهب بالبؤس ويذهب البؤس . فصار «لَتَنْوُءُ بِالْعُصْبَةِ» بفعل العصبه تنوء أى تنهض متناقلة ؛ كقولك قم بنا أى آجعلنا نقوم . يقال : ناء ينوء نواء إذا نهض بثقل . قال الشاعر^(١) :

تنوء بأخراها فلأيا قيامها * وتمشى الهوينى عن قريب فتبر

وقال آخر :

أخذت فلم أملك ونؤت فلم أقم * كأتى من طول الزمان مقيد

وأنا منى إذا أثقلنى ؛ عن أبى زيد . وقال أبو عبيدة : قوله «لَتَنْوُءُ بِالْعُصْبَةِ» مقلوب ، والمعنى لتنوء بها العصبه أى تنهض بها . أبو زيد : نؤت بالحمل إذا نهضت . قال الشاعر :

إنا وجدنا خلفا لبؤس الخلف * عبدا إذا ما ناء بالحمل وقف

والأول معنى قول ابن عباس وأبى صالح والسدى . وهو قول الفراء وأختره النحاس . كما يقال : ذهبته به وأذهبته وجئت به وأجأته ونؤت به وأنأته ؛ فأما قولهم : له عندى ما ساءه وناءه فهو إتياع كان يجب أن يقال وأناؤه . ومثله هنا فى الطعام ومرأى ، وأخذه ما قدّم وما حدث . وقيل : هو مأخوذ من النأى وهو البعد . ومنه قول الشاعر :

ينأون عنا وما تنأى مودتهم * فالقلب فيهم رهين حيثما كانوا

وقرأ بدبل بن ميسرة : «لَيْنُوءُ» بالياء ؛ أى لينوء الواحد منها أو المذكور فحمل على المعنى . وقال أبو عبيدة : قلت لرؤبة بن العجاج فى قوله :

فيها خطوط من سوادٍ وبلق * كآته فى الحلدِ تولىعُ البهق

إن كنت أردت الخطوط فقل كأنها ، وإن كنت أردت السواد والبلق فقل كأنهما . فقال : أردت كل ذلك . واختلف فى العصبه وهى الجماعة التى يتعصب بعضهم لبعض على أحد عشر قولاً : الأول — ثلاثة رجال ؛ قاله ابن عباس . وعنه أيضا من الثلاثة إلى العشرة .

(١) هو ذر الزمة . يريد تنيئها بحيزتها إلى الأرض لضخامتها وكثرة لحمها فى أردافها .

وقال مجاهد : العصابة هنا ما بين العشرين إلى خمسة عشر . وعنه أيضا : ما بين العشرة إلى الخمسة عشر . وعنه أيضا : من عشرة إلى خمسة . ذكر الأول الثعلبي ، والثاني القشيري والماوردي ، والثالث المهدوي . وقال أبو صالح والحكم بن عتيبة وقتادة والضحاك : أربعون رجلا . السدي ما بين العشرة إلى الأربعين . وقاله قتادة أيضا . وقال عكرمة : منهم من يقول أربعون ، ومنهم من يقول سبعون . وهو قول أبي صالح إن العصابة سبعون رجلا ؛ ذكره الماوردي . والأول ذكره عنه الثعلبي . وقيل : ستون رجلا . وقال سعيد بن جبير : ست أو سبع . وقال عبد الرحمن بن زيد : ما بين الثلاثة والتسعة وهو النفر . وقال الكلبي : عشرة لقول إخوة يوسف « وَنَحْنُ عَصَبَةٌ » وقاله مقاتل . وقال خيشمة : وجدت في الإنجيل أن مفاتيح خزائن قارون وقرستين بغلا غراء محجلة ، وأنها لتنوء بها من ثقلها ، ما يزيد مفتاح منها على إصبع ، لكل مفتاح منها كتر مال ، لو قسم ذلك الكثر على أهل البصرة لكفاهم . قال مجاهد : كانت المفاتيح من جلود الإبل . وقيل : من جلود البقر لتخف عليه ، وكانت تحمل معه إذا ركب على سبعين بغلا فيما ذكره القشيري . وقيل : على أربعين بغلا . وهو قول الضحاك . وعنه أيضا : إن مفاتيحه أوعيته . وكذا قال أبو صالح : إن المراد بالمفاتيح الخزائن ؛ فالله أعلم . (إِنْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ) أى المؤمنون من بنى إسرائيل ؛ قاله السدي . وقال يحيى بن سلام : القوم هنا موسى . وقال الفراء . وهو جمع أريد به واحد كقوله : « الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ » (٢) وإنما هو نعيم بن مسعود على ما تقدم . (لَا تَفْرَحْ) أى لا تأسر ولا تبطر . (إِنْ أَلَّفَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ) أى البطارين ؛ قاله مجاهد والسدي . قال الشاعر :
وَأَسْتُ مِمْفَرَاكِ إِذَا الدَّهْرُ سَرَّ نِي * وَلَا ضَارِعٌ فِي صَرْفِهِ الْمُتَقَلِّبُ (٣)
وقال الزجاج : المعنى لا تفرح بالمال فإن الفرح بالمال لا يؤدى حقه . وقال مېشر
ابن عبد الله : لا تفرح لا تفسد . قال الشاعر : (٤)

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَبْرَحْ تَوْدَى أَمَانَةً * وَتَحْمِلُ أُخْرَى أَفْرَحَتِكَ الْوَدَائِعُ

(٢) راجع ج ٩ ص ٢٧٩ .

(٤) كذا في ج ١٠ ص ١٠٠ .

(١) راجع ج ٩ ص ١٢٩ فابعد .

(٣) ويروي : ولا جازع من صرفه المتحول .

(٥) أنشده أبو عبيدة لبيس العذري .

أى أفسدتك ، وقال أبو عمرو : أفرحه الدين أنقله . وأنشده : إذا أنت ... البيت . وأفرحه سره فهو مشترك . قال الزجاج : والفرحين والفرحين سواء . وفرّق بينهما الفراء فقال : معنى الفرحين الذين هم فى حال فرح ، والفرحين الذين يفرحون فى المستقبل . وزعم أن مثله طمع وطامع وميت ومات . ويدلّ على خلاف ما قال قول الله عز وجل : « إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ » ولم يقل مات . وقال مجاهد أيضا : معنى « لَا تَفْرَحْ » لا تبغ « إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ » أى الباغين . وقال ابن بحر : لا تبخل إن الله لا يحب الباخلين .

قوله تعالى : (وَأَتَّبِعْ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ) أى أطلب فيما أعطاك الله من الدنيا الدار الآخرة وهى الجنة ؛ فإن من حق المؤمن أن يصرف الدنيا فيما ينفعه فى الآخرة لا فى التجر والبغى . قوله تعالى : (وَلَا تَنْسَ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا) اختلف فيه ؛ فقال ابن عباس والجمهور : لا تضيع عمرك فى ألا تعمل عملا صالحا فى دنياك ؛ إذ الآخرة إنما يعمل لها ، فنصيب الإنسان عمره وعمله الصالح فيها . فالكلام على هذا التأويل شدة فى الموعظة . وقال الحسن وقتادة : معناه لا تضيع حظك من دنياك فى تمتع بالحلال وطلبك إياه ، ونظرك لعاقبة دنياك . فالكلام على هذا التأويل فيه بعض الرفق به وإصلاح الأمر الذى يشتهيه . وهذا مما يجب استعماله مع الموعوظ خشية النبوة من الشدة ؛ قاله ابن عطية .

قلت : وهذان التأويلان قد جمعهما ابن عمر فى قوله : أحث لدنياك كأنك تعيش أبدا ، وأعمل لا تحرك كأنك تموت غدا . وعن الحسن : قدم الفضل ، وأمسك ما يبلغ . وقال مالك : هو الأكل والشرب بلا سرف . وقيل : أراد بنصيبه الكفن . فهذا وعظ متصل ؛ كأنهم قالوا : لا تنس أنك ترك جميع مالك إلا نصيبك هذا الذى هو الكفن . ونحو هذا قول الشاعر :

نَصِيْبُكَ مِمَّا تَجْمَعُ الدَّهْرَ كُلَّهُ * رِءَاءَ أَنْ تُلَوِّىَ فِيهِمَا وَحَنُوطُ

وقال آخر : وهى القناعة لا تبغى بها بدلا * فيها النعيم وفيها راحة البدن

أنظر لمن ملك الدنيا بأجمعها * هل راح منها بغير القطن والكفن

قال ابن العربى : وأبدع ما فيه عندى قول قتادة : ولا تنس نصيبك الحلال ، فهو نصيبك من الدنيا ويا ما أحسن هذا . (وَأَحْسِنُ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ) أى أطع الله وأعبده كما أنعم عليك .

ومنه الحديث : ما الإحسان ؟ قال : " أن تعبد الله كأنك تراه " وقيل : هو أمر بصلة المساكين . قال ابن العربي : فيه أقوال كثيرة جماعها استعمال نعم الله في طاعة الله . وقال مالك : الأكل والشرب من غير سرف . قال ابن العربي : أرى مالكا أراد الرد على الغالين في العبادة والتقشف ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب الحلواء ، ويشرب العسل ، ويستعمل الشواء ، ويشرب الماء البارد . وقد مضى هذا المعنى في غير موضع . (وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ) أى لا تعمل بالمعاصي (إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ) .

قوله تعالى : قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي^ج أَوْ لَمْ يَعْلَمِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى : (قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي) يعنى علم التوراة . وكان فيما روى من أقرأ الناس لها ، ومن أعلمهم بها . وكان أحد العلماء السبعين الذين اختارهم موسى للبيقات . وقال ابن زيد : أى إنما أوتيته لعلمه بفضلى ورضاه عنى . فقوله : « عِنْدِي » معناه إن عندى أن الله تعالى آتانى هذه الكنوز على علم منه باستحقاق إياها لفضل فى . وقيل : أوتيته على علم من عندى بوجوه التجارة والمكاسب ؛ قاله على بن عيسى . ولم يعلم أن الله لو لم يسهل له آكتسابها لما آجتمعت عنده . وقال ابن عباس : على علم عندى بصناعة الذهب . وأشار إلى علم الكيمياء . وحكى النقاش : أن موسى عليه السلام علمه الثلث من صناعة الكيمياء ، ويوشع الثلث ، وهرون الثلث ، فخذعهما قارون — وكان على إيمانه — حتى علم ما عندهما وعمل الكيمياء ، فكثرت أمواله . وقيل : إن موسى علم الكيمياء ثلاثة ؛ يوشع بن نون ، [وكالب^(١) بن يوفنا] ، وقارون ، واختار الزجاج القول الأول ، وأنكر قول من قال إنه يعمل الكيمياء . قال : لأن الكيمياء باطل لا حقيقة له . وقيل : إن موسى علم أخته علم الكيمياء ، وكانت زوجة قارون ، وعلمت أخت موسى قارون ؛ والله أعلم .

(١) فى الأصول « طالوت » وهو نحر يف . والنصوب من كتب التفسير .

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ أى بالعذاب . ﴿ مِنْ الْقُرُونِ ﴾ أى الأمم الخالية الكافرة . ﴿ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾ أى للآل ، ولو كان المال يدل على فضل لما أهلكهم . وقيل : القوة الآلات ، والجمع الأعوان والأنصار ، والكلام نخرج مخرج التفریع من الله تعالى لقارون ؛ أى « أَوَلَمْ يَعْلَم » قارون « أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ الْقُرُونِ » . ﴿ وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ أى لا يسألون سؤال استعتاب كما قال : « وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ » ﴿ قَسَامٌ مِنْ الْمُعْتَبِينَ ﴾ وإنما يسألون سؤال تفریع وتوبيخ لقوله : « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ » قاله الحسن . وقال مجاهد : لا تسأل الملائكة غدا عن المجرمين ؛ فإنهم يعرفون بسيماهم ، فإنهم يحشرون سود الوجوه زرق العيون . وقال قتادة : لا يسأل المجرمون عن ذنوبهم لظهورها وكثرتها ، بل يدخلون النار بلا حساب . وقيل : لا يسأل مجرمو هذه الأمة عن ذنوب الأمم الخالية الذين عذبوا في الدنيا . وقيل : أهلك من أهلك من القرون عن علم منه بذنوبهم فلم يحتج إلى مسئلتهم عن ذنوبهم .

قوله تعالى : فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُرُونُ إِنَّهُمْ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَدَّكُم ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الْصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾

قوله تعالى : ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ﴾ أى على بنى إسرائيل فيما رآه زينة من متاع الحياة الدنيا ؛ من الثياب والدواب والتجمل في يوم عيد . قال الغزنوى : في يوم السبت . « فِي زِينَتِهِ » أى مع زينته . قال الشاعر :

إذا ما قلوب القوم طارت مخافة * من الموت أرسوا بالنفوس المواجه

أى مع النفوس . كان خرج في سبعين ألفا من تبعه ، عليهم المعصفرات ، وكان أول من صُيغ له الثياب المعصفرة . قال السدى : مع ألف جوار بيض على بغال بيض بسروج من

(١) راجع ج ١٦ ص ١٧٧ . (٢) راجع ج ١٥ ص ٣٥١ فابعد . (٣) راجع ج ١٠ ص ٤٩ .

(٤) في أ : أرموا بالنفوس . وفي ج : أرسوا بالنفوس النواجد . ولم نتر عليه .

ذهب على قُطْف الأُرْجُوان . قال ابن عباس : خرج على البغال الشهب . مجاهد : على براذين بيض عليها سروج الأُرْجُوان ، وعليهم المعصفرات ، وكان ذلك أول يوم رأى فيه المعصفر . قال قتادة : خرج على أربعة آلاف دابة عليهم ثياب حمراء ، منها ألف بغل أبيض عليها قُطْف حمراء . قال ابن جريح : خرج على بغلة شهباء عليها الأُرْجُوان ، ومعه ثلثمائة جارية على البغال الشهباء عليهم الثياب الحمراء . وقال ابن زيد : خرج في سبعين ألفاً عليهم المعصفرات . الكلبي : خرج في ثوب أخضر كان الله أنزله على موسى من الجنة فسرقه منه قارون . وقال جابر بن عبد الله رضي الله عنه : كانت زينته القُرْمَز .

قلت : القُرْمَز صِبْغ أحمر مثل الأُرْجُوان ، والأُرْجُوان في اللغة صِبْغ أحمر ؛ ذكره القشيري . ﴿ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ أى نصيب وافر من الدنيا . ثم قيل : هذا من قول مؤمنى ذلك الوقت ، تمنوا مثل ماله رغبة في الدنيا . وقيل : هو من قول أقوام لم يؤمنوا بالآخرة ولا رغبوا فيها ، وهم الكفار . قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ وهم أحبار بني إسرائيل للذين تمنوا مكانه ﴿ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ ﴾ يعنى الجنة . ﴿ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾ أى لا يؤتى الأعمال الصالحة ، أو لا يؤتى الجنة في الآخرة إلا الصابرون على طاعة الله . وجاز ضميرها لأنها المعنية بقوله : « ثَوَابُ اللَّهِ » .

قوله تعالى : فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَآنَ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَآنَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ﴿ نَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ ﴾ قال مقاتل : لما أمر موسى الأرض فابتلعت قالت بنو إسرائيل : إنما أهلكه ليرث ماله ؛ لأنه كان ابن عمه ؛ أنى أبيه ، نخسف

الله تعالى به وبداره الأرض وبجميع أمواله بعد ثلاثة أيام، فأوحى الله إلى موسى إنى لا أعيد طاعة الأرض إلى أحد بعدك أبداً . يقال : خَسَفَ المكانُ يُخْسِفُ خُسُوفاً ذهب في الأرض وخَسَفَ الله به الأرض خَسَفاً أى غاب به فيها . ومنه قوله تعالى : « نَحْسَفُنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ » وخَسَفَ هو في الأرض وخُسِفَ به . وخسوف القمر كسوفه . قال ثعلب : كَسَفَتِ الشمسُ وخَسَفَ القمرُ ؛ هذا أجود الكلام . والخسف النقصان ؛ يقال : رضى فلان بالخسف أى بالنقص . (فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ) أى جماعة وعصابة ، (يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ) لنفسه أى الممتنعين فيما نزل به من الخسف . فيروى أن قارون يَسْفُلُ كل يوم بقدر قامة ، حتى إذا بلغ قعر الأرض السفلى نفخ إسرائيل في الصور ؛ وقد تقدم ؛ والله أعلم .

قوله تعالى : (وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ) أى صاروا يتندمون على ذلك التمنى و (يَقُولُونَ وَيَكُنَّ اللَّهُ) [وى] حرف تندم . قال النحاس : أحسن ما قيل فى هذا قول الخليل وسيبويه ويونس والكسائى إن القوم تنبَّهوا أو نُبِّهوا ؛ فقالوا وى ، والمتندم من العرب يقول فى خلال تندمه وى . قال الجوهري : وى . كلمة تعجب ، ويقال : وىك ووى لعبد الله . وقد تدخل وى على كأن المخففة والمشددة تقول : ويكأن الله . قال الخليل : هى مفصولة ؛ تقول : « وى » ثم تبدئ فتقول : « كَأَنَّ » . قال الثعلبي : وقال الفراء هى كلمة تقرير ؛ كقولك : أما ترى إلى صنع الله وإحسانه ؛ وذكر أن أعرابية قالت لزوجها : أين أبنك وىك ؟ فقال : وى كأنه وراء البيت ؛ أى أما ترينه . وقال ابن عباس والحسن : وىك كلمة ابتداء وتحقيق تقديره : إن الله يبسط الرزق . وقيل : هو تنبيه بمنزلة ألا فى قولك ألا تفعل وأما فى قولك أما بعد . قال الشاعر (١) :

سَأَلَتَنِى الطَّلَاقُ إِذْ رَأَتَانِى * قَلَّ مَالِى قَدْ جِئْتَانِى بِنُكْرِ
وَيْ كَأَنَّ مَنْ يَكُنْ لَهُ نَسَبٌ يُحِبُّ * مَبْ وَمَنْ يَفْتَقِرُ يَعِشْ عِشَ ضُرِّ

وقال قُطْرِب : إنما هو ويلك وأسقطت لامه وضمت الكاف التي هي للخطاب إلى وى .
قال عنتره :

ولقد شفى نفسى وأبرأ سقمها * قول الفوارس وىك عنتر أقدم

وأنكره النحاس وغيره، وقالوا : إن المعنى لا يصح عليه ؛ لأن القوم لم يخاطبوا أحدا فيقولوا له ويلك ، ولو كان كذلك لكان إنه بالكسر . وأيضا فإن حذف اللام من ويلك لا يجوز . وقال بعضهم : التقدير ويلك أعلم أنه ؛ فأضمر أعلم . ابن الأعرابي : « وَيَكَنَّ اللَّهُ » أى أعلم . وقيل : معناه ألم تر أن الله . وقال الفتي : معناه رحمة لك بلغة حمير . وقال الكسائي : وى فيه معنى التعجب . وروى عنه أيضا الوقف على وى وقال كلمة تفجع . ومن قال : ويلك فوقف على الكاف فعناه أعجب لأن الله يسط الرزق وأعجب لأنه لا يفلح الكافرون . وينبى أن تكون الكاف حرف خطاب لا أسماء ؛ لأن وى ليست مما يضاف . وإنما كتبت متصلة ؛ لأنها لما أكثر استعمالها جعلت مع ما بعدها كشيء واحد . (لَوْلَا أَنْ مِّنَ اللَّهِ عَلَيْنَا) بالإيمان والرحمة وعصمنا من مثل ما كان عليه قارون من البغى والبطر (لَنَحْشِفَ بِنَا) . وقرأ الأعمش : « لَوْلَا مِّنَ اللَّهِ عَلَيْنَا » . وقرأ حفص : « لَنَحْشِفَ بِنَا » مسمى الفاعل . الباقون : على ما لم يسم فاعله وهو اختيار أبى عبيد . وفى حرف عبد الله « لَنَحْشِفَ بِنَا » كما تقول انطلق بنا . وكذلك قرأ الأعمش وطلحة بن مُصَرِّف . واختار قراءة الجماعة أبو حاتم لوجهين : أحدهما قوله : « نَحْشِفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضُ » . والثانى قوله : « لَوْلَا أَنْ مِّنَ اللَّهِ عَلَيْنَا » فهو بأن يضاف إلى الله تعالى لقرب اسمه منه أولى . (وَيَكَّأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ) عند الله .

قوله تعالى : تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٤﴾ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ ﴾) بمعنى الجنة . وقال ذلك على جهة التعظيم لها والتفخيم لشأنها . بمعنى تلك التي سمعت بذكرها ، وبلغك وصفها ﴿ تَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى رفعة وتكبرا على الإيمان والمؤمنين ﴿ وَلَا فَسَادًا ﴾ عملا بالمعاصي . قاله ابن جرير ومقاتل . وقال عكرمة ومسلم البطين : الفساد أخذ المال بغير حق . وقال الكلبي الدعاء إلى غير عبادة الله . وقال يحيى بن سلام : هو قتل الأنبياء والمؤمنين . ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ قال الضحاك : الجنة . وقال أبو معاوية : الذى لا يريد علوا هو من لم يجرع من ذلها ، ولم ينافس فى عزها ، وأرفعهم عند الله أشدهم تواضعا ، وأعزهم غدا أزمهم لذل اليوم . وروى سفيان بن عيينة عن إسماعيل بن أبي خالد قال : مر على بن الحسين وهو راكب على مساكين يأكلون كسرا لهم ، فسلم عليهم فدعوه إلى طعامهم ، فتلا هذه الآية « تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ تَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا » ثم نزل وأكل معهم . ثم قال : قد أجبتم فاجيبوني . فحملهم إلى منزله فأطعمهم وكساهم وصرفهم . خرجه أبو القاسم الطبراني سايان بن أحمد قال : حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل ، قال حدثني أبي ، قال حدثنا سفيان بن عيينة . فذكره . وقيل : لفظ الدار الآخرة يشمل الثواب والعقاب . والمراد إنما ينتفع بتلك الدار من أتقى ، ومن لم يتق فتلك الدار عليه لاله ؛ لأنها تضره ولا تنفعه . قوله تعالى : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ﴾) تقدم فى « النمل » . وقال عكرمة : ليس شئ خيرا من لا إله إلا الله . وإنما المعنى من جاء بلا إله إلا الله فله منها خير . ﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ ﴾ أى بالشرك ﴿ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى يعاقب بما يليق بعمله .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ إِنْ لَرَأَدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّى أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣٩﴾ وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا

لِّلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَكَ عَنْ ءَايَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ^ط
وَأَذْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ^ط وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا
ءَاخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ^ج كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ ختم السورة ببشارة نبيه
محمد صلى الله عليه وسلم برده إلى مكة فاهرا لأعدائه . وقيل : هو بشارة له بالجنة . والأقول
أكثر . وهو قول جابر بن عبد الله وأبن عباس ومجاهد وغيرهم . قال القتيبي : معاد الرجل
بلده ؛ لأنه ينصرف ثم يعود . وقال مقاتل : خرج النبي صلى الله عليه وسلم من الغار ليلا
مهاجرا إلى المدينة في غير الطريق مخافة الطلب ، فلما رجع إلى الطريق ونزل بالجحفة عرف
الطريق إلى مكة فأشتاق إليها ، فقال له جبريل إن الله يقول : « إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ
لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ » أى إلى مكة ظاهرا عليها . قال ابن عباس : نزلت هذه الآية بالجحفة
ليست بمكة ولا مدنية . وروى سعيد بن جبيرة عن ابن عباس « إِلَىٰ مَعَادٍ » قال : إلى الموت .
وعن مجاهد أيضا وعكرمة والزهرى والحسن : إن المعنى لرادك إلى يوم القيامة ؛ وهو اختيار
الزجاج . يقال : بينى وبينك المعاد ؛ أى يوم القيامة ؛ لأن الناس يعودون فيه أحياء
و « فَرَضَ » معناه أنزل . وعن مجاهد أيضا وأبى مالك وأبى صالح : « إِلَىٰ مَعَادٍ » إلى الجنة .
وهو قول أبى سعيد الخدرى وأبن عباس أيضا ؛ لأنه دخلها ليلة الإسراء . وقيل : لأن أباه
آدم خرج منها . ﴿ قُلْ رَبِّ أَعْلَمُ ﴾ أى قل لكفار مكة إذا قالوا إنك لفي ضلال مبين
﴿ رَبِّ أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أنا أم أتم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُاتِيَكَ الْكِتَابُ ﴾ أى ما علمت أننا نرسلك
إلى الخلق وننزل عليك القرآن . ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ قال الكسائى : هو استثناء منقطع بمعنى
لكن . ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ ظَاهِرًا لِّلْكَافِرِينَ ﴾ أى عونا لهم ومساعدة . وقد تقدم في هذه السورة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بِعَدَا إِذْ أَنْزَلْتُ إِلَيْكَ ﴾ (١) يعنى أقوالهم وكذبهم وأذاهم ، ولا تلتفت نحوهم وأمض لأمرك وشأنك . وقرأ يعقوب : « يَصُدُّكَ » مجزوم النون . وقرأ : « يَصُدُّكَ » من أصدّه بمعنى صدّه وهى لغة فى كلب . قال الشاعر :
 أَنَسُّ أَصْدُوا النَّاسَ بِالسَّيْفِ عَنْهُمْ * صُدُّدَ السَّوْاقِ عَنْ أَنْوْفِ الْحَوَائِمِ (٢)

﴿ وَأَدْعُ إِلَى رَبِّكَ ﴾ أى إلى التوحيد . وهذا يتضمن المهادنة والمواعدة . وهذا كله منسوخ بآية السيف . وسبب هذه الآية ما كانت قريش تدعو رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تعظيم أوثانهم ، وعند ذلك ألقى الشيطان فى أمنيته أمر الغرانيق على ما تقدّم . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ أى لا تعبد معه غيره فإنه لا إله إلا هو . نفى لكل معبود وإثبات لعبادته . ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ قال مجاهد : معناد إلا هو . وقال الصادق : دينه . وقال أبو العالية وسفيان : أى إلا ما أريد به وجهه ؛ أى ما يقصد إليه بالقربة . قال :

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ ذَنْبًا لَسْتُ مُحْصِيَهُ * رَبِّ الْعِبَادِ إِلَيْهِ الْوَجْهُ وَالْعَمَلُ

وقال محمد بن يزيد : حدثني الثوري قال سألت أبا عبيدة عن قوله تعالى : « كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ » فقال : إلا جاهه ، كما تقول لفلان وجهه فى الناس أى جاهه . ﴿ لَهُ الْحُكْمُ ﴾ فى الأولى والآخرة ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ . قال الزجاج : « وَجْهَهُ » منصوب على الاستثناء ، ولو كان فى غير القرآن كان إلا وجهه بالرفع ، بمعنى كل شىء غير وجهه هالك كما قال :

وَكُلُّ أَخٍ مُفَارِقُهُ أَخُوهُ * لَعَمْرُأَبَيْكَ إِلَّا الْفَرَقْدَانِ

والمعنى كل أخ غير الفرقدين مفارقة أخوه . « وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » بمعنى ترجعون إليه .

تمت سورة القصص والحمد لله

(١) هو ذر الامة . (٢) ويرى : بالضرب ... من أنوف المخارم .

(٣) راجع ج ١٢ ص ٧٩ .

(٤) هو عمرو بن معدى كرب ، ويرى لسوار بن المضرب . (شواهد سيبويه) .

سورة العنكبوت

مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . ومدينة كلها في أحد قولي ابن عباس وقتادة . وفي القول الآخر لها وهو قول يحيى بن سلام أنها مكية إلا عشر آيات من أولها ، فإنها نزلت بالمدينة في شأن من كان من المسلمين بمكة . وقال علي بن أبي طالب رضى الله عنه : نزلت بين مكة والمدينة . وهي تسع وستون آية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿ اَلَمْ اَحْسِبِ النَّاسَ اَنْ يَتْرُكُوْا اَنْ يَقُوْلُوْا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُوْنَ ﴾ وَلَقَدْ فْتَنَّا الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلْيَعْلَمَنَّ اَللّٰهُ الَّذِيْنَ صَدَقُوْا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَذٰبِيْنَ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ اَلَمْ اَحْسِبِ النَّاسَ اَنْ يَتْرُكُوْا اَنْ يَقُوْلُوْا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُوْنَ ﴾ تقدم القول في أوائل السور . وقال ابن عباس : المعنى أنا الله أعلم . وقيل : هو اسم للسورة . وقيل اسم للقرآن . « أَحْسِبَ » استفهام أريد به التقرير والتوبيخ ومعناه الظن . « اَنْ يَتْرُكُوْا » في موضع نصب بـ « حَسِبَ » وهى وصلتها مقام المفعولين على قول سيدييه . و « أن » الثانية من « اَنْ يَقُوْلُوْا » في موضع نصب على إحدى جهتين ، بمعنى لأن يقولوا أو بأن يقولوا أو على أن يقولوا . والجهة الأخرى أن يكون على التكرير ، والتقدير « اَلَمْ اَحْسِبِ النَّاسَ اَنْ يَتْرُكُوْا » اَحْسِبُوْا « اَنْ يَقُوْلُوْا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُوْنَ » قال ابن عباس وغيره : يريد بالناس قوما من المؤمنين كانوا بمكة ، وكان الكفار من قريش يؤذونهم ويعذبونهم على الإسلام ، كسلمة بن هشام وعياش بن أبى ربيعة والوليد بن الوليد وعمار بن ياسر وياسر أبوه وسُميَ أمه وعدة من بنى مخزوم وغيرهم . فكانت صدورهم تضيق لذلك ، وربما استنكر أن يمكن الله الكفار من المؤمنين ، قال مجاهد وغيره : فنزلت هذه الآية مسلية ومعلمة أن هذه هى سيرة الله فى عباده اختبارا للمؤمنين وفطنة . قال ابن عطية : وهذه الآية وإن كانت

نزلت بهذا السبب أو ما في معناه من الأقوال فهي باقية في أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، موجود حكمها بقية الدهر . وذلك أن الفتنة من الله تعالى باقية في نفور المسلمين بالأسر ونكايه العدو وغير ذلك . وإذا اعتبر أيضا كل موضع ففيه ذلك بالأمراض وأنواع المحن ، ولكن التي تشبه نازلة المسلمين مع قريش هي ما ذكرناه من أمر العدو في كل ثغر .

قلت : ما أحسن ما قاله ، ولقد صدق فيما قال رضى الله عنه . وقال مقاتل : نزلت في مہجَع مولى عمر بن الخطاب كان أول قتيل من المسلمين يوم بدر ، رماه عامر بن الحضرمي بسهم فقتله . فقال النبي صلى الله عليه وسلم يومئذ : ” سيد الشهداء مہجَع وهو أول من يدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة “ . فخرج عليه أبواه وأمرأته فزلت : « أَلَسَ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا » . وقال الشعبي : نزل مفتتح هذه السورة في أناس كانوا بمكة من المسلمين ، فكتب إليهم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من الحديبية أنه لا يقبل منكم إقرار الإسلام حتى تهاجروا ، فخرجوا فاتبعهم المشركون فأذوهم . فزلت فيهم هذه الآية : « أَلَسَ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا » فكتبوا إليهم : نزلت فيكم آية كذاب ، فقالوا : نخرج وإن آتبعنا أحد قاتلناه ، فاتبعهم المشركون فقاتلوهم ، فنهزم من قتل ومنهم من نجا فقتل فيهم : « ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ^(١) » . « وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ » يتمتعون ، أى أظن الذين جزعوا من أذى المشركين أن يقنع منهم أن يقولوا إنا مؤمنون ولا يتمتعون في إيمانهم وأنفسهم وأموالهم بما يتبين به حقيقة إيمانهم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى آبتلينا الماضين كاخليل ألقى في النار ، وكقوم نشروا بالمنشير في دين الله فلم يرجعوا عنه . وروى البخاري عن خباب بن الارت : قالوا شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة ، فقلنا له : ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا . فقال : ” قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد لجمه وعظمه فما يصرفه ذلك عن دينه والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون “ . وخرج ابن ماجه عن

أبي سعيد الخدري قال : دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يُوعَك ، فوضعت يدي عليه ، فوجدت حره بين يدي فوق الخفاف . فقلت : يا رسول الله ما أشدّها عليك . قال : « إنا كذلك يُضعّف لنا البلاء ويُضعّف لنا الأجر » قلت : يا رسول الله أيّ الناس أشدّ بلاء ؟ قال « الأنبياء » وقلت : ثم من . قال « ثم الصالحون أن كان أحدهم ليبتلى بالفقر حتى ما يحسد إلا العبادة يُحِبُّهَا ^(١) وأن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء » . وروى سعد بن أبي وقاص قال : قلت يا رسول الله أيّ الناس أشدّ بلاء ؟ قال : « الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه ضلّابا أشدّ بلاؤه وإن كان في دينه رقة آبتلى على حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه من خطيئة » . وروى عبد الرحمن بن زيد أن عيسى عليه السلام كان له وزير ، فركب يوما فأخذه السبع فأكله ، فقال عيسى : يارب وزيري في دينك ، وعوني على بني إسرائيل ، وخليفتي فيهم ، سلطت عليه كلبا فأكله . قال : « نعم كانت له عندي منزلة رفيعة لم أجد عمله يبلغها فأبتليته بذلك لأبلغه تلك المنزلة » . وقال وهب : قرأت في كتاب رجل من الحواريين : إذا سلك بك سبيل البلاء فقرّ عينا ، فإنه سلك بك سبيل الأنبياء والصالحين ، وإذا سلك بك سبيل الرخاء فأبك على نفسك ، فقد خولف بك عن سبيلهم . قوله تعالى : ﴿ فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا ﴾ أي فليُرين الله الذين صدقوا في إيمانهم . وقد مضى هذا المعنى في « البقرة » وغيرها . قال الزجاج : ليعلم صدق الصادق بوقوع صدقه منه ، وقد علم الصادق من الكاذب قبل أن يخلقهما ، ولكن التصدّق قصد وقوع العلم بما يجازي عليه . وإنما يعلم صدق الصادق واقعا كائنا وقوعه ، وقد علم أنه سيقع . وقال النحاس : فيه قولان — أحدهما — أن يكون « صَدَقُوا » مشتقا من الصّدق و « الكاذِبِينَ » مشتقا من الكذب الذي هو ضد الصّدق ، ويكون المعنى ؛ فليبين الله الذي صدقوا فقالوا نحن مؤمنون

(١) وردت هذه الكلمة في سنن ابن ماجه بالهاء المهملة ، وقال هامشه : « يحوبها » من حوب بحاء مهملة وباء موحدة أي يجمل لها جيبا . ووردت في الجامع الصغير للسيوطي بالهميم وقال شارحه : هي يجيم وواو . وموحدة أي يخزفها ويقطعها ، وكل شيء قطع وسطه فهو مجبوب . ورواية الجامع الصغير هي المبادرة . (٢) راجع ج ٢ ص ٢٤٣ .

واعتقدوا مثل ذلك، والذين كذبوا حين اعتقدوا غير ذلك. والقول الآخر — أن يكون صدقوا مشتقا من الصدق وهو الصُّلب، والكاذبين مشتقا من كَذَّبَ إذا أنهزم، فيكون المعنى؛ فليعلمن الله الذين ثبتوا في الحرب، والذين أنهزموا؛ كما قال الشاعر^(١) :

لَيْتُ بَعَثَ رِجْلُ يَصْطَادُ الرِّجَالَ إِذَا * مَا اللَّيْتُ كَذَّبَ عَنْ أَفْرَانِهِ صَدَقًا

بفعل «لَيَعْلَمَنَّ» في موضع فليبين مجازا . وقراءة الجماعة : « فليعلمن » بفتح الياء واللام .
وقرأ على بن أبي طالب بضم الياء وكسر اللام وهى تبين معنى ما قاله النحاس . ويحتمل ثلاثة معان : الأول — أن يعلم في الآخرة هؤلاء الصادقين والكاذبين بمنالهم من ثوابه وعقابه وبأعمالهم في الدنيا ؛ بمعنى يوقفهم على ما كان منهم . الثانى — أن يكون المفعول الأول محذوفا تقديره ؛ فليعلمن الناس والعالم هؤلاء الصادقين والكاذبين ، أى يفضحهم ويشهرهم ؛ هؤلاء في الخير وهؤلاء في الشر ، وذلك في الدنيا والآخرة : الثالث — أن يكون ذلك من العلامة ؛ أى بضع لكل طائفة علامة يشتهرها . فالآية على هذا تنظر إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم :
” من أسر سريرة ألبسه الله رداءها “

قوله تعالى : أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا^ج
سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٠٠﴾ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٠١﴾ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٣﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ أى الشرك ﴿ أَنْ يَسْبِقُونَا ﴾ أى يفوتونا ويعجزونا قبل أن نؤاخذهم بما يفعلون . قال ابن عباس : يريد الوليد بن المغيرة وأبا جهل والأسود والعاص بن هشام وشيبة وعتبة والوليد بن عتبة وعقبة بن أبى معيط وحنظلة ابن أبى سفيان والعاص بن وائل . ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أى بئس الحكم ما حكموا فى صفات

(١) هو زهير بن أبى سلمى . وعثر بشد الملائة أمم موضع .

ر بهم أنه مسبوق والله القادر على كل شيء . و « ما » في موضع نصب بمعنى ساء شيئا أوحكا يحكمون . ويجوز أن تكون « ما » في موضع رفع بمعنى ساء الشيء أو الحكم حكمهم . وهذا قول الزجاج . وقدرها ابن كيسان تقديرين آخرين خلاف ذينك : أحدهما - أن يكون موضع « مَا يَحْكُمُونَ » بمنزلة شيء واحد ، كما تقول : أعجبنى ما صنعت ؛ أى صديقك ؛ فـ « ما » والتعل مصدر في موضع رفع ، التقدير ؛ ساء حكمهم . والتقدير الآخر أن تكون « ما » لا موضع لها من الإعراب ، وقد قامت مقام الاسم لساء ، وكذلك نعم وبئس . قال أبو الحسن ابن كيسان : وأنا أختار أن أجعل لـ « ما » موضعا في كل ما أقدر عليه ؛ نحو قوله عز وجل : « فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ » وكذا « فَبِمَا نَقِضِهِمْ » وكذا « أَيَّمَا الْأَجَلِينَ قَضَيْتَ » « ما » في موضع خفض في هذا كله وما بعده تابع لها ، وكذا ؛ « إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً » « ما » في موضع نصب و « بَعُوضَةً » تابع لها .

قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ ﴾ « يَرْجُو » بمعنى يخاف من قول الهذلي في وصف عسال :

* إِذَا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لَمْ يَرْجُ لِسَعَهَا *^(٥)

وأجمع أهل التفسير على أن المعنى : من كان يخاف الموت فليعمل عملا صالحا فإنه لا بد أن يأتيه ؛ ذكره النحاس . قل الزجاج : معنى « يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ » ثواب الله و « من » في موضع رفع بالابتداء و « كَانَ » في موضع الخبر ، وهى في موضع جزم بالشرط ، و « يَرْجُو » في موضع خبر كان ، والمجازاة ﴿ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ﴾ أى ومن جاهد فى الدين ، وصبر على قتال الكفار وأعمال الطاعات ، وإنما يسعى لنفسه ؛ أى ثواب ذلك كله له ؛ ولا يرجع إلى الله نفع من ذلك . ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ أى عن أعمالهم . وقيل : المعنى ؛ من جاهد عدوه لنفسه لا يريد وجهه لله فليس لله حاجة بجهاده .

(١) راجع ج ٤ ص ٢٤٨ . (٢) راجع ج ٦ ص ١١٤ .

(٣) راجع ص ٢٧٩ من هذا الجزء . (٤) راجع ج ١ ص ٢٤١ .

(٥) تمام البيت : * وحالفها فى بيت نوب عوامل * وروى : عوامل .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى صدقوا ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ أى لنغطينها عنهم بالمغفرة لهم . ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى بأحسن أعمالهم وهو الطاعات . ثم قيل : يحتمل أن تكفر عنهم كل معصية عملوها في الشرك ، ويثابوا على ما عملوا من حسنة في الإسلام . ويحتمل أن تكفر عنهم سيئاتهم في الكفر والإسلام ، ويثابوا على حسناتهم في الكفر والإسلام .

قوله تعالى : وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٨٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ نزلت في سعد بن أبي وقاص فيما روى الترمذى قال : أنزلت في أربع آيات فذكر قصة ، فقالت أم سعد : أليس قد أمر الله بالبر ! والله لا أطعم طعاما ، ولا أشرب شرابا حتى أموت أو تكفر ، قال : فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا^(١) فآها فترأت هذه الآية . « وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا » الآية . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . وروى عن سعد أنه قال : كنت بارأ بأمي فأسلمت ، فقالت : لتدعن دينك أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بي ، ويقال يا قاتل أمه ، وبقيت يوما ويوما فقات : يا أماه ! لو كانت لك مائة نفس ، فخرجت نفسا نفسا ما تركت ديني هذا ، فإن شئت فكلى ، وإن شئت فلا تأكلى ، فلما رأت ذلك أكلت ونزلت : ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي ﴾ الآية . وقال ابن عباس : نزلت في عيش ابن أبي ربيعة أخى أبي جهل لأمه وقد فعلت أمه مثل ذلك . وعنه أيضا : نزلت في جميع الأمة إذ لا يصبر على بلاء الله إلا صديق . و « حُسْنًا » نصب عند البصريين على التكرير أى ووصيناه حسنا . وقيل : هو على القطع تقديره ، ووصيناه بالحسن كما تقول وصيته خيرا أى

(١) شجروا فاما : أى أدخلوا في شجرة عودا حتى يفتحوه به .

بالخير . وقال أهل الكوفة : تقديره ووصينا الإنسان أن يفعل حسنا فيقدر له فعل .
وقال الشاعر :

عَجِبْتُ مِنْ دَهْمَاءَ إِذْ تَشْكُونَا * وَمِنْ أَبِي دَهْمَاءَ إِذْ يُوصِينَا
خَيْرًا بِهَا كَأَنَّمَا خَافُونَا *

أى يوصينا أن نفعل بها خيرا ؛ كقوله : « فَطَفِقَ مَسْحًا »^(١) أى يمسح مسحاً . وقيل :
تقديره ووصيناه أسرا ذا حسني ، فأقيمت الصفة مقام الموصوف ، وحذف المضاف وأقيم
المضاف إليه مقامه . وقيل : معناه الزمناه حسنا . وقراءة العامة : « حُسْنًا » بضم الحاء
وإسكان السين . وقرأ أبو رجاء وأبو العالية والضحاك : بفتح الحاء والسين . وقرأ الجحدري :
« إِحْسَانًا » على المصدر ؛ وكذلك في مصحف أبي ، التقدير : ووصينا الإنسان أن يحسن
إليهما إحسانا ، ولا ينتصب بوصينا ؛ لأنه قد استوفى مفعوليه . (إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ) وعيد
في طاعة الوالدين في معنى الكفر . (فَأَنبَشَكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
لَنُدْخِلَنَّهُم فِي الصَّالِحِينَ) كرر تعالى التمثيل بحالة المؤمنين العاملين لتحرك النفوس إلى نيل
مراتبهم . وقوله : « لَنُدْخِلَنَّهُم فِي الصَّالِحِينَ » مبالغة على معنى ؛ فالذين هم في نهاية الصلاح
وأبعد غاياته . وإذا تحصل للأؤمن هذا الحكم تحصل ثمرته وجزاؤه وهو الجنة .

قوله تعالى : وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ
جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ
إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ
اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾

قوله تعالى : (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ) الآية نزلت في المنافقين كانوا يقولون
آمنا بالله (فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ) أى أذاهم (كَعَذَابِ اللَّهِ) في الآخرة فأرتد
عن إيمانه . وقيل : جزع من ذلك كما يجزع من عذاب الله ولا يصبر على الأذية في الله .

﴿وَلَيْتُنَّ حَيًّا﴾ المؤمنين ﴿نَضْرِبُ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ﴾ هؤلاء المرتدون ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ وهم كاذبون؛ فقال الله لهم : ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ يعنى الله أعلم بما فى صدورهم منهم بأنفسهم . وقال مجاهد : نزلت فى ناس كانوا يؤمنون بالسننهم ، فإذا أصابهم بلاء من الله أو مصيبة فى أنفسهم آفئذوا . وقال الضحاك : نزلت فى ناس من المنافقين بمكة كانوا يؤمنون ، فإذا أودوا رجعوا إلى الشرك . وقال عكرمة : كان قوم قد أسلموا فأكرههم المشركون على الخروج معهم إلى بدر فقتل بعضهم ، فأنزل الله : «إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ» فكتب بها المسلمون من المدينة إلى المسلمين بمكة ، فخرجوا فالحقهم المشركون ، فأفتتن بعضهم ، فنزلت هذه الآية فيهم . وقيل : نزلت فى عياش بن أبى ربيعة ؛ أسلم وهاجر ، ثم أودى وضرب فارتد . وإنما عذبه أبو جهل والحارث وكانا أخويه لأمه . قال ابن عباس : ثم عاش بعد ذلك بدهر وحسن إسلامه . ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ قال قتادة : نزلت فى القوم الذين ردهم المشركون إلى مكة .

قوله تعالى : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا﴾ أى ديننا . ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ جزم على الأمر . قال الفراء والزجاج : هو أمر فى تأويل الشرط والجزاء ؛ أى إن تتبعوا سبيلنا نحمل خطاياكم ، كما قال : ﴿١٢﴾

فقلت أدعى وأدع وإن أندى * لصوت أن ينادى داعيان

(١) راجع ج ٥ ص ٣٤٥ .

(٢) البيت لمدن بن شيبان التمرى وقبلة :

نقول خيلنا لما اشبكينا * سيدركنا بنو القرم الهجان

أى إن دعوتِ دعوت . قال المهدوي : وجاء وقوع ﴿ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ بعده على الحمل على المعنى ؛ لأن المعنى إن آتبعتم سبيلنا حملنا خطاياكم . فلما كان الأمر يرجع في المعنى إلى الخبر وقع عليه التكذيب كما يقع عليه الخبر . قال مجاهد : قال المشركون من قريش نحن وأنتم لا نبعث ، فإن كان عليكم وزر فعلينا ؛ أى نحن نحمل عنكم ما يلزمكم . والحمل ههنا بمعنى الحاملة لا الحمل على الظهر . وروى أن قائل ذلك الوليد بن المغيرة . ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ يعنى ما يحمل عليهم من سيئات من ظلموه بعد فراغ حسناتهم . روى معناه عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقد تقدم في « آل عمران » . قال أبو أمامة الباهلي : « يؤتى بالرجل يوم القيامة وهو كثير الحسنات فلا يزال يفتص منه حتى تفنى حسناته ثم يطالب فيقول الله عز وجل آفقتوا من عبدي فتقول الملائكة ما بقيت له حسنات فيقول خدوا من سيئات المظلوم فأجعلوا عليه » ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ » . وقال قتادة : من دعا إلى ضلالة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء . ونظيره قوله تعالى : « لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ » . ونظير هذا قوله عليه السلام : « من سن في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء » روى من حديث أبي هريرة وغيره . وقال الحسن قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من دعا إلى هدى فأتبع عليه وعمل به فله مثل أجور من أتبعه ولا ينقص ذلك من أجورهم شيئا وأيما داع دعا إلى ضلالة فأتبع عليه وعمل بها بعده فله مثل أوزار من عمل بها ممن أتبعه لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئا » ثم قرأ الحسن : « وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ » .

قلت : هذا مرسل وهو معنى حديث أبي هريرة نرجه مسلم . ونص حديث أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أيما داع دعا إلى ضلالة فأتبع له مثل أوزار من أتبعه ولا ينقص من أوزارهم شيئا وأيما داع دعا إلى هدى فأتبع فإن له مثل أجور من أتبعه »

ولا ينقص من أجورهم شيئا“ خرجه ابن ماجه في السنن . وفي الباب عن أبي جحيفة وجرير . وقد قيل : إن المراد أعوان الظلمة . وقيل : أصحاب البدع إذا اتبعوا عليها . وقيل : محدثو السنن الحادثة إذا عمل بها من بعدهم . والمعنى متقارب والحديث يجمع ذلك كله .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ ذكر قصة نوح تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ، أى آتلى النبيون قبلك بالكفار فصبروا . وخص نوح بالذكر؛ لأنه أول رسول أرسل إلى الأرض وقد امتلأت كفرا على ما تقدم بيانه في « هود » . وأنه لم يلق نبي من قومه ما لقي نوح على ما تقدم في « هود » عن الحسن . وروى عن قتادة عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أول نبي أرسل نوح » قال قتادة : وبعث من الجزيرة . وأختلف في مبلغ عمره . فقيل : مبلغ عمره ما ذكره الله تعالى في كتابه . قال قتادة : لبث فيهم قبل أن يدعوهم ثلاثمائة سنة ، ودعاهم ثلاثمائة سنة ، ولبث بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة . وقال ابن عباس : بعث نوح لأربعين سنة ، ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما ، وعاش بعد الفرق ستين سنة حتى كثر الناس وفشوا . وعنه أيضا : أنه بعث وهو ابن مئتين وخمسين سنة ، ولبث فيهم ألف سنة إلا خمسين ، وعاش بعد الطوفان مائتي سنة . وقال وهب : عمر نوح ألفا وأربعمائة سنة . وقال كعب الأحبار : لبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما ، وعاش بعد الطوفان سبعين عاما فكان مبلغ عمره ألف سنة وعشرين عاما . وقال عون بن أبي شداد : بعث نوح وهو ابن خمسين وثلاثمائة سنة ، ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما ، وعاش بعد الطوفان ثلاثمائة سنة

ونحسين سنة ؛ فكان مبلغ عمره ألف سنة وسمائة سنة ونحسين سنة ونحوه عن الحسن . قال الحسن : لما أتى ملك الموت نوحا ليقبض روحه قال : يا نوح كم عشت في الدنيا ؟ قال : ثلثمائة قبل أن أبعث ، وألف سنة إلا خمسين عاما في قومي ، وثلثمائة سنة ونحسين سنة بعد الطوفان . قال ملك الموت : فكيف وجدت الدنيا ؟ قال نوح : مثل دار لها بابان دخلت من هذا وخرجت من هذا . وروى من حديث أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” لما بعث الله نوحا إلى قومه بعثه وهو ابن خمسين ومائتي سنة فلبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما وبقي بعد الطوفان خمسين ومائتي سنة فلما أتاه ملك الموت قال يا نوح يا أكبر الأنبياء ويا طویل العمر ويا مجاب الدعوة كيف رأيت الدنيا قال مثل رجل بنى له بيت له بابان فدخل من واحد وخرج من الآخر “ وقد قيل : دخل من أحدهما وجلس هنيهة ثم خرج من الباب الآخر . وقال ابن الوردي : بنى نوح بيتا من قصب ، فقيل له : لو بنيت غير هذا ، فقال : هذا كثير لمن يموت . وقال أبو المهاجر : لبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما في بيت من شعر ، فقيل له : يا نبي الله ابن بيتنا ، فقال : أموت اليوم [أو] أموت غدا . وقال وهب بن منبه : مرت بنوح خمسمائة سنة لم يقرب النساء وجلا من الموت . وقال مقاتل وجويبر : إن آدم عليه السلام حين كبر ورق عظمه قال يارب إلى متى أكذب وأسعى ؟ قال يا آدم حتى يولد لك ولد مختون . فولد له نوح بعد عشرة أبطن ، وهو يومئذ ابن ألف سنة إلا ستين عاما . وقال بعضهم : إلا أربعين عاما . والله أعلم . فكان نوح بن لامك بن متوشلخ بن إدريس وهو أخنوخ بن يرد بن مهلاييل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم . وكان اسم نوح السكن . وإنما سمي السكن ؛ لأن الناس بعد آدم سكنوا إليه ، فهو أبوهم . وولد له سام وحام ويافث ، فولد سام العرب وفارس والروم ، وفي كل هؤلاء خير . وولد حام القبط والسودان والبربر . وولد يافث الترك والصقالبة وآجوج وماجوج . وليس في شيء من هؤلاء خير . وقال ابن عباس : في ولد سام بياض وأدمة ، وفي ولد حام سواد وبياض قليل . وفي ولد يافث — وهم الترك والصقالبة — الصفرة والحمرة . وكان له ولد رابع وهو كنعان الذي غرق ، والعرب تسميه يام . وسمى نوح نوحا لأنه نوح على قومه ألف سنة

إلا نحسين عاما، يدعوهم إلى الله تعالى، فإذا كفروا بكى وناح عليهم. وذكر القشيري أبو القاسم عبد الكريم في كتاب التخيير له : يروى أن نوحا عليه السلام كان اسمه يشكروا ولكن لكثرة بكائه على خطيئته أوحى الله إليه يا نوح كم تنوح . فسمى نوحا ؛ فقليل : بإرسول الله فأى شيء كانت خطيئته ؟ فقال : ” إنه مر بكب فقال في نفسه ما أقبحه فأوحى الله إليه أخلق أنت أحسن من هذا . وقال يزيد الرقاشي : إنما سمي نوحا لطول ما ناح على نفسه . فإن قيل : فلم قال : « أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا نَحْسِينَ عَامًا » ولم يقل تسعمائة ونحسين عاما . ففيه جوابان : أحدهما — أن المقصود به تكثير العدد ، فكان ذكره الألف أكثر في اللفظ وأكثر في العدد . الثاني — ما روى أنه أعطى من العمر ألف سنة ، فوهب من عمره نحسين سنة لبعض ولده ، فلما حضرته الوفاة رجع في استكمال الألف ، فذكر الله تعالى ذلك تنبيها على أن النقيصة كانت من جهته . (فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ) قال ابن عباس وسعيد بن جبيرة وقتادة : المطر . الضحاك : الغرق . وقيل : الموت . روته عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم . ومنه قول الشاعر :

* أفتأهم طوفانٌ موتٍ جارف *

قال النحاس : يقال لكل كثير مطيف بالجميع من مطر أو قتل أو موت طوفان . (وَهُمْ ظَالِمُونَ) جملة في موضع الحال و « أَلْفَ سَنَةٍ » منصوب على الظرف « إِلَّا نَحْسِينَ عَامًا » منصوب على الاستثناء من الموجب . وهو عند سيويه بمنزلة المفعول ؛ لأنه مستغنى عنه كالمفعول . فأما المبرد أبو العباس محمد بن يزيد فهو عنده مفعول محض . كأنك قلت آستثيت زيدا . تنبيهه — روى حسان بن غالب بن نجيم أبو القاسم المصري ، حدثنا مالك بن أنس عن الزهري عن ابن المسيب عن أبي بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” كان جبريل إذا كرنى فضل عمر فقلت يا جبريل ما بلغ فضل عمر قال لي يا محمد لو لبثت معك ما لبث نوح في قومه ما بلغت لك فضل عمر “ ذكره الخطيب أبو بكر أحمد بن ثابت البغدادي . وقال : تفرد بروايته حسان بن غالب عن مالك وليس بثابت من حديثه .

قوله تعالى : (فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ) معطوف على الهاء . (وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ) الهاء والألف في « جَعَلْنَاهَا » للسفينة ، أو للعقوبة ، أو للنجاة ؛ ثلاثة أقوال .

قوله تعالى : وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَن يَبْلُغَ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِبْرَاهِيمَ﴾ قال الكسائي : « وَإِبْرَاهِيمَ » منصوب بـ « أَنْتَجِينَا » يعنى أنه معطوف على الهاء . وأجاز الكسائي أن يكون معطوفا على نوح ، والمعنى وأرسلنا إبراهيم . وقول ثالث : ان يكون منصوبا بمعنى وأذكر إبراهيم . ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أى أفردوه بالعبادة . ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ أى اتقوا عقابه وعذابه . ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أى من عبادة الأوثان ﴿إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ .

قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا﴾ أى أصناما . قال أبو عبيدة : الصنم ما يتخذ من ذهب أو من فضة أو نحاس ، والوثن ما يتخذ من جص أو حجارة . الجوهرى : الوثن الصنم والجمع وثن وأوثان مثل أسد وآساد . ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ قال الحسن : معنى « تَخْلُقُونَ » تخفون ؛ فالمعنى إنما تعبدون أوثانا وأتم تصنعونها . وقال مجاهد : الإفاك الكذب ، والمعنى تعبدون الأوثان وتخلقون الكذب . وقرأ أبو عبد الرحمن : « وَتَخْلُقُونَ » . وقرئ : « تُخْلِقُونَ » بمعنى الكثير من خلق و « تَخْلُقُونَ » من تملق بمعنى تكذب وتخترص . وقرئ : « أَفْكًا » وفيه وجهان : أن يكون مصدرا نحو كذب وإفك والإفك مخففا منه كالكذب واللعب . وأن يكون صفة على فعل أى خلقا أفكا أى ذافكا وباطل . و « أَوْثَانًا » نصب بـ « تَعْبُدُونَ » و « مَا » كافة . ويجوز فى غير القرآن رفع أوثان على أن تجعل « مَا » أسما لأن بـ و « تَعْبُدُونَ » صلته ، وحذفت الهاء لطول الاسم وجعل أوثان خبر إن . فاما « وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا » فهو منصوب بالفعل لا غير . وكذا ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ

اللَّهِ الرَّزْقُ ﴿ أَى أَصْرَفُوا رَغْبَتَكُمْ فِى أَرْزَاقِكُمْ إِلَى اللَّهِ فِإِيَّاهُ فَاسْأَلُوهُ وَحْدَهُ دُونَ ضِرِّهِ .
 ﴿ وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ﴾ فقيل : هو من قوله إبراهيم أى التكذيب عادة
 الكفار وليس على الرسل إلا التبليغ .

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ﴾ قراءة العامة بالياء على الخبر والنو بفتح
 لهم ، وهى اختيار أبى عبيد وأبى حاتم . قال أبو عبيد : لذكر الأُم كأنه قال أَوَلَمْ يَرِ الأُم
 كيف . وقرأ أبو بكر والأعمش وابن وثاب وحزمة والكسائى : « تَرَوْا » بالناء خطاباً لقوله :
 « وَإِنْ تُكَذِّبُوا » . وقد قيل : « وَإِنْ تُكَذِّبُوا » خطاب لقريش ليس من قول إبراهيم .
 ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ يعنى الخلق والبعث . وقيل : المعنى أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الثَّمَارَ فَتَحْيَا
 ثم تنفئ ثم يعيدها أبداً . وكذلك يبدأ خلق الإنسان ثم يهلكه بعد أن خلق منه ولداً ، وخلق
 من الولد ولداً . وكذلك سائر الحيوان . أى فإذا رأيتم قدرته على الإبداء والإيجاد فهو القادر
 على الإعادة ﴿ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ لأنه إذا أراد أمراً قال له كن فيكون .

قوله تعالى : قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ
 ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن
 يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِى الْأَرْضِ
 وَلَا فِى السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ
 كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ
 عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ
 فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ
 إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ
 الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ
 وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى قل لهم يا محمد سيروا فى الأرض ﴿ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ على كثرتهم وتفاوت هيئاتهم واختلاف ألسنتهم وألوانهم وطبائعهم ، وأنظروا إلى مساكن القرون الماضية وديارهم وآثارهم كيف أهلكهم ؛ لتعلموا بذلك كمال قدرة الله . ﴿ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ﴾ وقرأ أبو عمرو وابن كثير : « النَّشْأَةُ » بفتح الشين وهما لغتان مثل الرأفة والرأفة وشبهه . الجوهري : أنشأ الله خلقه ، والأسم النشأة والنشأة بالمد عن أبي عمرو بن العلاء . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أى يعذله . ﴿ وَيَرْحُمُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أى بفضله . ﴿ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ ترجعون وتردون . ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ قال الفراء : معناه ولا من فى السماء بمعجزين الله . وهو غامض فى العربية ؛ للضمير الذى لم يظهر فى الثانى . وهو كقول حسان :

فمن يهجو رسول الله منهم * ويمدحه وينصره سواء

أراد ومن يمدحه وينصره سواء ؛ فأضمر من ؛ وقاله عبد الرحمن بن زيد . ونظيره قوله سبحانه : « وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ » أى من له . والمعنى إن الله لا يعجزه أهل الأرض فى الأرض ولا أهل السماء إن عصوه . وقال قطرب : ولا فى السماء لو كنتم فيها ، كما تقول : لا يفوتنى فلان بالبصرة ولا هاهنا ، بمعنى لا يفوتنى بالبصرة لو صار إليها . وقيل : لا يستطيعون هربا فى الأرض ولا فى السماء . وقال المبرد : والمعنى ولا من فى السماء على أن من ليست موصولة ولكن تكون نكرة و « فى السماء » صفة لها ، فأقيمت الصفة مقام الموصوف . ورد ذلك على ابن سليمان . وقال : لا يجوز . وقال : إن من إذا كانت نكرة فلا بد من وصفها فصفتها كالصلة ، ولا يجوز حذف الموصول وترك الصلة ؛ قال : والمعنى إن الناس خوطبوا بما يعقلون ؛ والمعنى لو كنتم فى السماء ما أعجزتم الله ؛ كما قال : « وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ » . ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ ويجوز « نَصِيرٌ » بالرفع على الموضع ، وتكون « من » زائدة . ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ ﴾ أى بالقرآن أو بما نصب من الأدلة والأعلام . ﴿ أُولَئِكَ يَتَّخِذُونَ مِنْ رَحْمَتِي ﴾ أى من الجنة ونسب اليأس إليهم والمعنى أو يسوا . وهذه

(٢) راجع ج ٥ ص ٢٨٢ .

(١) راجع ج ١٥ ص ٢٣٧ .

الآيات أعترض من الله تعالى تذكيرا وتحذيرا لأهل مكة . ثم عاد الخطاب إلى قصة إبراهيم فقال : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ﴾ حين دعاهم إلى الله تعالى ﴿ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ﴾ ثم اتفقوا على تحريقه ﴿ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ﴾ أى من إذايتها ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أى فى إنجائه من النار العظيمة حتى لم تحرقه بعد ما ألقى فيها ﴿ لآيَاتٍ ﴾ . وقراءة العامة : « جَوَابَ » بنصب الباء على أنه خبر كان و « أَنْ قَالُوا » فى محل الرفع أسم كانت . وقرأ سالم الأبطس وعمرو ابن دينار : « جَوَابُ » بالرفع على أنه أسم « كان » و « أَنْ » فى موضع الخبر نصبا . ﴿ وَقَالَ ﴾ إبراهيم ﴿ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ وقرأ حفص وحزمة : « مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ » . وآبن كثير وأبو عمرو والكسائى : « مَوَدَّةٌ بَيْنِكُمْ » . والأعشى عن أبى بكر عن عاصم وآبن وثاب والأعمش : « مَوَدَّةٌ بَيْنِكُمْ » . الباقرن . « مَوَدَّةٌ بَيْنِكُمْ » . فأما قراءة آبن كثير ففيها ثلاثة أوجه ؛ ذكر الزجاج منها وجهين : أحدهما — أن المودة أرتفعت على خبر إات وتكون « ما » بمعنى الذى . والتقدير إن الذى آتخذتموه من دون الله أوثانا مودةً بينكم . والوجه الآخر أن يكون على إضمار مبتدأ أى هى مودةٌ أو تلك مودةٌ بينكم . والمعنى آلهتكم أو جماعتكم مودةٌ بينكم . قال آبن الأنبارى : « أَوْثَانًا » وقف حسن لمن رفع المودة بإضمار ذلك مودةً بينكم ، ومن رفع المودة على أنها خبر إات لم يقف . والوجه الثالث الذى لم يذكره أن يكون « مَوَدَّةٌ » رفعا بالابتداء و « فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » خبره ؛ فأما إضافة « مَوَدَّةٌ » إلى « بَيْنِكُمْ » فإنه جعل « بَيْنِكُمْ » أسما غير ظرف ، والنحويون يقولون جعله مفعولا على السمة . وحكى سيبويه : يا سارق الليلة أهل الدار . ولا يجوز أن يضاف إليه وهو ظرف ؛ لعلية ليس هذا موضع ذكرها . ومن رفع « مَوَدَّةٌ » ونونها فعلى معنى ما ذكر ، و « بَيْنِكُمْ » بالنصب ظرفا . ومن نصب « مَوَدَّةٌ » ولم ينونها جعلها مفعولة بوقوع الاتخاذ عليها وجعل « إِنَّمَا » حرفا واحدا ولم يجعلها بمعنى الذى . ويجوز نصب المودة على أنه مفعول من أجله كما تقول : جئتك آبتغاء الخير ، وقصدت فلانا مودةً له « بَيْنِكُمْ » بالخفض . ومن نون « مَوَدَّةٌ » ونصبها فعلى ما ذكر « بَيْنِكُمْ » بالنصب من غير إضافة ، قال آبن الأنبارى : ومن قرأ : « مَوَدَّةٌ بَيْنِكُمْ »

و « مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ » لم يقف على الأوثان ، ووقف على الحياة الدنيا . ومعنى الآية جعلتم الأوثان
 تتحاربون عليها وعلى عبادتها في الحياة الدنيا (ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعَنُ بَعْضُكُمْ
 بَعْضًا) تتبرأ الأوثان من عبادها والرؤساء من السفلة كما قال الله عز وجل : « الْأَخِلَّاءُ
 يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ » (١) . (وَمَا أَكُمُ النَّارُ) هو خطاب لعبدة الأوثان الرؤساء
 منهم والأنباع . وقيل : تدخل فيه الأوثان كقوله تعالى : « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
 حَصَبُ جَهَنَّمَ » (٢)

قوله تعالى : فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ
 الْحَكِيمُ (٣) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ
 وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤)
 قوله تعالى : (فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ) لوط أول من صدق إبراهيم حين رأى النار عليه
 بردا وسلاما . قال ابن إسحق آمن لوط بإبراهيم وكان ابن أخته ، وآمنت به سارة وكانت
 بنت عمه . (وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي) قال النخعي وقناة : الذي قال : « إِنِّي مُهَاجِرٌ
 إِلَى رَبِّي » هو إبراهيم عليه السلام . قال قناة ، هاجر من كوثا وهي قرية من سواد الكوفة
 إلى حران ثم إلى الشام ، ومعه ابن أخيه لوط بن هاران بن تارخ ، وأمراته سارة . قال الكلبي :
 هاجر من أرض حران إلى فلسطين . وهو أول من هاجر من أرض الكفر . قال مقاتل :
 هاجر إبراهيم وهو ابن خمس وسبعين سنة . وقيل : الذي قال : « إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي » لوط
 عليه السلام . ذكر البيهقي عن قناة قال : أول من هاجر إلى الله عز وجل بأهله عثمان
 ابن عفان رضي الله عنه . قال قناة : سمعت النضر بن أنس يقول سمعت أبا حمزة يعني أنس
 ابن مالك يقول : خرج عثمان بن عفان ومعه رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أرض
 الحبشة ، فأبطأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم خبرهم ، فقدمت امرأة من قريش فقالت :
 يا محمد رأيت ختنك ومعه امرأته . قال : « على أي حال رأيتهما » قالت : رأيتيه وقد حمل

أمر أنه على حمار من هذه الدابة^(١) وهو يسوقها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «صحبهما الله إن عثمان لأوّل من هاجر بأدله بعد لوط» قال البيهقي: هذا في الهجرة الأولى، وأما الهجرة الثانية إلى الحبشة فهي فيما زعم الواقدي سنة خمس من مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم. ((إِلَى رَبِّي)) أي إلى رضا ربي وإلى حيث أمرني. ((إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)) تقدم. وتقدم الكلام في الهجرة في «النساء» وغيرها.

قوله تعالى: ((وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ)) أي من الله عليه بالأولاد فوهب له إسحاق ولدًا ويعقوب ولد ولد. وإنما وهب له إسحاق من بعد إسماعيل ويعقوب من إسحاق. ((وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ)) فلم يبعث الله نبيًا بعد إبراهيم إلا من صلبه. ووحد الكتاب؛ لأنه أراد المصدر كالنبوة، والمراد النوراة والإنجيل [والفرقان]، فهو عبارة عن الجمع. فالتوراة أنزلت على موسى من ولد إبراهيم، والإنجيل على عيسى من ولده؛ والفرقان على محمد من ولده صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين. ((وَأَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا)) يعني اجتماع أهل الملل عاياه؛ قاله عكرمة. وروى سفيان عن حميد ابن قيس قال: أمر سعيد بن جبيرة إنسانا أن يسأل عكرمة عن قوله جل ثناؤه: «وَأَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا» فقال عكرمة: أهل الملل كلها تدعيه وتقول هو منا؛ فقال سعيد بن جبيرة: صدق. وقال قتادة: هو مثل قوله: «وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً» أي عاقبة وعملا صالحا وثناء حسنا. وذلك أن أهل كل دين يتولونه. وقيل: «وَأَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا» أن أكثر الأنبياء من ولده. ((وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ)) ليس «فِي الْآخِرَةِ» داخلا في الصلوة وإنما هو تبين. وقد مضى في «البقرة» بيانه. وكل هذا حث على الاقتداء بإبراهيم في الصبر على الدين الحق.

قوله تعالى: وَلَوْ طَأَّ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ آلَ فِرْعَوْنَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا

(١) أي الضعاف التي تدب في المشي ولا تسرع.

(٢) راجع ج ٥ ص ٣٤٩ فابعد.

(٤) راجع ج ٢ ص ١٣٣.

(٣) راجع ج ١٠ ص ١٩٨.

أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرًا تُرَاكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وضاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُونَ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ مُنْجِيهِمْ وَآهْلَهُ إِلَّا أَمْرًا تُرَاكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٥﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ قال الكسائي : المعنى وأنجينا لوطا أو أرسلنا لوطا . قال : وهذا الوجه أحب إلى . ويجوز أن يكون المعنى واذكر لوطا إذ قال لقومه موبخا أو محذرا ﴿ أَتَيْتُكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ « أَتَيْتُكُمْ » تقدم القراءة في هذا وبيانها في سورة « الأعراف » . وتقدم قصة لوط وقومه في « الأعراف » (٢) و « هود » أيضا . ﴿ وَتَقَطَّعُوا السَّبِيلَ ﴾ قيل : كانوا قطاع الطريق ؛ قاله ابن زيد . وقيل : كانوا يأخذون الناس من الطرق لقضاء الفاحشة ؛ حكاه ابن شجرة . وقيل : إنه قطع النسل بالعدول عن النساء إلى الرجال قاله وهب بن منبه . أى استغنوا بالرجال عن النساء . قلت : وأهل الجميع كان فيهم فكانوا يقطعون الطريق لأخذ الأموال والفاحشة ، ويستغنون عن النساء بذلك . ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيِكُمُ الْمُنْكَرَ ﴾ النادي المجلس واختلف في المنكر الذى كانوا يأتونه فيه ؛ فقالت فرقة : كانوا يخذلون النساء بالخصى ، ويستخذون بالغريب والخابر عليهم . وروته أم هانئ عن النبي صلى الله عليه وسلم . قالت أم هانئ : سألت رسول الله صلى

الله عليه وسلم عن قول الله عز وجل : « وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ » قال : « كانوا يخذفون من يمر بهم ويستخرون منه فذلك المنكر الذي كانوا يأتونه » أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده ، وذكره النحاس والثعلبي والمهدوي والمساوردي . وذكر الثعلبي قال معاوية قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن قوم لوط كانوا يجلسون في مجالسهم وعند كل رجل قصعة فيها الحصى الخذف فإذا مر بهم عابر قذفوه فأبهم أصابه كان أولى به » يعني يذهب به للفاحشة فذلك قوله : « وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ » . وقالت عائشة وآبن عباس والقاسم بن أبي بزة ^(١) والقاسم ابن محمد : إنهم كانوا يتضارطون في مجالسهم . وقال [منصور ^(٢) عن] مجاهد كانوا يأتون الرجال في مجالسهم وبعضهم يرى بعضا . وعن مجاهد : كان من أمرهم لعب الحمام وتطريف الأصابع بالحناء والصفير والخذف ونبذ الحياء في جميع أمورهم . قال آبن عطية : وقد توجد هذه الأمور في بعض عصاة أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فالتناهي واجب . قال مكحول : في هذه الأمة عشرة من أخلاق قوم لوط : مضغ العلك ، وتطريف الأصابع بالحناء ، وحل الإزار ، وتنقيض الأصابع ^(٣) ، والعمامة التي تلف حول الرأس ، والتشابك ، ورمي الجلاهيق ^(٤) ، والصفير والخذف ، واللوطية . وعن آبن عباس قال : إن قوم لوط كانت فيهم ذنوب غير الفاحشة ، منها أنهم يتظالمون فيما بينهم ، ويشتم بعضهم بعضا ، ويتضارطون في مجالسهم ، ويخذفون ويلعبون بالنرد والشطرنج ، ويلبسون المصبغات ، ويتناقرون بالديكة ، ويتناطحون بالكباش ، ويطرقون أصابعهم بالحناء ، وتشبه الرجال بلباس النساء والنساء بلباس الرجال ، ويضربون المكوس على كل عابر ، ومع هذا كله كانوا يشركون بالله وهم أول من ظهر على أيديهم اللوطية والسحاق . فلما وقفهم لوط عليه السلام على هذه القبائح رجعوا إلى التكذيب والجحاح فقالوا : ﴿ أَئِنَّا لَبَعْدَآبِ اللَّهِ ﴾ أي إن ذلك لا يكون ولا يقدر عليه . وهم لم يقولوا هذا إلا وهم مضمعون على اعتقاد كذبه . وليس يصح في الفطرة أن يكون معاند يقول هذا . ثم استنصر

(١) بفتح الموحدة وتشديد الزاي كما في التقريب . (٢) في كل النسخ : مجاهد ومنصور . والتنصيب عن تفسير الطبري وغيره . (٣) تنقيض الأصابع فرقعها . (٤) الجلاهيق كعلايط البندق الذي يرمى به . والخذف بالحناء المعجمة الخذف به .

لوط عليه السلام ربه فبعث عليهم ملائكة لعذابهم، فجاءوا إبراهيم أولاً مبشرين بنصرة لوط على قومه حسبا تقدم بيانه في « هود »^(١) وغيرها، وقرأ الأعمش ويعقوب وحمة والكسائي : ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ بالتخفيف . وشدّد الباقر . وقرأ ابن كثير وأبو بكر وحمة والكسائي : ﴿إِنَّا مُنْجُونَكَ وَأَهْلَكَ﴾ بالتخفيف . وشدّد الباقر . وهما لغتان : أنجى ونجى بمعنى . وقد تقدم . وقرأ ابن عامر : ﴿إِنَّا مُزَلُّونَ﴾ بالتشديد وهى قراءة ابن عباس . الباقر بالتخفيف . وقوله : ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ قال قتادة : هى الحجارة التى أبقيت . وقاله أبو العالية . وقيل : إنه يرمم بها قوم من هذه الأمة . وقال ابن عباس : هى آثار منازلهم الخربة . وقال مجاهد : هو الماء الأسود على وجه الأرض . وكل ذلك باق فلا تعارض .

قوله تعالى : وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْمُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَآخَذْنَاهُمُ الرِّجْفَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثَمِينَ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أى وأرسلنا إلى مدين . وقد تقدم ذكرهم وفسادهم في « الأعراف » و « هود »^(٢) . ﴿وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ وقال يونس النحوى : أى آخشوا الآخرة التى فيها الجزاء على الأعمال . ﴿وَلَا تَعْمُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أى لا تكفروا فإنه أصل كل فساد . والعنؤ والعنّى أشد الفساد . عئى يعنى وعنأ يعنى واحد . وقد تقدم . وقيل : « وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ » أى صدقوا به فإن القوم كانوا ينكرونه .

قوله تعالى : وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَّسْكِنِهِمْ^{٣٨} وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَغْمَلَهُمْ فَبَصَدَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى : ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ﴾ قال الكسائي : قال بعضهم هو راجع إلى أول السورة ؛ أى ولقد فتنا الذين من قبلهم وفتنا عادا وثمود . قال : وأحب إلى أن يكون معطوفا على

(٢) راجع ج ٩ ص ٨٥ و ص ٦٢ فابعد .

(١) راجع ج ٧ ص ٢٤٧ فابعد .

« فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةُ » وأخذت عاداً وثموداً . وزعم الزجاج : أن التقدير وأهلكنا عاداً وثموداً . وقيل : المعنى وأذكر عاداً إذ أرسلنا إليهم هوداً فكذبوه فأهلكناهم ، وثموداً أيضاً أرسلنا إليهم صالحاً فكذبوه فأهلكناهم بالصيحة كما أهلكنا عاداً بالريح العقيم . (وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ) يا معشر الكفار (مِنْ مَسَائِكِهِمْ) بالمجر والأحقاف آياتٌ في إهلاكهم لحذف فاعل التبيين . (وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ) أى أعمالهم الخسيسة فحسبوها رفيعاً . (فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ) أى عن طريق الحق . (وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ) فيه قولان : أحدهما وكانوا مستبصرين في الضلالة قاله مجاهد . والثانى — كانوا مستبصرين قد عرفوا الحق من الباطل بظهور البراهين . وهذا القول أشبه ؛ لأنه إنما يقال فلان مستبصر إذا عرف الشيء على الحقيقة . قال الفراء : كانوا عقلاء ذوى بصائر فلم تنفعهم بصائرهم . وقيل : أتوا ما أتوا وقد تبين لهم أن عاقبتهم العذاب .

قوله تعالى : وَقَرُّونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٢٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : (وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ) قال الكسائى : إن شئت كان محمولا على عاد ، وكان فيه ما فيه ، وإن شئت كان على « فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ » وصد قارون وفرعون وهامان . وقيل : أى وأهلكنا هؤلاء بعد أن جاءتهم الرسل (فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ) عن الحق وعن عبادة الله . (وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ) أى فائزين . وقيل : سابقين فى الكفر بل قد سبقهم للكفر قرون كثيرة فأهلكناهم . (فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ) قال الكسائى : « فَكُلًّا » منصوب بـ « أَخَذْنَا » أى أخذنا كلا بذنبه . (فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا) يعنى قوم لوط . والحاصب ريح يأتى بالحصباء وهى الحصى الصفار . وتستعمل فى كل عذاب

(وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّبْحَةُ) . يعنى ثمودا وأهل مدين . (وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ) .
يعنى قارون (وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا) . قوم نوح وقوم فرعون . (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ) . لأنه
أنذرهم وأمهلهم وبعث إليهم الرسل وأزاح العذر .

قوله تعالى : **مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ**
الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا
يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ **إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ**
الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ **وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ** ﴿٤٣﴾
قوله تعالى : (**مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ**) قال

الأخفش : « كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ » وقف تام ، ثم قص قصتها فقال : (**اتَّخَذَتْ بَيْتًا**)
قال ابن الأنبارى : وهذا غلط ؛ لأن « **اتَّخَذَتْ بَيْتًا** » صلة للعنكبوت ، كأنه قال : « كمثل
التي اتَّخَذَتْ بَيْتًا » ، فلا يحسن الوقف على الصلة دون الموصول ، وهو بمنزلة قوله : « كمثل
الحمار يحمل أسفارا^(١) » فيحمل صلة للحمار ولا يحسن الوقف على الحمار دون يحمل . قال الفراء :
هو مثل ضربه الله سبحانه لمن اتخذ من دونه آلهة لا تنفعه ولا تضره ؛ كما أن بيت العنكبوت
لا يقيها حرا ولا بردا . ولا يحسن الوقف على العنكبوت ؛ لأنه لما قصد بالتشبيه لبيتها الذى
لا يقيها من شيء ، فشبهت الآلهة التي لا تنفع ولا تضره . (**وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ**)
أى أضعف البيوت (**لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ**) . قال الضحاك : ضرب مثلا لضعف آلهتهم
ووهنها فشبهها ببيت العنكبوت . (**لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**) « لو » متعلقة ببيت العنكبوت .
أى لو علموا أن عبادة الأوثان كاتخاذ بيت العنكبوت التي لا تنفع عنهم شيئا ، وأن هذا مثاهم
لما عبدوها ؛ لا أنهم يعلمون أن بيت العنكبوت ضعيف . وقال النحاة : إن تاء العنكبوت
في آخرها مزيدة ؛ لأنها تسقط في التصغير والجمع وهى مؤنثة . وحكى الفراء تذكيرها وأنشد :

على هطالهم منهم بيوت * كأن العنكبوت قد ابتناها

ويروى : * على أهطالهم منهم بيوت * .

قال الجوهري والهطال : أسم جبل . والعنكبوت الدويبة المعروفة التي تنسج نسجا رقيقا مهلهلا بين الهواء . ويجمع عناكب وعناكب وعنكب وأعكب . وقد حكى أنه يقال عنكب وعكبة^(١) قال الشاعر :

كأنما يسقط من لغامها * بيت عكبة على زمامها

وتصغر فيقال عنكب . وقد حكى عن يزيد بن ميسرة أن العنكبوت شيطان مسخها الله تعالى . وقال عطاء الخراساني : نسجت العنكبوت مرتين مرة على داود حين كان جالوت يطلبه ، ومرة على النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ولذلك نهى عن قتلها . ويروى عن علي رضي الله عنه أنه قال : طهروا بيوتكم من نسج العنكبوت فإن تركه في البيوت يورث الفقر ، ومنع الخمر يورث الفقر .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ « ما » بمعنى الذي ، و « مِنْ » للتبعض ، ولو كانت زائدة للتوكيد لأنقلب المعنى ؛ والمعنى : إن الله يعلم ضعف ما يعبدون من دونه . وقرأ عاصم وأبو عمرو ويعقوب : « يَدْعُونَ » بالياء وهو اختيار أبي عبيد ؛ لذكر الأئم قبلها . الباقيون بالتاء على الخطاب .

قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا ﴾ أى هذا المثل وغيره مما ذكر في « البقرة » و « الحج » وغيرهما ﴿ نَضْرِبُهَا ﴾ نبيها ﴿ لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا ﴾ أى يفهمها ﴿ إِلَّا الْعَالَمُونَ ﴾ أى العالمون بالله ؛ كما روى جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « العالم من عقل عن الله بعمل بطاعته وأجتنب بخطه » .

قوله تعالى : خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ

لَايَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ أى بالعدل والقسط . وقيل : بكلامه وقدرته وذلك هو الحق . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً ﴾ أى علامة ودلالة ﴿ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ المصدقين .

(٢) راجع ج ١ ص ٢٤١ .

(١) ويقال أيضا : عنكة بتقديم النون على تكاف

(٣) راجع ج ١٢ ص ٩٦ .

قوله تعالى : **أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ**
إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ **أَتْلُ** ﴾ (١) أمر من التلاوة والدُّعُوب عليها . وقد مضى في « طه »
 الوعيد فيمن أعرض عنها ، وفي مقدمة الكتاب الأمر بالحض عليها . والكتاب يراد به القرآن .
 الثانية — قوله تعالى : ﴿ **وَأَقِمِ الصَّلَاةَ** ﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وأُمَّته
 وإقامة الصلاة أداؤها في أوقاتها بقراءتها وركوعها وسجودها وقعودها وتشهدها وجميع
 شروطها . وقد تقدّم بيان ذلك في « البقرة » (٢) فلا معنى للإعادة .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ** ﴾ يريد إن الصلاة
 الخمس هي التي تكفر ما بينها من الذنوب ؛ كما قال عليه السلام : « أرأيتم لو أن نهرا بباب
 أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء » قالوا : لا يبقى من درنه
 شيء ؛ قال : « فذلك مثل الصلوات الخمس يدنو الله بهن الخطايا » أخرجه الترمذي من
 حديث أبي هريرة ، وقال فيه حديث حسن صحيح . وقال ابن عمر : الصلاة هنا القرآن .
 والمعنى : الذي يتلى في الصلاة ينهى عن الفحشاء والمنكر ، وعن الزنى والمعاصي .

قلت : ومنه الحديث الصحيح : « قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين » يريد قراءة
 الفاتحة . وقال حماد بن أبي سليمان وأبن جريج والكلبي : العبد ما دام في صلاته لا يأتي فحشاء
 ولا منكر ؛ أي إن الصلاة تنهى ما دمت فيها . قال ابن عطية : وهذه عجمة وأين هذا مما رواه
 أنس بن مالك قال : كان فتى من الأنصار يصل مع النبي صلى الله عليه وسلم ولا يدع شيئا
 من الفواحش والسرقة إلا ركبه ، فذكر للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : « إن الصلاة ستتهاد »

(٢) راجع ج ١ ص ١٦٢ فابعد .

(١) راجع ج ١١ ص ٢٥٨ فابعد .

فلم يلبث أن تاب وصاغت حاله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” ألم أقل لكم “ .
وفي الآية تأويل ثالث ، وهو الذى آرتضاه المحققون وقال به المشيخة الصوفية وذكره المفسرون ؛
فقليل المراد بـ « أَقِيم الصَّلَاة » إدامتها والقيام بمحدودها ، ثم أخبر حكما منه بأن الصلاة تنهى
صاحبها وممتثلها عن الفحشاء والمنكر ؛ وذلك لما فيها من تلاوة القرآن المشتمل على الموعظة .
والصلاة تشغل كل بدن المصلى ، فإذا دخل المصلى فى محرابه وخشع وأخبت لربه وأدكر أنه
واقف بين يديه ، وأنه مطلع عليه ويراه ، صاغت لذلك نفسه وتذلت ، وخاصرها آرتقاب
الله تعالى ، وظهرت على جوارحه هيبتها ، ولم يكدر يفتقر من ذلك حتى تظله صلاة أخرى يرجع
بها إلى أفضل حالة . فهذا معنى هذه الأخبار ؛ لأن صلاة المؤمن هكذا يذبح أن تكون .

قلت : لا سيما وإن أشعر نفسه أن هذا ربما يكون آخر عمله ، وهذا أبلغ فى المقصود
وأتم فى المراد ؛ فإن الموت ليس له سنّ محدود ، ولا زمن مخصوص ، ولا مرض معلوم ،
وهذا مما لا خلاف فيه . وروى عن بعض السلف أنه كان إذا قام إلى الصلاة آرتعد وأصفر
لونته ، فكلم فى ذلك فقال : إني واقف بين يدي الله تعالى ، وحق لي هذا مع ملوك الدنيا
فكيف مع ملك الملوك . فهذه صلاة تنهى ولا بد عن الفحشاء والمنكر ، ومن كانت صلاته
دائرة حول الإجزاء ، لا خشوع فيها ولا تذكر ولا فضائل ، كصلاتنا — وليتها تجزى — فتلك
ترك صاحبها من ميزانه حيث كان ، فإن كان على طريقة معاص تبعده من الله تعالى تركته
الصلاة يتمادى على بعده . وعلى هذا يخرج الحديث المروى عن ابن مسعود وابن عباس
والحسن والأعمش قولهم : ” من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم تزده من الله إلا بعدا “
وقد روى أن الحسن أرسله عن النبي صلى الله عليه وسلم وذلك غير صحيح السند . قال
ابن عطية سمعت أبا رضى الله عنه يقول : فإذا قررنا ونظر معناه فغير جائز أن يقول إن
نفس صلاة العاصي تبعده من الله حتى كأنها معصية ، وإنما يخرج ذلك على أنها لا تؤثر
فى تربيته من الله ، بل تتركه على حاله ومعاصيه ، من الفحشاء والمنكر والبعد ، فلم تزده
الصلاة إلا تقرير ذلك البعد الذى كان سبيله ؛ فكأنها بعدته حين لم تكف بعده عن الله .
وقيل لابن مسعود : إن فلانا كثير الصلاة . فقال : إنما لا تنفع إلا من أطاعها .

قلت : وعلى الجملة فالمعنى المقصود بالحديث : " لم تزده من الله إلا إمدا ولم يزد بها من الله إلا مقنا " إشارة إلى أن مرتكب الفحشاء والمنكر لا قدر لصلاته ؛ لغلبة المعاصي على صاحبها . وقيل : هو خبر بمعنى الأمر . أى لينته المصلى عن الفحشاء والمنكر . والصلوة بنفسها لا تنهى ، ولكنها سبب الانتهاء . وهو كقوله تعالى : « هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ^(١) » وقوله : « أَمْ أَرْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُمْ يَنْتَكِبُونَ ^(٢) بِمَا كَانُوا بِهِ يَسْرِكونَ » .

الرابعة - قوله تعالى : (وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ) أى ذكر الله لكم بالثواب والثناء عليكم أكبر من ذكركم له فى عبادتكم وصلواتكم . قال معناه ابن مسعود وابن عباس وأبو الدرداء وأبو قزعة وسلمان والحسن ؛ وهو اختيار الطبرى . وروى مرفوعا من حديث موسى بن عقبة عن نافع عن بن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى قول الله عز وجل : « وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ » قال : " ذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه " . وقيل : ذكركم الله فى صلواتكم وفى قراءة القرآن أفضل من كل شئ . وقيل : المعنى ؛ إن ذكر الله أكبر مع المداومة من الصلاة فى النهى عن الفحشاء والمنكر . وقال الضحاك : ولذكر الله عند ما يحرم فيترك أجل الذكر . وقيل : المعنى ولذكر الله للنهى عن الفحشاء والمنكر أكبر أى كبير ، وأكبر يكون بمعنى كبير . وقال ابن زيد وقتادة : ولذكر الله أكبر من كل شئ أى أفضل من العبادات كلها بغير ذكر . وقيل : ذكر الله يمنع من المعصية فإن من كان ذاكرا له لا يخالفه . قال ابن عطية : وعندى أن المعنى ولذكر الله أكبر على الإطلاق ، أى هو الذى ينهى عن الفحشاء والمنكر ، فالجزء الذى منه فى الصلاة يفعل ذلك ، وكذلك يفعل فى غير الصلاة ؛ لأن الانتهاء لا يكون إلا من ذاكر الله مراقب له . وثواب ذلك أن يذكره الله تعالى ؛ كما فى الحديث " من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ومن ذكرنى فى ما لا ذكرته فى ما لا خير منهم " والحركات التى فى الصلاة لا تأثير لها فى نهى ، والذكر النافع هو مع العلم وإقبال القلب وتفترغه إلا من الله . وأما ما لا يتجاوز اللسان فى رتبة أخرى . وذكر الله تعالى للعبد هو إفاضة الهدى ونور العلم عليه ، وذلك ثمرة لذكر العبد ربه . قال الله عز وجل : « فَأَذْكُرُونِي أَنْ ذَكَّرَكُمُ ^(٣) » . وباقى الآية ضرب من الوعيد والحث على المراقبة .

(١) راجع ج ١٦ ص ١٧٥ . (٢) راجع ج ١٤ ص ٣٣ . (٣) راجع ج ٢ ص ١٧١ .

قوله تعالى : وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ
إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ
وَاللَّهُنَّ وَالنَّهْكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَلِكَ أُنْزِلْنَا إِلَيْكَ
الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ
يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾
فيه مسألتان :

الأولى — آخلف العلماء في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ فقال مجاهد :
هي محكمة فيجوز مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن على معنى الدعاء لهم إلى الله عز وجل ،
والتنبيه على حججه وآياته ؛ رجاء إجابتهم إلى الإيمان ، لا على طريق الإغلاظ والمخاشنة .
وقوله على هذا : « إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ » معناه ظلموكم ، وإلا فكلهم ظلمة على الإطلاق .
وقيل : المعنى لا تجادلوا من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب المؤمنين كعبد الله
أبن سلام ومن آمن معه . ﴿ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ أى بالموافقة فيما حدثوكم به من أخبار
أوائهم وغير ذلك . وقوله على هذا التأويل : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ يريد به من بقى على كفره
منهم ، كن كفر وغدر من قريظة والنضير وغيرهم . والآية على هذا أيضا محكمة . وقيل :
هذه الآية منسوخة بآية القتال . قوله تعالى : « قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ » ^(١) . قاله قتادة
« إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا » أى جعلوا لله ولدا ، وقالوا : « يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ » ^(٢) و « إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ » ^(٣) فهؤلاء
المشركون [الذين نصبوا الحرب ولم يؤدوا] ^(٤) الجزية فانتصروا [منهم] . قال النحاس وغيره :
من قال هي منسوخة أحتج بأن الآية مكية ، ولم يكن في ذلك الوقت قتال مفروض ، ولا
طلب جزية ، ولا غير ذلك . وقول مجاهد حسن ؛ لأن أحكام الله عز وجل لا يقال فيها
إنها منسوخة إلا بنجر يقطع العذر ، أو حجة من معقول . وأختار هذا القول ابن العربي .

(١) راجع ج ٨ ص ١٠٨ . (٢) راجع ج ٦ ص ٢٢٧ فابعد . (٣) راجع ج ٤ ص ٢٩٤ .

(٤) عبارة الأصول هنا : « فهؤلاء المشركون في سقوط الجزية ... الخ » والتصويب مستفاد من كتب التفسير .

قال مجاهد وسعيد بن جبير : وقوله : « إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ » معناه إلا الذين نصبوا للمؤمنين الحرب بخداهم بالسيف حتى يؤمنوا ، أو يعطوا الجزية .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ ﴾ روى البخاري عن أبي هريرة : قال كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية ، لأهل الإسلام ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم » « وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ » . وروى عبيد الله بن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا إما أن تكذبوا بحق وإما أن تصدقوا بباطل »^(١) . وفي البخاري : عن حميد بن عبد الرحمن سمع معاوية يحدث رهطاً من قريش بالمدينة ، وذكر كعب الأحمق فقال : إن كان من أصدق هؤلاء المحذنين الذين يحدثون عن أهل الكتاب ، وإن كان مع ذلك آتبلو عليه الكذب .

قوله تعالى : وَمَا كُنْتُمْ تُتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكُمْ

إِذَا لَأَرْتَابَ الْمُضِلُّونَ ﴿٤٨﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تُتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ ﴾ الضمير في « قَبْلِهِ » عائد إلى الكتاب وهو القرآن المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ؛ أي وما كنت يا محمد تقرأ قبله ، ولا تختلف إلى أهل الكتاب ، بل أنزلناه إليك في غاية الإعجاز والتضمين للغيوب وغير ذلك ، فلو كنت ممن يقرأ كتاباً ، ويخط حروفاً ﴿ لَأَرْتَابَ الْمُضِلُّونَ ﴾ أي من أهل الكتاب ، وكان لهم في آرتابهم متعلق ، وقالوا الذي نجد في كتبنا أنه أمي لا يكتب ولا يقرأ وليس به . قال مجاهد : كان أهل الكتاب يجدون في كتبهم أن محمد صلى الله عليه وسلم لا يخط ولا يقرأ ، فنزلت هذه الآية ، قال النحاس : دليلاً على نبوته لقريش ؛ لأنه لا يقرأ ولا يكتب ولا يخالط أهل الكتاب ولم يكن بمكة أهل الكتاب فخاءهم بأخبار الأنبياء والأمم ، وزالت الريبة والشك .

(١) في ش : إما أن تكذبوا الحق وإما أن تصدقوا الباطل .

الثانية — ذكر النقاش في تفسير هذه الآية عن الشعبي انه قال : ما مات النبي صلى الله عليه وسلم حتى كتب . وأسند أيضا حديث أبي كَبْشَةَ السُّلُولِي ؛ مضمونه : أنه صلى الله عليه وسلم قرأ صحيفة لُعَيْنَةَ بنِ حِصْن ، وأخبر بمعناها . قال ابن عطية : وهذا كله ضعيف ، وقول الباجي رحمه الله منه .

قلت : وقع في صحيح مسلم من حديث البراء في صلح الحديبية أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلي : " أكتب الشرط بيننا بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما قاضى عليه عهد رسول الله " فقال له المشركون : لو نعلم أنك رسول الله تابعناك — وفي رواية ^(١) بايعناك — ولكن أكتب عهد بن عبد الله فأمر علياً أن يحوها ، فقال علي : والله لا أحماه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أرني مكانها " فأراه فحأها وكتب ابن عبد الله . قال علماءنا رضى الله عنهم : وظاهر هذا أنه عليه السلام محأ تلك الكلمة التي هي رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بيده ، وكتب مكانها ابن عبد الله . وقد رواه البخارى بأظهر من هذا . فقال : فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتاب فكتب . وزاد في طريق أخرى : ولا يحسن أن يكتب . فقال جماعة ، بجواز هذا الظاهر عليه وأنه كتب بيده ، منهم السمناني وأبو ذرّ والباجي ، ورأوا أن ذلك غير قادح في كونه أمياً ، ولا معارض بقوله : « وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُ بِيَمِينِكَ » ولا بقوله : " إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب " بل رأوه زيادة في معجزاته ، وأستظهاراً على صدقه وصحة رسالته ، وذلك أنه كتب من غير تعلم للكتابة ، ولا تعاطٍ لأسبابها ، وإنما أجرى الله تعالى على يده وقلمه حركات كانت عنها خطوط مفهوماً ابن عبد الله لمن قرأها ، فكان ذلك خارقاً للمادة ؛ كما أنه عليه السلام علم الأولين والآخرين من غير تعلم ولا اكتساب ، فكان ذلك أبلغ في معجزاته ، وأعظم في فضائله . ولا يزول عنه اسم الأئمة بذلك ؛ ولذلك قال الراوى عنه في هذه الحالة : ولا يحسن أن يكتب . فبقى عليه اسم الأئمة مع كونه قال كتب . قال شيخنا أبو العباس أحمد بن عمر : وقد أنكر هذا كثير من

(١) محأ الشيء ، يحوه ويحماه ويحياه أذهب أثره .

(٢) السمناني هو أبو عمرو الفلستيني . وأبو ذر هو عبد الله بن أحمد الحروري ، والباجي هو أبو الوليد .

متفقهة الأندلس وغيرهم ، وشددوا النكير فيه ، ونسبوا قائله إلى الكفر ، وذلك دليل على عدم العلوم النظرية ، وعدم التوقف في تكفير المسلمين ، ولم يتفطنوا ؛ لأن تكفير المسلم كقتله على ما جاء عنه عليه السلام في الصحيح ، لا سيما رمي من شهد له أهل العصر بالعلم والفضل والإمامة ؛ على أن المسألة ليست قطعية ، بل مستندها ظواهر أخبار أحادي صحيحة ، غير أن العقل لا يجعلها . وليس في الشريعة قاطع يحيل وقوعها .

قلت : وقال بعض المتأخرين من قال هي آية خارقة ، فيقال له : كانت تكون آية لا تنكر لولا أنها مناقضة لآية أخرى وهي كونه أميا لا يكتب ؛ وبكونه أميا في أمة أمية قامت الحجّة ، وألغى الجاحدون ، وأنحسمت الشبهة ، فكيف يطلق الله تعالى يده فيكتب وتكون آية . وإنما الآية ألا يكتب ، والمعجزات يستحيل أن يدفع بعضها بعضها . وإنما معنى كتب وأخذ القلم ؛ أي أمر من يكتب به من كُتِّبَ ، وكان من كتبة الوحي بين يديه صلى الله عليه وسلم ستة وعشرون كاتباً .

الثالثة — ذكر القاضي عياض عن معاوية أنه كان يكتب بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : ” ألقى الدواة وحرف القلم وأقم الباء وفتق السين ولا تُعور الميم وحسن الله ومد الرحمن وجود الرحيم ” قال القاضي : وهذا وإن لم تصح الرواية أنه صلى الله عليه وسلم كتب فلا يبعد أن يرزق علم هذا ، ويُمنع القراءة والكتابة .

قلت : هذا هو الصحيح في الباب أنه ما كتب ولا حرفا واحدا ، وإنما أمر من يكتب وكذلك ما قرأ ولا تهجى . فإن قيل : فقد تهجى النبي صلى الله عليه وسلم حين ذكر الدجال فقال : ” مكتوب بين عينيه لك أ ف ر ” وقلتم إن المعجزة قائمة في كونه أميا ؛ قال الله تعالى : « وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ » الآية وقال : ” إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب ” فكيف هذا ؟ فالجواب مانصّ عليه صلى الله عليه وسلم في حديث حذيفة ، والحديث كالقرآن يفسر بعضه بعضا . ففي حديث حذيفة ” يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب ” فقد نصّ في ذلك على غير الكتاب ممن يكون أميا . وهذا من أوضح ما يكون جليا .

قوله تعالى : بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ
وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : (بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ) يعنى القرآن . قال الحسن : وزعم الفراء في قراءة عبد الله « بَلْ هِيَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ » المعنى بل آيات القرآن آيات بينات . قال الحسن : ومثله « هَذَا بَصَائِرُ » ولو كانت هذه لحاز ، نظيره : « هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي » قال الحسن : أعطيت هذه الأمة الحفظ ، وكان من قبلها لا يقرءون كتابهم إلا نظرا ، فإذا أطبقوه لم يحفظوا ما فيه إلا النبيون . فقال كعب في صفة هذه الأمة : إنهم حكماء علماء وهم في الفقه أنبياء . (فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ) أى ليس هذا القرآن كما يقوله المبطلون من أنه سحر أو شعر ، ولكنه علامات ودلائل يعرف بها دين الله وأحكامه . وهى كذلك في صدور الذين أوتوا العلم ، وهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم والمؤمنون به ، يحفظونه و يقرءونه . ووصفهم بالعلم ؛ لأنهم ميزوا بأفهامهم بين كلام الله وكلام البشر والشياطين . وقال قتادة وابن عباس : « بَلْ هُوَ » يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم « آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ » من أهل الكتاب يحدونه مكتوبا عندهم في كتبهم بهذه الصفة أميا لا يقرأ ، ولا يكتب ، ولكنهم ظلموا أنفسهم وكتبوا . وهذا اختيار الطبرى . ودليل هذا القول قراءة ابن مسعود وابن السميع : « بَلْ هَذَا آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ » وكان عليه السلام آيات لا آية واحدة ؛ لأنه دل على أشياء كثيرة من أمر الدين ؛ فلهذا قال : « بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ » . وقيل : بل هو ذو آيات بينات ، لحذف المضاف . (وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ) أى الكفار ؛ لأنهم جحدوا نبوته وما جاء به .

قوله تعالى : وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ هذا قول المشركين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعناه هلا أنزل عليه آية كآيات الأنبياء . قيل : كما جاء صالح بالناقة ، وموسى بالعصا ، وعيسى بإحياء الموتى ؛ أى ﴿ قُلْ ﴾ لم يا محمد : ﴿ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ فهو يأتى بها كما يريد ، إذا شاء أرسلها وليست عندي ﴿ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ . وقرأ ابن كثير وأبو بكر وحمة والكسائي : « آيَةٌ » بالتوحيد . وجمع الباقر . وهو اختيار أبي عبيد ؛ لقوله تعالى : « قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ » .

قوله تعالى : ﴿ أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ هذا جواب لقولهم « لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ » أى أو لم يكف المشركين من الآيات هذا الكتاب المعجز الذى قد تحديتهم بأن يأتوا بمثله ، أو بسورة منه فمعجزوا ، ولو أتيتهم بآيات موسى وعيسى لقالوا : سحر ونحن لا نعرف السحر ؛ والكلام مقدور لهم ، ومع ذلك عجزوا عن المعارضة . وقيل : إن سبب نزول هذه الآيات ما رواه ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة قال : أتى النبي صلى الله عليه وسلم بكتف فيه كتاب فقال " كفى بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إلى ما جاء به نبي غير نبيهم أو كتاب غير كتابهم " فأُنزل الله تعالى : « أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ » أخرجه أبو محمد الدارمي في مسنده . وذكره أهل التفسير في كتبهم . وفى مثل هذا قال صلى الله عليه وسلم لعمر رضى الله عنه : " لو كان موسى بن عمران حيا لما وسعه إلا اتباعي " وفى مثله قال صلى الله عليه وسلم " ليس منا من لم يتغن بالقرآن " أى يستغنى به عن غيره . وهذا تأويل البخارى رحمه الله فى الآية . وإذا كان لقاء ربه بكل حرف عشر حسنات فأكثر على ما ذكرناه فى مقدمة الكتاب فالرغبة عنه إلى غيره ضلال وخسران وغبن ونقصان . ﴿ إِنِّ فِي ذَلِكَ ﴾ أى فى القرآن ﴿ لَرَحْمَةٌ ﴾ فى الدنيا والآخرة . وقيل : رحمة فى الدنيا باستفادهم من الضلالة . ﴿ وَذِكْرَى ﴾ فى الدنيا بإرشادهم به إلى الحق ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ . قوله تعالى : ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ﴾ أى قل للكاذبين لك كفى بالله شهيدا يشهد لى بالصدق فيما أدعيه من أنى رسوله ، وأن هذا القرآن كتابه . ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى لا يخفى عليه شئ . وهذا احتجاج عليهم فى صحة شهادته عليهم ؛ لأنهم قد

أقروا بعلمه فلزمهم أن يفتروا بشهادته . (وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ) قال يحيى بن سلام :
بإبليس . وقيل : بعبادة الأوثان والأصنام ؛ قاله ابن شجرة . (وَكَفَرُوا بِاللَّهِ) أى لتكذيبهم
برسوله ، ومحمدهم لكتابه . وقيل : بما أشركوا به من الأوثان ، وأضافوا إليه من الأولاد
والأضداد . (أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) أنفسهم وأعمالهم في الآخرة .

قوله تعالى : وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ
الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ
وَلَإِنْ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ
وَمِنْ تَحْتِ أَرْجَائِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ) لما أُنذَرهم بالعذاب قالوا لفرط الإنكار :
عَجِّلْ لَنَا هَذَا الْعَذَابَ . وقيل : إن فائل ذلك النضر بن الحرث وأبو جهل حين قالوا :
« اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ » وقولهم : « رَبَّنَا عَجِّلْ
لَنَا قِطْعَانًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ » وقوله : (وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى) في نزول العذاب . قال ابن
عباس : يعنى هو ما وعدتك ألا أعذب قومك وأؤخرهم إلى يوم القيامة . بيانه : « بَلِ السَّاعَةُ
مُوَعَّدُهُمْ » . وقال الضحاك : هو مدة أعمارهم في الدنيا . وقيل : المراد بالأجل المسمى
النفخة الأولى ؛ قاله يحيى بن سلام . وقيل : الوقت الذى قدره الله لهلاكهم وعذابهم ؛
قاله ابن شجرة . وقيل : هو القتل يوم بدر . وعلى الجملة فالكل عذاب أجل لا يتقدم ولا يتأخر .
دليله قوله : « لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ » . (لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ) يعنى الذى استعجلوه . (وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ
بَغْتَةً) أى بخفة . (وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) أى لا يعلمون بنزوله عليهم . (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ)
أى يستعجلونك وقد أعد لهم جهنم وأنها ستحيط بهم لا محالة ، فما معنى الاستعجال . وقيل : نزلت
في عبد الله بن أبى أمية وأصحابه من المشركين حين قالوا « أَوْ تُسْفِطِ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتِ
عَلَيْنَا كِسْفًا » .

(١) راجع ج ٧ ص ٣٩٨ . (٢) راجع ج ١٥ ص ١٥٥ فابعد . (٣) راجع ج ١٧
ص ١٤٥ فابعد . (٤) راجع ج ٧ ص ١١ . (٥) راجع ج ١٠ ص ٣٢٧ فابعد .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَنْشَأُهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ قيل : هو متصل بما هو قبله ؛ أى يوم يصيبهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، فإذا غشيهم العذاب أحاطت بهم جهنم . وإنما قال : ﴿ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ للقاربة وإلا فالغشيان من فوق أعم ؛ كما قال الشاعر :
 * عَلَّقْتُهَا تَبَنَّا وَمَاءً بَارِدًا *^(١)

وقال آخر :

لقد كان قواد الجياد إلى العدا * عليهن غاب من قنّى ودروع
 ﴿ وَيَقُولُ ذُوقُوا ﴾ قرأ أهل المدينة والكوفة : « نَقُولُ » بالنون . الباقلون بالياء . وأختره أبو عبيد ؛ لقوله : « قُلْ كَفَى بِاللَّهِ » ويحتمل أن يكون الملك الموكل بهم يقول : « ذُوقُوا » والقراءتان ترجع إلى معنى . أى يقول الملك بإمرنا ذوقوا .

قوله تعالى : يٰٓعِبَادِىَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنِّ اَرْضِىْ وَاسِعَةٌ فَلِيَّيْ فَاَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ اِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْاَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ اَجْرِ الْعَمِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَآيِنٌ مِّنْ دَآبَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللّٰهُ يَرْزُقُهَا وَاِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿ يٰٓعِبَادِىَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ اَرْضِىْ وَاسِعَةٌ ﴾ هذه الآية نزلت في تحريض المؤمنين الذين كانوا بمكة على الهجرة — في قول مقاتل والكلبي — فأخبرهم الله تعالى بسعة أرضه ، وأن البقاء في بقعة على أذى الكفار ليس بصواب . بل الصواب أن يتلمس عبادة الله في أرضه مع صالحى عباده ؛ أى إن كنتم في ضيق من إظهار الإيمان بها فهاجروا إلى المدينة فإنها واسعة ؛ لإظهار التوحيد بها . وقال ابن جبير وعطاء : إن الأرض التي فيها الظلم

(١) تمام البيت :

* حتى شنت هالة منهاها *

والمنكر ترتب فيها هذه الآية ، وتلزم الهجرة عنها إلى بلد حق . وقاله مالك . وقال مجاهد : « إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ » فهاجروا وجاهدوا . وقال مُطَرِّفُ بْنُ الشَّخِيرِ : المعنى إن رحمتي واسعة . وعنه أيضا : إن رزقي لكم واسع فأبتغوه في الأرض . قال سفيان الثوري : إذا كنت بأرض غالية فانتقل إلى غيرها تملأ فيها جرابك خبزا بدرهم . وقيل : المعنى : إن أَرْضِي التي هي أرض الجنة واسعة . ﴿ فَأَعْبُدُونِ ﴾ حتى أورتكوها . « فَلْيَايَ فَأَعْبُدُونِ » « إِيَّايَ » منصوب بفعل مضمر ، أي فاعبدوا إياي فأعبدون ، فاستغنى بأحد الفعلين عن الثاني ، والفاء في قوله : « فَلْيَايَ » بمعنى الشرط ؛ أي إن ضاق بكم موضع فلْيَايَ فأعبدوني [في غيره] ؛ لأن أَرْضِي واسعة .

قوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ تقدم في « آل عمران » . وإنما ذكره هاهنا تحقيرا لأمر الدنيا ومخاوفها . كأن بعض المؤمنين نظروا في عاقبة تلحقه في خروجه من وطنه من مكة أنه يموت أو يجوع أو نحو هذا ، ففقر الله شأن الدنيا . أي أنتم لا محالة ميتون ومحشورون إلينا ، فالإمداد إلى طاعة الله والهجرة إليه وإلى ما يمثل . ثم وعد المؤمنين العاملين بسكنى الجنة تحريضا منه تعالى ؛ وذكر الجزاء الذي ينالونه ، ثم نعتهم بقوله : ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ وقرأ أبو عمر ويعقوب والبخاري وابن أبي إسحق وابن محيصن والأعمش وحمزة والكسائي وخلف : « يَا عِبَادِي » بإسكان الياء . وفتحها الباقون . « إِنَّ أَرْضِي » فتحها ابن عامر . وسكنها الباقون . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من فز بدينه من أرض إلى أرض ولو قيد شبرا أستوجب الجنة وكان رفيق محمدا وإبراهيم عليهما السلام . » ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ . وقرأ السلمي وأبو بكر عن عاصم : « يُرْجَعُونَ » بالياء ؛ لقوله : « كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ » وقرأ الباقون بالتاء ؛ لقوله : « يَا عِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا » وأنشد بعضهم :

الموت في كل حين ينشد الكفنا * ونحن في غفلة عما يراد بنا

لا تركن إلى الدنيا وزهرتها * وإن توشحت من أثوابها الحسنات

(١) زيادة يقتضيا السياق .

(٢) راجع ج ٤ ص ٢٩٧ فابعد .

أَيْنَ الْأَحْبَةِ وَالْجِرَانُ مَا فَعَلُوا * أَيْنَ الَّذِينَ هُمُ كَانُوا لَهَا سَكَنًا
 سَقَاهُمُ الْمَوْتُ كَأَسَا غَيْرَ صَافِيَةٍ * صِيرَهُمْ تَحْتَ أَطْبَاقِ الثَّرَى رُهْنًا
 قوله تعالى : (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا) وقرأ
 ابن مسعود والأعمش ويحيى بن وثاب وحمة والكسائي : « لَنُثَوِّبَنَّهُمْ » بالثاء مكان الباء من الثوى
 وهو الإقامة ؛ أى لنعطينهم غرفاً يشون فيها . وقرأ رويس عن يعقوب والبخاري والسلمي :
 « لَيَبَوِّئَنَّهُمْ » بالياء مكان النون . الباقيون (لَنُبَوِّئَنَّهُمْ) أى لنزلهم « غُرَفًا » جمع غرفة
 رهى العليّة المشرفة . وفى صحيح مسلم عن سهل بن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
 قال : « إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر
 من الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم » قالوا : يا رسول الله تلك منازل الأنبياء
 لا يبلغها غيرهم . قال « بلى والذى نفسى بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين » وخرج
 الترمذى عن علي بن رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن فى الجنة لغرفاً
 يرى ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها » فقال إليه أعرابى فقال : لمن هى يا رسول الله ؟
 قال : « هى لمن أطاب الكلام وأطعم الطعام وأدام الصيام وصلى الله بالليل والناس نيام »
 وقد زدنا هذا المعنى بياناً فى كتاب « التذكرة » والحمد لله .

قوله تعالى : (وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ) أسند الواحدى عن
 يزيد بن هرون ، قال : حدثنا حجاج بن المنهال عن الزهرى — وهو عبد الرحمن بن عطاء —
 عن عطاء عن ابن عمر قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل بعض حيطان
 الأنصار فجعل يلتقط من الثمر [ويأكل]^(٢) فقال « يا بن عمر مالك لا تأكل » فقلت لا أشتهي
 يا رسول الله فقال « لكنى أشتهي وهذه صبيحة رابعة لم أذق طعاماً ولو شئت لدعوت ربى
 فأعطانى مثل ملك كسرى وقيصر فكيف بك يا بن عمر إذا بقيت فى قوم يخبثون رزق ستنهم
 ويضعف اليقين » قال : والله ما برحنا حتى نزلت : « وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا
 وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » .

(١) هذه رواية أبي سعيد الخدرى ؛ كما فى صحيح مسلم . (٢) الزيادة من كتاب « أسباب النزول » للواحدى .

قلت : وهذا ضعيف يُضعفه أنه عليه السلام كان يدخر لأهله قوت سنتهم ، أتفق البخارى عليه وسلم . وكانت الصحابة يفعلون ذلك وهم القدوة ، وأهل اليقين والأئمة لمن بعدهم من المتقين المتوكلين . وقد روى ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للمؤمنين بمكة حين أذاهم المشركون " أخرجوا إلى المدينة وهاجروا ولا تجاوروا الظلمة " قالوا : ليس لنا بها دار ولا عقار ولا من يطعمنا ولا من يسقينا . فنزلت : « وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ » أى ليس معها رزقها مدخرا ، وكذلك أنتم يرزقكم الله فى دار الهجرة . وهذا أشبه من القول الأول . وتقدم الكلام فى « كَأَيِّنْ » وأن هذه « أئمة » دخلت عليها كاف التشبيه وصار فيها معنى كم . والتقدير عند الخليل وسيبويه كالعدد . أى كشيء كثير من العدد من دابة . قال مجاهد : يعنى الطير والبهائم تأكل بأفواهها ولا تحمل شيئا . الحسن : تأكل لوقتها ولا تدخر لغد . وقيل : « لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا » أى لا تقدر على رزقها « اللَّهُ يَرْزُقُهَا » أينما توجهت « وَإِيَّاكُمْ » . وقيل : الحمل بمعنى الجمالة . وحكى النقاش : أن المراد النبي صلى الله عليه وسلم يأكل ولا يدخر .

قلت : وليس بشيء ، لإطلاق لفظ الدابة ، وليس مستعملا فى العرف إطلاقها على الآدمي فكيف على النبي صلى الله عليه وسلم . وقد مضى هذا فى « النمل » ^(١) عند قوله : « وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ » قال ابن عباس : الدواب هو كل مادب من الحيوان ، فكله لا يحمل رزقه ولا يدخر إلا ابن آدم والنمل والفار . وعن بعضهم رأيت البلبيل يحتكر فى محضنه . ويقال للعقعق نحابى إلا أنه ينساها . (اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ) يسوى بين الحريص والمتوكل فى رزقه ، وبين الراغب والقانع ، وبين الحىول والعاجز حتى لا يغتر الجليل أنه مرزوق بجلده ، ولا يتصور العاجز أنه ممنوع بعجزه . وفى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم « لو أنكم تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَتَّى تَوَكَّلَ لِرِزْقِكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو نَحَاصِصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا » . (وَهُوَ السَّمِيعُ) لدعائكم وقولكم لا نجد ما ننفق بالمدينة (الْعَلِيمُ) بما فى قلوبكم .

قوله تعالى : وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ
الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ
لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۖ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ الآية . لما عير المشركون
المسلمين بالفقر وقالوا لو كنتم على حق لم تكونوا فقراء ، وكان هذا تمويهاً ، وكان في الكفار
فقراء أيضاً أزال الله هذه الشبهة . وكذا قول من قال إن هاجرنا لم نجد ما ننفق . أى فإذا
أعترفتم بأن الله خالق هذه الأشياء ، فكيف تشككون في الرزق ، فمن بيده تكوين الكائنات
لا يعجز عن رزق العبد ؛ ولهذا وصله بقوله تعالى : « اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
وَيَقْدِرُ لَهُ » . ﴿ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ أى كيف يكفرون بتوحيدي وينقلبون عن عبادتي .
﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ أى لا يختلف أمر الرزق بالإيمان والكفر ، فالتوسيع والتقتير
منه فلا تعير بالفقر ، فكل شيء بقضاء وقدر . ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ من أحوالكم
وأموالكم . وقيل : عليم بما يصلحكم من إقتار أو توسيع .

قوله تعالى : وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ
الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ
لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ
الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ أى من السحاب مطراً . ﴿ فَأَحْيَا بِهِ
الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا ﴾ أى جدها وحط أهلها . ﴿ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ ﴾ أى فإذا أقررتم بذلك فلم
تشركون به وتشكرون الإعادة . وإذا قدر على ذلك فهو القادر على إغناء المؤمنين ؛ فكرر تأكيدها .
﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أى على ما أوضح من الحجج والبراهين على قدرته . ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

أى لا يتدبرون هذه المنهج . وقيل : « التَّحَدُّ لِلَّهِ » على إقرارهم بذلك . وقيل : على إزال الماء وإحياء الأرض . (وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ) أى شىء يلهى به ويلعب . أى ليس ما أعطاه الله الأغنياء من الدنيا إلا وهو يضمحل ويزول ؛ كاللعب الذى لاحقيقة له ولا ثبات ، قال بعضهم : الدنيا إن بقيت لك لم تبقى لها . وأنشد :

تروحُ لنا الدنيا بغير الذى قَدَّتْ * وتحدثُ من بعيدِ الأمور أمورُ
وتجرى الليالى باجتماعِ وُفُوقِ * وتطلعُ فيها أنجمٌ وتنفورُ
فمن ظنَّ أن الدهرَ باقٍ سروره * فذاك محالٌ لا يدومُ سرورُ
عفا الله عمن صيرَ لهم واحداً * وأيقن أن الدائراتِ تدورُ

قلت : وهذا كله فى أمور الدنيا من المال والجاه والملبس الزائد على الضرورى الذى به قوام العيش ، والقوة على الطاعات . وأما ما كان منها لله فهو من الآخرة ، وهو الذى يبقى كما قال : « وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ »^(١) أى ما أبتغى به ثوابه ورضاه . (وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ) أى دار الحياة الباقية التى لا تزول ولا موت فيها . وزعم أبو عبيدة : أن الحيوان والحياة والحى بكسر الحاء واحد . كما قال :

* وقد ترى إذ الحياة حى *

وغيره يقول : إن الحى جمع على فعول مثل عصى . والحيوان يقع على كل شىء حى . وحيوان عين فى الجنة . وقيل : أصل حيوان حَيَّان فأبدلت إحداهما واوا ؛ لأجتماع المثليين . (لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) أنها كذلك .

قوله تعالى : فَلِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّيْنَهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾

(١) راجع ج ١٧ ص ١٦٤ فابعد . (٢) البيت للعجاج رحمه الله :

* وإذا زمان الناس دغلي *

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِّ ﴾ يعني السفن وخافوا الغرق ﴿ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ أى صادقين فى نياتهم ، وتركوا عبادة الأصنام ودعاءها . ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ أى يدعون معه غيره ، وما لم ينزل به سلطانا . وقيل : لما شركهم أن يقول قائلهم لولا الله والرئيس أو الملاح لفرقنا ، فيجعلون ما فعل الله لهم من النجاة قسمة بين الله وبين خلقه .

قوله تعالى : ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا ﴾ قيل : هما لام كى أى لى يكفروا ولكى يتمتعوا . وقيل : « إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ » ليكون ثمرة شركهم أن يحدوا نعم الله ويتمتعوا بالدنيا . وقيل : هما لام أمر معناه التهديد والوعيد . أى أكفروا بما أعطيناكم من النعمة والنجاة من البحر وتمتعوا . ودليل هذا قراءة أبى « وَتَمَتَّعُوا » . ابن الأنبارى : ويقوى هذا قراءة الأعمش ونافع وحمة : « وَلَيَتَمَتَّعُوا » بجزم اللام . النحاس : « وَلَيَتَمَتَّعُوا » لام كى ، ويجوز أن تكون لام أمر ؛ لأن أصل لام الأمر الكسر ، إلا أنه أمر فيه معنى التهديد . ومن قرأ : « وَلَيَتَمَتَّعُوا » بإسكان اللام لم يجعلها لام كى ؛ لأن لام كى لا يجوز إسكانها . وهى قراءة ابن كثير والمسئبى وقالون عن نافع ، وحمة والكسائى وحفص عن عاصم . الباقر بكسر اللام . وقرأ أبو العالية : « لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ » تهديد ووعيد .

قوله تعالى : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخَطِّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ ﴿ ٦٧ ﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿ ٦٨ ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا ﴾ قال عبد الرحمن بن زيد : هى مكة وهم قريش أمهم الله تعالى فيها . ﴿ وَيُخَطِّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ قال الضحاك : يقبل بعضهم بعضا ويسبى بعضهم بعضا . والخطف الأخذ بسرعة . وقد مضى فى « القصص »

وغيرها . فاذكرهم الله عز وجل هذه النعمة ليدعنا له بالطاعة . أى جعلت لهم حرما آمنا أمنوا فيه من السبي والغارة والقتل ، وخلصتهم في البركا خلصتهم في البحر ، فصاروا يشركون في البر ولا يشركون في البحر . فهذا تعجب من تناقض أحوالهم . ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ ﴾ قال قتادة : أفبالشرك . وقال يحيى بن سلام : أفباليس . ﴿ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ قال ابن عباس : أفبعافية الله . وقال ابن شجرة : أفبعطاء الله وإحسانه . وقال ابن سلام : أفبما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من الهدى . وحكى النقاش : أفبإطعامهم من جوع ، وأمنهم من خوف يكفرون . وهذا تعجب وإنكار خرج مخرج الاستفهام .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ أى لا أحد أظلم ممن جعل مع الله شريكا وولدا ، وإذا فعل فاحشة قال : « وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا » . ﴿ أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ﴾ قال يحيى بن سلام : بالقرآن . وقال السدى : بالتوحيد . وقال ابن شجرة : بمحمد صلى الله عليه وسلم . وكل قول يتناول القولين . ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ أى مستقر . وهو استفهام تقرير .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا ﴾ أى جاهدوا الكفار فينا . أى في طلب مرضاتنا . وقال السدى وغيره : إن هذه الآية نزلت قبل فرض القتال . قال ابن عطية : فهى قبل الجهاد العرفى ، وإنما هو جهاد عام فى دين الله وطلب مرضاته . قال الحسن بن أبى الحسن : الآية فى العباد . وقال ابن عباس وإبراهيم بن أدهم : هى فى الذين يعملون بما يعلمون . وقد قال صلى الله عليه وسلم : " من عمل بما علم الله ما لم يعلم " ونزع بعض العلماء إلى قوله : « وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ » . وقال عمر بن عبد العزيز : إنما قصر بنا عن علم ما جهلنا تقصيرنا فى العمل بما علمنا ، ولو عملنا ببعض ما علمنا لأورثنا علما لا تقوم به أبداننا ، قال الله تعالى : « وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ » . وقال أبو سليمان الداراني : ليس الجهاد فى الآية

قتال الكفار فقط بل هو نصر الدين، والرد على المبطلين؛ وقمع الظالمين؛ وعُظمه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنه مجاهدة النفوس في طاعة الله وهو الجهاد الأكبر . وقال سفيان بن عيينة لأبن المبارك: إذا رأيت الناس قد اختلفوا فعليك بالمجاهدين وأهل الثغور فإن الله تعالى يقول: «لَنَهْدِيَنَّهُمْ» . وقال الضحاك: معنى الآية؛ والذين جاهدوا في الهجرة لنهدينهم سبل الثبات على الإيمان . ثم قال: مثل السنة في الدنيا كمثل الجنة في العقبى، من دخل الجنة في العقبى سلم، كذلك من لزم السنة في الدنيا سلم . وقال عبد الله بن عباس: والذين جاهدوا في طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا . وهذا يتناول بعموم الطاعة جميع الأقوال . ونحوه قول عبد الله بن الزبير قال: تقول الحكمة من طلبني فلم يجدني فليطلبني في موضعين: أن يعمل بأحسن ما يعلمه، ويحتجب أسوأ ما يعلمه . وقال الحسن بن الفضل: فيه تقديم وتأخير أي الذين هديناهم هم الذين جاهدوا فينا . (لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) أي طريق الجنة؛ قاله السدي . النقاش: يوفقهم لدين الحق . وقال يوسف بن أسباط: المعنى لنخلص نياتهم وصدقاتهم وصلواتهم وصيامهم . (وَإِنْ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) لام تأكيد ودخلت في «مَعَ» على أحد وجهين: أن يكون أسما ولام التوكيد إنما تدخل على الأسماء، أوحرفا فتدخل عليها؛ لأن فيها معنى الاستقرار؛ كما تقول إن زيدا لقي الدار . و«مَعَ» إذا سكنت فهي حرف لا غير . وإذا فتحت جاز أن تكون أسما، وأن تكون حرفا . والأكثر أن تكون حرفا جاء لمعنى . وتقدم معنى الإحسان والمحسنين في «البقرة»^(١) وغيرها . وهو سبحانه معهم بالنصرة والمعونة، والحفظ والهداية، ومع الجميع بالإحاطة والقدرة . فبين المعيتين بون .

(١) راجع ج ٢ ص ٣٦١ .

محققه

أبو إسحاق إبراهيم أطفيش

تمت سورة العنكبوت ، والحمد لله وحده

✦ ✦

تم بعون الله تعالى الجزء الثالث عشر من تفسير القرطبي

يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الرابع عشر وأوله سورة «الروم»

بمؤن الله ورحمئل توفيقه قد تم طبع الجزء الثالث عشر من ” تفسير القرطبي “

بمطبعة دار الكتب في شهر المحرم سنة ١٣٨٤ هـ (مايو سنة ١٩٦٤ م) ما

إحسان عثمان

مدير إدارة المطبعة والنصوير

محمد حمدي جنيدى

رئيس المطبعة

